

أليس فنانوا

مِنْ أَوَّلِ نَخْرَقِ



أنيس منصور

من أول نظرة

(دراسات في الجنس والحب والزواج)

الشعب

٩٤ شارع قصر العيني بالقاهرة
تليفون ٣١٨١٠

الفلاف : للأستاذ الكبير صلاح طاهر
الرسوم الداخلية : للفنان الشاب أمين طاهر

أحبك .. أحببت

من القصص الغريبة في ((ألف ليلة وليلة)) قصة القصر الذي وضع عليه عدد كبير من الأقفال .

يقال : كانت في الأندلس مدينة اسمها لبطة . وفي المدينة قصر . وعلى القصر حراس وعلى باب القصر قفل . والناس حريصون على أن يظل هذا القصر مقفلاً . وكلما جاء ملك استجاب لرغبة الناس فوضع قفلاً على القصر . وتوالى الملوك وتعددت الأقفال حتى صارت أربعة وعشرين قفلاً . ثم جاء ملك أجنبي وحكم هذه المدينة . ولأنه أجنبي لم يكن حريصاً على أن يظل القصر مقفلاً . وحذره الناس وأخافوه ولكنه أصر . وحطم هذه الأقفال . ودخل القصر وهناك وجد صورة للفريسيان العرب وخيولهم وأسلحتهم معقدة على الجدران ، وكتاباً يقول : ((ان الذي يفتح هذا الباب سيقتله الغزاة العرب)) .

وجاء طارق بن زياد . وحكم البلاد واستولى على المدينة وعلى القصر . ووجد أحجاراً كريهة وعشرات التيجان ووجد منضدة الملك سليمان . ووجد خرائط الكرة الأرضية وكتاباً في تحويل المعادن الى ذهب . . ووجد مرآة من ينظر فيها يرى الدنيا كلها .

أما هذا الملك الذي فتح القصر وعرف مستقبل هذه البلاد فقد قتله القائد العربي طارق بن زياد . .

انتهت القصة وأدرك شهر زاد الصباح وسكتت عن الكلام المباح . .
والغريب في هذه القصة أن هناك قصراً ساحراً أو مسحوراً . الناس يريدون أن يعرفوا ما به ولكنهم يخافون . فلما جاء واحد وأراد أن يعرف

ما به وعرف ، كان جزاؤه القتل .. كان جزاؤه ما لقيه آدم وحواء عندما
أكلا من ((شجرة المعرفة)) المحرمة فهبطا من السماء الى الأرض ..

ومن العجيب أيضا أن هذا الملك الذى تنبأ بمجىء العرب ، قتله العرب !
لماذا قتلوه مع أنه لم يكن سببا فى تعطيل دخولهم أو مقاومتهم ..

وهذا هو الظلم الوحيد فى القصة : أن الرجل الذى عرف وتنبأ عوقب
مع أنه لم يرتكب جريمة ..

فهذا القصر المسحور يلتف حوله الناس ، ويطلقون خيالهم يفعل
ما يشاء .. وكان من الممكن أن يفتحوا القصر ويعرفوا الحقيقة .
ولكن يبدو أن الناس يفضلون الخيال الذى يعذبهم . على الواقع الذى
يريحهم !

ان هذا القصر المسحور كالحب .. كقلب المرأة !

الناس يقتربون منه ويستريحون الى أنه : لغز .. فاذا حاول انسان
أن يقترب منه عاقبوه على ذلك ..

فالرجل الذى يريد أن يعرف المرأة يتعذب . والنسئ تريد أن تقترب من
الرجل تتعذب .. كأن العذاب هو ثمن : حب المعرفة .. أو حب
الاستطلاع ..

ولكن الذى يفتح أقفال هذا اللغز أو هذا القلب الانسانى يجد الكثير
من الكتوز .. ويجد خريطة العلاقات الانسانية .. ويجد قواعد للعلاقات
الانسانية .. ويجد المرأة التى اذا نظر فيها عرف نفسه .. وعرف غيره ..
والمرأة الموجودة فى قلوب المحبين من نوع خاص .. انها مرآة تجعل الصغير
كبيرا ، والكبير صغيرا .

ومن الغريب أن شهر زاد يدركها الصباح وتنام بعد كل قصة .. ولكن
.. قصة المرأة أو قلب الرجل يجب ألا تنام بعدها شهر زاد .. انها قصة
ايقظت الانسانية وهدت حيلها .. فلا استراح الذى عرفها ، ولا استراح
الذى وقف عند بابها .

والذين فى داخل القلب يريدون أن يخرجوا ، والذين فى خارجه يريدون
أن يدخلوا ..

ولو كان القلب الانسانى مثل هذا القصر ، ينفتح ولا يقاوم ، لهان امر القلب . . ولكن القلب الانسانى يقاوم ويدوخ . . ولا يسهل فتحه . . وايسست أقفاله أربعة وعشرين . . بل أربعة وعشرين مليوناً ، كلما انفتح قفل ظهر قفل آخر . . انها ملايين الأشياء التى بين الناس . . وهى ملايين الألفاظ والصعوبات . . النفسية والجسدية . . والاجتماعية . . وكل العلم والفن والتاريخ والأدب محاولات لفتح هذه الأقفال ودخول هذا القلب الانسانى دون أن تسيل قطرة دم . . ولكن كيف تخوض فى الدم ولا تتلوث ؟ كيف تخوض فى الوحل ولا تتسخ ؟ . . كيف تكون هناك علاقة انسانية ولا تكون حيوانية فى نفس الوقت ؟ . .

ان الكاتب الألماني هوفمان له قصة خرافية تقول أن أحد الرهبان اكتشف مادة سحرية اذا شربها الانسان صار شريراً . . واذا شربها انسان آخر أصبحت أفكارهما متشابهة . . وفى نفس الوقت أصبحا عدوين . . يحاول كل منهما أن يتخلص من الآخر . . ولكى يتخلص منه لابد أن يقترب منه . . وأن يلتصق به . . تماماً كالذى يريد أن يخلق انساناً بيديه ، لابد أن يقترب منه . . وأن يلف يديه حوله . . وأن يميته . . أى لابد ان يكون قريباً جداً . . ليكون بعيداً جداً بعد ذلك . .

أليس هذا من أوجاع الحب ؟ . .

واعود مرة أخرى الى ((ألف ليلة وليلة)) ففيها قصة عن الرجل العادل معن بن زائدة فقد أهدى ثلاث غانيات ثلاثة سهام ذهبية . . وقررت الغانيات الثلاث أن يقلن فى هذه السهام الذهبية شعراً . . قالت واحدة :

يركب فى السهام فصول تبر
ويرمى للعدا كرماً وجوداً
فللمرضى علاج من جراح
وأكفان لمن سكن اللجودا

وقالت الثانية :

ومحارب من فرط جود بنائه
عمت مكارمه الأجابة والعدا

صيفت فصول سهامه من عسجد
كيلا تعوقه الحروب عن النداء

وقالت الثالثة :

ومن جوده يرمى العداة بأسهم
من الذهب الابريز صيفت فصولها
لينفقها المجروح عند دوائه
ويشتري الأكفان منها قتيلا

والعنى الذى أعجبت به الفتيات الثلاث هو أن معن بن زائدة رجل
كريم . وهو بالفعل قد اشتهر بالكرم . وقد بلغ من كرمه أن أعطى سلاحه
الذهبي للغانيات . . وأصبح أمامهن أعزل من السلاح . .
والحب كهذه السهام الذهبية . .

والسهام مهما كانت مادتها فهي موجهة . . سواء كانت من فضة أو من
ذهب أو من نحاس . . فهي توجع . . ولكن هذه السهام الفرامية تشبه
الحقن الطائرة . . التى يطلقها الصيادون فى الغابة على الوحوش . . فهم
بدلاً من أن يطلقوا الرصاص أو السهام على الوحوش فتهوت ، فإنهم يطلقون
عليه حقناً من البنج . . لا تكاد الحقنة تصطدم بالحيوان حتى توجعه . .
ثم بعد ذلك يفقد الاحساس بها وبأى شئ آخر . . وهنا يقبض عليه
الصياد ، وبعد أن يكون قد دخل القفص يسترد وعيه من جديد . .

فالحب هو هذه السهام الذهبية . . فكل انسان موجه من الحب . .
ولكنه فى نفس الوقت يريد . . وينسى به كل شئ . . والحب نفسه أغلى
من الذهب . .

فالحب هو النشوة الذهبية على شكل سهم ينطلق من قلب الى قلب
. . أو من جسم الى جسم . .

وليس نوعاً من الكرم أن يكون الحب من ذهب . . ولكن الكرامة هى
التى تجعل الفريسة تطالب بأن تقع ضحية لأغلى انواع السهام . .
فالمراة تفضل أن تموت بسهم من ذهب ، على أن تموت بسهم
من فضة . .

انها تفضل أن يكون السلاح غاليا ، الأسلوب غاليا . الثمن باهظا . .
ان هذا هو الذى يرضى كبرياءها وينفخ غرورها . . فاذا ماتت فى الحب
. . ماتت بأعلى سهم . . بأعلى ثمن . .

* * *

ولكن ما هو الحب ؟ . .
من الذى يجيب عن هذا السؤال ؟ . .
ومن الذى يقول لنا ما صناعة الحب . . ما هو أسلوب الحب مع
من نحب ؟

هناك ملايين الاجابات من ملايين الناس العارفين والذين لا يعرفون . .
وسوف تكون هناك ما لا نهاية له من الاجابات عن هذا السؤال . . وسوف
يقرأ الناس ويفكرون ويتساءلون أيضا : ان كان الذى قراوه عن الحب
والحبين معقولا أو واقعيا أو نافعا !

هناك اثنان من أساتذة الحب . .

لا أقول انهما ((الاثنان)) الوحيدان . وانما هما اثنان أعجبت بهما
واسترحت اليهما : الشاعر اللاتينى أوفيد والعالم النفسى الكبير
ايريش فروم . .

أحدهما أستاذ قديم جدا . . ربما كان أقدم أستاذ للحب . . لفن الحب
. . وأسلوب المحب . . والاستيلاء على المحبوب . . وكيف يمكن التعامل
معه ، قبل ذلك وبعد ذلك .

هذا الأستاذ الكبير هو الشاعر اللاتينى القديم أوفيد ولد قبل الميلاد
بثلاثة وأربعين عاما ، ومات بعد الميلاد بثمانية عشرة عاما . . احب عشرات
المرات وعاكس ألوف المرات . . وتزوج ثلاث مرات . . وكان يتمنى لو طال
عمره ليتزوج مئات المرات . .

وقد سجل الشاعر أوفيد كل فلسفته فى الحب فى كتابه المشهور
((فن الحب)) . . ولا يمكنك أن تقلب فى صفحاته دون أن تضحك ودون أن
تختلف معه أيضا !

وأوفيد لا يضيع وقته ولا وقت القارىء . . انه يهجم على القارىء . .
ويمسكه من ذراعه . . ويشيده . . ويفتح عينيه ويقول له ؟ : امشي ورائي

.. وأنا أقودك الى شاطئ الأمان .. فالحب بحر .. وأنا ملاحه البارع ..
ويقول أوفيد : اننى أعلم ان الذئب والصقور ليست لها شعبية ..
ولكنى ذئب معجب بالصقور ..

والحب فن .. كما أن الملاحة وقيادة السفن فن .. وفلاحة الأرض
فن ..

فاذا رأيت فتاة أعجبتك .. يجب أن تصارح نفسك بسرعة ، هذه هى
الفتاة . يجب أن تكون لى .. تحت سيطرتى . يجب أن ارتبط بها . وهذا
هو سر النجاح فى الحب .

وسوف تجد صعوبة فى العثور على فتاة تعجبك .. ولكن هذه الصعوبة
مؤقتة . صحيح ان السماء لا تمطر الشفرووات والسمرووات .. ولكن يجب
أن تبحث .. يجب أن تهرش رأسك وان تفتح دماغك وتفكر .. أين تكون
الفتيات ؟ .. هذا هو السؤال ؟ ..

أنهن فى الحفلات . وفى أيام الأعياد والمباريات وفى المسارح .. هذه هى
السوق . وانت المشتري . وهذا هو البحر وانت الصياد .. وكأى صياد
يجب أن تجهز شبائك . وكل نوع من السمك له شبكة وله طريقة . وله
مكان وله موسم . وكل صياد له أسلوب . ولكن الصيادين جميعا يتفقون
فى شيء واحد : الانتظار والصبر والسرعة .. والصياد يجب أن يتأكد من
شباكه ويجب أن يعرف طبيعة الفريسة . والصياد البارع هو الذى يعرف
أين ومتى وكيف .. وهو الذى ينجح فى الحب ..

وفى الأعياد والمواسم والحفلات تختلط كل انواع الأسماك من كل
الأحجام والألوان . كن قريباً من الفريسة . لا ترفع عينك عنها . لاحظ
ما الذى يهملها . اقترب منها أكثر . حاول أن تلمسها وليكن اعتذارك
رقيقاً . هذا الاعتذار يجب أن تكون قد فكرت فيه . واجعل اعتذارك
خليطاً من المعاكسة ومنتهى الأدب . هذا فن ويجب أن تكون عينك مثل
النحلة تنتقل من شعرها الى ذيل فستانها . وعندما تشغل الفريسة
بالنظر الى الآخرين ، لا تشغل بغيرها . اذا اهتمت بالخيول او المثلين ،
راقبها .

ويجب أن تقول لنفسك طول الوقت : أيتها الجميلة سوف تكونين لى ،
كما كانت أمك فى فراش أبيك . هذا مؤكد .

واذا لاحظت أن هذه الجميلة تنظر الى أحد الخيول في السباق ، اسأل
عن اسم الحصان . وعن صاحبه . وليكن ذلك بصوت مرتفع يلفتها اليك .
لا تنظر اليها اذا نظرت اليك . امشى ورائى وأنت تصل الى ما تريد . واذا
خرجت تابعها . سوف تتعثر في مشيتها . هذا ضرورى . واذا لم يكن في
الأرض طوبة واحدة ، فان المرأة تسقط هذه الطوبة من حقيبتها لكي تتعثر ،
وتمتد اليها الأيدي والعيون . يجب أن تكون يدك أطول الأيدي . أما عيناك
فهما منذ البداية قد التصقت بكل جسمها . . فاذا تعثرت امتدت يدك
وساندها . . مع الاعتذار لها كأنك أنت الطوبة . أو كأنك الذى وضعت
الطوبة . . وبسرعة ارفع ثوبها عن الأرض حتى لا تتعثر مرة أخرى . .
أنت الآن انسان سعيد لقد رأيت جانبا من ساقها . . وهذا يتوقف على
سرعتك في النظر وفي رفع الثوب . .

وبسرعة جدا ادخل في حديث . اخترع أى كلام . عليك أن تدعى العلم
والمعرفة . فالعلم نفسه لا يهم المرأة ، المرأة تفضل الذين يدعون العلم ،
ويتكلمون كالعلماء . لأن العلماء أنفسهم لا يحسنون الكلام . والمرأة تفضل
الممثلين على الذين ألفوا الكلام للممثلين . . تفضل المطربين على الذين ألفوا
لهم الأغاني . .

واذا أحسست بشيء من الاضطراب ضع في رأسك هذه الفكرة بسرعة
جدا : لا توجد امرأة لا يمكن الاستيلاء عليها ، وانك أنت تستطيع ذلك . .
وانه أسهل للانسان أن يعتقد أن الطيور لا تفرد في الربيع . . والفراشات
لا تحوم في الصيف ، والأرانب تطارد الثعالب من أن تتصور لحظة واحدة
أن قلب المرأة لا يهتز أمام انسان يعاكسها بالفاظ جميلة . .

قد تتصور أنها لا تريدك . . أنت مغفل . . ففي أعماق كل امرأة أنها
تريد أن تستسلم . فالمرأة ممثلة بطبيعتها . واذا لم نتقدم نحن منها ،
فسوف تلقى بنفسها علينا . . تحت أقدامنا بعد ذلك . .

واذا كنت تعرف خادمتها . . صادقها . .

واذا كنت تعرف صديقتها صادقها . .

واذا كانت مرتبطة بأحد غيرك ، ابعد عنها . . فالطائر مربوط من أحد
جناحيه ، لا يحلق بعيدا . .

وفن الصيد مثل فن فلاحه الأرض .. والفلاح البارع هو الذى يعرف
أن هناك وقتا لحرث الأرض . ووقتا لوضع البذرة .. ووقتا للحصاد ..
وهو القادر على أن يراعى هذه القواعد .

ولا تنس .. لا تنس أبدا : الوعود .. الوعود .. وعشرات الألوف من
الوعود .. وآه لو كانت عندى عشرات الألسنة .. عشرات الألوف من
الألسنة لجعلتها كلها فى خدمة الفتاة التى اخترتها هدفا لحبى .. يجب أن
يكون الانسان مليونيرا فى وعوده . انك لن تخسر شيئا . قل ما تشاء .
ولكن يجب أن تصدق أنت ما تقوله . فالأمل عند المرأة هو أعظم اله ..
والأمل اله كذاب .. وكلنا آلهة لأننا جميعا كاذبون !

ولا تياس .. سوف يلين لك كل شيء .. الحديد نفسه يتآكل ..
الأرض نفسها تنشق تحت المحراث .. الماء يفتت الصخر .. ان طروادة
نفسها ، قد استسلمت فى النهاية ..

وكل امرأة مهما كانت ليست الا طروادة وقلاعها مهما كانت منيعة
سوف تستسلم آخر الأمر .

حاول دائما أن تكون قريبا منها .. كلمها أو اكتب لها . واذا طلبت
الا تكتب لها لا تصدقها انها سوف تبكى اذا توقفت عن الكتابة . واذا كتبت
فلا تكتب كما لو كنت تخطب فى الجماهير .. كن رقيقا .. كن ناعما .. كن
هادئا كالصياد . وفى الوقت المناسب كن صقرا .. كن ذئبا .. لا تضيع
الفرصة المتاحة لك .. ولا تهتم بمظهرك .. كن بسيطا فقط كم من قلوب
سقطت ببساطة ، وبسبب البساطة .

ان البطل بتسوس قد استولى على قلب اريان لأنه لم يهتم بشعر رأسه
اهتماما زائدا .. فقد كان شعره منكوشا ، ولكنه كان نظيفا معطرا ..

واجعل اظافرك نظيفة وضع عطرا فى فمك .. ولا ترتد حذاء كبيرا ..
أكبر من قدميك .. فالمرأة تنظر الى حذائك قبل أن تنظر الى وجهك ..
لا تندمش ولا تناقش هذا الموضوع الآن . سوف يكون عندك فيما بعد وقت
تناقش فيه وجه الشبه بين جزمته ووجهك وعقل المرأة ..

واعلم : ان المرأة تحب أن تكون ضحية .. ولذلك يجب أن تغدر بها .
فهي غادرة بطبعها . وأنت وهى فى سباق مع الفدر .. من الذى يفدر
اولا .. كن انت الغادر الاول قبل أن تكون الضحية ..

ان مصر الفرعونية قد عاشت تسع سنوات تقاسى من القحط ..
فذهب تراسيوس يقول لأحد ملوك مصر : أن حال مصر لن ينصلح الا
اذا ذبحتم رجلا اجنبيا ..

فقال له الملك : فعلا .. اذن لتكن أنت أول ضحية من أجل مصر !!
وذبحوه ..

فلا تكن أنت الضحية ..

وأنا أعلم انه ليس من السهل على الرجل أن يبكى .

فالمرأة أستاذة البكاء .. ولكن دموع الرجل أقوى أثرا في نفس
المرأة .. هنا فقط تستطيع تستدير وتضع أصبعك في عينك .. انها دموع
واحدة أو دمعتان .. وبعدها تنهار المرأة ..

واذا كنت تتحدث الى المرأة ، فلا تضع لمستقبلكما مشاريع خرافية ..
لا تكن مثل الفتى ايكاروس الذى أراد أن يطير . فوضع لذراعيه ريشا
طويلا . وألصق هذا الريش بالشمع .. وحذره أبوه الا يقترب من الشمس
في طيرانه . حتى لا يذوب الشمع في حرارتها .. وحذره الا يقترب من
البحر ، حتى لا يذوب الشمع في بخار الماء .. ولكن ايكاروس طار فوق
البحار وقريبا من الشمس .. فتساقط ريشه .. وسقط ..

ولا تنس أن المرأة متقلبة ..

ولذلك يجب مراعاة أساليب الاستيلاء على قلبها .. فكل أرض تصلح
لنوع معين من الأشجار .. وكل سمكة لها ماء حلو او ماء مالح .. وصيد
الصغيرة يختلف عن صيد الكبيرة .. كل فريسة لها أسلوب تقع به ..

وليس جسم المرأة فقط هو الذى يجب أن تغزوه وانما عقلها أيضا ..
والبطل عوليس لم يكن جميلا ، كان فصيحاً ..

كانت كاليبسو تطلب اليه أن يروى لها القصة الواحدة ألفا مرة ..
لتسمعه .. وكان يروى القصة الواحدة كل مرة بأسلوب مختلف .. وفي
احدى المرات أمسك عودا من الحطب وراح يرسم على رمل الشاطئ كيف
سيستولى على حصون طروادة .. فجاءت موجة ومسحت الرسم ..
فقال له كاليبسو : ان البحر سوف يقضى على الجميع .. فاحترس !

وكان لابد أن يقول لها عوليس : ولكنك الشاطئ الذى يحمى الجميع
من البحر !

وشعرت كالييسو بأن قلبها يذوب من أجاه لأن المرأة تحب المديح ..
ولا تشبع من الكلام الطو .. لا هى تشبع من كلام حاو يقواه الرجل ولا
تشبع من كل سىء تقواه ضد الرجل !

والكلام هو ((الطعم)) الذى يجب ألا يختفى من سنارتك .

والصفور والذئب ليست لها شعبية ، ولكن الحمامة الوديدة هى التى
تفوز بقلب الجميع .. لأنها رقيقة ومسالة . وفى نفس الوقت ضحية
للعصفور ..

والمرأة تحب أن تلعب دور الحمامة .. ليلعب الرجل دور الصقر .
وتستسلم له فى النهاية . فتفوز به وتثير شفقتة فى نفس الوقت .

وتقوم بدور الضحية مع أنها هى الصقر الذى ليس له ربش
الحمامة !

والأغنياء ليسوا فى حاجة الى نصائح .. فهداياهم فصيحة وبليغة
ومقنعة ! ..

ويقول الشاعر اوفيد : اننى شاعر الفقراء ..

واذا تمكنت من قاب الفتاة ، اختف عن انظارها بعض الوقت ..
ستثيرها . ستقلق عليك . ستفكر فيك . ستعرف قيمتك ..

ولا تنس ان الفلاح الناجح هو الذى يريح التربة بعض الوقت . والتربة
اذا استراحت بعض الوقت كانت خصوبتها أقوى .. وغلتها أعظم ..

وكذلك قلب المرأة يجب أن تبعد عنه بعض الوقت .. سوف يكون
استعدادها للعطاء أكثر . وللاستسلام أعمق ..

فعندما ابتعد البطل عوليس عن زوجته بئيلوبه عشرين عاما انشغلت
عنه كل هذه السنوات الطويلة .. ولكن عندما جاء كانت عند قدميه ..

واذا قاومتك المرأة وضافت بك ثم نظرت الى نفسها فى المرأة ووجدت
ان ملامحها ليست جميلة .. ثم اذا ضحكت وتظاهرت بالفرحة بلقائك ورات
ملامحها جميلة فى المرأة فانها سوف تستسلم لك ..

ان الفتاة الاغريقية ((بالامس)) عندما راحت تنفخ فى الناي ، ونظرت
الى وجهها فى المرأة ، وجد ان النفخ يفسد ملامح وجهها فحطمت الناي ،
وعملت نهائيا عن هذا النوع من الموسيقى .. خوفا على جمال وجهها !
وكذلك كل امرأة ..

والشاعر أوفيد لا يفوته أن يعلمك كيف تتخلص من المرأة .. فهو يقول لك :

ولا تنس أن المرأة لا تطيق أن ينشغل عنها الرجل . ولا تطيق أن يهملها ..

إذا أردت أن تهرب من المرأة انشغل عنها . والحب لا يحب العمل .. لا شيء يقتل الحب إلا العمل .. فالعمل يأخذك من قلبك ويأخذك بعيدا عن قلب المرأة ولا تصدق أن المرأة تحب أن ينشغل عنها الرجل ولو كان ذلك بالله أو بالعلم .

أن المرأة تغار من الكتاب الذي يقرؤه الرجل . ومن القلم الذي يمسكه .

أن المرأة تريد الرجل الذي يتفرغ لها .. ولذلك ينجح العاطلون في الحب . ولا ينجح العلماء والعابرة ..

فوراء كل رجل عظيم امرأة تعيش في ظل عظمتها .. ولكنها تتمنى في نفس الوقت ألا يكون عظيما ليتفرغ لها ..
أن العظمة تهم الرجل ولا تهمها .
أن المجد يهم المرأة ولكنه ليس أملها .

أن أوفيدوس ذلك النافع في الناي ، والذي سحر الأسماك فخرجت من البحر تزحف وراءه على الشاطئ ، وتركت الطيور أوكارها تستمع إلى موسيقاه هذا الساحر قد شغل الكائنات كلها عن حياتها وعن صفارها .. أحبته النساء وعندما انشغل عنهن ، قتلته !

هذه نصائح شاعر الفقراء الذين لا يملكون إلا عقولهم وحياتهم من أجل الاستيلاء على المرأة .. فهم أصحاب هدف واحد هو الاستيلاء على المرأة بالحيل والخديعة من أجل الحب .. أو من أجل الجنس ..

والشاعر أوفيد : صياد حب ولكنه ليس محبا . أنه لا يناقش معنى الحب . لا يهمه . ليس عنده وقت . أنه جائع يريد أن يأكل ، وعطشان يريد أن يرتوى .. ولأنه يشكو من الوحدة فهو يريد ألا ينسى أنه رجل يبحث عن امرأة !

أنه صقر . ذئب . صياد . بحار . فلاح . طيب . ووحش أيضا .
والمرأة : لعبته وفريسته !

* * *

أما الأستاذ الثاني في الحب . فهو عالم النفس المعاصر الكبير إيريش فروم .. وهو ليس صقرا ولا ذئبا . وإنما هو مفكر يسأل : ما معنى أن يكون

الانسان صقرا او ذئبا ؟ ولماذا ؟ .. ثم كيف نجح ؟ .. ولماذا ؟ .. ما هذا الذى يحس به ؟ .. ولماذا ؟ .. وما معنى هذه الخطوات المختلفة فى الحب وما هذا الذى يشتعل فى قلب الانسان .. او فى قلبين فى وقت واحد ؟ .. والعالم ايريش فروم له أيضا كتاب جميل بنفس عنوان كتاب الشاعر اوفيد .. فعنوانه ((فن الحب)) .. ويستهل كتابه بهذه العبارة لكاتب قديم اسمه بارسيلوس :

((من لا يعرف ، لا يجب شيئا ..

ومن لا يستطيع أن يفعل شيئا ، لا يفهم شيئا ..

ومن لا يفهم شيئا لا يساوى شيئا ..

ولكن الذى يفهم يجب ، يلاحظ .. يرى ..

وكلما كان الشيء مليئا بالمعاني ، كان الحب أقوى ..

والذى يتخيل ان كل الثمار تنضج فى وقت واحد ، لا يعرف شيئا عن الفاكهة ..

فهل الحب علم ؟ .. هل هو فن ؟))

الناس محاصرون بالحب والكلام عن الحب : الأفلام والقصص والكتب والأغاني .. كل شيء حب فى حب .. ولكن احدا لا يدري ان كان فى استطاعته أن يتعلم الحب ، او كيف يجب !!

فكل الناس الذين يتحدثون عن الحب ، يقصدون كيف يكون الانسان محبوبا لا محبا ، معشوقا لا عاشقا ..

والمشكلة - اذن - هى كيف يكون الانسان محبوبا ؟

الرجال يريدون ذلك بأن يكون الواحد منهم ناجحا قويا غنيا ..

والنساء بأن تكون الواحدة منهن جميلة أنيقة رشيقة ..

والرجل الجذاب : هو المتهذب القادر على الحديث الرقيق والمسالمة أيضا ..

وأسباب النجاح فى الحياة ، هى نفسها أسباب النجاح فى الحب .. فالناجح هو الذى يكسب الأصدقاء ويكون له أثر فى الناس .. والانسان المحبوب هو الناجح عند الجنس الآخر . أى الذى تكون له جاذبية جنسية ..

وهناك أناس يرون أن الحب شيء .. سلعة .. وأن المرأة شيء .. وأن الانسان ليس فى حاجة الى علم لكى ((يحصل)) على المرأة .. او ((يوفر))

لنفسه الحب . . فالحب ممارسة . لذلك من السهل على أى انسان أن يحب ، ومن الصعب عليه أن يحب الشخص الذى يستحق الحب . .

وفى القرن العشرين استولت ((عقلية السوق)) والبيع والشراء على حياة الناس وتفكيرهم . ولذلك كان الحب سلعة . وكانت المرأة أيضا . . وكانت العلاقات الانسانية نوعا من المصالح المشتركة . والصفقات . والحياة الاجتماعية هى سوق العلاقات الانسانية . وكل شىء : بيع وشراء . ومكسب وفرصة . ولذلك فمعنى كلمة ((الجاذبية)) يتوقف على العصر الذى يعيش فيه ، وتتوقف على موضوعة العصر !

وفى عشرينات هذا القرن ، كانت الفتاة الأوروبية أو الأمريكية التى تشرب الخمر وتدخن ، هى الفتاة المسترجلة . . أما الفتاة الغربية النموذجية : فهى الرقيقة الأنثى . .

وفى القرن التاسع عشر كان من الضرورى أن يبدو الرجل عنيقا طموحا . أما الآن فمن الأفضل أن يكون اجتماعيا صبوراً ، ليكون جذابا للمرأة . . ومن الممكن أن يقع اثنان فى الحب فى وقت واحد ، اذا وجد كل منهما أن الآخر هو ((الصنف)) الذى يناسبه . .

انه ((منطق السوق)) الذى يستولى على الناس . . وما دام التجاح المادى هو الفاية الحقيقية فليس غريبا أن يكون الحب نوعا من البيع والشراء والمساومة والكسب .

والحب فن . ويمكن أن تعلمه . والحب مثل الموسيقى والرسم والتجارة والخياطة والطب والهندسة . . ويمكن أن ندرسه وأن نتفوق فيه اذا عرفنا قواعده وأصوله .

..

فهناك خطوات ضرورية لكى نتعلم الحب أو أى فن آخر . .

أولا - يجب أن نعرف الأسس النظرية . .

ثانيا - يجب أن نفهم تطبيق هذه الأسس .

فأطبيب مثلا يجب أن يعرف وظائف الجسم الانسانى ويعرف الأمراض المختلفة . . والذى يعرف كل هذه العلاقات أو هذه الوظائف الانسانية ، ويعرف كل الأمراض وأعراضها ، لا يكون طبيبا ، لأنه لابد من التجربة . . لا بد من الممارسة حتى تلتقى المعلومات النظرية ، والتجارب العملية . .

وهناك عنصر ثالث لكى ينجح الانسان فى أى فن هو : الاصرار على التفوق فى هذا الفن . اى يجب أن يكون شغفه الوحيد هو : كيف أتفوق فى هذا الفن . ولا يكون فى حياته كلها شىء أهم من ذلك . .

ولكن ما الذى يجعل الناس ينشفلون عن الحب ، رغم حرصهم عليه ونجاحهم أو فشلهم فيه ؟

السبب هو انهم ينشفلون بأشياء أخرى أهم من الحب : مثل النجاح والمركز والمال والسلطة .

ولابد ان تعرف ان أية نظرية فى الحب يجب ان تبدأ بنظرية عن الانسان وعن الوجود الانسانى .

والانسان قد وجد وهو لا يعرف كيف حدث ذلك . وليس متأكدا من كل شىء . وانما ماضيه فقط هو المؤكد . وفى مستقبله لا شىء مؤكدا الا الموت . . وبين الميلاد والموت لا يعرف الانسان شيئا . وسوف يموت الانسان قبل أو بعد الذين يحبهم .

والانسان يشعر بالوحدة فى هذه الحياة . والوحدة ترميه على انغلاق أو ترميه بالفتق ويشعر بأنه منعزل . . منقطع أو مقطوع عاجز . فالعالم كله قادر . وهو وحده عاجز . وهذا يؤدى الى شعوره بالتنب والعار ايضا . فأدم وحواء بعد أن أكلا من شجرة المعرفة وبعد العصيان – بعد أن تمردا على الطبيعة الحيوانية جعلهما العصيان بشرا – شعرا بأنهما عاريان . وخجلا من ذلك !

والانسان يريد أن يخرج من عزلته . . فالطفل تختفى عزلته عن طريق أمه ، ولذلك فالانسان لابد أن يكون على صلة بأحد ، على علاقة بأحد . وان يحرص على بقاء هذه العلاقة ، وهذه العلاقة هى أن يأخذ وأن يعطى بنفس الدرجة . بل ان الحب عطاء أكثر أو سعادة بالعطاء . .

ومن أصدق العبارات وأعربها أيضا عبارة للفيلسوف الكبير كارل ماركس يقول : خذ الانسان كإنسان ، وعلاقته بالعالم كعلاقة إنسانية . والحب بالحب . والثقة بالثقة . اذا أردت أن تستمتع بالفن يجب ان تكون شخصا مدربا على التثوق واذا أردت أن تؤثر فى الناس يجب ان تتأثر بهم أيضا . . فالحب هو ان تعطى وان تأخذ . . ويجب ان تعلم ان المدرس يتعلم من تلاميذه ، والممثل يتعلم من جمهوره ، والطبيب يتعلم من مرضاه . .

والعاشق يتعلم من معشوقته ، وهى منه أيضا ، فالحب علاقة تمتد فيها الأيدي لتأخذ وتعطى فى نفس الوقت . . تماما كما تتلاقى الشفافة : فأنت عندما تقبل لا تعرف ان كنت أنت الذى يقبل أو أنت الذى تقبلك فتاة . . فأنت تعطى وتأخذ فى نفس اللحظة . .

ولكن ما عناصر هذه السلسلة التى تكرر عشرات المرات . ما عناصر الحب . . هذا الساحر العجيب . .

عناصر الحب هى : الاهتمام . . والمسئولية . . والاحترام . . والمعرفة .

والاهتمام الأم بطفلها هذا هو الحب الحقيقى . فهى تهتم بصحته وطعامه . وهى مشغولة عليه ليلا ونهارا . . ولكن اذا قالت لنا سيدة أنها تحب الزهور جدا ، ثم نسيت أن ترويها فى أحد الأيام ، فأننا لا نصدق أنها تحب الزهور . فالذى يحب هو المهتم والمهموم بهن يحب . .

وفى سفر ((يونس)) فى الكتاب المقدس نجد أن الله طلب اليه أن يذهب الى أهل نينوى وأن يدعوهم الى فعل الخير ، وأن ينذرهم وأن يحذرهم من غضب الله . ولكن يونس رفض أن يذهب . فقد خشى اذا طلب الناس من الله أن يغفر لهم ويعفو عنهم ، أن يستجيب الله لدمعائهم — فهو بذلك رجل يؤمن بالقانون . ويؤمن بأن الذى أخفا يجب أن يلقي جزاءه . ولكنه لا يحب هؤلاء الناس . لذلك وجد نفسه فى بطن الحوت . أى فى عزلة مخيفة بسبب فقدانه الحب لأحد من الناس . وأنقذه الله . ولكن حدث بعد ذلك ما كان يخشاه . وأثبت له الله شجرة . وذبلت الشجرة . فحزن عليها . فقال له الله : كيف تحزن على شجرة لم تفرسها ، ولا تحزن على أوف الناس فى مدينة نينوى ؟!

والعنصر الثانى هو المسئولية . .

والمسئولية معناها اذا سألنا أحد أجبناه ، اذا طلب منا أعطيناه فورا .

والنبي يونس ليس مسئولا عن أهل نينوى . . اذا طلبوا اليه فلن يجيب . . ويونس مثل قابيل الذى قتل أخاه . . ولما سأل الله : ماذا فعلت بأخيك ؟ قال : وهل أنا مسئول عن أخى ؟

والأم مسئولة ((جسديا عن طفلها)) .

والمحب ((مسئول)) نفسيا ((عن محبوبته)) .

والمسئولية من الممكن أن ينحط معناها فتصبح نوعا من السيطرة .
ولذلك كان من الضروري أن تتضمن المسؤولية عنصرا آخر هو : الاحترام .
والاحترام ليس معناه : الخوف والفرع . وإنما الاحترام معناه أن
ننظر الى الانسان كما هو عليه وأن نحترم فرديته . والاحترام معناه أيضا :
أن ننظر الى الانسان الآخر على أن له حرمة . وبذلك نحترم استقلاله . فإذا
أنا أحبته كنت معه شخصا واحدا ، وفى نفس الوقت أحترمه كما هو . .

والحُب كما يقول المثل الفرنسى - هو ابن الحرية ، وليس ابن
السيطرة والاستغلال . .

وانت لا تحترم شخصا لا تعرفه . .

فالاحترام أعمى والمسئولية عمياء اذا لم تكن تعرف هذا الشخص .
والمعرفة فارغة اذا لم يكن هناك اهتمام . .

والذى أحبه يجب أن أعرفه . وأعرف كل ما يدور فى نفسه دون أن
يصرح لى بذلك . لأننى قريب منه . . لأننى أهتم به . لأننى مسئول عنه .
لأننى أحترم همومه ، وفى نفس الوقت أرى من واجبى - واجب على
وجدانى - أن أششاركه . أن أخفف عنه . أن أسعده . . وفى سعادته
سعادة لى . . وأنا فى وقت واحد . . دون أن أضغط عليه . .

فإذا كان من الضرورى أن أكرس الأشياء المغلفة لى تعرف ما فى داخلها ،
تماما كما تكسر قشر البندق واللوز ، ففى الحب ليس هذا ضروريا . .
فبين المحبين لا توجد قشور . . ولا توجد أعماق . . فكل ما عند المحبين
أعماق قريبة . . ملموسة . . مرئية . . ولذلك فانا لا احتاج الى أن أمزق
حبيبي لأرى جلدته ، ولا أن أمزق جلده لأرى قلبه ، ولا أن أكرس قلبه
لأسمع دقاته . . انتى فى داخله فى كل لحظة وهو يتكلم بلسانى ويرى
بعينى ، ويخفق بقلبي ، ويتخيل بعقلى ، ويمشى على ساقى . . ويرانى
دنياه ، واراها دنياى . . فنحن معا دنيا لاثنين . . وفى نفس الوقت نحن
- رغم ذلك - اثنان مختلفان !

وفى العصر الحديث حدث شيء غريب فى الحب ، والعلاقات بين
المحبين .

ففى المجتمع الرأسمالى ، ما هو المطلوب من الناس ؟

ما الذى تقوله الاذاعة والتليفزيون والسينما والمجلات لكل مواطن :
يجب أن يكون المواطنون متعاونين فى هدوء ، مختلفين بلا تعصب ، وأن يكون
عددهم كبيرا ليستهلكوا أكثر . . . ويجب أن تكون أذواقهم على نمط واحد .
ويمكن التأثير عليها وتوقعها . يجب أن يشعر الناس بأنهم أحرار مستقلون ،
لا يقعون تحت أى ضغط للسلطة أو المبدأ أو الضمير . وعلى استعداد لأن
ينفثوا كل أواصر تصدر اليهم . والمهم جدا : أن يكونوا مساهمين فى آلة
كبيرة دون احتكاك . أو اصطدام - وأن توجههم السلطة والهيئات
والمؤسسات والشركات بلا عنف ، وبلا قائد ، وأن تدفعهم بلا هدف -
إلا هدفا واحدا هو أن يكونوا طيبين نشطين عاملين ومؤمنين بالتقدم !

فماذا كانت النتيجة ؟

لقد أصبح الإنسان الحديث بعيدا عن نفسه ، وعن الناس أيضا وعن
الطبيعة وتحول إلى ساعة يستثمر قدراته ، ليحصل منها على الحد الأقصى
من الربح فى ظروف السوق الراهنة . وأصبحت العلاقات الانسانية آلية
أيضا : كل انسان يبنى بيته وحياته ضمن القطيع الكبير . .

واحساسه بأنه وحده . وأنه ليس على صلة بأحد ، هو الذى يدفعه
إلى أن يحشر نفسه بين الناس ، وأن يكون على مقربة منهم ، دون أن يدور
بينه وبينهم كلام . المهم أن يكون ((مع)) أحد . . أو ((بالقرب)) من أحد . .
أو فى ((ظل)) أحد . . لأنه يضيق بهذه العزلة الرهيبة التى يعيشها . .

وفى المجتمع الرأسمالى : نظام . أو قبود العمل . أو على الأصح روتين
فى غاية القسوة . هذا الروتين هو وحده الذى حول الناس إلى حيوانات ،
إلى آلات : الأكل والشراب والنوم واللعب فى ساعات وبنظام . أنه الحرص
على أن ((يؤدى)) الانسان ما هو واجب . وما هو ضرورى . فالدافع هو
أن يتخلص من رغباته .

فالتخلص هو الدافع وليس الالذة . .

والكاتب الانجليزى الكبير الدوس هكسلى فى روايته المشهورة ((عالم
جديد شجاع)) يصف حال الناس فى المستقبل : انهم ياكلون جيذا ،
ينشطون جميعا ، علاقتهم بالآخرين أطفه ما يكون وشعارهم لا تؤجل لذة
اليوم إلى غد !

واللذة : هى اللعب والشراء والفرجة والشرب والرقص والتدخين والاجتماعات والمحاضرات والكتب والمجلات والأفلام . . فالعالم كله شيء واحد لفتح الشهية أو لاشباع الشهوة . والناس جميعا : آكلون وشاربون يائسون أيضا . لأن الآلات لا تحب ، ونحن نتبادل المصالح فقط .

حتى الحب فى المجتمع الرأسمالى هو مجرد التفاهم والاتفاق فى الراى بلا ضوضاء . أو بالاكْتفاء دائما بأن يكون هناك رأى واحد - كل الكتب والمجلات والأفلام تؤكد للمواطنين ذلك .

فاذا اختلف الرجل وزوجته كان ذلك دليلا على الفشل ، وبسرعة يذهب أحد الطرفين - المرأة عادة - الى الطبيب النفسى . وعند الطبيب تتمدد المرأة وتتساقط منها تاريخها وأسرارها . وفى النهاية يقول لها الطبيب أن زوجك هو المريض فحاول أن تعامليه برفق . وتذهب الزوجة وتعامل زوجها على أنه مريض . . وبذلك يصبح البيت المادى مستشفى بأمر الطبيب . . وتنتعدم معنى الحياة ومعنى الزوجية ويتبدد الحب لا لشيء . . الا لأن الخلاف مرض ، والاختلاف خطر . .

مع أن الحب هو الملجأ الوحيد فى عواصف الحياة اليومية . والمحبان هما اثنان ضد العالم كله . .

وعدم وجود الحب هو الذى يوقعنا فى كثير من الأخطاء . ويقع الناس فى أخطاء جنسية . .

انهم يتصورون أن الجنس والنجاح فى الجنس هو الذى يؤدى الى الحب ويؤكدده . ويجعله على أساس متين . مع أن العكس هو الصحيح : فالحب هو الذى يجعل الجنس متعة . وراحة . والحب هو وحده القادر على تصحيح الأساليب التى تستخدمها فى الاستمتاع الجنسى . وهو المسئول عن الضعف الجنسى والعجز الجنسى . . بالحب يصبح الضعيف قويا ، والعاجز قادرا ويصبح البرود حرارة . والذى يجعل الجنس مؤلما هو الخوف والكراهية والعزلة . ومن الأخطاء أيضا أن نتصور : أن الرجل طفل لم يتم طعامه بعد . وهو يريد أن يكون محبوبا لا محبا معشوقا لا عاشقا . . وأن يكون مركزا للعطف والحنان والدفء والاعجاب . وهذا هو حب الصغار الذين لا مسئولية عليهم . وهو الحب الذى لا ينجح . يكفى أن يشعر الرجل بأن محبوبته لا تهتم به ولا تعجب به . أو عندما تحاول أن تمتع رجلا آخر على أن يمسيها هو ويهتم بها . . ويرعاها - هنا يحدث انشقاق بين اثنين . وسبب الخطأ هو هذا التصور الموجود عند الرجل ، ودون أن يناقشه أو يفكر فيه !

وهذا يؤدي الى خطأ آخر هو : تاليه الحب . . وتقديس المحبوبة نفسها
ايضا . . وذلك بأن تأخذ صفة الآلهة ونعطيها للتي تحبها أن للذي تحبه . .
ونبالغ في هذه الصفات . وبذلك نخلق انسانا لا هو انسان ولا هو آله .
وانما هو الاثنان معا . وهذا يؤدي الى صدمة عنيفة . عندما نكتشف انه
ليس الها وانما هو انسان . أن هناك حادثة تاريخية مشهورة عندما ذهب
توماس كوك الى جزر هاواي ورآه السكان الأصليون يدخلون السيجار .
واندهشوا كيف يخرج الدخان من فمه ولا يحرقه . وعندما رأوه يضع يديه
في جيوب بنطالونه . . فظنوا أنه يضعهما في بطنه ويخرجهما دون أن يموت . .
فركعوا وسجدوا له . . ولكن عندما كان عنيفا معهم . . تشجعوا وضربوه
. . سال دمه . اذن ليس الها . . انه انسان . فقتلوه . . فقتلوه كإنسان
وكأله ايضا وهذا ما يحدث للمحبوب الذي كاله وهو في الحقيقة انسان . .

ان مثل هذا الحب الملتهب الرومانسي الخيالي لا وجود له في الواقع .
انه موجود فقط في الأغاني والأفلام وفي الروايات . وهذه الأعمال الفنية
تخاق من الناس جيلا شادا : تخلق منهم اناسا يتفرجون على المحبين والحب
ولكن لا يحبون . .

وأعجب من ذلك أنهم يحبون المحبين . . يحبون الحب . . وفي نفس
الوقت يطلبون أن يكون لهم مثل هذا الحب . . فاذا لم يتيسر لهم ذلك . .
فانهم يرضون بالفرجة على الحب . . والمتعة أثناء الفرجة على جنات المحبين .
. . مع أنه لا حب مثل ذلك في الواقع . . وأن الحب على الشاشة فقط . .
أما في الحياة : فلا حب ولا محبين . .

ويقع المحبون في غلطة أخرى : أنهم يتصورون ان الحب مستحيل .
وان العذاب هو العلاقة بين الناس . وان الواقع - اذن - اليم . فلا بد
من الهرب من الواقع الى الماضي . . أو الى المستقبل . الى أوهام سعيدة
وراءهم أو آمالهم . . أما البحث عن شيء فيهم فهنا ما لا يفصله
أحد . . وعندما تخاو النفوس من الحب : تخاو الحياة من الحرارة . .
وتمتلىء بالملل . . والقرف . .

والحب فن يجب أن نتعلمه . . أو تعلمه بأن تعرف أسسه وقواعده . .
ولكن تنجح في تطبيق هذا الفن . فلا بد من شروط أخرى . . ضرورية
في الحب وفي كل فن آخر . .

اول هذه الشروط ان يكون هناك نظام . فمن الممكن ان ينشغل الانسان باى فن . ولا يراعى ان يعمل فيه بدقة . وبنظام . وبذلك يكون الانسان هاربا . على مزاجه . . على كيفه . . هذا ممكن . وليس من الممكن ان يتفوق فى الفن . اننا نعرف ان دافنشى الفنان العظيم كان يعمل كأنه تلميذ مبتدئ . . ونعلم ان ميكالونجلو نام على ظهره ينقش فى كنيسة القديس بطرس شهورا طويلة حتى تصابت عروقه . . ونعلم ان الاديب فيكتور هيجو كان شعاره : سطر كل يوم - انه يكتب سطر كل يوم وبنظام دقيق . .

والنظام ضرورى فى أى فن . . وفى الحياة كلها . .

وفى العصر الحديث نجد الانسان يعمل بنظام . ثمانى ساعات فى اليوم . . لا بد ان يعملها . وبعد ذلك يستريح . وبعد ذلك يلعب . وفى نهاية الاسبوع خارج البيت او خارج المدينة . هذا نظام من حديد . ولكن هذا النظام عام . انه ليس خاصا باى انسان . وانما هو مفروض عليه . ولكن فى الحب فان النظام والانتظام فى هذه العلاقة واتباعها نحن الذى نختاره . ونحن الذى نفرضه على انفسنا . ونراه قيما محتما . . او نراه حرية منظمة . . وبلا نظام تصبح الحياة فوضى . .

وبلا نظام لا تكون هناك قدرة على التركيز . .

والتركيز هو الشرط الثانى ايضا للنجاح فى تطبيق اى فن . . والتركيز نادر فى حياتنا الحديثة . فانت تقوم باكثر من عمل فى وقت واحد . تقرأ الصحيفة وتدخن وتشرب القهوة وتنظر من النافذة او تستمع الى الراديو او تجلس امام التليفزيون . . كل ذلك فى وقت واحد . وهذا العجز فى القدرة على التركيز واضح جدا فى اننا لا نستطيع ان نكون وحدنا . وانما نحن حريصون ان نكون معا نأكل ونتكلم ونشرب ونتكلم ونتفرج ايضا . والتدخين هو احدى العادات التى تدل على عدم قدرتنا على التركيز : لان التدخين يشغل اليد والفم والعين والأنف فى وقت واحد . .

ولكى تنجح فانت فى حاجة الى التركيز الى اقصى درجة . . الى ان تركز مشاعرك كلها على الفتاة التى تحبها . ان تنشغل بها . وتملا عينيك وأذنك ويديك وشفتيك . . وكلما ركزت عليها نجحت فى حبك . . وفى حبها أيضا !

وشرط ثالث أن تكون عند الإنسان صبر وقدرة على الاحتمال . وفي نفس الوقت قبول للعذاب كضرورة للنجاح . والنجاح هو الراحة . والذي يتعجل النتائج ليس هو الذي ينجح عادة . ولن يتعلم الإنسان أى فن ولن يتفوق فيه . . والصبر صعب جدا على الإنسان الحديث ، أنه أكثر صعوبة من قدرته على النظام والتركيز . .

والمجتمع الصناعى يدفعنا الى الاستعجال . . فكل شيء يجب أن ينطلق بسرعة . ان تم بسرعة وكلما كانت السيارة والطيارة والصاروخ أسرع كان أفضل . وهناك أسباب اقتصادية لتفضيل المواصلات السريعة . وما يصاح في عالم السيارات ، يصاح في عالم الإنسان . لأن الإنسان الحديث يخشى اضاءة الوقت اذا لم يتحرك أو يتصرف بسرعة . في حين أن الوقت الذى يتوفر له بعد ذلك ، لا يستفيد منه ، وانما يفكر في قتله من جديد !

ومرة أخرى يجب أن يكون هناك شرط هام هو : الاهتمام الشديد . ان يهتم بهذا الفن وأن يهتم له . . أى ان يكون هذا الفن شاغله دائما . والا فلن يتفوق فيه . .

والمثل القديم يقول : اذا أنت أعطيت للعالم كل قدراتك ، أعطاك بعض أسرارهِ ، واذا أنت أعطيت للعالم بعض قدراتك ، لم يعطك العالم شيئا . .

وكذلك في كل فن . . وفي الحب أيضا . . وأخيرا فالإنسان لا يتعلم الفن مباشرة . . وانما يصل الى التفوق بأساليب غير مباشرة . فالذى يتعلم فن النجارة ، يتعلم كيف يقطع الخشب ، وكيف يسويه وكيف يصنفره وكيف يطليه .

ولذلك يجب أن يمارس الإنسان النظام والتركيز والصبر في كل شيء . . لكى يتفوق في الفن الذى يريده . .

وهناك تحذير هام يوجهه الينا العالم الكبير إيريش فروم وهو : على المحب ألا يكون أنانيا . . ألا يكون مشغولا بنفسه . . ألا يجعل نفسه مركز الدنيا . وأن كل شيء يدور ويروح ويهوى من أجله . . وأن العالم كل فى خدمته وأن الفتاة التى يحبها تقف فى طابور طويل من الحاشية القريبة التى عينها لنفسه . . لأنه اذا فعل فكيف يكون موقفه اذا كان هذا هو رأى الفتاة فيه هو أيضا ، ثم تواجه الاثنان وانتظر كل منهما أن ينحنى للآخر ويقول :

شبيك .. لبيك .. عبدك بين يديك !

ولم يفعل أحدهما منهما ذلك ..

ان الفلطة مشتركة . فلا بد ان يمد احد يده وان يلقاه الآخر في منتصف الطريق .. المهم ان يبدأ أحد ويتبعه الثاني . فالحب : لقاء والتقاء .. وتواجد .. وتعاشي .. واستمرار .. وتصديل .. وتجديد .. والتقاء واستمرار .. كما تتلاقى الآيى في العناق .. والشفافة في القبلات .. ان الحب : اثنان .. دائما .. متفقان .. ومختلفان .. ولكن عندهما استعداد للتضحية من أجل أن يكونا اثنين .. أحيانا .. وواحدا أحيانا ..

والا لقينا ما يلقاه كل أنانى ..

وأروع قصة للأنانية هي التي جاءت في الأساطير الاغريقية .. يقال أن أبا عنده خمسون بنتا ، وله أخ عنده خمسون ولدا . واتفق الاخوان على أن يتزوج أبناء وبنات العم . وكانوا سعداء جميعا .. ولكن والد البنات قالت له العرافة أن واحدا من أزواج بناته سوف يقتله .. فانزعج الأب واتفق مع بناته أن يقتلن أزواجهن في ليلة الزفاف .. وفي ليلة الزفاف قتلت كل واحدة زوجها . وحملت رأسه الدامي الى أبيها .. وشعر الأب بسعادة لا حد لها . ولكنه قرر أن يعد الرؤوس . ووجد رأسا ناقصا . وعرف أن إحدى بناته رفضت أن تقتل زوجها لأنها تحبه . وأن زوجها هرب بعيدا . وغضب الأب . وغضبت آلهة الاغريق وعذبوا البنات بأن وضعوهن في بحيرة باردة . وطلبن الى كل واحدة أن تملأ أناء مليئا بالثقوب ويسقط الماء وتظل تماؤه ويتساقط الماء .. الى الأبد .. أما الأب فقد عذبتة الآلهة بأن يرى شبح الزوج الهارب كلما أغمض عينييه ، فيهرب من نومه منعورا .. الى الأبد !

منتهى الأنانية من الأب ..

ومنتهى الطاعة العمياء من البنات ..

ومنتهى العذاب الى الأبد .. والعذاب هو العقوبة .. أما الجريمة فهي الأنانية وكل ذلك باسم الحب .. باسم أنواع من الحب !

انيس منصور

الذي طعمه
شديد الحرارة

الذي بين الناس

معظم العلاقات الانسانية غير واضحة . . .
ولا يوجد رأى قاطع فى هذه الصلات المعقدة بين الناس . . . بين
الرجال أو بين النساء . . . وأصعبها هى التى بين الرجال والنساء . . .
ولا يمكن أن تكون العلاقات بين الناس بسيطة وواضحة كالتى تين
قوالب الطوب فى جائط . . . أو بين الأشجار فى حديقة . . . أو بين الحيوانات
فى حظيرة . . . وتجربتنا اليومية مع الذين نعمل معهم أو نعيش بينهم
تؤكد ذلك . . . فكم من الجهد نبذله من أجل توضيح أتفه الرغبات ؟ . . .
كم من الوقت نبذده من أجل أن نشرح قصدا شريفا ؟ . . . كم من الدم
نحرقه لكى يحصل على « براءة » يومية بحسن السير والسلوك . . . ؟
وهذا الفموض فى علاقات الناس هو المسئول عن ازدياد مشاكل الناس حتى ليتمكن
أن يقال أن التطور الانسانى ليس فى حل مشاكل الانسان ، ولكن فى تعقيدها وتأجيل
حلها . . . ولكن الانسانية مستمرة . . . واستمرارها لا يدل على أننا حللنا مشاكلنا ،
وانما يدل على نوع من التطور . . . وعلى نوع من تأجيل حل مشاكل أكثر صعوبة
. . . فالانسان كان يركب الحمار فى تنقلاته وهو الآن يركب الطائرات . . .
والانسان فى الحالتين لا يفهم كيف يحمله الحمار من مكان الى مكان . . . فالانسان
لا يفهم تكوينه ولا وظائف أعضائه . . . وهو الآن - أكثر الناس - لا يعرف كيف
تعمل الطائرة . . .
ولكن مفهوم عند كل الناس أن الطائرة أسرع من الحمار . ولكن كيف ؟ هذه هى
المشكلة التى لا يعرفها كل الناس ! . . .
وكثير من العلاقات الانسانية يمكن وصفها بكلمة . . . فيقال : حب . . . وزواج . . .
ويقال : حياة موت . . . ولكن تعال نشرح هذه الكلمات . ثم هيا بنا نعلم باليوم الذى
سوف نتفق فيه على معنى واحد !

هناك دائما مشاكل .. وهناك دائما حلمنا الطويل بأن يفهمها وبأن نصل الى رأى واحد على حلها ...

فمثلا يمكن ان يقال : انه لا توجد امرأة متزوجة .. وانما توجد امرأة تريد ان تتزوج . وادا تزوجت فهي لا تريد ان تستمر في الزواج ... ولكن لماذا اختارت ان تتزوج ؟ انها لم تختار الزواج .. ولكن المجتمع هو الذى اختاره . فالمرأة لا تختار الزواج .. وانما تختار الزوج فقط . وعندما تختار المرأة زوجها ، فهي لا تختار احسن الأزواج ... وانما تختار اقربهم اليها ، والى ظروفها . فالمرأة لا تستطيع ان تمتد يدها عبر القارات لتجد الرجل المناسب ... ولو استطاعت لاحتاجت الى عمر النسور لكى تجد الرجل المناسب ، وقد تجده ولكنه لا يجدها او لا يريد لها ...

ولذلك فالمرأة تختار الاقرب الى اليد والعين والبيئة ... لأن هذا الاختيار يجرى في ظروف نفسية غير عادية ، فان الاختيار الذى تمليه العاطفة يندهش له العقل ... ولذلك فليس من الغريب ان ينظر الناس الى كثير من الأزواج فى دهشة : ما الذى جمع الشامى على المغربى ؟ ما الذى جمع بين هذه الجميلة وهذا الدميم ؟ ما الذى رآه الواحد فى الآخر ؟ وهذه الأسئلة بالعقل .. ولكن الموقف ليس عقليا .. انه موقف عاطفى فقد جاء نتيجة شئ من الغموض الحار ، او الحرارة الغامضة ... ولقد تم الاختيار والاتفاق فى الشفق أو الفسق .

والذى يجعل هذا الاختيار غير دقيق ، أن هناك توعية غريبة تسبق الاختيار . فالمجتمع من صنع الرجل ، والمجتمع الذى صنعه الرجل يقدر الرجل . ويضعه قبل المرأة بخطوة ويرفعه اعلى من المرأة درجة ... حتى بعد الموت . فأوراق البردى المعروفة باسم (كتاب الموتى) عند الفراعنة يقدر الاله اوزيريس الرجل وتطلب من كل الالهة رجالا ونساء ان يمشوا وراء شبابه المتجدد . ووراء رجولته المضيئة ... حتى بعد ان أصبحت المرأة قادرة على العمل ، فهي لا تزال تطلب ان يكون دورها بعد الرجل . ولا تزال هذه نصيحة امها وابيها .

والذى يقرأ رسالة والد الملكة ماري أنطوانيت الى عريسها المقبل يجد مثل هذه العبارات :

لقد علمناها على حبك . والاخلاص لك . وعلى أن ترعى آمالك وأحلامك .. وعلى أن تكون لك فى كل لحظة عند الصحة والمرض . فأنت قدرها يا سيدى !

أما رسالة ماري أنطوانيت الى اختها فتقول :

انه مكتوب على بنات الملوك أن يعيشن فى أركان العالم الاربعة .. ان زواجى هذا نوع من النفى . ان أختنا التى تعيش فى نابولى معذورة عندما تقول اننا ألقينا بها فى البحر .. ولكننى أطوى خطابى وأطلب اليك أن تطوى لسانك وصدرك على سرى هذا . فحتى بنات الماوك هدايا للرجل ، وان كانت الهدية نفسها ترفض أن تكون هدية ، وترفض الشخص الذى تهدي اليه ... ولكنها تقبل مصيرها فى النهاية ...

والتهانة هي أن الرجل سيدها وتاج رأسها ... وان كان الرجل في كل العصور لا يزال يفضل المرأة التي ليس لها رأس ، لأنه لا يريد أن يضع التاج على كتفها انه يريد أن يضعه على صدرها .. او يوزعه على اماكن اخرى من جسمها ...!

والذي لا يعرفه الرجل هو ان المرأة تتلقى الكثير من الهدايا بمناسبة زواجها ، او رغبتها في الزواج ، او كراهيتها للزواج .. واهم هذه الهدايا نصيحة من كل النساء قريباتها بأن تنجح بأي شكل ...

اي مطلوب من المرأة ان تنجح . وهذا الاصرار على النجاح يجعلها تستهين بالمشاكل وتهون من المصاعب وبذلك يصبح الاصرار ريشا طويلا قويا ينمو في ذراعيها يجعلها تطير فوق الأرض ...

وهذا الاصرار على النجاح من جانب المرأة ، لا يقابله اصرار على النجاح من جانب الرجل او حتى الاصرار على اتاحة الفرصة لها لكي تنجح ، كان الزواج علاقة من جانب واحد : هو جانب المرأة دائما !

ولا يزال هذا المعنى مسيطرًا على الأفلام والقصص : فهي جميعًا تنتهي نهاية سعيدة .. أي نالزواج . ومعنى ذلك أن الزواج هو التقاء كل الخيوط البيضاء في فستان أنيق وطريحة في ليلة من ليالي العمر : يرقص فيها كل شيء على موسيقى : واثمخطري يا حلوة يازينة .. في حين أن البداية الواقعية لهذه العلاقة بين رجل وامرأة تبدأ بالزواج .. فالزواج هو الباب المفتوح على كثير من العلاقات الحارة الحادة الغامضة .. والتي لم يتسع وقت الناس لتوضيحها للرجال او للنساء !

ورغم عدم الوضوح فأكثر الاحداث انتشارا هو الزواج وأهم الاحداث الاجتماعية أيضا ...

واسنمرار هذه العلاقة الاجتماعية لا يدل على وضوحها ، وانما يدل على انه من الممكن أن تكون هناك اشياء كثيرة غامضة ولكنها لا تمنعنا من الحياة والاستمرار ... ان أكثرنا لا يعرف كيف يصنع هذا الورق ولا هذا الحبر .. ولا كيف تعمل عيناه ولا كيف يفكر عقله ... ولا كيف يبلع ريقه .. ومع ذلك فكل شيء مستمر ومتكرر كل لحظة وطول العمر .. وعندما تحاول المرأة أن تتمرد على وضع من الأوضاع الاجتماعية .. فكل ما تفعله هو أن تنتقل الى حل قريب منه .. تماما كما تنتقل من مقعد الى مقعد مجاور له .. فهي تتحرك ولكنها لا تنتقل .. او على الأصح : هي تهتز ولكنها لا تتحرك !

فأميرات القرن العشرين عندما تزوجن ، ماذا فعلن ؟

ان اميرات بريطانيا وهولندا واليونان والدنمرك والسويد اخترن الرجل الذي يردنه مع اختلاف في الدين أو في الطبقة أو في السن ، ونظرت العائلات المالكة الى هذا الموقف من الفتيات على أنه تمرد خطير ... مع أنه ليس أكثر من تمرد أنيق ... تمرد فخم ، تما كما يرفض أمير أن يركب السيارة الكاديلاك ، ويفضل عليها المرسيدس ، ويعلن أنه أمير شعبي ...

فليس هذا رفضا للفخامة ، ولكنه رفض لأعلى درجاتها فقط . . . وقبول في نفس الوقت لدرجة أخرى من الفخامة عالية أيضا . فما الذي اختارته الأميرات ؟ اختارت كل منهن حياة زوجية أعلى وأغنى . . . ولكن فيها كل عناصر الحياة الإنسانية الضامضة . . . كحياة البواب والسائق والجزار . . . انها نفس الروابط الحارة الحادة المتشابكة على الأرض في شقة في الدور الأرضي . . . أو على الأرض في شقة في الدور المائة . . .

ان الكاتبة العربية أندريه شديد تصف جال إحدى الأميرات في مسرحيتها « برنيس المصرية » فتقول : « لقد كرهت الجدران التي تعزلني عن العلم . . . كرهت السقف الذهبي . . . كرهت أعمدة الرخام الخائقة القاهرة . . . كل هذه الأشياء المذهبة تشل عقلي . . . انني معزولة عن الأرض والسماء . . . منفية . . . انني لا أرى في هذه القصور الا أقنعة كاذبة ، أقنعة واحدة ، انها كجدران تعزلني عن وجوه الناس . . . كم من السجنون تعيشها الأميرات ؟ »

أما الذي يفعله الشبان الصغار فهو شيء آخر . . . انهم بسرعة يتزوجون وبسرعة ينفصلون ولا يمكن أن يوصف هذا السلوك بأنه تبسيط لاجراءات الزواج والطلاق . . . ولكنه تبسيط لمعالجة مشاكل الزواج والطلاق . وأسهل الطرق البسيطة لحل مشكلة : تجاهها . . . واغماض العين عنها والاستسلام للنزوات . ولا يمكن أن يكون الاستسلام لنزوة ، فهما لها . . . وانما هو رفض سلبي للفهم فهو ليس هجوما على المشكلة وانما هو انهيار أمامها . . .

بذلك يصبح زواج الشبان أكثر غموضا . . . انه انتقال سريع بين النزوة وتحقيقها . . . ولكن هذه السرعة ليست حلا سريعا ولكنها تجاهل سريع للمشكلة . . . صحيح انه من حق كل شاب أن يتزوج والزواج ممارسة لحرية في الاختيار . ولكن هذه الحرية حولت الشاب الى انسان ذليل . . . انه يختار البهولة والقدارة . . . ويختار العبث بالمشاكل . . .

ومع ذلك ينظر الشبان - في أوروبا وأمريكا - الى هذا الموقف على انه نوع من العدل . . . فهم يرفضون النظافة بالاكراه ، والزواج بالاكراه ، والصحة بالاكراه . . . ويرون ان العدل الذي يختارونه هو : الحرية ورفض النظافة والصحة . . .

ولكن هذا نوع من العدل الفاضح . . . تماما كالفستين المينى جيب . . . التي تختصر من الفستان مساحة من القماش تضيفها الى الاكمام . . . فأكمام الفستان متدللة ، وذيل الفستان مرفوع . . . فالذي أضيف الى الاكمام . . . حذف من الذيل . . . ستهى العدل . . . ولكنه عدل فاضح !

وكثيرا ما ذهب الشبان الى الكنيسة يطلبون الزواج من الفتاة التي يحبونها . . . والفتاة حامل . ومعنى ذلك أن الشاب يريد أن يعتف علنا بأنه اذا كان قد اخطأ فقد جاء يعترف بالخطأ ويصلحه . وأنه لم يظلم الفتاة التي أحبها ، ولم ينكرها . . . انه عادل تماما . . . ولكن بصورة فاضحة . وبسرعة ينفصل العروسان بعد ولادة أول طفل . . . وطبيعي ان يحدث ذلك ، فلم يتسع لهما الوقت ليفكرا في هذا الزواج او

هذا الطفل . ومن الممكن أن يسمع أحدهما يقول : لا أعرف لماذا تزوجت انها حالة طيش .. والحقيقة انها ليست طيشا . ولكن الطيش هو أن يدعى أى واحد منهما أنه يعرف بالضبط ما الذى أقدم عليه . والطيش أن يدعى أى شاب أنه يفهم بوضوح لماذا تزوج ولماذا انفصل عن زوجته .. ولكن عدم الفهم هو الطبيعى والغموض هو الصفة الواضحة المؤكدة لهذه العلاقات الانسانية الملتهبة كالحديد ، أى المتينة المحرقة .

وحبوب منع الحمل فى هذا العصر : هى فرصة جديدة أتاحتها العلم للأزواج أن يعيشوا بلا اولاد .. ولغير الأزواج أن يعيشوا بلا زوجة .. والأطفال هم وحدهم الذين يجعلون هذه العلاقة شيئا واضحا .. وظهور الأطفال فى حياة الزوجين ليس دليلا على شيء .. انما دليل على أن هناك علاقة طبيعية بين ذكر وأنثى . ومهمة حبوب منع الحمل هى انها تعطى فرصة للزوجين أن يفكروا : أن كانا يريدان أطفالا أو لا يريدان .. أو أن كانت العلاقة التى بينهما هى علاقة ذكر بأنثى أو هى شيء آخر أكثر عمقا .. فاذا اتفقا على أن الذى بينهما أعمق من مجرد رجل وامرأة جاء الأطفال .. ومع ذلك فمن الممكن أن نجد رجلا ونساء يقولون : انها لحظة جنون هى التى جعلتنا نفكر فى أن يكون لنا أطفال .. أى أن هذا القرار رغم التحفظات والموانع الطبية ، ليس موقفا عقليا واضحا .

وأوضح أنواع الزواج : هو زواج المصلحة ..

فالرجل الذى يتزوج امرأة لفلوسها أو المرأة التى تتزوج رجلا لفلوسه ، موقف واضح المعالم .

ولذلك ففشله مؤكد لأن العلاقات بين الرجل والمرأة ليست علاقة بائع بربون .. وانما هى أصعب وأعقد من ذلك بكثير .. ثم أن هناك مشاعر لا يمكن شراؤها بالفلوس ..

وإذا كان الرجل عمليا واقعيا ، فإن المرأة - كل امرأة - ما تزال حاملة خيالية دقيقة معقدة ..

وزواج نجوم السينما هو أحسن الأمثلة على ذلك .. فعندما يتزوج نجوم السينما فهو زواج يأخذ ظابع التعاون بين نجمين يريدان أن يكونا نموذجا على الحب اللامع والنجاح الدائم ..

والحقيقة أن نجوم السينما يتزوجون وقد أخفوا شيئا وراء ظهورهم . فهم جميعا يتعاونون على أن يعطى كل منهما فرصة للآخر لكى يفكر فى أنسب الأوقات للانفصال من أجل فرصة أحسن .. فالنجوم يتزوجون ويتحفظون .. ولذلك فزواج النجوم أوضح النماذج الانسانية على الفشل المتكرر .. وأساس الفشل أن كلا منهما قد وضع لنفسه الغرض من الزواج : هو الانتظار بالقرب من شخص الى أن يجيء من هو أجمل وأغنى منه !

فزواج النجوم واضح النجاح وفاضح الفشل أيضا ..

وهناك عذر واحد مقبول بالنسبة للأزواج .. أو بالنسبة لكل العلاقات بين الرجال والنساء وهو أننا نعيش في عصر الاثارة الجنسية .. وليس في عصر الجنس .. فالجنس منذ ألف سنة كان أعنف وأقوى وأكثر تنوعا من الجنس الآن .. وفي استطاعتك أن ترجع الى « ألف ليلة » .. وأن ترجع الى شعر أبى نواس والى « منامات الوهرائى » والى كتاب « الروضة العطرة » .. والى قصور الملوك في فرنسا .. انها مليئة بأشكال وألوان من الجنس أكثر بكثير جدا مما جاء في مؤلفات المركيز دى صاد .. أما العصر الذى نعيش فيه فهو عصر الاثارة الجنسية .. عصر بلبله العواطف .. وتقلب المشاعر وتضليلها .. الأغاني مثيرة .. والمجلات والأفلام كذلك .. فمثلا أفلام : رجل وامرأة .. والرقص على الهيدروجين .. وانفجار .. ووادى العرائس .. كلها أفلام مثيرة ولكنها ليست أفلاما جنسية ..

وكل من يتلمس جيبه ويجد علبه الكبريت قد اشتعلت فلدیه سبب وجیه وهو أن الجو حار .. شديد الحرارة .. والذى يدل على أن الشباب اليوم فى العالم كله هو فى حالة اثارة جنسية ، وليس فى حالة انحراف جنسى أو شلوذ ، انه بتقدم للزواج بلا تردد . صحيح ان هذا الاقبال لا يدل على فهم واضح ولكن من المؤكد انه عمل ايجابي واضح . وبهذا العمل القاطع ينفى الشباب عن نفسه تهمة الانحراف .. وربما كان الانحراف الوحيد الذى نسجله للشباب هو انه يندفع بلا تفكير واضح .. والأرقام تؤكد أن نسبة الزواج بين طلبة الجامعة فى أمريكا مرتفعة جدا .. ونسبة الطلاق أيضا .. وقبل أن نخدعنا هذه الملاحظة يجب أن نتساءل : هل انتشار الزواج دليل على نضج الشباب ؟ هل انتشار الطلاق دليل على أن الشباب انما ارادوا أن يتزوجوا ليصبحوا قادرين على الطلاق .. أى قادرين على أن يقولوا : لا .. للزوجة ولأسرتها ولطفلهما وللمجتمع .. هل معنى ذلك أن الشباب فى أمريكا وأوروبا يؤمنون بقداسة : لا ، أكثر من ايمانهم بقداسة : نعم .

ان فيلسوف الطلبة هربرت ماركيزوز يقول فى كتابه المشهور « الانسان ذو البعد الواحد » لا يمكن أن نصف نجاح الحياة عموما فى أمريكا على انها مجتمع حر .. فالنجاح لا يدل على الحرية الفردية .. بل ان هذا النجاح يرفض الحرية .. كما ينجح اللصوص وكما ينجح المخربون .. وكما ينجح الميكروب فى غزو جسم مريض .. ولا يمكن أن تكون هناك حرية فى أمريكا لأناس قد فضحتهم أجهزة التجسس التى توضع على النوافذ وفى السقف وعلى الأرض وفى الأكواب والأطباق .. لا حرية فى أمريكا فالحرية يجب أن تبدأ فى البيت قبل الشارع .. وفى غرفة النوم قبل غرفة الطعام .. وأول مبادئ الحرية أن يعرف الانسان بالضبط : ما الذى يريده من غيره من الناس ولماذا ؟ وكيف يصون ما يحصل عليه .. ولماذا ؟ اذن ما هذا الذى بين الناس ؟ ان الذى بين الناس هو « مؤامرة صمت » كل واحد يجرب ويسكت .. كل واحد يسمع ويسكت . ويفشل ويسكت .. وكل واحد يمضى فى طريقه .. من

البيت الى العمل .. يحمل معه هموم العمل الى البيت .. وهموم البيت الى العمل .. فهو « شيال الهموم » وهو « حمال الالاسية » واقسى ما يحمله الانسان ذهابا وايابا انه لا يفهم شيئا .. ولا يدري كيف يفهم ولا يتسع وقته ليفهم .. ولا يجد احدا يدلّه على الخطأ والصواب .. ولو وجد هذا الأحد ، فان الهموم التى يحملها على ظهره قد جفت كظهر السلحفاة ، تجعله عاجزا عن الادراك والحركة ..

ان الاديب الأمريكى تنسى وليامز قد صور ذلك فى مسرحية « زمن التوافق » .. فأبطاله يقيمون فى بيت قائم على كهف .. وبين الحين والحين يهبط البيت قليلا وتتشقق الجدران .. فالبيت أى العلاقات الانسانية قائمة على كهف .. وأغرب من ذلك ان كل بيوت المنطقة مقامة على كهوف ، وان كل البيوت يصيبها نفس التشقق .. ولكن أصحاب البيوت قد اتفقوا على أن يخفوا هذه الحقيقة . لقد اتفقوا على السكوت .. تأمروا على الصمت .. حتى لا يتردد احد فى شراء هذه البيوت .. فاذا اشتراها أناس آخرون .. تكرر نفس الموقف الصامت ..

اما هذا الكهف الذى تحت البيوت الانسانية ، فهو الغموض العميق .. فالناس جميعا من اهل الكهف .. يعيشون فوق الكهف ..

وأعود مرة اخرى الى « كتاب الموتى » عند الفراعنة .. ففى النشيد الثانى والسنين نجد فى السماء نهر النيل .. وهذا النهر يصبح ماء بارد اذا لمسه انسان صادق ويصبح ملتهبا اذا لمسه انسان كاذب .. والنشيد يطلب من اوزوريس ان يجعل ماء النيل باردا على كل يد وكل انسان .

والمصيبة ان الذى بين الناس ليس نهرا .. ولا بحرا .. انه نهر وبحر ونار وظلام وحب وكراهية .. انهم يمدون أيديهم الى النهر كل يوم فلا يجدون هذا الماء .

* * *

والمرأة ليست ضعفة وهى لذلك لا تحتاج الى عضلات الرجل وشواربه لحمايتها . والمرأة ليست مقددة وهى لذلك لا تحتاج الى حصان أبيض يهرب بها من ابن عمها الذى فرضته الأسرة عليها .

ولذلك فالمرأة لا تختار الرجل القوى وانما تختار الرجل الذى يجعلها تحس بأنها قوية ، بأنها أم ، بأنها قادرة على أن تعطى الحماية ، أن تجعل قلبها الأبيض مخبأ للرجل الذى تحبه والذى تهرب به .. « بعيد بعيد أنا وأنت .. بعيد بعيد وحدينا » الى آخر أغنية أم كلثوم .

اما الفتيات الصغيرات فيما بين ١٠ ، ١٤ سنة فهن يفضلن الشاب الجميل .. أى الرجل الحلو .. الرجل الذى هو « وسط » بين الرجل والمرأة ولذلك فهو ليس خطرا ليس ذئبا . فالفتاة فى هذه السن ليست لها اهتمامات جنسية ولكنها فى نفس الوقت تخاف من الجنس . والشاب الحلو ، لأن فيه أنوثة هو وحده الذى يعطيها

الامان وهذا هو سر اقبال الملايين من الفتيات في أوروبا وأمريكا على الخنافس .
فهؤلاء الخنافس نموذج للشباب الناعم : اصوات ناعمة . وحركات رقيقة :
الجاكتات قصيرة والشعر طويل والبنطلونات ضيقة والابتسامة عريضة وفيهم مرح
وأغانيهم سعيدة . فهم مختلفون عن كل المطربين في العالم : انهم سعداء بحبهم في
حين أن كل المطربين يشكون من ألم الفراق ولذة التعذيب عند المحبوب .

ثم ان هؤلاء الخنافس جميعا يمثلون بالضبط كل الممنوعات عند الفتيات
الصغيرات . فالآباء يمنعون الفتيات من الكلام تصوت مرتفع ومن الحركات الكثيرة
ومن تساقط الشعر على الجبين وكل ذلك يفعله الخنافس وسط تصفيق وصراخ
جنوبى ومقابل ملايين الجنيات ونياشين وميداليات ملكية .

وانتقلت العدوى من الصغيرات الى الكبريات . . الى الكبار وأصبح الانجليز
لاول مرة يرددون اغاني ليست ملكية . وأعلن نقاد الموسيقى ان الخنافس قد
انعشوا التأليف الموسيقى وأن سنة ١٩٦٣ هي سنة الخنافس - تعتبر نقطة تحول
في الأغنية الشعبية في إنجلترا .

والذي يستمع الى اغاني الخنافس يجد انها رقيقة وانها مريحة وانها بسيطة وان
معانيها « محزنة » مثل بنطلوناتهم . فهي بالضبط تلتصق بكل شخص وكل قلب .
ولذلك تردد فيها كثيرا كلمات أنا ، وانت . . وانا وانت معا وحدنا .

.. وهؤلاء الشبان الخنافس نموذج للملايين الشبان في العالم كله . انهم فقراء اولاد
سواقين وفلاحين وعمال . . . وقد اختاروا الشعر الطويل انه شعر الطفل الصغير
« أوليفر تويست » بطل القصة المعروفة التي كتبها دكنز من ١٣٠ عاما . وهذا
الطفل يتيم وقد وقع في قبضة النشالين وحاولوا افساده . ولكنه استطاع ان يصمد
حتى النهاية وهؤلاء الخنافس يشبهون هذا الطفل اليتيم جاءوا به من اقصى
ليغزوا بريطانيا ويحتلوها ويقواوا بحق : أن إنجلترا وقفت في وجه الغزاة الف سنة
ولم تحتلها الا هذه الخنافس وهم الذين اختاروا لانفسهم أيضا اسم الخنافس . .

والخنافس هي أقدر الكائنات على التكيف . . وهي تعيش في كل مكان وفي كل
درجات الحرارة وقد اكتشف العلماء حفريات للخنافس في روسيا وأستراليا ترجع
الى ٢٠٠ مليون سنة قبل ظهور الانسان . ومن المؤكد ان الخنافس ستبقى بعد
إختفاء الانسان من الأرض سواء بهجرته الى الكواكب الأخرى او بفنائه نهائيا ، واذا
كان عدد الفقريات حوالى أربعين الفا - السمك والزواحف والطيور والثدييات -
فان الخنافس وحدها تبلغ ربع مليون صنف .

، وقد عرف الفراعنة الخنافس منذ ثلاثة آلاف سنة . . وعبدوها أيضا في مدينه
هليوبوليس . وكانوا يعتقدون ان الخنافس هي رمز الوجود والحياة . . بل فعل
الوجود عندهم هو : الخنفساء وكثير من الملوك قد وصف نفسه بأنه خنفساء : أى
لمبدع . . خلاق . . مجدد .

وانتقلت عبادة الخنافس وزينة الخنافس الى كل عواصم العالم القديم . وكان الرومان ، يعتقدون أن الخنافس من الذكور فقط . فالخنافس هي رمز الرجولة ولذلك كنا نجد الجنود الرومان يضعون الخنافس في خواتمهم .

واذا أراد انسان أن يتسلى لمعرفة تاريخ مصر الفرعونية فعليه أن يقلب في الخنافس الصغيرة التي تركها الفراعنة . فعلى بطن كل خنفساء يجد عبارة أو جملة أو أمنية أو تسجيلا لحادثة سعيدة أو مؤلمة . .

وكثير من قواد الفراعنة والرومان كانت أسماؤهم : خنفساء — على فكرة . . . زوجة الرئيس جونسون اسمها : لايدى بيرد ومعناها خنفساء . واللورد ويفل القائد المعروف معناه أيضا : خنفساء .

وجنون الخنافس أو الجنون بالخنافس أو مرض الخنفسية أصبح ظاهرة اجتماعية في أوروبا وفي أمريكا . . ولكنها ليست مرضا على أى حال . . . انها نوع من المرح النظيف فليست حركات هؤلاء الشبان مبتدلة ولا عباراتهم نابية . . وانما هم نموذج لشعور الانسان بأنه صغير وبأنه رغم ذلك يستطيع أن يكون مرحا . فالشعور الذى يستبد بالناس بعد الحرب هو الضياع . . فالانسان لا يدرى الى أين يتجه . لقد تعددت الطرق وتعددت الوسائل والغابات . . وتحيرت الانسانية ورغم هذه الحيرة فانها لم تعرف اليأس . . انها تضحك . انها تخفى حيرتها في ضحكاتها . . وهذه الضحكة تظهر على وجوه هؤلاء الشبان . . وعلى وجوه شبان آخرين من « الأدباء الساخطين » في إنجلترا . و « الأدباء الصاخبين » في أمريكا .

ان علماء النفس يشكرون هؤلاء الخنافس لانهم استطاعوا أن يطلقوا رغبات مكبوتة في نفوس الناس ولم يكن في استطاعة علماء النفس أن يعرفوها . . لقد عرفنا ما الذى يعجب المرأة الصغيرة . . وقبل ذلك عرفنا ما الذى يعجب الرجل الصغير . لقد أعجب الرجال الصغار ببريجيت باردو . . وهى نموذج للفتاة التى ليست صارخة الأنوثة بل انها نوع آخر من الخنفساء . شعرها طويل نظيف . . وهى أيضا « وسط » بين الشاب الحلو والفتاة . .

لقد انكشف ذوق الرجال الصغار بحبهم لبريجيت باردو . . تماما كما انكشف ذوق الفتيات الصغيرات بحبهن للخنافس .

ان الرجل والنساء قد تقاربت اذواقهم . . فهم جميعا يفضلون : المخلوق الجميل الذى هو وسط بين المرأة والرجل : انهم جميعا يختارون الخنافس .

انهم جميعا يختارون ذلك النوع من الكائنات البشرية التى تنبأ بها ه . ج . ولز فى قصته « آلة الزمن » . . فقد تخيل وجود كائنات أخرى متقدمة علينا تهبط على الأرض فى عام ٢٨٠٠ ووصف هذه الكائنات بأنها رقيقة ناعمة فيها طفولة وأنوثة . . وسط بين الرجال والنساء وأكثر منها علما وأصدق منها احساسا .

اذن هذه الكائنات التى ستهبط الى الأرض أو التى ستنمو على الأرض . . نوع آخر من خنافس الرجال والنساء .

لقد أعجبني الشاعر أودن وهو يعلق على الخنافس بقوله : اننى افضل وجهها من نوع خاص فى مكان عام على وجه عام فى مكان من نوع خاص .
اما الوجه الخاص فى المكان العام : فهم الخنافس ..

وقبل أن أنهى هذه السطور لى طالب صغير : أنظر الى وجوه الناس الذين فى يدهم أمور هذه الدنيا ، انها وجوه ليست جادة فقط ولكنها مهمومة حزينة .. وجوه عرفت الشيخوخة أى عرفت نهاية الحياة رغم حرصها على حياتها وعلى حياة الآخرين .. انهم شباب نسي أن يبتسم لأنه لم يعرف الضحك . وهو لم يعرف الضحك لأنه انتقل من الطفولة الى الشيخوخة مرة واحدة . لقد أصبح الضحك غالبا . لقد أصبحت الراحة نادرة . الانتحار هو الباب الخلفى للراحة . الموت هو أوسع الأبواب .

هؤلاء الشبان الخنافس السعداء يؤكدون أن هناك أبوابا للراحة .. وهى أن يشعر الإنسان أنه قادر على الضحك . قادر على أن يتذكر أنه كان طفلا ومن حقه أن يكون شابا .

ان هؤلاء الشبان عبارة عن ابتسامة مغتصبة .. ضحكة مفتعلة .. ولكنها فرصة ليتعود الناس على الابتسام والضحك .. على أن يعطوا أنفسهم اجازة اجبارية من الروتين ، من الغم الروتينى .. أو الروتين الغم .

لقد جرب الناس أن يموتوا كمدا فلماذا لا يجربون أن يموتوا ضحكا ؟ .. أو أن يتعلموا الحب .. مهما كان غامضا .. ومهما كانت المرأة غامضة ، فليست هى الغموض الوحيد فى هذه الحياة .. أو فى هذا الكون !



الجنة الزائفة : ل.س.د

جرام واحد من هذه العجينة قادر على أن يدوخ عشرة آلاف شخص .. و كيلو جرام واحد قادر على أن يحول كل سكان القاهرة الى أناس يتشقلبون على الأرض ويرددون في نفس واحد : احنا مبسوطين كده .. هذه المادة اسمها : ل . س . د

وقد اكتشفها طبيب سويسرى اسمه هوفمان منذ عشر سنوات واستخلصها من نبات عش الغراب المكسيكى .. وهى مادة شفافة لا لون لها ولا رائحة .. وجربها على نفسه . ولاحظ أنه بعد نصف ساعة من ابتلاعها يرى ألوانا غريبة ويسمع أصواتا عجيبة .. تل انه يسمع صوت الألوان ويشم رائحة الموسيقى .. وينسى من هو ولا أين هو ولا معنى لشيء مما حدث .

وأعاد التجربة . وسكت وانتشرت أخبار هذه المادة المثيرة وأمكن لعدد من العلماء أن يستحضروها فى المعامل وايتقلت المادة من سويسرا الى أمريكا .

وفى أمريكا تحمس لها أساتذة الجامعات . وأقام أحد الأساتذة مستعمرة خاصة بالشبان .. وخاصة بالذين قرروا أن « يسافروا » الى العالم الآخر .. وهناك سفريات سريعة .. وسفريات بطيئة . فالذى يتعاطى هذه المادة فى حقنة « يسافر » بعد دقيقتين .. والذى يبتلعها فى مادة سكرية يسافر بعد نصف ساعة .. وهذه « السفرية » تستغرق عادة ثلاث أو أربع ساعات . والكمية التى يحتاج إليها الفرد هى جزء على عشرة آلاف من الجرام ..

ولا أحد يستطيع أن يحصى بالضبط عدد الشبان والشابات الذين يتعاطون هذا العقار العجيب .. أنهم بالملايين .. وكلهم من الشبان الذى لا يتجاوز العشرين .. وليس على الشاب الا أن يدفع دولارا ويأخذ تذكرة السفر الى عالم آخر .. وحتى بعد أن يذهب مفعول ل.س.د. فإنه يظل سعيدا يسمح الأنفام والعطور من

العالم الآخر .. تماما كالذى يهبط من الطائرة وازيز محركاتها فى اذنيه .. او الذى يبرح الباخرة الى الشاطئ ويحس أن الأرض تشبه موج البحر تعلو وتهبط ..

ملايين الشبان يتمرغون على الأرض ويلتصقون بالجدران يستسلمون لهذه الجنات الزائفة . وعشرات الألوف من الأدباء والشعراء والأطباء الأمريكان يرون أن هذا سلوك طبيعى .

فليس أمام الشبان الا أن يهربوا من المجتمع الكبير الذى يطحن القيم الانسانية ، والذى يسحق كل شعور بالحرية الفردية .. وما دام الشبان الأمريكان يرون أن المجتمع لا يعطيهم شيئا ، وأنه يسوقهم سوقا ، ويلسعهم بكرابيع الدعاية ، ويكويهم بالخوف من أعداء الرأسمالية فليس أمامهم الا أن يركنوا بجوار الحوائط ولا أن يهربوا من هذا العالم الصناعى الاحتكارى المخيف الى عالم آخر ، ليس فيه احد من الناس .. بل كل ما فيه أشجار زرقاء وذهبية وداميسة .. وثمانين ثمر على الأوراق .. وأوراق لها أفواه .. وأفواه لها شوارع .. وشوارع لها حقائق ثمارها من نساء جميلات .. وكل شئ نائم هادئ .. وكل شئ يغنى فى هدوء .. وملايين من الصور الغريبة التى يتغذى عليها هذا الشباب الذى يشبه « طرح البحر » الأمريكى ..

وليس هذا أسوأ الهرب الوحيد الذى يلجأ اليه الشبان .. فمن كل عشرين شخصا فى أمريكا ينتحر شخص حتى الموت ..

ولكن عشرة أمثال هذا العدد يحاولون الانتحار ، ويتم انتحارهم بشكل أو بآخر .. والهرب من المسئولية نوع من الانتحار ..

وإذا كان الهرب من المسئولية سلوكا اجتماعيا عاما ، فإن هذا يعتبر نوعا من التخریب الاجتماعى .

وقد تندهش لهذا السلوك الفردى والجماعى من الشباب الأمريكى وقد تتساءل لماذا يهرب شباب أغنى دولة فى العالم .. ما الذى ينقصهم .. ما الذى يخيفهم من الحاضر والمستقبل مع أن أمريكا حلم من أحلام المعبدين فى الأرض ..

وهذه التساؤلات سببها طبعاً ما نراه فى الأفلام الأمريكية : كل شئ جميل . وكل شئ سهل . وكل النساء فى جمال كانديس برجن وكل الرجال أغنياء مثل روكفلر . محبون للسلام مثل كنيدي . ويبغضون العنف مثل مارتن كنج . وكل مشكلة لها حل : انظر ما يفعله جيمس بوند . وكل مرض يمكن علاجه بقرص سحرى ..

لا شئ من هذا فى أمريكا .. انها جنات صناعية .. زائفة .. انها انواع من المخدرات الانيقة . التى استغلت أروع ما وصل اليه الإنسان فى صناعة العدسات والصوت والضوء والطباعة .

ففى أمريكا عشرات الملايين من الجوع والمرضى . وفى أمريكا أناس لم يروا العواصم الكبرى . وفى أمريكا أناس يساقون كالأغنام الى ميدان القتال وللدفاع عن قضايا

لا يعرفونها وضد شعوب لم يسمعوا عنها من قبل .. وفي أمريكا أناس اعترضوا على الحرب .. ورفضوا الاشتراك في القتال .. ودخلوا مستشفيات الأمراض العقلية لأنها أهون من القتال المجنون .. وفي أمريكا هيئات منظمة لارتكاب الجريمة ضد الأبرياء .. وشركات وهمية للنصب والاحتيال .. وفيها أعظم تجارة للرقيق الأبيض .. وفيها أعظم شبكة لتجارة المخدرات .. وفيها يقتل كنيدي في عز الظهر فلا يدري أحد من الذي قتله .. ولا يبقى إلا أن تعلن أرملة كنيدي أن زوجها انتحر .. والا إن تعتذر للشعب الأمريكي الذي بدأ يضيق بالبحث عن القاتل ..

وفي أمريكا شباب ضال .. ضائع .. متشرد ..

وفي أمريكا أيضا هيئات تبحث عن أدوية لعلاج الضالين .. وشركات تبحث عن أدوية مضادة ..

وتنشر الصحف والتلفزيون هذه الإعلانات : كيف تضيع وأنت سعيد ! وكيف تجد نفسك وأنت سعيد ! وكيف تكون سعيدا دون أن تدري ؟

ولا يهم أبدا ما الذي يصيب الفرد .. ولكن المهم جدا هو أن يشتري الفرد هذه العقاقير .. هو أن يدفع .. هو أن تكسب هذه الشركات ولو راح ضحيتها ملايين الناس .. أن الناس تجارة تبيعها الشركات للشركات ، يبيعها النصابون للصوص ! أن أمريكا « الأخرى » هي التي يهرب منها الشبان .. وهربهم هذا يدلنا على أعماق المجتمع الأمريكي .. على حقيقة المجتمع الذي لا نراه .. والذي نختفي وراء الشاشة .. ووراء ناطحات السحاب ! ..

والصورة الصادقة للمجتمع الأمريكي هي التي تظهر على المسرح .. ولا يمكن أن تظهر على الشاشة .. ففي المسارح تجد القتال والدم والعنصرية والظلم والبطش .. وتجد سخط الكتاب وانفنايين على الحياة الآلية التي تطحن الانسان في كل أمريكا .. ومثل هذه الصرخات الفنية العميقة لا يمكن أن تظهر على الشاشة .. لأنها تفضح المؤامرات السينمائية الفخمة .. ولأنها « تغم » الناس .. وتؤكد لهم أنهم « مغفلون » .. ومثل هذه الإهانات المدروسة تطرد الناس من أمام شباك التذاكر .. ولذلك يجب أن تبقى المسرحيات كما هي .. أما الشاشة فهي « الجنة المزورة » وهي « الفردوس » الذي يحلم به الجائعون في أمريكا وخارج أمريكا ..

واكن الشباب الأمريكي اعتاد على هذه الجنات التي لا يراها في بلاده .. وأن كانت الصحف والتلفزيون والكتب تؤكد له دائما : كيف تصبح مليونيرا في ٢٤ ساعة ؟ .. كيف تملك نصف الولاية وأنت بائع متجول ؟ كيف تكون عضوا في مجلس الشيوخ وأنت رئيس عصابة ؟ .. أي أن كل شيء ممكن .. وأنه لا نهاية للطريق الذي يمشي فيه الانسان .. وأن السماء قريبة جدا .. وأن الله إذا كان قد خلق سبع سماوات .. فان أمريكا استطاعت أن تضيف سماء ثامنة .. هذه السماء هي التي يعيش فيها النجوم ومديرو الشركات وأعضاء الشيوخ ..

أما السماء التاسعة الجديدة .. والتي تقرب وتبعد حسب الطلب فهي من صنع هذا العقار ل.س.د .

وعشرات الكتب قد صدرت تؤكد أنه أعظم دواء .. وأعظم احتقار للمجتمع الأمريكي .. يكفي أن يبلغ الشاب هذه الحبة الضئيلة جدا ليكون مثل أعظم شيوخ وفي احضان كواكب السينما .. مع أنه لم يبرح مكانه ولم يتكلف الا دولارا واحدا . وإذا كان المجتمع لا يعطيه شيئا ، ففي استطاعته أن يأخذ كل ما يريد .. وفي الوقت الذي يريد .. وأن يكون مواطنا وحاكما في دقائق .. وأن يكون اللص والعسكري الذي يطارده .. ثم الذي يعاقبه بعد ذلك .

اذن لقد نجحت هذه التجربة .. وهي تجربة أن ينسحب من الحياة العامة ملايين الشبان وأن يحلموا وعيونهم مفتوحة بعالم أفضل ودنيا أحسن . وجنات تجرى من تحتها أو من فوقها الأنهار دون أن يموتوا .. بل وأن يعودوا اليها كلما أرادوا ذلك ..

وما دامت التجربة الخطيرة قد نجحت في اسكات الشبان والالقاء بهم على الأرض وفي الحدائق .. وقطعت السنتهم عن السخط على الانحلال والفساد والظلم في المجتمع الأمريكي وحذفتهم نهائيا من الحساب ، فلا بد من التوسع في هذه التجربة .. والتوسع في القاعدة التي تعناد على السياسة الأمريكية . اذن لا بد من تصدير هذه الجنات المزيفة الى الخارج ..

وفي الفصل الاخير من الكتاب الذي اصدره الدكتور سيدنى كوهين وعنوانه « ل . س . د . لكل الناس » تراه يقترح استخدام هذا العقار ضد العدو .. فمثلا اذا اقلت احدى الطائرات كميات من ل . س . د . المركز على مستودعات المياه النقية في أية مدينة ، فان أهل هذه المدينة سيتحولون الى جثث عاجزة عن الحركة . فكل من يشرب من هذا الماء أو يغسل به عينيه أو قمه .. أو يضعه في شراب أو طعام سوف ينهار ويحلم كما يفعل الشبان الأمريكيان .. بل أن أية طائرة تلقى بمسحوق من هذا العقار في جو أية مدينة فان استنشاق هذا العقار يؤتى نفس النتيجة . بل أنه من الممكن أن يحول الناس الى جنون الضحك بلا توقف أو هysteria البكاء أياما .. أما القوات العسكرية فسوف تلقى نفس المصير ..

ويرى الدكتور كوهين أيضا أن في استطاعة غواصة أن تقترب من الشاطئ وتطلق هذا المسحوق من أحد مدافعها - وتجىء الريح فتنتقل هذا المسحوق الى المدينة أو الى أكثر من مدينة .. والنتيجة معروفة ..

وأكثر من ذلك أنه يكفي أن يذهب وفد دبلوماسي لمقابلة رسمية في أية دولة .. وعن طريق الدخان الذي يتصاعد من السجائر يصاب هؤلاء المسؤولون بجنون انفصال الشخصية .. ان الدكتور سيدنى كوهين يؤكد لنا أنه لانهاية للفوائد العظيمة التي تجنيها أمريكا من وراء استخدام هذه الحرب الكيميائية . فهي قادرة على اسكات الشبان الساخطين ، وعلى اسكات أعدائها في أى ميدان ..

ويقول أيضا - من باب الرفق بالأعداء - أنه في استطاعة أمريكا اذا أضافت بعض المواد الأخرى الى ل . س . د أن تصيب أعداءها بجنون الضحك .. ومعنى

ذلك أن تسقط المدن أمام القوات الأمريكية وتكون ضحكات الشعب المهزوم هي اعظم تحية لهم !

وفي نفس الوقت تكون هذه الحرب الكيميائية هي خير الطرق لكسب الحروب دون أراقة لدماء . !!

وعلى ذلك فإن أمريكا لن تحتاج الى اطلاق رصاصة ولن يفعل العدو ذلك أيضا . . لأن نسبة التركيز العالية لهذا العقار تصيب كل من يدوقه أو يستنشقه بالاستسلام التام . .

وإذا أراد الأمريكان أن يذهبوا الى أبعد من ذلك فإنهم يستطيعون أن يحصلوا على كل المعلومات التي يريدونها من القواد العسكريين ورجال المخابرات العادية عن طريق حقنهم بهذا العقار . . وقد جرب الدكتور كوهين هذا الحقن في الحصول على المعلومات فلاحظ أن تأثير هذه الحقن هائل . فيكفى أن تسأل الجندي أو القائد عن الخطة التي كانت عنده . . فيقول كل شيء وبالتفصيل . . ومن الغريب أن هذا العقار يقوى الذاكرة وخصوصا فيما يتعلق بالأرقام .

وكل الشبان الأمريكان الذين يتعاطون هذا العقار يذهبون من تلقاء أنفسهم الى اقسام البوليس ويعترفون ويذكرون أسماء زملائهم . والأماكن التي يسافرون منها . . أو يسافرون وهم نائمون على أرضها . . ولذلك لا يبذل البوليس الأمريكي مجهودا كبيرا في معرفة أسرارهم . وليس في حاجة الى أن يضع الميكروفونات الصغيرة في جيوب الشبان أو فساتين السيدات ليعرف أخبارهم وأسرارهم . . أن الشبان يذهبون ويعترفون ولذلك فعقار ل . س . د . أحسن مادة يمكن استخدامها لفسيل المخ . .

ومن الغريب أن عددا كبيرا من أساتذة الجامعات والمحامين والقضاة ورجال الشرطة أصبحوا من مدمني هذه الرحلات الخيالية !

أذن ليس الشبان وحدهم هم الذين قرروا الهرب من الدنيا الجديدة . . بل أن هناك عددا هائلا من الرجال العقلاء أيضا . . وليس الشبان المراهقون المتعجلون للنهاية السعيدة بلا مجهود كبير بل أصحاب التجارب أيضا . .

ولو كانت أمريكا جنة لأبنائها من الشبان والرجال ، لما « رحل » منها هذا العدد الكبير من الملايين . . لو كانت جنة حقيقية ، ما هرب أبناؤها الى هذه الجنات الوهمية . . أن أمريكا شيء آخر وصورة أخرى غير التي تراها على الشاشة : أنها برواز توضع فيه صورة أنيقة لجنات وهمية . . ولكنها ذات ربح مؤكد !

وأمريكا كدولة صناعية كبرى تقوم بتصدير فائض الانتاج الى الدول الأخرى فتصدر فائض الأوهام والأحلام . . فائض الجنات . وبذلك تتحقق العدالة بين الناس فيتساوون في البعد عن الحقيقة ، وفي محبة المخدرات . . والاستسلام لأصحاب الشركات الأمريكية !

كلمات معقولة .. وأفواه مجنونة !!

الباب طويل وعريض ومظلم . ولابد أن الخيول والأبقار التي عبرت هذا الباب تعد بالآلاف فما تزال آثارها ورائحتها عالقة بالباب والجدران . . أما الموسيقى التي تدفعنا إلى الشارع وتصعدنا عن الدخول فهي صهيل وعواء ونباح وصياح وصراخ .

ولابد أن هذه الخيول قد أحرقوها لسبب ما ، فهناك رائحة لحم يحترق . . ولم يتسع الوقت لكي أعرف بالضبط ما الذي أشمه وما الذي أسمعته وما الذي أراه . . لقد مددت قدمي . . وتلمست الجدران . . وأعطيت التذكرة التي في يدي . . وامتدت يد ومزقتها بعناية واضحة . . ودخلت . . وانحشرت . . وكان لابد أن أمشي وراء أمواج الأجسام السمراء في الظلام .

ودخلت ودخلت . . واتسع المكان وسالت دماء الصخور على الجدران . . وكان السقف قد ضرب بألف سكين ، لأن كتلا من اللحم سنجابية اللون تتدلى منه . . ولأن عيوننا مفتوحة وأعمدة فقرية وسيقاننا مكسرة . . كلها تتدلى من السقف . . أو تنبت من الجدران . . وكلما شدتها جاذبية الأرض : ارتفعت الموسيقى فالصقتها في مكانها من السقف أو من الجدران . .

ورأيت بعض الشبان قد أسندوا ظهورهم إلى الجدران على الأرض . . وبسرعة وجدت لي مكانا . . وأعتقد أنني فقدت حاسة الشم والسمع والبصر . . فكل شيء ملئ بالضباب أو هو الضباب . . الأصوات كثيرة ومتداخلة . . والروائح لم تعد خاصة بالحيوانات وإنما بالإنسان والدخان ولا أعرف أي أنواع الدخان هذا . . وكنت الوحيد الذي يطمس ويسعل . . وكنت المح بعض العيون ترمقني بدهشة ولحسن الحظ لم أكن وحدي وإنما غيري كثيرون قد تسللوا بفضل شركات السياحة إلى هذا المعبد معبد الهيبز والساخطين على كل ما في الحياة . . حياتهم وحياة آبائهم وأبنائهم . .

وتعالت الصرخات .. ولا أعرف مصدرها . وفي أحد الأركان وقف شاب ..
طويل أبيض .. طويل الشعر .. ووضع أمامه أناء به بخور .. والبخور يلف جسمه
.. جسمه العريان تماما .. تماما .. وتعالت أصوات تقول له : انه يجب أن يخلع
حذاءه أيضا .. ويظهر أن هذا الشاب قد نسي أن يخلع حذاءه .. أو هو حاول أن
يلفت النظر إلى أن الهيبيز يجب أن يتجردوا من كل شيء .. وخلع الحذاء .. ثم
اتخذ شكل رجال الدين .. ورفع رأسه إلى السقف .. فتدلى من السقف عدد
كبير من الأحذية وعلامات الاستفهام وصور عدد من سفاحى البشرية وقد شنقوا
جميعا .. وفي هدوء تم إعلان الشاب : أن الصلاة مستمرة .. والطقوس أبدية ..
والغضب لا حد له .. والضمير قطعة غيار لا معنى لها .. فإذا كان هناك ضمير فليكن
من نصيب كل الناس .. لا نحن فقط .. الآباء أيضا .. الحكام أيضا .. وليس
الصفار فقط .. والشبان فقط .. وتلفت في هدوء وقد استدارت حول رأسه هالة
من النور .. وارتفع على الحائط صليب وقل : ان المادة الأولى من البيان تقول : لا
يمكن أن يوصف الواحد منا بأنه « هيبي » الا اذا كان حرا متحررا .. والا اذا
كانت حرته مطلقة حتى الموت .. والموت أهون من حياة المحافظين الجامدين
المتزمتين .. الذين لا يتعبون من كلمات : يجب .. ولا بد .. وحتما .. ومن الضروري
.. ورغم أنفك .. والنار لك في الآخرة ، واللعة عليك في الدنيا ..

وهنا صرخ الشبان .. ووقفوا يرفعون أيديهم تماما كما يفعل أهل جزيرة بالي
.. وتساقطت الفتيات الصغيرات .. ولم تمتد يد لانقاذ الفتيات بل ظلن يصرخن
ويتوجعن .. ولم استطع أمام العيون الحمراء والنظرات الزائفة لا أن أسأل ولا أن
أنظر إلى الأمهات اللائى حملن أطفالهن الصغار .. والأطفال يكون أيضا ..

وبسرعة غريبة انتقلت الفتيات وأطفالهن إلى الظل .. إلى شق مظلم في الجدار
.. ولم يعد أحد يسمع منهن شيئا ..

واختفى الشاب في الظل .. ثم عاد بسرعة يقرأ وقد أدار ظهره للحاضرين :
المادة الثانية تقول ان هذا المجتمع الأمريكى صناعته الكذب والذي يكذب أكثر
يكسب أكثر . والذي يكذب على أكبر عدد من الناس ، يصل إلى أعلى المراكز ..
ان جونسون كذاب .. كان وما يزال في نظرنا .. اننا لا نحارب من أجله .. ولا نحارب
باسمه .. ولماذا لا يذهب جونسون إلى الميدان الآن .. انه قد أصبح عاطلا -
يتقاضى مائة ألف دولار ...

وتعالت الصرخات .. وتناثرت كلمات لا أفهمها من كل مكان .. وعاد الشاب
إلى الكلام ..

وظهرت فتاه صغيرة حلوة .. عمرها لا يزيد على عشر سنوات .. الوجه
مستدير .. العينان زرقاوان الشعر ذهبى .. ان وجودها في هذا المكان : جوهرة في
الوحل .. ملاك في زريبة .. قمر على كوم تراب .. وتعالت ضربات الطبول من
أجلها .. والتف حولها عدد من الشبان العراة وفي أيديهم المباخر وداروا حولها ..

وتطاعت الفتاة الى السقف .. ثم أنشدت قصيدة من نظمها تقول فيها : الحب ان
اقبل القدمين والسافين . وأنشفتين .. وان اخلع خجلى قبل ان اخلع ملابسى .. و ..
ومن المؤكد ان الذى أحسست به هو مفص شديد .. وقرع أغرقنى وفاض
من عينى فلا أريد ان أرى وسددت أذنى ونفسى .. وأحسست أنها جريمة لا استطيع
ان أعترض عليها ولا أستنكرها .. ولا أعرف كيف أنساها .. ولكن بسرعة قامت
عمليات تعويض فى داخلى .. وأضيفت هذه الجريمة الى ملايين الجرائم الأخرى
التي لا أعرفها ومن أناس أعرفهم .. واكتفيت فقط بأن أعلنت استنكارى بينى وبين
نفسى ولم أكتف بالاستنكار بل رفعت صوتى عاليا وقلت : اخس ! - ولم يسمعها
أحد طبعاً .

ولكن من الضرورى ان يقول الانسان أحيانا مثل هذه الكلمات - حتى بينه وبين
نفسه ..

وظهر شاب آخر قصير القامة له كرش .. وقد تغطى صدره بالشعر الأسود ..
ووقف منظره القليظ الأبيض على أنف حاد .. وكانت له حركة عصبية فى ذراعه
اليسرى .. فهو يهزها يمينا وشمالا .. ثم يهرش .. ثم يعود الى الاهتزاز .. وانوا
له بمقعد فجلس .. وجاءت فتاة تبيع الورود .. وأعطته وردة .. وراح يرقص كآية
واقصة ثم يلقي بالورود على الناس .. وفى براعة واضحة ألقى الورود على السيح
الموجودين .. وأصابتنى وردة فى عينى ، وتخلصت منها بنفس السرعة .

وأخرج الشاب ، ورقة وراح يقرأ : شعارنا هذه الليلة : الشاى : جاى .. والقهوة :
شهوة .. والحشيش : لديد ..

وراح يتحدث عن مضار القهوة والشاى وفوائد المخدرات وأسماء المشاهير
الذين كنوا يتعاطونها فى التاريخ .. وانه لولا أن بعض العظماء يصابون بالأرق
الشديد ، لكانت الانسانية أسعد حالا .. ان الخوف هو الذى يجعل العظماء يخافون
من النوم .. ولكن الخوف هو الذى يجعل الصغار يخافون من اليقظة .. ولذلك
ينامون وينامون ..

ثم سقط على الأرض نائما .. وتساقط الحاضرون جميعا .. وناموا .
شبان وشابات .. ابحوما بشرية تعلو وتهبط .. والموسيقى تغطيهم بأكداس من
النشاز .. وتدفيهم بالطبول .. وتدغدغهم بالنفير .. واعتدلوا .. وهدأت الصرخات
.. وجاء شاب ثالث وضرب بقدميه ذلك الشاب النائم على الأرض .. فوقف فى هدوء
وفى نغمة جميلة سليمة متزنة . قال : يتحدثون عن الحقيقة العارية .. أين هى
الحقيقة العارية .. بل أين هى الحقيقة .. اننا لا نجد الا حقيقة عارية من كل حقيقة
.. اننا تعلمنا فى المدارس « ان المسرح - مثلا - هو صورة المجتمع .. وان المجتمع
يجب أن يرى نفسه على المسرح فلم أجد نفسى ولا وجدت أحدا أعرفه .. ان
المسرحيات تفرض علينا أناسا لا نعرفهم وتندق فى ألواحنا مسامير موجهة .. فمن
الذى قال ان ألواحنا تستسلم لمساميرهم .. من الذى قال ان مساميرهم قد أعطيت

حق الدخول والخروج في وعينا .. ان الحقيقة العارية يا اخواني هي أن هؤلاء الناس يجب ان يكونوا عراة لنبصق عليهم .. هذه هي حقيقتهم العارية .

وتعالت الصرخات وكدت أخفى وجهي في يدي .. فقد توقعت أن يتصور أحدنا نحن الأجانب فد جئنا اليهم مندوبين عن هؤلاء الذين يستحقون ان يكونوا عراة ليستحموا في هذا الاحتقار . ولكن الهيبيز ظلوا جالسين .. وقد استعادوا بعض هدوئهم ورزانتهم - ان هذا الشاب ممتاز الأداء والفكر لولا هذه الصورة العارية البشعة التي اختارها اطارا لهذه الكلمات البليغة .

وابتلعه الظل .. فقد انطفأت الأنوار .. وجاء شاب كأنه يكتم الضحك . ولم يكذب يراه الشبان حتى تضاحكوا أيضا . وضرب كرشه بيده . ولم يكن له كرش .. وشد أنفه بيده ، وكان أنفه قصيرا .. وحاول أن يعرض شفتيه فلم يجد شفتيه فهما رفيعتان كأنه أكلهما قبل أن يجيء .. وقال : أيتم تعرفون أنني جئت من البيت توا .. ولا بد أن يجيء الانسان من مكان - ومعنا أناس جاءوا من أركان العالم .. واحد من الهند .. وثلاثة من اليابان .. وأربعة من هونج كونج وعشرون من فرنسا .. وواحد من إنجلترا .. وواحد من مصر .

واندهشت لذلك فلم يدر بيني وبين أي انسان أي كلام .. ولا أظن أن ملامحي في الظلام مصرية صارخة .. ولكن لا بد أن هذه المعلومات قد أخذوها من مكتب السياحة .. وهذا يدل على أن هذا الذي أراه عرض منظم دقيق .. وانها تجارة رابحة . وأنه ليس صحيحا أنهم جميعا قد فقدوا عقولهم .. وأن هناك إدارة تعرف كيف تدبر .. وأنهم مثل البارمان الذي يقدم الخمر للناس ولا يذوقها حتى لا يخطيء في الحساب .. أو لعله يستفيد من خطأ الزبائن السكارى .

وعاد يقول : لقد كان أبي وأمي يتشاجران .. انها نفس القصة .. من الذي اختار الآخر .. أمي تقول ان والدي اختارها .. وأبي يقول ان أمي هي التي اختارته .. ولا أعرف كيف أن اثنين قد تورطا في هذه القصة ثلاثين عاما .. ولكن حتى اذا لم يصلا الى حل ، فعندي الجمل : انني لم اختر واحدا منهما .. ولو اتيجت لي الفرصة من جديد فأنني لن اختارهما .. انهما لا يشجعان ان يكونا مصدرا لحياتي .. انهما صورة للرضا العاجز ، وأنا نموذج للسخط القوي .. انهما الماضي الذي يجب ان ندفنه .. ونحن صورة للمستقبل الذي يجب ان نشيده .. ان هذه الوقاحة قد ورثتها عن أمي .. غير ان أمي تستخدمها في شيء واحد فقط هي أن تفضح أبي كل يوم في التليفون وتؤكد لكل الناس ولبائع اللبن بصفة خاصة ان أبي عاجز عن كل شيء بعد الغروب ومنذ أكثر من ثلاثين عاما !

ويتعالى الضحك والصراخ ويدور بينه وبينهم كلام لم أتبينه .. ويتراشقون بعبارات كالقنابل بتفجر لها الجميع بالضحكات .. ولولا هذه الضحكات لما ات الجميع من الإخفاق . وابتلع الظل .. ويظهر شاب عملاق .. وتتسلط عليه الأنوار الحمراء .. وتنقل في جسمه وتتركز على قلبه .. ويبدو لنا كأنه يقطر دما ويتلفت الشاب

.. ثم ينظر في الجالسين أمامه .. ان عددهم لا يقل عن مائة شخص .. اكبرهم سنا لا يزيد على ثلاثين عاما .. واكثرهم من الفتيات فهن أطول شعرا وأنحف قواما .. واشد اسرافا في التدخين واكثر الحاضرين ضحكا وصراخا .. وجراة أيضا .. ويسود ينظر الى الحاضرين ويختار من بينهم فتاة .. ويشير اليها فتنهض وينهض معها الفتى الذى تعلق في فستانها القصير .. ولكنه يعود فيجلس وحده على الأرض .. وتنصب عليها الانوار الدامية .. فتخلع حذاءها فقط .. ويقرب منها الشاب العملاق .. ويلعب في شعرها ويفطى وجهها .. ويقبلها من فوق الشعر ومن تحت الشعر ويلفه حول اذنيها .. تم يخنقها به .. ويقبلها ويقبلها .. ويبتلعها الظل .. ويعود هو الى الانوار التى أصبحت شاحبة .. ويمسح عرقه .. ويخرج ورقة ويقول : قالوا .. وقالوا .. وتعبوا وتعبنا .. وعادوا يقولون وتعبنا .. ولن بتعبوا .. ولذلك يجب أن نسد آذاننا وننشفل بشيء آخر .. واذا كانوا يريدون أن نسمعهم بالقوة فلن نقطع آذاننا .. وانما عليهم هم ان يقطعوا السنتهم وان يريحوا ويستريحوا .. ان العالم يحكمه اناس لهم شعور قصيرة .. ولذلك اطلنا شعورنا .. وبحكمه اناس لهم صلعات لامعة وقد تجاوزوا الثلاثين جميعا .. ولذلك يجب أن يكون هناك اناس أقل من الثلاثين يعيدون تنظيم الحياة .. واناس يفكرون وهم يشمون القهوة .. ولذلك نكرها .. ويذهبون الى مكاتبهم بعد ان يمسحوا اجسامهم من كل ما يجعل له رائحة الانسان .. انهم رجال من الصابون والعطور والبودرة والهدوء والهمس واللمس والكذب .. ولذلك لا نريد أن نكذب .. اننا نريد أن نكون الانسانية التى لا تخجل من انسانيتها .

وانتفض واقفا يقول : من الذى يخجل من انسانيته .

الجميع يقولون : لا .. وقد كان جالسا على ظهر شاب ضخم ولما صفق له الحاضرون وقف على ظهر الشاب لينحنى شكرا للذين اظهروا امتنانهم له بالتصفيق .. وانلعهما الظل .

ثم اخذت الاضواء تفتح عيوننا في الجدران .. وبدأت معالم المكان تظهر .. اننى الآن في زريبة مضاعة بشكل مريح .. الجدران من الحجارة البارزة تبلغ عشرة امتار في سعة امتار .. والأرض مغطاة بالسجاجيد الحمراء اللون .. وقد تناثرت عليها طواجن من الفخار لاطفاء السجائر .. ولمحت عدد من الزجاجات على شكل شيشة .. اما الفرقة الموسيقية فهى في جانب من المكان .. ولم أكن اتصور أن هناك فرقة موسيقية وانما تصورت أن الموسيقى مسجلة وانها تصدر عن ميكروفونات في كل مكان .. وتذكرت يوم ذهبت الى الغابة في أقصى جنوب الهند .. وقال لى احد الصيادين بعد لحظات سوف يزار الأسد ويملا صوته الغابة كلها فترتبك الحيوانات ولا تعرف اين تهرب لأن الصوت يجرى في كل جانب .. وكثيرا ما اتجهت الغابة الى انياب الأسد دون ان تدري .

اما ملامح الشاب فيمكن ان اصفها بوضوح .. ان الوجوه شاحبة .. واللامح لا أقول مجنونة وانما شديدة الحساسية .. والفتيات لا أقول غائيات .. وانما

فتيات شابات حلوات .. لو ارتدت أية واحدة منهن فستانا جديدا وغسلت وجهها .. ووضعت رأسها تحت الدش ، وسحبت شعرها الى الوراء قليلا ونزلت في مطار القاهرة لتعاقد معها معظم المخرجين بالتليفون على عشرين فيلما وتنشر الصحف أن المخرجين قد تعاقدوا معها ومعهن مدى الحياة .

وكان السماء قد صبت كل ما في سحبها من مطر على هذه الأضواء فانطفت فجأة .. ظلام تام .. وهدوء الا من عطس وسعال انعزجب لهما .. ولما عرفت اننى الذى أعطس وأسعل ، اعتذرت لمن حولى فى الظلام ..

وتحت ضوء مرتجف وقف شاب كان من الممكن أن يكون أحد القساوسة الذين أمروا باحراق المسيحيين واليهود فى أسبانيا أيام محاكم التفتيش .. ففى عينيه قسوة وعلى وجهه هدوء .. وفى أصابعه رقة وفى ذراعيه عضلات .. وقفصه الصدرى يتسع لذئب وهو يعزق طفلا .. وأسنانه فى لون شفتيه : سوداء .. وانتظرنا ما الذى سوف يفعله .. انه ما يزال ينظر الى السقف .. ثم يعود وينظر الى السقف .. ثم يعود وينظر الى السقف ثم يطيل النظر الى جانب من القاعة .. لعله الباب .. ويخرج ورقة ويقرأ : ما هى هذه النكتة .. ان الذين جاءوا يتفرجون علينا قد ظنوا اننا حيوانات .. واننا وحوش .. اننا لا نختلف عنهم فى شيء .. اننا نحن الذين نتفرج عليهم .. ان عندنا الشجاعة ان نخلع ملابسنا .. وليست عندهم هذه الشجاعة .. ان اكثرنا يملك سيارة .. وفى السيارة خلع ملابسه .. واكثر الزوار لا يملكون سيارة .. ان سياراتهم احذيتهم .. وملابسهم جدرانهم .. وهم كالمساجين يراقبهم البوليس اذا دخلوا واذا خرجوا . فلوسهم مودعة فى البنوك .. لانهم يخافون أن يسرقهم أحد غيرنا .. ومع ذلك يجدون الشجاعة فى أن يقولوا ان كل الناس خارج هذا المكان لصوص .. وهم بالفعل لصوص .. هذه شجاعتنا وصراحتنا .

وعاد يقول : النكتة يا اصدقائى فى السلام .. وشركائى فى سرير النسيان .. واحبائى فى متاهات الخوف .. النكتة ان احدا لا بد ان يفهم هذا الذى نعمله .. اننا مطالبون بأن نقول للناس : ما معنى هذا كله .. ومعناه بصراحة .. اننا حائقون .. اننا كارهون .. اننا ساخطون .. ان المجتمع الذى نعيش فيه ممزق، نصفه يكذب على نصفه الآخر .. نصفه يعد بالجنة ونصفه الثانى يبنى النار .. نصفه يصنع الكباريات ويبيع الرقيق الأبيض ، ونصفه ينتج السلاح ويكدس البارود .. نصفه يدفع ملايين الملايين من أجل أن يتمكن من الهرب من هذه الأرض الى القمر ثلاثة أو أربعة أشخاص .. فليذهبوا الى القمر الى المريخ .. وليتركوا لبا الأرض .. اننا من اهل الأرض .. اننا ننام عليها ونولد فيها وندفن فيها ولا يفصلنا عنها قميص أو حذاء .. ان الهنود هم الذين علموا البشرية معنى الحياة والاحساس تالحياة ومعنى السلام .. ومعنى التحرر من سلطان المعدة .. ومن الجوع .. اننا خائفون يا سادة ..

وقبل أن يبتاعه الظلام ارتسمت على الجدران أعمدة السجن .. وفي الظلام ظهرت سلاسل وظهر سجان .. وسجان آخر .. وظهر جنود .. وتعال الصرخات .. والدخان .. واختفت قضبان السجن في الدخان ..

وظهر في الضوء شاب آخر يحمل لافتة مكتوب عليها : من الضروري أن يعرف الإنسان نفسه لكي يضبط رغباتها ويحددها ويحررها بعد ذلك .. ولكن الخائف كيف يعرف .. وأبناء المجتمع الأمريكي خائفون .. ممزقون .. ساخطون .. انهم يقرأون عن الحرية ولا يجدونها يقرأون عن الرخاء والأمان والمستقبل ولا يحسون به .. انهم هاربون من التليفزيون والسينما والاعلانات والانتخابات والصواريخ .. انهم مثل رواد الفضاء مسجونون في أجهزة دقيقة .. تملو بالخوف .. وتحرك بالحذر وتهبط بالفزع .. وربما كان الفرق بينهم وبين رواد الفضاء .. انهم هم الذين يهربون من السجن وهم فيه .. يهربون منه بالنوم أو بالمخدرات أو بمجرد الاعتراض على الخوف ومصدر الخوف ..

ويعطينا ظهره الذي تعرى تماما .. ثم يسكت ..

انهم ضالون ضالون .. ولكن لهم أنبياء من الأطباء والأساتذة والفلاسفة مثل الشعاعر جنزبرج والطبيب ليري والفيلسوف هربرت مازكيوز .. وهم جميعا يرون أن هذا الذي يفعله الشبان شيء خطير انهم لا يقتلون أحدا ولا يوجعون أحدا .. ولكنهم يستخدمون كل ما يستطيعون من أجل أن يقولوا : اننا نرفض المجتمع الأمريكي .. وليس صحيحا أن المجتمع هو الذي رفضهم .. وإذا كانت حياتهم في الكهوف وإذا كانوا عراة .. فإن المجتمع الأمريكي قد صنع ملايين الكهوف المتوحشة التي اسمها : الكباريات .. وتفنن في تعرية النساء وبيعهن بالقطعة .. على الشاشة ومن غير الشاشة ..

فهم اذن صورة بسيطة صريحة ساذجة .. وهم اعراض لمرض اجتماعي واقتصادي وسياسي .. ولكنهم اعراض فقط ..

وليسوا هم مرضا ولكنهم لافتة مضيئة حية متحركة تقول : هنا يعيش مجتمع مريض .. يعيش بالوهم ، ويتسمر على الخوف ويستمر بالقوة ويهتز بالعنف ، ويتستر على الجريمة !

ولم تعد في نفسى أية رغبة لمزيد من الكلام العاقل الذي يقوله مجانين .. ولا العبارات الصافية التي تخنقها الموسيقى والدخان .. وخرجت اوقظ اذنى ونبه أنفى وأفرك عينى .. وفي ظلام وبرودة وفراغ شوارع لندن جعأت أسأل نفسى : عقلاء أم مجانين ..

.. اننا جميعا سواء ؟!

وانت جميل تحب الجمال

لو فوجئت قبائل النوير في السودان أو قبائل الأرونتسا في استراليا بوجود فتاة مثل أودرى هيبورن بينها ، فلن يفكر في الزواج منها أحد ، وأول ما يفكر فيه هؤلاء الناس الطيبون هو أن يبكوا من أجلها بعض الوقت . ويصلوا لله بعد ذلك ويشكروه لأنهم لم يخفقهم بيض اللون مثل هذه الفتاة التي يرون أنها مريضة فقيرة . فهي مريضة لأنها نحيفة : ليس في جسمها سوى أوقيتين أو ثلاث من اللحم ، وهي فقيرة لأنها نحيفة أيضا . فلو كان أبوها غنيا لأطعمها اللحم والبن وجعلها تنام طول النهار حتى يمتلئ جسمها وتجعل في خدمتها جاريتين تسندانها عندما تقف وعندما تجلس .

ولو عاشت أودرى هيبورن في أيام الجاهلية لظلت طول عمرها في ركن من أركان بيتها ، لا تخرج من البيت لأنها عورة وعار على أهلها . وأسوأ دعاية لقبيلتها ، يكفى أنها نحيفة . أي مجردة من الشحم واللحم ، أي مجردة من الجمال . ومن كل ما يتير عين الرجل ويده . والرجل يشيره ما تراه العين فالإنسان حيوان بصرى يعتمد على عينيه . وعلى ما يملأ عينيه . . واللحم هو الذي يملأ العين . أما العظم « فيطرف » العين . ولا يزال الرجل قادرا على أن يلمس المرأة كلها بعينيه وكثيرا ما أحست المرأة أمام الرجل وهو ينظر إليها أن عينيه توجعناها وتجردانها من ملابسها ومن ارادتها أيضا . والرجل يتوكأ على عينيه إلى أن تقترب منه المرأة الجميلة فيعتمد على اللمس وبعد ذلك على الشم . . ثم بقية الحواس .

ولأن الرجل - حتى اليوم - يرى أن المرأة الجميلة هي « الشيء » الممتع فهو يريد أن يكون الجمال . يستسلما ليتمكن من امتلاكه والسيطرة عليه . . حتى تكون المرأة على هواه .

ولكن المشكلة دائما كانت هي : ما هو « هوى » الرجل ؟ وما الذي بهواه ؟ ولماذا ؟ ..

في معظم القبائل البدائية كان الرجال يفضلون المرأة المليانة جدا . ويرون أن الجمال هو اللحم والشحم .

وما دام الجمال هو اللحم والشحم فالمرأة الجميلة هي التي لا تستطيع أن تمشي . وإذا مشيت وقعت . وإذا وتعت تساندت على جذع شجرة أو على كتف خادمه . وإذا حاولت أن تنهض لم تستطع ، ولذلك يجب أن تكون بالقرب من شجرة لتساند عليها أو تخف لمساعدتها خادمة أو اثنتان أو ثلاث . . . والعرب وصفوا هذه المرأة بأنها « شيلة جمل » . . . وكانوا يقولون أن المرأة الجميلة هي التي إذا اقتربت منها كانت تمشي على ست . . . وإذا ابتعدت عنها كانت تمشي على أربع . والست التي يقصدونها : الذراعان والنهدان والساقان . . . والأربع هي : ساقاها وردفاها .

والذوق العام في التاريخ العالمي تأثر بالجمال العربي . كما ظهر في الشعر العربي وفي كتاب « ألف ليلة وليلة » . . . وهو ليس كتابا عربيا فقط انه عربي و فارسي و هندي أيضا . وكذلك تأثر الذوق العام في أوروبا بمقاييس الجمال عند الاغريق والرومان .

وقد تحدثت ألف ليلة عن المرأة المشوقة القوام مثل حرف الألف ، وشعرها ليل وبياضها فضة ووجهها قمر صيف في إحدى ليالى الشتاء ، وصدرها عاج ، واردافها مخدات . وان خصرها يمكن خنقه بفتلة . .

وقد كان هذا نموذجا للذوق العربي مئات السنين ، ولا يزال ولكن في نفس الوقت ، الذي صدرت فيه ألف ليلة ، لم تكن أوروبا كلها ترى ان من الضروري ان تكون ارداف المرأة نوعا من المخدات أو اكياس الرمل . أو اكوام الرمل كما كان يقول العرب .

ومن المؤكد ان القليل جدا من الناس من يعرف ألف ليلة ، ولكن كل صفات المرأة الجميلة التي امتلأت بها صفحات ألف ليلة ، هي التي امتلأ بها خيال وأحلام الرجال في الشرق . فلا تزال المرأة الجميلة عندهم هي « الأنثى » الجميلة . ولا يزال الرجل عندهم هو « الفحل » فالجمال حسي والمتعة حسية . والرجولة حسية . وبسبب هذه المعاني تسللت المخدرات الى الشرق واقامت طويلا . .

فيما عدا قبائل « الطوارق » في شمال افريقيا ، فهذه القبائل لا تحب الفتاة التي يشيلها الجمل . وإنما تفضل نوعا آخر اسمه « العرسى » نسبة الى حيوان معروف باسم العرسة .

(وإذا كنت من أبناء المدن فسوف تجد هذا الحيوان في الكتاب باسم « ابن آوى » ، وإذا كنت من أبناء الريف فأنت تجده تحت النافذة . .) والعرسة لها جسم مليان باللحم وخال من العظم ، ولكنها سريعة الحركة . . أما بنات الطوارق فلهن عادات غريبة فهن يشربن اللبن ويأكلن البلح . ثم يتمرغن ساعات طويلة على الرمل ، والتمرغ على الرمل رياضة وتدليك للجسم . ويمكن أن يقال ان فتيات الطوارق هن أجمل نساء الدنيا عندما يبلغن السادسة عشرة . . واية واحدة يمكن تتويجها كأجمل عرسة عرفتها كل حدائق الحيوانات وكل الغابات .

وفي نيجيريا يفضلن المرأة التي تمشي وكأنها تخوض في البرك والمستنقعات - أي تمشي وتكاد من كثرة اللحم والشحم أن تقول أنها ليست امرأة واحدة ، وإنما هي امرأة وعلى صدرها طفلان وأمسك بثوبها من الخلف أربعة وتدلى من كتفيها اثنان أيضا .

وفي قبائل الماساي الإفريقية يرون أن المرأة النحيفة هي لعنة . أصابت القبيلة ، ولذلك يجب التخلص منها بسرعة حتى لا تحل مصائبها على بقية النساء وعلى الحيوانات . أن هذه المرأة النحيفة تشبه التربة التي تنكر البذور فلا ينبت فيها شيء . ولذلك يقيمون الحفلات والولائم ويطعمونها بالقوة ثم يشعلون النيران حولها لعل العماريت تهرب من جسمها ، ثم يتبادل الزواج منها عدد كبير من فتيان القبيلة . . فإذا ماتت في النهاية - وهذا ما يحدث عادة - فإنها تكون قد أخذت الشر معها إلى قبرها . .

والعرب يتحدثون عن قصة الملك عمر بن حجر ، وهو جد الشاعر الكبير امرئ القيس . فقد سمع عن فتاة جميلة . فأرسل إليها خاطبة ، وطلب إلى الخاطبة أن تأتي إليه بأخبارها وبكل شيء عنها ، كل شيء ، ولا بد أن يكون الملك قد ضبط على حروف « كل شيء » وألقى بالذهب عند قدمي الخاطبة ، والإلماذا أصرت الخاطبة على أن ترى الفتاة عارية تماما ، وتراها واقفة وجالسة ونائمة . . الخ وسألت الخاطبة قبل أن تدخل بيت هذه الفتاة : هل تدخل من هذا الباب بسهولة ، وأشارت إلى باب واسع . وهنا قال أمها ما معناه : فشر . وهل هي مريضة : اننا نحشرها في هذا الباب حشرا .

ولما عادت الخاطبة للملك عمرو بن حجر قالت له : رأيت جبهة كالمرآة المصقولة يزينها شعر حالك مصفور ، وحاجبان كأنهما مرسومان بقلم وقد تقوسا على عين ظبية ، وأنف كحد السيف المصقول ، لا يعيبه قصر ولا طول ، ووجنتان كالارجوان ، وفم كالخاتم : لذيذ المتسم ، فيه أسنان كالدر ، وريق كالخمر يتقلب فيه لسان فصيح ، وشفتان حمراوان كالورود وعنق كأبريق الفضة ، وصدر كتمثال دمية يتصل به عضوان ممثلتان لحما مكتنزان شحما . وذراعان ليس فيهما عظم يمس ولا عرق يجس ، وقد تربع في صدرها حقان كأنهما رمانتان . . ولها خصر يكاد يتحول ، تحته كفل بقعدها إذا نهضت ، وينهضها إذا قعدت . كأنه كيس رمل . . فأما ماسوى ذلك فلا داعي لوصفه . . فهو شيء ليس له مثيل . . الخ .

وأهم هذه الصفات جميعا عند الملك وأهل العروس في ذلك الوقت أنها مليانة . . أما بقية الصفات فهي « اكسسوار » أي أشياء إضافية فقط .

ومن المعروف أن السيدة عائشة كانت نحيفة عندما خطبها الرسول عليه السلام ، فحرصت أمها على أن تسمنها فقد كان المثل الأعلى للجمال في الجاهلية والاسلام : المرأة السمينه ، ولذلك كانت تطعمها بالقثاء والبلح واللبن .

وبعد ذلك أخذ العرب يختارون ملامح الجسم ويفضلون بعضها على بعض .
فالحجاج هو صاحب العبرة الشهيرة التي تقول : لا يكمل حسن المرأة حتى يعظم
ثديها فتدفع الضجيع وتروى الرضيع .

والمعلومات التي لدينا عن معنى هذا الجمال في جميع أنحاء العالم ، قد كتبها
أناس أوروبيون . . كلهم رحالة وعلماء ومبشرون ومغامرون ، ولذلك فهي لا تخلو من
التحيز ، أي فرض الذوق الأوربي . ولذلك كانت هذه المعلومات ناقصة ، فمثلا نجد
أن الكبتن كوك الذي اكتشف استراليا وجزر هاواي يتحدث عن قبائل التونجا في
المحيط الهادي فيقول : لم أجد فرقا واضحا بين الرجال والنساء . فالأجسام ممدودة
ممشوقة ، والمضلات واحدة ، فلكل يعمل ، بل أن بعض الرجال في غاية الرقة لدرجة
يصعب عليك أن تعرف أن كانوا رجالا أو نساء . . وربما كان الشيء الوحيد الذي
يلفت العين هو أن أصابع النساء رقيقات جدا ، بل أن هذه الأصابع أجمل مافي المرأة .

وهذا ولا شك ذوق خاص ، فهو يرى أن أجمل مافي المرأة أصابع يديها ولكنه
لم يدرك أن جمال المرأة في هذه القبائل هو ظهرها الذي تنقشه وتكتب عليه اسم
الرجل الذي يحميها - أي الذي تحبه .

أما القبائل الاسترالية فهي لا ترى أن الجمال هو ضخامة الجسم ، وإنما الجمال
هو جمال الصدر ولذلك تحرص المرأة على أن تكشف عن صدرها والمرأة الاسترالية
لأنها تحمل كل امتعتها على رأسها أصبح قوامها محدودا ممشوقا ، وعنقها مدفوعا
وصدرها بارزا . . (ملحوظة خبيثة : إذا ذهبت إلى الريف وجلست إلى جوار ترعة
عند الغروب ورأيت الفلاحات وقد حمان البلايص أو الحلل وتفرجت عيهن باهتمام
شديد وهن عائذات إلى البيت ، أوجدت أن كل واحدة قد تعمدت أن يسقط الماء
على صدرها ، لأن الماء إذا سقط على الصدر التصق الجلباب بجسمها . . وإذا
التصق الجلباب فان التهدين يبرزان في فزع وهذا هو المطلوب . .)

وفي جزيرة بالي في أندونيسيا تمشي نساء الجزيرة عاريات الصدر . وكل الذين
يترددون على هذه الجزيرة من السياح لمشاهدة هذا الشيء الغريب ولا يوجد في هذه
الجزيرة أية معالم سياحية . . لاشيء بالمرّة . ونشرات الدعاية الأندونيسية كاذبة
والسياح كاذبون . فهم جميعا يحاولون أن يوهموا العالم أن في الجزيرة مشاهد
أخرى غريبة . . وأنا ذهبت إلى هذه الجزيرة ولم أجد شيئا غريبا . . سوى النساء
العاريات الصدر . وهناك أسطورة تقول أن الفتاة عندما تبلغ الثانية عشرة من عمرها
فإنها يجب أن تجعل القمر من أبنائها . . ومعنى ذلك أن كل فتاة يجب أن تتعري في
الليل وتعطي صدرها العاري لقمر لكن يرضع منه . ويؤمنون أيضا بأن القمر يجب
الّا تعطمه الفتاة الا عندما تتزوج ، ويقولون أنه لا شيء يجعل الصدر جميلا شابا
سوى القمر الرضيع . .

أما كتاب « أرميانا » الهندي فهو يعيد الجمال إلى شكله المعروف في ألف ليلة :
فالفتاة الجميلة هي ذات الأسنان البيضاء والعينين الواسعتين أما رجالها فمثل
ساقى الفيل .

وفي سفر « نشيد الانشاد » في الكتاب المقدس نجد صفات مثيرة لجمال الرجل أو جمال المرأة أو للجمال الانساني عموما : حبيبي رأسه ذهب ابريز ، عيناه كالبحر على مجرى المياه ، مفسولتان باللبن ، خداه كخميلة الطيب ، شفاته سوسن تقطران مرا مائعا ، يده حلقتان من ذهب مرصعتان بالزبرجد ، بطنه عاج أبيض مغلف بالياقوت الأزرق ، ساقاه عمودا رخام مؤسستان على قاعدتين من ابريز طلعتاه مثل لبنان ، حلقه حلاوة .. وكله مشتهييات .. الخ ..

والجمال هنا جمال الجسم كـ .. بل هو عبادة للجسم من أوله لآخره .. فكل شيء جميل .. الشعر والعرق والريق والنوم على الأرض ورعى الأغنام .. والفقر أيضا ..

أما عند الأغريق فلا نجد تماثيل لنساء جميلات وإنما نجد تماثيل لنساء رشيقات فقط ، بل أن أجسام النساء عند الأغريق كانت أقرب الى ملامح الرجال . فالقوام طويل مختصر . والصدر صغير ، والأرداف ضامرة ، وليس الخصر مخنوقا ، والأغريق كانوا يفضلون جمال الرجل على جمال المرأة بل انهم لا يجدون في المرأة أي جمال ، ولذلك حرصت النساء على أن يقلدن الشبان الصغار . يقصرن الشعر . ويعملن رجيما قسريا لعاهن يعجبهن الرجال ..

بل اتنا وجدنا الفيلسوف سقراط العظيم يتفنى بجمال الرجل . ويعترف صراحة انه يحب غلاما جميلا ، وأرسطو العظيم لا يخفى هو الآخر حبه لهذا النوع من الجمال ..

وكان الأغريق يكتبون أسماء الشبان على أعمدة الجدران ، وكان من المألوف أن يكتب الرجل اسم الشاب الذي يحبه على باب بيته .

وسقراط كان أعنف الفلاسفة الذين دعوا الى احتقار الجسد . ولذات الجسد . وجمال الجسد . وجمال المرأة . وتأثرت بأفكاره الحضارة الأوروبية كلها . حتى بعد المسيحية ، ازداد احتقار الناس لكل ماهو حسي . وكان على المرأة أن تتوارى وتضغط معالمها الحسية حتى لا تظهر ، فظهورها شر ، والخطيئة امرأة ، والمتعة خطيئة والزواج يجب أن يكون من أجل انجاب الأطفال ، وليس من حق الرجل أن يشعر بالمتعة اذا تزوج ، ولذلك يجب الا تحاول زوجته اغراءه ، ويجب الا تظهر له شيئا من جسمها .

وكان من العادات المألوفة في العصور الوسطى أن تضع المرأة على صدرها لوحا من المعدن تحت ملابسها . فاذا نام زوجها الى جوارها لايدري بالضبط ان كان قد استدار الى زوجته أو أنه أعطى وجهه للحائط .

وهذا يفسر لماذا أعدموا القديسة أجاتا بهذه الصورة المروعة : فقد نزعوا ملابسها ، وقطعوا ثديها بالسكين فالتديان مظهر من مظاهر الأنوثة . والأنوثة شر . ويجب أن تقضى على الشر تحت ملابسنا وتحت النساء . والجمال صورة زائفة ، والآثارة استدراج الى الخطيئة ، ولذلك فكل ماهو حسي هو قبيح .. والجمال

الحقيقى هو جمال الرجل . وكان الرجال والنساء ينامون معا بالملابس الكاملة . .
الكاملة !! خوفا من ان يتلامس الجسدان لاي سبب !

اما الرومان فكانوا حسيين ، ولذلك احبوا الاجسام الممتلئة ، واقاموا مسابقات
الجمال للنساء العاريات ، ولكن الرومان اذا كانوا يفضلون المرأة المليانة ، فهم لا يحبون
السمينة الجاهلية . . ولا السمينة الاندلسية .

وفي الاندلس كانوا يفضلون المرأة التى يصلح حزامها اسورة للذراعها - اى ذات
الخصر المخنوق ، وكانوا يفضلون العيون على بقية الاعضاء ، وعندما استمع احد
الامراء عن جمال امرأة ساعة بعد ساعة ، لم يسأل الا عن شئ واحد : حدثنى عن
عينها ، فقليل له : كحلاء - اى سوداء الحدقة . . وحوراء - اى شديدة السواد . .
والبياض . . ويجلاء - اى واسعة العينين . . ووظفاء - اى طويلة الرموش . .
ونفض الامير ليقول : ستكون زوجتى . .

وقد حدث فى بلاط يوليوس قيصر ان اقترح احد الضباط ان تكون للامبراطور
عشيقة جميلة ، وكان الامبراطور مولعا بالشبان - وكان الشبان مولعين به . . فسأل
الامبراطور : كم مرة تذهب الى الحمام فقليل له : انها قرموط سمك يا مولانا - اى انها
لا تترك الماء ، وعاد يوليوس قيصر ليقول : واذا حدثتها فكيف تنظر اليك ؟ فقليل له :
فى عينيك تماما يا مولانا .

ورفضها الامبراطور فهو لا يريد امرأة ترفع عينها عن قدميه ، انه يفضل المرأة
التى لا ترى . . لانه يريد ككل رجل - ان يكون هو عينها .

ومن المؤلفات اننا عندما نصف الجمال فاننا نتحدث عن جمال المرأة ، ولا نتحدث
عن جمال الرجل والسبب فى ذلك هو ان الرجل هو الشاعر والفنان والملك وهو الذى
يختار وهو الذى يصف ويتكلم ويتغنى ولذلك لا نجد تمثالا لجمال الرجل . وانما نجد
تمائيل لجمال المرأة . وكذلك دراسات طويلة عميقة لجمال المرأة .

والرجل يفضل المرأة الجميلة . . لا شك فى هذا . وان كانت هناك نساء يفضلن
الرجل الدميم ، بل ان المرأة لا تحب الرجل الجميل . وجماله لا يغريها ولا يشيرها .
وربما اثارته نظافة اظافر الرجل . .

بل ان هناك الوف الامثلة فى حياتنا العادية للرجل القبيح الذى يتغلب على اكثر
الرجال جمالا . فتحبه المرأة دون ان تدري انه قبيح .

والعالم الكبير داروين يؤكد ان اناث الطيور والحيوانات تفضل الذكر الجميل .
فالديك اجمل من الدجاجة والدجاجة تستجيب للديك الجميل الريش الزاهى
الالوان .

والمرأة تختار الرجل القوى . القوى الجسم والقوى الشخصية . القوى المركز .
والمرأة تتوهم - عادة - ان قوة الجسم تدل على قوة الرجولة وهذه احدى كوارث
المرأة فى حياتها الزوجية .

ولا يوجد سبب علمي لحرص النساء على مشاهدة الملاكمة والمصارعة والرياضة
إلا المتعة في مشاهدة شبان أقوياء . والنظر بالعين الى هذه القوى الشابة : متعة .

وكثيرا ما تزوجت أجمل الفتيات رجالا رياضيين . وكان الزواج نفسه نموذجا
من الفتل والخيبة . كما حدث لمارلين مونرو ولانا تيرنر . . وغيرهما .

والمرأة لا ترى الرجل العريان شيئا جميلا ولا مثيرا . على عكس الرجل . فالمجلات
تنشر الصور العارية للمرأة . والكباريات تعرض الأجسام العارية . والراقصات في
المعابد وفي صناديق الليل . يثرن الجوع في الرجل الى أن يملأ عينيه باللحم الحي
المتحرك .

وعندما ينظر رجل وامرأة الى راقصة عارية فكل منهما يرى شيئا مختلفا .
أما الرجل فهو مبسوط . وان كان يحاول أن يخفى انبساطه الحقيقي وراء ستار
أخلاقي كاذب . وذلك بأن يستنكر الرقص العريان وهو في الحقيقة يتمسح في
الأخلاق . لأن الأجسام العارية والصور العارية تعجب الرجال وتثيرهم . أما المرأة
فتحب أن ترى المرأة العارية . ولكن تشعر أمامها بشيء من الخجل . كما يشعر
الحاوي أمام حاو آخر ، فالمرأة هي الحاوي الذي يخفى جماله بحساب ويظهره
بحساب . والمرأة كالحاوي أيضا لا تحب أن يجيء حاو آخر ويكشف السر أمام
الناس .

والتقرير الخطير الذي كتبه الدكتور كنزى عن الجمال والدلال عند النساء
والرجال يقول فيه أن ٨٥ ٪ من الرجال يفضلون الصور العارية والاستعراض
العريان . . وأن ٢٠ ٪ من النساء يفضلن الصور العارية للرجال . . وأنهن لا يشعرن
بأى ضيق اذا نظرن الى رجال عراة يستعرضون عضلاتهم .

ولا شك أن السبب هنا هو المسئولة الآن عن فرض نماذج من الجمال على الناس .
فهى تفرض الرجل الأصلع نموذجا للرجولة . . وتفرض الخنافس نموذجا للشباب . .
وتفرض ذات الصدر الضخم مثل جين مانسفيلد وجين رسل وجينا لولو بريجيديا . .
وتفرض السيقان الطويلة مثل صوفيا لورين . . وتفرض العيون الواسعة مثل كلوديا
كاردينالى . . وتفرض القوام النحيف مثل أودرى هيبورن . . وبريجيب باردو . .

ان اللدوق يجيء من فوق . . من الشاشة الفضية بألوانها وموسيقاها وزواياها .
وما تفعله النجوم في أمريكا وأوروبا يصبح اطار الجمال في كل الدنيا . .

واذا كان الرجال قد اختاروا المرأة ذات الصدر العالى ، فلأن الرجل ما يزال
طفلا . يحن الى صدر دافئ . وما تزال المرأة أما ، ولا تثعب من أن تكون أما لآى
إنسان . . ولآى قط أو لآى كلب . بل ان الموت نفسه لو نام على صدرها لأرضعته .

ولكن المرأة التى تعلمت وعملت الآن يجب أن تكون خفيفة الحركة . وأن تكون
أزبائها متناسبة مع هذه الحركة ومع هذه الحياة الجديدة . . ولذلك فلم تعد المرأة
السمينة مثالا أعلى . بل ان المرأة المختصرة المركزة الأعضاء هى نموذج الجمال عند

الرجل . اى قريبة من الرجل . فالرجل يجب أن يعمل وأن يتحرك ولذلك كان
رشيقا خفيفا . والمرأة أيضا .

ولم يحدث فى تاريخ الذوق الجمالى عند الانسان أن التقت نماذج ألف ليلة ونماذج
الاغريق كما حدث فى عصرنا هذا . فالمرأة انشى تعجب الرجل هى التى تجمع بين
الأنوثة والرجولة . انها التى تشبه ذلك الغلام توت عنخ آمون . فهذا الملك له كل
ملامح الفتاة والفتى . لا هو رجل ولا هو امرأة . هما معا . انه هو أيضا مثل بريجيت
باردو ومثل أودرى هيبورن . ففى هذين الكوكبين توجد كل صفات الشاب والفتاة .
فلا توجد فيهما أنوثة صارخة ولكن توجد أنوثة وجاذبية . . ولا توجد «رجولة»
صارخة . . وانما توجد صفات الاجسام الشابة الفتية . .

وعندما أصدرت الأدبية الوجودية سيمون دى بوفوار كتابها الصغير عن بريجيت
باردو سجلت انحلالا فى ذوق الرجل ومرضا فى رجولته . فهى تقول : لقد عرفنا منذ
وقت طويل أن الرجل يريد من المرأة أن تكون مستسلمة . أو تكون الاستسلام نفسه .
ويحتفظ هو لنفسه بالحركة والعمل . وعرفنا أن هذا هو الفارق بين الرجل القوى
والمرأة التى تنتظر سيدها دائما . . ولكن اعجاب الرجال بهذا المخوق الغريب
بريجيت باردو جعلنا نشك فى ذوق كل الرجال . فهى ليست الأنثى . . انها انشى
من نوع خاص . . ان الرجال ليس فى استطاعتهم بعد اليوم ن يهريوا من تهمة
الشدوذ . . ولا من تهمة الذوق المريض الذى جعل فن الجمال عند الرجال
مريضا . . ان بريجيت باردو قد كشفت الرجل وفضحت ذوقه . . ان الرجل فى
العصر الحديث لم يعد له ذوق رجل . . كأنه لم يعد رجلا . . يا للعار !

وهذا الراى يجعلنا نتصور أن الرجال يعجبهم فى ب.ب. انها قريبة الشبه من
الشاب أو من الرجل . . أبدا . . انما يعجبهم انها انشى من نوع خاص . . انها فاكهة
ليست فى حجم البطيخة ولا فى حجم التوتة . . ولكنها فى حجم التفاحة مثلا . انها
فاكهة من نوع خاص وطعم خاص . . والذى يحب الميوه يحب الملابس الكاملة أيضا . .
والذى يأكل السندوتش يستطيع أن يأكل الديك الرومى . . والذى يرى ب.ب. .
ويعجب بها ، لو رأى أمها لأعجب بها ولأحبها وتزوجها . . وفى استطاعة الرجل أن
يغمض عينيه عن ب.ب. وعن كلوديا كاردينالى . . وأن يتخيل أنوثة الاغريق وكذلك
ألف ليلة .

يقول شاعر ظريف متوجها الى الله :

وقلت : يا عبادى اتقون

فكيف عبادك لا يعشقون

خلقت الجمال لنا فتنة

وانت جميل تحب الجمال

حرارة العمل

لم يعد هناك متسع من الوقت لكى يكون الانسان زوجا ..
فالوقت الذى يجلس فيه الزوج مع زوجته وأولاده قصير جدا ..
وهو لا يتعدى بضع دقائق ، وبعدها يترك الرجل بيته الى الشارع أو
المقهى أو الى العمل مرة أخرى .. أو لينام أو لياكل ..

وكل زوجة تشكو دائما من أن زوجها لم تعد تحس به .. لم تعد تراه
.. فهو يجرى الى البيت فقط ليستريح ولا يريد أن يسمع كلمة واحدة
عن أى شىء .. وتقف الزوجة حائرة وعلى لسانها عشرات الحكايات ،
وعشرات الشكايات من الأولاد والجيران والطباخ والأقارب والبواب ..
وشكايات منها هى شخصا ضد الزوج .. ولكن كل ما يريده الزوج هو
أن ينعم بالهدوء .. بالراحة .. لايه مرهق .. وطول النهار يتكلم ويناقش
ويصارع الآخرين .. انه مهدود .. ان لسانه أصبح كالشريط المسحوق
من كثرة دورانه فى فمه .. لقد تعب لسانه ، وتعبت أذناه ويتمنى ان يفقد
كل انسان لسانه ورغبته فى الكلام خصوصا مع زوجته ..

وفى هذه اللحظات القليلة يضطر الزوج الى أن يكون لطيفا ورقيقا وصبوراً ،
ومستمعا الى حكايات وخرافات زوجته وأولاده .. وأن يحل كل المشاكل وهو
تعبان ، وأن يفضل فى كل القضايا وهو مظلوم !

واذا لم يفلح الزوج فى تحقيق هذه المعجزة ، فان الزوجة تبكى ، وتتشنج وتهدد
بترك البيت والأولاد والدنيا أيضا . والرجال العقلاء يعلمون بالتجربة أن دموع
المرأة لا قيمة لها .. ولا تعنى شيئا ، فالمرأة تبكى كما تمطر السماء .. وهى تتشنج
وتهدد لأن الرجل يسد فمها .. ولأن الرجل يدوس على لسانها .. والمرأة تتنفس
من لسانها ..

فالرجل الذى لا يستمع اليها يقتلها .. والرجل الذى لا يناقشها يخنقها ..
فشكوى المرأة سببها ضيق الوقت الذى خصصه الرجل لزوجته لكى تتكلم ..

ومن الممكن أن تنحل هذه المشكلة ، لو أن الزوجة هي الأخرى تعمل .. فسيكون عندها هي الأخرى مشاغل ومتاعب .. ستظل طول اليوم تتكلم وتناقش ، حتى تنهد قواها .. فإذا عادت الى البيت ، وأصبح « بوزها » في « بوز » زوجها .. لم تجد ما تقوله .. تماما كالرجل ..

وفي أوروبا وأمريكا اقتنع الأزواج بسخافة الحياة في البيت .. وبسخافة تناول الغداء أو العشاء في البيت .. فمن الممكن أن يعمل الاثنان في مكانين بعيدين .. فالأفضل لهما أن يلتقيا في أى مطعم .. أو في إحدى دور السينما .. كأنهما .. صديقان أو عاشقان .. وهذا التغيير لا شك يقضى على الملل والروتين الزوجي .. وفي أمريكا يلتقى الآباء والأبناء في المطاعم أو دور السينما ..

فلم يعد للبيت كل هذا المعنى المقدس .. ولا هذا المعنى السحري .. فلا شيء اسمه .. البيت .. فالزوج مشغول والزوجة أيضا .. والزوج يعمل والزوجة أيضا تعمل .. والزوجة لا تربي الأطفال ولا تطبخ ولا تغسل ولا تكنس .. وليس عندها وقت .. وحتى لو كانت عندها رغبة فلا أحد يشجعها ، ولا أحد يطلب منها أن تكون زوجة ولا ست بيت ولا حتى ست ..

وانما مفهوم الزواج هو : اثنان تفاهما ورأيا من الأفضل أن يرتبطا برباط أمام الناس .. فتعاقدا على الحياة معا ..

وهذه « الشركة » أو هذا « العقد » لم يقرأه الزوجان .. ولم ينص في هذا العقد على أشياء كثيرة ..

فلم ينص في العقد على الراحة المطلوبة لكل منهما ..

لم ينص في هذا العقد على ضرورة الكلام في ساعات الراحة والاستماع الى شكايات الزوجة ، واعطائها الفرصة لكي تستخدم لسانها يمينا وشمالا .. وترضى هواية الكلام بلا معنى ..

ان الزوجة الأمريكية اذا أرادت أن تشكو وأن تبكى فأنها تذهب الى الطبيب النفسى وتتحدث وتظل تبكى وترتجف حتى تتساقط كل متاعبها ..

ويودعها الطبيب الى الباب ، لتجد زوجها يقرأ الصحيفة ..

ثم تدفع الزوجة قيمة العلاج .. وفي الطريق الى البيت يسألها الزوج : هه .. وماذا قلت للطبيب ..

وترد الزوجة : شكوت له من الوحدة .. واننى اقضى معظم الوقت وحدى .. ورويت له كثرة أعمالك ..

وتنتهى المشكلة عند هذا الحد . وهذا ما نراه في الأفلام والقصص الأمريكية :

فالزوجة تذهب الى الطبيب كما كما يذهب الناس الى القسيس ويعترفون .. وتشكو الزوجة من زوجها ، ومتاعبها معه .. ويرى الزوج ان هذه المشكلة طبيعية

وانه لا حل لها .. فيذهب معها الى العيادة وينتظرها ويرى من الأدب ان يسألها عما حدث لها ..

وتبقى الزوجة مريضة .. ويعذرهما الزوج ، ولا يفكر في حل لذلك . فمرض الوحدة للزوجة . تماما كأمراض الوحى والحمل وآلام الوضع .. كل هذه أمراض نسوية .. أمراض تحتملها طبيعة المرأة ، وكذلك الوحدة والوحشة : آلام يحتملها الزواج واشتغال الزوجين معا ..



قرأت فى قصة طويلة للأديب الأمريكى الساخط « جون . ف . لا ندبرج » أن سيدة تزوجت مهندسا من مدينة شيكاغو .. وأن هذه السيدة تركت الديانة المسيحية .. وعادت الى الوثنية .. تماما كالانسان من ألوف السنين .. ولما سئلت عن السبب قالت : اننى أريد أن أتحدث الى أحد .. فلما سألوها : ولكن التمثال الذى تعبدينه لا يتحدث ..

فقلت : ولكن عندي أمل فى أن يتحدث .. ولكنه لا يقاطعنى وأما أتكلم .. لا يدخن سيجارة .. ولا يفتح التلفزيون .. لا يتركنى وينام .. لا يلعب الورق .. لا يصيبنى بالحمل والولادة مرة كل ثلاث سنوات .. وليس بينى وبينه أى عقد ! وهى تقصد زوجها طبعاً ..

اذكر اننى قابلت فى هوليود فتاة تعمل فى أحد البنوك ..

وبدون مناسبة روت لى الفتاة كيف انها تتردد كل اسبوع على طبيب نفسى اسمه الدكتور محمد السنوسى .. وهو طبيب مصرى يعيش منذ وقت طويل فى أمريكا وله سمعة طبية ممتازة . ولما سألتها عن متاعبها .. قالت : لاننى لا اذهب وحدى ، وانما اذهب أنا وزوجى معا .. نختلف دائما وقررنا أن نحتكم الى الطبيب .. فنحن نذهب معا ونناقش فى حضور الطبيب ..

ثم راحت تضحك .. وقالت : فى أول الأمر كان زوجى يقاوم .. ولكنه الآن لم يعد يحتمل ..

وشرحت لى أسباب الخلاف مع زوجها .. لقد كان زوجها يقاوم عندما تثور عليه زوجته وتلغنه وتحمله مسئولية خياناتها المتكررة .. وفى كل مرة كانت تعلن عن خيانتها لزوجها ، كان يشور ويهددها بالقتل أمام الطبيب .. وأخيرا أقنعه الطبيب بأن يستمع لمفامرات زوجته حتى نهايتها .. ثم ربطه الطبيب فى سريره وجعله يستمع لمفامرات زوجته حتى نهايتها .. ثم ربطه الطبيب فى سريره وجعله يستمع الى اعترافات زوجته بالقوة ..

وتقول الزوجة بعد هذه الاعترافات : استرحت جدا .. وأن زوجها استراح

الآن .. ولم يعد بينهما سوى مشاكل بسيطة جدا ، وهى أن الزوج لا يزال يفار من ماضيها ؟

وسواء كانت الزوجة غلى حق أو كان الزوج ، فان الوسيلة الوحيدة لاجتماع الزوجين ، فى أمريكا ، هى أن يتمدد الاثنان على سريرين وبينهما طبيب .. هى تنهم .. وزوجها يستمع بالقوة .. والطبيب هو حكم هذه المباراة التى لا يفوز فيها الطرفان بأى هدف من الاهداف ..

ولكى تفوز الزوجة بوقت أطول من حياة الرجل .. فانها تحاول دائما أن تشده الى البيت ، أن تربطه بأولاده ، أن تهدده .. أن تخيفه .. لكى يهتم ، لكى يشور لكى يشار ..

والمرأة - عادة - لا تتعب من إثارة الرجل .. فانها تحرص دائما على أن تربطه بها ، أو أن ترتبط به ..

المهم أن يكون الرباط متينا .. ولا يهم أن يختنق الزوج أو يموت فى يديها .. ولكن الأهم عند المرأة ، هو ألا تكون وحدها .. هو ألا تكلم نفسها .. لا بد أن يكون هناك أحد يسمعها ، ويرى دموعها ، ويلعنها أو تلعه ..

واسلم الطرق عند المرأة هى إثارة الرجل جنسيا ..

فاغراق الرجل فى عالم الجنس ، هو الوسيلة الوحيدة لكى تضمنه بين ذراعيها ضعيفا مستسلما لها .. وهو بين ذراعيها تحكى له وتقول له .. وتطلب اليه أن يقول كل ما لم يقله .. تطلب اليه أن يقول لها : انه يحبها .. انه يعبدها .. ان الحياة من غيرها مستحيلة .. انها صاحبة فضل على حياتها .. انها التى جعلته يغير ويتبدل .. وانه اختارها دون سائر النساء .. لماذا ؟ ويجب أن يرد على هذا السؤال . وان يكرر ذلك كل يوم ..

فى احدى أساطير اليونان كان البطل كلما عائق محبوبته هربت منه .. وكان يسألها : أنا أحبك ..

فترد عليه : وأنا أعرف ..

ويسألها : اذن لماذا تبعدين عنى ..

فترد عليه : ولكنك لا تقول ذلك ..

— ولكنى قلت ذلك ألف مرة ..

— فلماذا لا تقولها الآن ؟؟

— ...

لابد أن يقول لها الآن انه يحبها .

أى وهو يقبلها .. أى وهو يعانقها .. وهو فى لحظة ضعف ..

والمرأة لا يهمها ان كان الرجل صادقا فيما يقول .. ولكن يجب أن يقول .. انها تطلب من الرجل أن يكذب عليها .. والرجل طبعا لا يكون فى حالة طبيعية وكل ما يقوله لا يمكن أن يكون طبيعيا .. ولكنها تريد منه أن يقول الكلام الذى يعجبها ، فى الوقت الذى يعجبها .. حتى ولو كان كذبا ..

.. ويفرق الرجل في الجنس ..

والجنس هو نوع من الهرب من الواقع .. فالرجل في الجنس .. ينسحب من العالم .. ويفرق في بحار حارة مظلمة من العرق .. والملح .. والكذب .. وتستريح المرأة الى غرق الرجل .. فهو لا يمكن أن يكون قريبا اليها أكثر من هذا .. انه ملتصق بها .. انها تحس بكل خلاياه .. انه لها .. وهى تطلب اليه ان يؤكد لها دائما : انه لها .. تماما .. كما هى له .. ويؤكد لها الرجل ذلك ..

ويستريح الرجل جسما .. ولكنه يتفكك عقليا .. فالجنس يريح .. ولكنه يفك الأعصاب والعضلات .. ويفرکش مراكز التركيز في عقله .. ويصبح الرجل المفكر أو الفنان - وهو أكثر حساسية للجنس - قماشاً أبيض مغسولاً نظيفاً ، ليس عليه كلمة واحدة .. ولا رسم ولا إشارة ولا أى معنى .. ويصبح عقل الرجل المفكر أو الفنان .. تماما كأصابع اليد .. مفتوحة .. وهذه اليد المفتوحة لا يمكن أن تمسك شيئاً .. أن تقبض على شيء .. وفى اللغة اللاتينية نجد أن كلمة : « يمسك » مرادفة كلمة « يفهم » .. فالذى أمسكه ، هو الذى أحيط به ، وأحس به ، وأفهمه .. والعقل الذى يشبه الأصابع المفتوحة ، لا يمسك شيئاً أى لا يحيط بشيء .. وهذه هى المأساة التى يقع فيها الفنان مع زوجته .. انه زوج ، وهو حساس ، وهو عادة هارب من الواقع الى عالم الخيال ، يفكر ويتأمل على مهل ..

والجنس حق وواجب وهروب ..

ويطلب الفنان الجنس ويؤديه ، ويهرب به ..

أى ينتقل بالضبط الى الأرض التى اختارتها الزوجة ، التى تعبت من اللقاء به والجلوس اليه ، والشكوى له ..

ويحار الفنان بين عزلته الفنية ، وبين حياته الزوجية ..

بين أن يجلس وحده ، مجرد أن يجلس وحده ، ولو لم يكن لديه أى عمل .. مجرد أن يتلمس ذراعيه هو ، ورجليه هو ، يتحرك دون أن تنظر اليه عين ، ودون أن تسمعه أذن .. مجرد أن يستمتع بالوحدة .. يقتسم الهواء والوحدة ..

والزوجة ترضى بالقسمة .. أى قسمة ما دامت هى تحصل على النصف ، نصف أى حاجة ، ولا يهددها أحد فى هذا النصف ..

ولكن زوجة الفنان لا تحس ولا تتصور أن وجودها معه يضايقه وتقول : كيف اضايقه . وأنا أعمل على راحته .. وأنا أحبه .. وهو يحبني .. لقد قال لى ألف

مرة انه يحبني ، وانه لا حياة له من غيري .. فكيف يقول هذا الكلام ، وهو الآن يريد ان يكون وحده .. لقد تغير .. لابد أن يكون هناك شيء .. الخ .

ولكن الفنان لا يطمع في أكثر من وحدته .. وهذه هي طبيعة الفن والفكر .. انه عمل فردي .. عمل يقوم به فرد وحده ، وعلى الطريقة التي يستريح بها ، وفي الوقت الذي يختاره ..

الفن كده .. وبالشكل ده .. في كل مكان وفي كل وقت ..

والعزلة ضرورة بالنسبة للفنان ..

وهذا ما لا تفهمه الزوجة .. أي زوجة ..

حكى لى اديب مصرى معروف : ي .. انه تعب في اقناع زوجته على أن يكون وحده يوما في الأسبوع .. وطلب اليها أن تختار هذا اليوم .. وغضبت الزوجة .. وأصر على أن يكون له يوم .. واقتنعت الزوجة .. ولكنها عملت المستحيل لكي تشغله في هذا اليوم .. فالدعوات تنهال عليهما في هذا اليوم والضيوف .. وأعياد الميلاد والأفراح .. ومرضاها .. ومرضى أولادها .. ولم يفلح الأديب : ي .. في أن يفوز بيوم واحد في أسبوع ..

وأصر على السفر الى أي مكان في هذا اليوم ..

ووافقت الزوجة .. ثم عاد فأخبرها بمكانه .. وكانت تلاحقه بالسؤال عن صحته .. وأن احدى قريباتها رأت له في المنام حلما ، وإنها تخشى مما جاء في هذا الحلم ..

وأصر الزوج أن يكون المكان الذي يختاره سرا لا تعرفه زوجته ..

وشكت الزوجة من زوجها .. وقالت لا بد أن تكون هناك مغامرة عاطفية وبكت وانتقأت من بيتها الى بيت والدها .. وإلى بيوت اخواته .. فضحته وكن معها دليل واحد هو أن زوجها لم يكتب حرفا واحدا في كل هذا الوقت .. فماذا كائن يعمل ؟ اذن .. هناك مغامرة .. ويقول الأديب : ي .. أن زوجته طبعا لم تتصور ، انه كان في حالة ضيق منعه من أن يفكر في أي شيء .. وفي قرف من حياته معها ، وفي قرف من الكتابة والقراءة .. وقرف من الدنيا كلها ..

وأخيرا قرر ابن يكتب ويقرا خارج البيت وأن يتجاهل دموعها ، وأن يطرد من أذنيه كلامها ..

ولم يحتمل طويلا .. ولم تحتمل هي أيضا .. ولكنه اعتاد أن يدوسها وأن يهملها .. فقد تزوج شيئا أهم وأخطر منها : الفن ..

وفي إحدى قصص البرتو مورافيا واسمها « الحب الزوجي » يتفق الزوجان على أن ينفصلا انفصالا تاما أثناء اشتغاله بأي عمل فني .. فاما الزوجة واما الكتابة ..

واما البيت واما المكتب .. واما الجنس واما الفن .. فالفن رهينة .. اعتزال ..
انشغال تام ..

والزواج خيانة للفن .. والمرأة لا تكره شيئا قدر كراهيتها للفن والفكر الذى
يخطف زوجها منها .. ولذلك نجد معظم زوجات الفنانين والمفكرين تعيشات ..

لأن زوجة الفنان مشكلتها أنها دائما أمام : بقايا رجل .. بعد أن أنهكه العمل ،
وسلبه الفكر ، ولم يترك إلا هذا الجسم المرهق ، والعقل الشارد والرغبة فى أن
يهرب .. أن يهرب منها بالنوم وحده ، أو الى جوارها .. أو بالعزلة بعيدا عنها ! ..

وكان الفيلسوف جان جاك روسو يعتقد أن الفنان يجب أن يعيش وحده ..
إلا يعتمد فى راحته على المرأة ، فهى تقاضيه الثمن غاليا .. انها تستسلم له ، ولكنها
تمتصه .. تمتص كل القوى التى توقد فكره ، وتشغل خياله ..

وكان يقول : ان أنام وحدى .. يد هنا ويد هناك ، ورجل هنا ورجل هناك ..
أحسن ألف مرة من أن يقاسمنى الفراش سمسار عاطفى !

واعتقد ان الاتفاق الذى تم بين الدكتور فاوست وبين الشيطان .. وهو أن يعطى
الشيطان خمس أو عشر سنوات يعيشها كما يريد فى مقابل عشرين أو أربعين سنة
من عمره .. هو اتفاق يتمناه أى فنان متزوج .. انه يتمنى عشر سنوات فى وحدة ،
على أربعين عاما مع زوجته أيا كانت هذه الزوجة .. عشر سنوات من العزلة
والحرية ، على عشرات السنين مع الأحضان والبلادة العقلية .. والأصابع المفتوحة
التى لا تمسك ولا تحيط بشيء .. عشر سنوات بأصابع ملتهبة مرتجفة ، خير من
عشرات السنين بأصابع مداعبة هادئة مستريحة .. ولكنها مجرد أصابع لا تكتب
ولا ترسم ولا تساوى الماء الذى تغسل به ..

وهناك مشكلة أخرى .. ليست هى مشكلة . الصراع بين الجنس والفن أو بين
الزواج والابداع ..

انها مشكلة الزوجة نفسها .. زوجة الفنان ..

يرى الدكتور كنزى انه وجد أن هناك ثلاثة أنواع من الزوجات لا يصلح للرجل
المفكر أو الرسام أو الموسيقار أو المحامى ..

وهو يؤكد أن هذه الفئات هى أصعب وأعقد فئات المجتمع وأن زواجهم فى الغالب
مشكلة نفسية واجتماعية ..

الفتاة التى يحبها .. لا ..

الفتاة التى تحبه .. لا ..

الفتاة الطموح .. لا ..

فهو يجب الا يحب فتاة ويتزوجها .. فهذا الحب يرتك حياته كلها ..
والفتاة التى تحبه ، لا تقنع بالقليل .. فالحب يعطيها سلطات قضائية وحقوقا
انسانية عريضة ، فيشعر دائما انه مقصر وانه مدين وانه فاته ان يعطى وانه
مخطيء ..

والفتاة الطموح مشكلة المشاكل .. فهى ترى فى زوجها وسيلة من وسائل تحقيق
آمالها .. انها تريد ان تدفعه الى الامام .. تريد ان تحمله على السلاالم بالقوة ..
ان اية مقاومة لرغباتها او آرائها هى وقوف فى طريقها هى .. وهى تتنازع مع زوجها
دائما .. فهى تريده ان يكون كذا ، ولكنها تريد ان يحقق ذلك بالقوة .. بقوتها ..
بارادتها .. وتنسى ان زوجها هذا ليس طوبة ولا ظلطة .. انه الآخر له رأى .. له
موقف .. له برنامج .. وانه يعرف من حياته ومن فنه اكثر مما تعرف هى .. فتثور
عليه .. وتحاول تحطيمه .. لانه يقاوم طموحها ، لانه يهدم آمالها ..

وفى رأى الدكتور كنزى أن الزوجة التى تناسب الفنان هى الزوجة « المخدة »
او « الوسادة » .. أى التى تعطيه الراحة فقط دون ان تفتح فمها بكلمة .. أى التى
تتنازل عن آدميتها من أجل راحته .. التى تضحي من أجله بانسانيتها .. بأن تتحول
الى مجرد حيوان ..

وليس من السهل ان يجد الفنان هذا الحيوان ..

ان الرسام جوجان تزوج فتاة بدائية .. من جزر تاهيتى .. لا تعرف لغته ..
ولا تعرف صناعنه .. وعاش وكان سعيدا مع هذا الحيوان الجميل ..

الشاعر رامبو عندما هرب الى الحبشة واشتغل فى تجارة الجلود ، كانت له
زوجة .. لا تعرف كيف تنطق اسمه .. وظل سعيدا بها حتى مات ..

وفى جزيرة بالى رايت زوجة لفنان بلجيكى عالمى .. انها فتاة بدائية .. لها قيمة
سياحية للجزيرة .. احبها الفنان البلجيكى وتزوجها وعامها كيف تتكلم بعض الكلمات
الفرنسية ورسمها فى ألوف اللوحات .. وعندما تتحدث عنه تقول : الخنزير ..

وهو سعيد جدا .. بعض لوحاته كان يوقع عليها كلمة : الخنزير .. او هذا
راى زوجتى !

انها لا تفتح فمها .. انها لا تحطم رأسه .. انها لا تمسك يده عن الرسم ..
انها لا تفتح فمه بالقوة ليقول لها : احبك .. انها تريح فقط .. وسادة من الريش
تحت رس «سان بأفكار كالنحل والنمل ..

وحتى اذا وجد الفنان هذه الوسادة المريحة .. فانه سيثور عليها مرة أخرى ..
انه لا يريد هذا هكذا جامدة .. خامدة .. مجرد حيوان لا يتكلم .. لا ينطق
لا يحس به .. لا يفهمه ..

ان الفنان بيجماليون عندما صنع التمثال الجميل للمرأة المثالية ثم ما اكتمل التمثال ، راح يبكى ويصلى للالهة أن يمنحوا التمثال الجميل نعمة الكلام . . ان التمثال الجميل لا ينطق لا يتكلم . . وطال بكأؤه ونواحه حتى ذابت قلوب الآلهة ووهبوا الحياة . . وسارت الى جواره عروسا له . .

انه لا يطيق الحياة مع أجمل انسان لا يتكلم . . وحتى لو تكلم التمثال ، فان الفنان سيضيق بهذا الكائن الجميل الذي لا يكف عن الكلام ولا يكف عن امتصاص حريته وحيويته . . وفنه !

* * *

فماذا يريد الفنان أو المفكر ؟

انه يريد حياة تجمع كل هذه المزايا . وكل هذه العيوب . . قيود واسعة ، وأفواه تتكلم عندما لا يريد . . ووسادة خالية منه . . ومليئة به . . انه يريد المر الحلو ، والحلو المرير . .

انه يطلب المستحيل . . ولذلك فلا سعادة لفنان . . فلا فن مع الزواج ، ولا زواج مع الفن !



مغامرات تاربخیت

على الطريقة الإيطالية

قالوا للاسكندر : ماذا ستفعل بعد أن تغزو مصر ؟

فأجاب : أغزو بلاد الفرس .

— وبعد بلاد الفرس ؟

— أغزو بلاد الهند

— وبعدها ؟

— بعدها أستريح

فقالوا له : ولماذا لا تستريح من الآن . . ؟

هذه هي إحدى قصص الأديب الإيطالي بوكاتشيو . وهي من أكثر القصص دلالة على فلسفته في الحياة . فهو يرى أنه ما دام من الضروري أن يعيش الإنسان ، فلماذا لا يعيش الآن وفورا ؟ . . .

وبوكاتشيو ابن غير شرعى — مثل صوفيا لورين .

ولد في باريس ١٣١٣ ، أمه فرنسية وأبوه إيطالي . وبعد ولادته اختلف أبوه وأمه معا فأخذاه الأب الى إيطاليا . والأب يعمل في التجارة . وكان يطمح أن يكون الابن تاجرا . فكان فاجرا وهو كما ترى تغيير بسيط جدا في الحروف !

وكانت للابن ميول أدبية مبكرة . حتى عندما حبسه أبوه في غرفة وربطه بالحبال . أصر الابن على أن يكون أديبا . وشعر بسعادة لا حد لها عندما استطاع بخياله وأفكاره أن يهرب من هذه الحبال فلم تستطع الحبال أن تخنق خياله ولم تستطع الجدران أن تقتل أفكاره .

وبوكاتشيو هو أول كاتب قصة قصيرة في الأدب العالمى . .

له أول قصة في التحليل النفسى . . وأول قصة واقعية . وأول قصة لها نهاية مفاجئة وهو أول من جعل نهاية القصص على شكل مفارقات . . ثم أنه مؤلف أشهر مجموعة قصصية في العالم كله وهو (الديكاميرون) . . وهي كلمة مأخوذة من اليونانية

ومعناها (الأيام العشرة) أو (العشريات) ومن (جو) هذه (الأيام العشرة) أخذت القصص الثلاث التي صورت في فيلم (بوكاتشييو ٧٠) الذي عرض في مصر باسم (اغراء الانثى) وهذه القصص المعروضة في الفيلم ليست من تأليف بوكاتشييو وانما فقط على طريقته ومستوحاة من جو (الأيام العشرة) .

والايام العشرة كتبها (بوكاتشييو) عندما اجتاح الموت الأسود أوروبا . وقضى على مدينة نابلى بالذات . وقد ماتت في الطاعون الأسود حبيبته ماريما احدى حفيدات القديس توماس الاكوينى . . كما ماتت حبيبة الشاعر الايطالى العظيم بتاركة واسمها لورا : وهى احدى جدات المريكز دى صاد الذى نسبت اليه كلمة « الصادية » اى التعذيب الجنسى الشاذ .

وتخيل بوكاتشييو ان سبع سيدات وثلاثة رجال قد هربوا من الطاعون الى احد البيوت . . وراح كل واحد من هؤلاء العشرة يروى قصة كل ليلة ولمدة عشرة ايام . فبلغ عدد القصص التى قيلت على سبيل التسلية مائة قصة . وكان من عادة هؤلاء العشرة ان يختاروا كل ليلة ملكا وملكة والملك هو الذى يختار موضوع القصص العشرة . فتجىء قصص الليلة الاولى فى المقابل مثلا وقصص الليلة السابعة فى الخيانة الزوجية . وتجىء قصص الليلة العاشرة فى الاساطير القديمة . . فالملك هو الذى يختار نوع القصص . . وقد جعل بوكاتشييو حبيبته ماريما احدى بطلات (الديكاميرون) وجعل اسمها فياميتا : اى الشعلة الصغيرة . .

والفتاة فياميتا هذه هى ايضا ابنة غير شرعية . .

فقد حدث خلاف بين ملك نابلى فى ذلك الوقت وبين احدى المواطنين على بنوة هذه الفتاة واعلن الملك انه منذ تسعة شهور كان على علاقة بامها . . واعلن المواطن الآخر انه كان ايضا منذ ذلك الوقت على علاقة بالأم . وثار الملك ثم ثار المواطن وقال للملك : حتى لو كان لك بها علاقة فانت عاجز عن ان تكون ابا .

وبعد سبعة عشر عاما من هذا الحادث رآها بوكاتشييو فى الكنيسة . واعجب بها . ولما رآته أخفت وجهها . وأحس بوكاتشييو ان قلب الفتاة قد اهتز . فعندما يهتز قلب المرأة فانها تغطى وجهها . وفى اليوم التالى عادت نفس الفتاة الى الكنيسة . وقد غيرت لون ثيابها . فأدرك بوكاتشييو انه قد تسلل الى قلبها . فهذه الألوان دليل على ان المعانى التى تدور فى رأسها قد تغير لونها وطعمها . وكان بينهما غرام عنيف . وتردد على بيتها . وأصبحت عشيقة له ولغيره . وجاء الموت الأسود وأخذها وعشرات الالوف من الفتيات الجميلات . وكتب بوكاتشييو القصص الجميلة على لسانها ومن أجلها وأحيانا ضدها . .

فمثلا قصة الملك الذى علم بأن فتاة جميلة قد تركها زوجها وحدها : ذهب الملك لزيارتها وعندما رآها ازداد هياما بها . وفوجئ بأن هذه السيدة قد أعدت له عشرات الأطباق من طعام واحد . . لقد كان الطعام من الدجاج . . الدجاج فقط . . فسألها الملك : الا يوجد عندك ديك واحد ؟ . .

فقلت : لكن الدجاج هنا وفي كل مكان واحد .. لا فرق بين دجاجة ودجاجة ..
وغضب الملك وأحس أنها تسخر منه وتوبخه وخرج غاضبا ..

ولكن هذه القصة تعنى أيضا أن بوكاتشيو : يرى أن كل الدجاج من غير ريش
متشابه . ولا فرق بين واحدة سمراء وواحدة بيضاء وواحدة تحبها وواحدة تحبك
.. وأن فياميتا هذه ، ككل النساء من غير ريش سواء .

ومن (جو) الجنس والاثارة والاعترافات العارية التى جاءت فى قصص بوكاتشيو
خرج فيلم (فيلم اغراء الانثى أو بوكاتشيو ٧٠) .

وبوكاتشيو ٧٠ معناها لو عاش بوكاتشيو الى سنة ١٩٧٠ لكانت له قصص
شبيهة بقصص هذا الفيلم (ومن الصدف الغريبة أن قصص الديكاميرون هذه قد
نشرت لأول مرة فى كتاب سنة ١٤٧٠ أى من خمسة قرون . وكانت قبل ذلك عبارة
عن أوراق مكتوبة باليد يتناقلها الناس .. النساء خصوصا) .

والفيلم (بوكاتشيو ٧٠) هو احسن نموذج لمدارس الاخراج الايطالى . فالقصة
الاولى واسمها (عذاب الدكتور انطونيو) من اخراج فللىنى . وهو الذى اخرج قصة
(الحياة الحلوة) بطولة انيتا اكبيرج أيضا .

وفللىنى من انصار مدرسة : ان المخرج يجب ان يفرض الواقع على الناس بالقوة
الجميلة .

وهذه القصة اشترك فى تأليفها مع فللىنى اثنان آخران هما اينو فاليانى وتوليو
بنللك .. وهى اجمل القصص الثلاث من ناحية الحوار واللعب بالالفاظ ..
ومن تصوير مصور عظيم جدا هو اوتيللو مارتيللى .

ان هذه القصة تدور حول قصة مسيحية معروفة جرت أحداثها فى مصر . وهى
قصة القديس انطون الذى عاش فى القرن الرابع الميلادى هنا . وقد عاش راهبا .
وفى يوم تعب من الرهبانية . وقرر أن يعود الى الحياة وخرج من صومعته .. وفى
يده لقمة من الخبز . فصور له الجوع مائدة فخمة . فاقترب منها فهربت . وصور
له العطش بثرا صافيا . فاقترب منها فهربت .. ووجد أمامه قطعة من الذهب .
ولما لمسها ظهرت تحتها قطعة ذهبية أخرى . وتخيل نفسه ملكا يحكم الناس . وهنا
فقط احس بأن الذهب على شكل حيوان .. واقترب من هذا الحيوان فهرب . واخيرا
ظهرت له بلقيس ملكة سبأ . فأقبل عليها . وسارت أمامه .. كانت جميلة معطرة
مشيرة . تناديه ويجرى وراءها . وتعثر فى طوبة فسقط على الأرض واكتشف أنه كان
واهما . وعاد الى لقمة العيش . فأمسكها . ودخل بها صومعته .. وانتهت فتنة
القديس انطونيو بانتصاره على نفسه وعلى جسمه .

والقصة الاولى من هذا الفيلم هى صورة حديثة جميلة جدا لعذاب القديس
انطونيو .

فنحن أمام رجل متزمت جدا اسمه الدكتور انطونيو .. وهو يرى الرذيلة
فى كل شيء ..

وهذه القصة تروى حكاية أوهام تسلطت على رأس هذا الدكتور أنطونيو . .
وهم أوهام قوية . أقوى من الواقع . فقد حدث في أحد الأيام أن وضعوا إعلانا عرضه
. ه . قدما للممثلة أنيتا أكبرج . وفوق الإعلان كتبت هذه العبارة : اشرب لبنا أكثر .
والصورة ضخمة وليست عارية . ولكنها مثيرة .

وهنا ثار الدكتور أنطونيو على الصورة وعلى الإعلان وفن الإعلان الذي يفسد
الشباب . وثار على الموسيقى والتراثيل الوثنية حول هذه الصورة . وكتب ضد
الإعلان وضد الشركة وحاول أن يمنع الناس بالقوة وأخيرا اقتنعت السلطان بأن تغطي
هذه الصورة بطبقة من الصمغ لكي تحجب هذه الفتنة . والسلطات البوليسية التي
لجأ إليها الدكتور أنطونيو مهتمة أيضا بالجنس ففي مكاتب رجال البوليس صور
عارية وفيها سيدات بوليس جميلات جدا . .

وسقطت الأمطار وغسلت الصمغ وعادت المرأة المثيرة كما كانت . . عارية . .
مثيرة . . وتسلطت هذه المرأة على رأس الدكتور أنطونيو ، لدرجة أنه كان يراها تجلس
وتقف . . وتعري صدرها أكثر وأخيرا خرجت المرأة من الإعلان وراحت تطارده في
الشوارع . . طويلة هائلة وراح يلعنها ويقول لها : أنت ملكة سبا . . أنت سالومي . .
أنت كليوباترا . . أنت كل الشرور في كل مكان . . أنت سودوم . . أنت عمورة . .
— وسودوم وعمورة مدينتان وصفهما الكتاب المقدس بأن اللعنة هبطت عليهما
بسبب الانحلال الأخلاقي .

وكانت المرأة الجميلة تطارده . . وتطارده حتى وقع على صدرها . . وأحبها
وسقط عند قدميها وأحب قدميها . . والأرض تحت قدميها . .
وينتهي الفيلم الجميل جدا باعتقال الدكتور أنطونيو وإدخاله مستشفى الأمراض
العقلية . .

فليس الفيلم إلا صورة لأوهامه هو . . أوهام حقيقية . فهو رجل يصرخ من
سيطرة الجنس على الناس وخوفه على أن يفسد كل الناس .
واسلوب المخرج فلليني في هذا الفيلم هو أن يجعل الواقع قويا . . قويا حتى
ليحس به كل الناس . فالناس لا يستطيعون أن يدركوا كل شيء إلا إذا جعلناه ضخما
هائلا صارخا . . وليس ذلك بسبب ضعف في عيون الناس . . وإنما بسبب بلادة كل
احساسات الناس ؟

والمخرج فلليني هذا قد فاز بجائزة أوسكار عن فيلم (الشارع) وقد بدأ حياته
كاتب سيناريو مع المخرج روسليني الزوج الثاني لأنجريد برجمان . واشترك معه
في فيلم (مدينة مفتوحة) وفلليني شعاره في الإخراج : لا أنتظر الواقع ولكن أجعل
الواقع ينتظرني . وأنا أهمس في أذن الواقع لكي يصرخ بالحركة واللون والمعنى
الصريح . .

أما القصة الثانية اسمها (الوظيفة) اشترك في كتابتها : سوسو داميكو والمخرج
فيسكونتي . ومن تصوير مصور عظيم جدا هو : جيسبه روتونو . .

ومعظم التحف واللوحات الموجودة في هذه القصة قد نقلها المخرج من بيته هو . .
وكل أحداث القصة في (الداخل) . . ومعظم الغرف لها مرايا . والألوان هادئة
لأن القصة تدور بين الرجل وامراته . . أحد الأغنياء في حياته العادية المملة . .

المثلة بطله القصة من أسرة كل أفرادها من الممثلين . فأمها ما تزال ممثلة في
مسارح فيينا وأبوها أيضا . وجدتها كانت ممثلة واسمها السينمائي رومي اشنيدر .
وهي المانية ولدت في فيينا وقد اكتشفها المخرج في أحد مسارح باريس . وكل
فساتينها من دار شانيل وقصة شعرها من تصميم الكسندر حلاق باريس المشهور .
وقد اعتقله المخرج في الاستوديو أسبوعين كاملين تقاضى عنهما عشرين ألف دولارا .

هذه أسرة غنية جدا . . الزوج ايطالى والزوجة المانية . يعود الى بيته الفخم
جدا في نفس اليوم الذى تنشر فيه الصحف فضيحة أخلاقية له . فقد اكتشفت
الصحف أنه على علاقة ببعض الفتيات . . نوع معين من الفتيات اسمهن : فتيات ألو . .
أى الفتاة التى تطلبها بالتليفون وتعطيها عنوانك فتجىء لك مقابل مبلغ كبير من
المال . . هذا الزوج دفع ألف دولار لاحدى فتيات ألو .

حاول الزوج أن يخفى هذه الفضيحة عن زوجته . .

احتار تماما . . ما الذى ستعمله الزوجة . . ماذا ستقول . . ففوجيء بأن
الزوجة سعيدة جدا بما حدث لأن الذى حدث قد حل لها مشكلة نفسية عنيفة .
حاول الزوج أن يقول لها انه فعل ذلك بسبب الملل ليعود اليها زوجها . . فكأنه يعالج
نفسه بنفسه يتعاطى بعض السموم لكى يكون صحيحا . . كأنه شجرة فاكهة لا بد أن
تنبت من طين أسود لكى تكون ثمارها ناضجة ولو الى حين . .

ولكن الزوجة لم تكن تنتظر هذا التعليل . . لم تكن تنتظر هذا العذر . . لقد
صارحته بأنها عرفت عددا من الفتيات التى عرفهن الزوج . . لأنها شخصا معجبة
بهن . . وما دام زوجها قد فضل عليها هذه الفتيات . . فلا بد أن تكون لهن مزايا
خاصة . . ولكنها لا تعرف هذه المزايا الخاصة . انها شابة جميلة وأنيقة . . ومع
ذلك يخونها زوجها . . إذن ما هو الفرق ؟

اكتشفت الزوجة أن الفرق الوحيد هو أن زوجها يدفع لكل فتاة أجرا على الوقت
الذى تقضيه معه . . وقررت الفتاة أن يعاملها زوجها . . مثل أى فتاة أخرى . .
يكلمها فى التليفون ويقول لها : ألو وترد عليه وتقول : ألو . . فى الطريق اليك . .
الخ . .

وكانت مفاجأة للزوج . ولكنه حريص على ارضاء الزوجة الغنية جدا . . وطلبت
اليه أن يحاسبها على كل المرات التى التقيا فيها منذ تزوجا . ووافق الزوج . وذهب
ليحضر لها شيكا . والزوجة سعيدة فقد وعدها أبوها اذا استطاعت أن تجد لها عملا
لمدة سنة سيعطيها مبلغا كبيرا من المال .

وأخيرا وجدت الوظيفة . . وظيفة الزوجة والعشيقة فى نفس الوقت . . وجاء
الزوج يمدق بابها . . وفى يده الشيك . وعندما يدخل الى غرفتها يجدها تبكى .

وتنتهى القصة ..

وقد كانت نهاية القصة : دخول الزوج وفى يده الشيك .

ولكن فى هذه الحالة تكون الزوجة شاذة لأن المتفرج سوف يشعر بأنها نوع ردىء من النساء ..

ولكن المخرج عاد وأضاف لها « لقطه » واحدة بقيت الزوجة وجاءت الدموع التى نزلت على خدها ، فمسحت كل المعانى الرديئة التى تراود المتفرج . من هذه الدموع قد غسلت كل صورة كريهة لكل بنت ذوات قد ارتفعت بدموعها الى أعلى من مستوى الزوج .. الى مستوى الزوجة التى لها كرامة فأحست بالهوان . فلم تكن تتصور أن زوجها سيتصرف هكذا ..

ولكن عندما بكت أصبحت سيدة مختزمة والمخرج فيسكونتى واقعى أيضا ولكنه لم يجعل الواقع يفرض نفسه بقوة . انما هو شاعر واقعى فمن الممكن أن يكون الانسان واقعيًا ورقيقًا جدا .. فليس السهل من أن تمتد يد الزوجة وتصفع زوجها بالقلم . وهنا يستريح المتفرج . وما السهل أن يجعل المخرج هذا القلم يرن . ويرن ويكون له دوى فى أذن كل رجل .

ولكن فيسكونتى يفضل أن يكون الواقع قويا وجميلا أيضا .. والجمال نفسه قوة .. ولذلك فشعار المخرج فيسكونتى : هو أننى أرفض قسوة الواقع وأرفض أن أكون قاسيا على الواقع .. اننى أفضل أن أتغزل فيه .

والقصة الثالثة والأخيرة من اخراج دى سيكا وبطولة صوفيا لورين .. ومن تصوير نفس مصور القصة الأولى .

ودى سيكا وصوفيا لورين هما ثنائى جوائز الأوسكار والأفلام الإيطالية والعالمية الناجحة جدا ..

ودى سيكا هو أحد معالم الاخراج فى إيطاليا وهو ممثل مسرحى ممتاز وممثل سينمائى عظيم وهو وكاتب السيناريو زفاتينى هما ثنائى المرتبة الأولى فى اختيار الكلمة والهمسة البليغة وهذه القصة من تأليف ديسىكا وزفاتينى وديسىكا . اخرج فيلم (سارقو الدراجات) وزفاتينى هو كاتب الحوار والسيناريو .. وكان ذلك سنة ١٩٤٨ وأخرج ديسكا فيلم معجزة ميلانو سنة ١٩٥١ .. وأخرج فيسلم (اوبرطو .. د .. د) سنة ١٩٥٢ وأخرج فيلم محطة روما فى نفس السنة أيضا وأخرج قصة البرتو مرافيا التى اسمها (امرأتان) سنة ١٩٦٢ وقد فازت فيها صوفيا لورين بالأوسكار كأحسن ممثلة على الإطلاق ..

وأخرج أيضا للفيلسوف .. سارتر (سجناء الطونا) سنة ١٩٦٣ وأخيرا أخرج أمس واليوم وغدا بطولة صوفيا لورين وحوار زفاتينى ..

وهذه القصة الثالثة اسمها (الرهان) بطلة هذه القصة وزوجة منتج الفيلم هى صوفيا لورين التى لم تتجاوز حياتها الفنية ١٢ عاما . وظهرت لأول مرة على الشاشة فى فيلم اسمه (رواد الحب) وهى فى هذه القصة فتاة جميلة بسيطة من نابلى لا تقرا ولا تكتب وتعمل فى إحدى مدن الملاهى المتجولة فى وادى نهر البو فى إيطاليا .

وتعمل في دكان لاطلاق البنادق على ارقام في لوحة . وهي اللعبة المعروفة باسم لعبة النشان . وبداية الفيلم تشبه بداية فيلم « ايرما الغانية » . . فهي سوق لحوم ابقار وجواميس بيع لحوم حيوانية ، وبعد ذلك يبدأ بيع اللحوم البشرية . وقد جرت العادة كل يوم سبت ان الذي يفوز في الرهان او في اليانصيب يفوز بهذه الفتاة « زويه » . - اى صوفيا لورين - وكلمة زويه هذه كلمة يونانية معناها : الحياة - وربما كانت هذه التسمية هي الشيء الوحيد الذي يذكرنا بالاديب بوكاتشيو . . الذي كان يستخدم الالفاظ اليونانية ، كما كان يفعل ادباء عصر النهضة في ايطاليا - وتوزع تذاكر الرهان على المواطنين . وكل واحد - طبعا - يتمنى أن يفوز بصوفيا لورين ليلة . . ويذهب الفلاحون لرؤية صوفيا لورين ويطلبون اليها أن تعرض الى شيء من جسمها ما داموا سيفوزون بها يوم السبت . . ولكنها ترفض . . وتقاوم . وتصر على أن اطلاق النار يستمر ويجرى سحب اليانصيب ويفوز واحد من رجال الكنيسة . . ويشور الناس على هذا المحظوظ في احدى الجنازات ليزفوا اليه هذا النبا . . ويحاولون أن يشتروا منه التذكرة ليحلوا محله . . ويرفض وتجري مزايدة على ثمن التذكرة . . ولكن رجل الكنيسة يرفض وتجيء أمه - أم رجل الدين - وتطلب اليه أن يذهب وينبسط . . وفي هذه الاثناء ترفض صوفيا لورين ولكن زوجة صاحب العمل ترجوها . . وتقول لها : اننى حامل . . مريضة . . سأموت . . وتوافق صوفيا لورين . وتنتظر مجيء الفائز وهو رجل قبيح المنظر . بليد . جثة هامدة . ويدخل السيارة الكبيرة التي تعيش فيها صوفيا لورين . . وهنا ترى المرارة والقرف والسخرية في عيني صوفيا لورين . ولكنها في نفس الوقت لا تدري ما الذي تفعله . وتطلب اليه أن يقترب منها . ويقترب وتطلب منه أن يقبلها . . وفي هذه اللحظة تتحرك السيارة الكبيرة . . لقد ركب السيارة شاب كانت قد أحبته صوفيا لورين لأول مرة . . ويهرب بالسيارة . وتتساقط صوفيا لورين وهذا الفائز الغلبان . وسيارات المدينة كلها تطارد عربة اللذة هذه . . وفي مكان مهجور يتوقف السائق الولهان . . وأمام عجز الفائز على أن يفعل شيئا ترفض صوفيا لورين أن تكون له . . وفي نفس الوقت بدلا من أن تأخذ كل ما معه من فلوس ، اى كل ما كسبه في الرهان ، تعطيه كل ما عندها من فلوس . . فلوسها . وفلوس صاحب السيارة . . وكل ما كسبه محل النيشان من أموال . وتعهده بأن تعلن للناس جميعا أنه أمضى معها ليلة جميلة . . وشكرها رجل الدين . . وينزل من السيارة وأمام الناس بدأ يفك ياقة القميص والكرافتة وينكش شعره . . وكأن شيئا قد حدث !

ويحمله أهل المدينة على الاعناق ويدورون به في الشوارع يهتفون للرجل السطل . وتعود صوفيا لورين - طبعا - الى الشاب الذي أحبته . . وتنتهى القصة والفيلم . وصوفيا لورين في هذه القصة ليست فتاة من (اياهن) أبدا . انها لا تعرض نفسها على الناس . . انها تخضع لقوانين اللعبة . . اى الرهان . وهي في نفس الوقت لا تختار واحدا يتقدم اليها . وانما قوانين اللعبة تفرض عليها المنتصر . الفائز . وهذه اللعبة ليست خاصة بهذه المدينة وحدها . وانما هي لعبة الدولة كلها . . ففي الدولة آلاف المسابقات والمراهنات . ثم ان صوفيا لورين فتاة ساذجة ، سمعت

كثيرا: ان الوصول الى الهدف يأية وسيلة لا عيب فيه . وسمعت أيضا : ان الألف جنيه الأولى هي أصعب شيء وبعد ذلك تجيء الألوف من تلقاء نفسها . ثم ان صوفيا لورين عندما أعطت رجل الدين كل أموالها هي ، وكل أموال صاحب العمل . قد أنقذت نفسها . . قد اشترت أنسانيتها واستردت كرامتها . فهي ليست من (اياهن) وانما فتاة عندها كرامة . فهي ليست لحما يباع ولكنها تعيش في مجتمع كله منحل وهذا الانحلال له قانون . . وقد انطبق عليها هذا القانون واستطاعت هي ان تقول للقانون : لا . . وبفلوسها .

ودى سيكا هو من رواد المدرسة الواقعية في ايطاليا . وكل احداث هذا الفيلم تجري في الشارع . . وفي الخارج . . فالقصة الأولى من الفيلم تجري في الداخل وفي الخارج والقصة الثانية في الداخل كلها . . أما القصة الثالثة فكلها في الخارج . .

وشعار دى سيكا : هو أن اترك الواقع يتكلم اننى أستمع اليه . وأطيل الاستماع والكلمة الأولى والأخيرة له . ومهمة المخرج فقط هي أن يجرى وراء الواقع ويرسم له فقط العلامات في الأرض . . فالواقع ليس الا صورة . مهمة المخرج أن يجهد لها البرواز المناسب .

وكنت أتمنى أن يكون هذا الفيلم من أربع قصص . وتكون القصة الرابعة للمخرج الممتاز انطونيوني . . الذى اخرج فيلم : الليل أو الليل ، والمغامرة . .

وانطونيوني هذا المخرج الذى يشعر بأن الانسان - وخصوصا في المدن - انسان غريب . . والمسافة التى بينه وبين الناس . متباعدة جدا . وان مشكلة الانسان هي أن يكون على صلة بالناس . ولكن مهما حاول الانسان . . فانه يجد الناس غير راغبين . . الناس في حالة ملل . انهم يقرفون من انفسهم . يقرفون من الصلات والعلاقات . .

ان فلسفة انطونيوني هي : ان كل ما ليس مرثيا عميقا يجب أن يكون ملوثا . . وهو في فيلم (الصحراء الحمراء) الذى ظهر له أخيرا قد جعل لون الدنيا كما يراها البطل والبطة أزرق مثلا فكل مشاعر البطل لا يعرفها احد . قد جعلها تنعكس على الدنيا حوله . . حتى هذا اللون ليس الا رأيا يريد أن يقوله البطل . . ولكنه قرفان من أن يقول شيئا يأس من أن يكون له رأى . . انه الملل نفسه .

لو كانت هناك قصة جنسية رابعة لانطونيوني لكان هذا الفيلم أعظم وثيقة فنية أهدتها ايطاليا للعالم كله . .

وشعار هذا المخرج انطونيوني وهو واقعي أيضا : أنا لا يطاربنى الواقع ولا أطارده ولا أتفزل فيه ولا استسلم له . . وانما فقط أجعله يتشاءب . . تماما ككل الناس في بيوتهم وفي مكاتبهم . . ان كل انسان لا يكاد يرى غيره . . حتى يتشاءب . . انه لا يريد أن ينام . . وانما هو فقط يتخذ من التثاؤب فرصة لكى يغمض عينيه حتى لا يراك . . وهذا الذى لا يريد أن يراه هو بالضبط ما أريد أن يخرج على الشاشة . . لكى يراه . . وتراه . . وأراكما معا . .

الحب له تاريخ .. والمحبو له جغرافيا

.. ما الذى يريد أن يقوله هذا الرجل فى كل أعماله الأدبية ؟

لو سألته : هل تحب الحب ؟

لأجاب : أكرهه !

— ولماذا ؟

— لأنه مضيعة للوقت .

— اذن ما الذى لا يضيع معه الوقت ؟

— الحياة .

— وهل يعيش الناس بغير حب .. ؟

— بل أن يكون الحب حياتهم !

— قصدك أن تكون الحياة حبهم ؟

— هكذا أفضل .

— ما الفرق بين المعنيين ؟

— أنت تضيع وقتى فى مناقشات لفظية .. دعنى .. فأنا على موعد مع فتاة

جميلة .

— أنت لا تستطيع أن تتمنى ما لا تعرفه .. وما لا تحس به .. فالحسنة

شعورى الشخصى !

— اذن .. هل أعتذر عن هذا التدخل فى حياتك ؟

— من الأفضل أن تؤجل الاعتذار الى ما بعد .. فليس عندى وقت يتسع

للكلام ..

— سؤال آخر قبل أن تذهب الى محبوبتك : ألا يدور بينك وبينها كلام ..

ألا تحدثها عن نفسها .. وعن نفسك .. هل تقسم بشرقك أنك لن تروى لها كلمة

واحدة مما دار بينى وبينك ؟

— لا أستطيع . لأننى لا بد أن أروى لها ذلك !

— ولماذا ؟

— لأننى لا أكذب .

— فاذا لم تسألك عن شيء ؟

— سأجد نفسى أتحدث عما دار بيننا .

— لماذا ؟

— لأن المحبين يتحدثون عن كل شيء .

— عن السعادة ؟

— أنهم يشعرون بها فقط .

— عن الحب ؟

— أنهم لا يتحدثون عن الحب . . اننا نحب فقط أما أنتم فتتحدثون عن حبنا . .

نحن شعراء الحب . . وكل الناس مؤرخون للحب !

— وهل شعراء الحب يكرهون تاريخ الحب ؟

— نعم . . لأن المؤرخين يكذبون . . وهم يخترعون قصصا لا نعرفها . . ويصفون لنا أسماء لا نحبها . . نحن نحب فقط . . هذا كل ما نفعله . . أما الحب الذى له أول وله آخر . . وله قواعد وله مبادئ . . فهذا هو الحب الذى لا أحبه . . اننى لا أخضع لقاعدة . . ولا أعرف أحدا من الناس . . ولا أراهم . . عندما أجلس الى محبوبتى فليس فى الدنيا غيرها . . عندما أستمع اليها . . فالكون كله قد ابتلع لسانه . . لا همس الا همسها . . لا صوت الا صوتها . . لا وجه الا وجهها . . لا سعادة الا معها . . لا زمن . . لا حاضر . . لا ماض . . لا مستقبل . . لا تاريخ .

— الا تلاحظ أنك رغم حرصك على أن تنطلق الى محبوبتك قد بقيت معى بعض الوقت . .

— لم أكن معك لحظة واحدة . . اننى معها . . فليس حديثى معك الا حفلة تكريم لها . . الا تعميقا لشوقى اليها . . الا محاولة لأن أحفظ كل ما قلته أنت وما قلته انا لكى أرويه لها . . فالبعد عنها خطيئة . . والحديث اليها اعتراف دائم بالذنب . . وأكبر ذنب أن أكون بعيدا عنها مشغولا بغيرها . .

— ومع ذلك تقول أنك تكره الحب .

— نعم . . أكره الكلام عن الحب . . لأن الحب حريق وليس دخانا . . لأن الحب قلب حريص على أن ينزف ، وليس عقلا حريصا على أن يعرف !

هذه السطور من « مذكرات ضائعة صغيرة » للأديبة الإيطالية داتشيسا ماريانى زوجة الأديب البرتو مورافيا . . والضياع فى عنوان الكتاب صفة للمذكرات . .

والكراهية للحب هي التي جعلت بطلة القصة تستغرق في الحب حتى تفرق .. دون
ان تفتح فمها بكلمة كأنها تخشى على نفسها أن تصحو من حبها ..

واذا كانت الكراهية للحب قد جاءت سطورا أو صفحات قليلة في هذا الكتاب ،
فان الأديب الفرنسي الكبير استندال هو الكاره الأكبر للحب . وليست أعماله الأدبية
المعروفة الا تأكيدا لهذا المعنى . فقد صدر لاستندال كتاب معروف اسمه « الحب »
أو « شيء من الحب » منذ أكثر من قرن ونصف قرن . ولكن هذا الكتاب قد أعيد
طبعه أكثر من سبعين مرة . وأحدث نسخة لهذا الكتاب قد صدرت في أوائل هذا
العام . وفي المقدمة أن الأديب استندال (١٧٨٣ - ١٨٤٢) لا يزال جديدا . وأن
لعناته التي صبها بأناقة على المرأة الفرنسية وعلى الرجل الفرنسي وعلى الحب نفسه ،
ما تزال ذات دوى جارح ..

واستندال لا يستعرض الحب لأن تاريخ الحب هو تاريخ الكراهية . وان كان
الحب قد عاش قبل الكراهية بدقائق فقط !

ولكن استندال يتحدث عن الحب في البلاد الأوروبية . وفي الشرق ، فهو - اذن -
يتحدث عن جغرافية المحبين .. أشكالهم وألوانهم وأحجامهم وعطورهم وأزيائهم .
وكيف يحبون وكيف يعجزون عن الحب .

وهو لا يتعب من الهجوم العنيف على المرأة الفرنسية .. فالرجل الفرنسي لا يملك
الا غروره ولذلك فهو يفضل المرأة التي تطارده ، على المرأة التي يطاردها . فاذا طاردها
فمن الواجب أن يكون الاستسلام السريع مكافأة على ذلك . وأكثر النساء يرفضن
أن يكن ضحايا رخيصات لرجل لا يملك الا النفخة الكاذبة . ولذلك انتقم الرجل
الفرنسي من المرأة الفرنسية فاتجه الى الغانيات .. أو اتجه الى المرأة الفقيرة التي
طحنتها ضرورات الحياة ، ولم يتسع وقتها لكي تتعلم أو لكي يكون عندها كبرياء ..
فهى شديدة الحيوية فقط .

والفرور الفرنسي يجعل الرجل لا يتحدث بصراحة من رغباته الجنسية
المتعطشة . فهو يرى أن العار هو أن يقول أنه جائع الى شيء . ولذلك كانت الغانيات
أسهل أنواع الطعام أما اذا رفضت إحدى الغانيات رجلا فرنسيا فلن ينسى لها ذلك .
ولكن الذى يقوله لأصدقائه هو نوع من « الفشر » الذى يعرفه الرجال والنساء
أيضا .. فهو يقوله أنه هو الذى تركها عند قدميه .. وعندما نهضت اصطدم رأسها
بالباب الذى أغلقه فى وجهها بعنف !

واذا كانت الحرارة الإيطالية والسماء الصريحة تذيب الجليد فى إيطاليا ، فان
البرود والحزن هما شعار القلوب الفرنسية - وكل ما ينقص الإيطاليين هو أن
« يجدوا » الفرصة ولكن الذى ينقص الفرنسيين هو « الرغبة » فى انتهاز الفرصة !

وفرنسا هي « الصالون الأدبى » لأوروبا كلها .. ولذلك فالفرنسيون أساتذة
الكلام .. وفى البيت وفى الشارع وفى البرلمان .. ولكنهم لا يعرفون الشرف الحقيقى .

أنهم يعرفون الشرف الكاذب . فهم يخافون من الناس . . يخافون من المجتمع . وهذا الخوف يجعلهم يذبحون ألوف القلوب الصغيرة على مذبح الثروة . والفرنسيون يحبون الثروة وهم ضحاياها أيضا .

ويرى الفرنسي أنه من العار أن ينفرد بنفسه ، مع أن الحب هو وحده الذى يحب العزلة . ففي العزلة يرى ويسمع ويقول ويحلم ويعيش مع محبوبته !

أما فى إيطاليا . . فالرجل الايطالى لا يسأل أبدا : عن رأى الناس فى حياته الخاصة . أو فى سعادته فالسعادة هى الفاكهة فى فمه والموسيقى فى أذنه والفتاة بين أحضانه وهى اللحظة الحارة الخاطفة التى يجدها . .

ولكن الفرنسيين لأنهم يهتمون برأى الجار وجار الجار ، فمن النادر أن يتزوجوا عن حب لأن الحب فضيحة . وهم يخافون الفضيحة لأن الفضيحة هى محكمة شعبية تصدر أحكامها على الناس كل لحظة . والفرنسيين يفضلون البراءة الكاذبة على الجريمة الشريفة !

وأما إيطاليا فهى بلد الاستفراق فى الراحة ، تحت سماء صافية . . وكل المشاعر مفتوحة لاستقبال كل ما هو جميل . . والايطاليون يقبلون على الحب وهم يعرفونه . فمن المألوف أن تسمع فى إيطاليا من ينظر الى أحد العشاق ويقول له : سوف تتعذب شهرا أو شهرين ثم تستريح بعد ذلك !

وإذا كانت المرأة الفرنسية رائعة لمدة ثلاثة أيام ومروعة فى اليوم الرابع ، فإن المرأة الايطالية أروع من ذلك بكثير . . ومع المرأة الفرنسية لا تجد السعادة وإنما تجد نوعا آخر من الامتلاء اسمه الشبع . . وليس بعد الشبع إلا الهرب !

وفى انجلترا يتباهى الرجل الانجليزى بأن زوجته مطيعة . . ولكن من الذى لا يمل عبدا مطيعا ؟

وأكبر دليل على أن الرجل قد مل طاعة الزوجة هو اسرافه فى الشراب . . فالرجل الذى يسرف فى الشراب هو رجل هارب من الروتين اليومي والطاعة البليدة . أنه يحاول أن يثير نفسه ليثور فيحطم كل ما حوله . . وأول ما يحطمه هو جمود السيدة حرمه . . ثم أن هؤلاء الانجليز يركبون خيولهم ساعات طويلة فى اليوم . ولذلك فهم أصحاب سيقان قوية وقلوب جامدة . ولهذا فهم حريصون على أن تكون زوجاتهم أرق عودا ، وأنعم ساقا وأقل حركة !

والمرأة الايطالية لا تحب المشى . . والذى تمشيه الايطالية فى سنة تمشيه الانجليزية فى أسبوع .

والايطالية ليست فى حاجة الى المشى ، لأن ما تريده تستطيع أن تفعله وهى جالسة . .

والرجل الانجليزى قد رسم لنفسه صورة فى عين المرأة وهو لا يريد أن يخلع هذه الصورة لأنه حريص على أن يبدو مهذبا . . جنتلمان . . ولذلك فالمرأة الانجليزية

تحرص على أن تكون مهذبة .. وأفضل لها أن تموت من العطش على أن تطلب كوب ماء .. وهى أيضا تفضل أن تحتفظ بفستانها القديم ، كما يحتفظ هو بمنطلونه المرقع جيلا بعد جيل ، على أن تكون كالفرنسية التى تغير كل يوم فستانا والتى ترى أن منتهى العقل هو أن تمشى وراء الموضة المجنونة !

ولا بد أن هذا النوع من الحياة يناسب الانجليز ، والا فما سر هذا العدد الكبير من العظماء فى كل مجالات الفكر والفن والسياسة .. لا بد أنهم سعداء - على طريقتهم - وأنا لا أحسدكم على ذلك .. فقد جاءت هذه العظمة من سوء فهمهم للحب والموسيقى !

أما فى أسبانيا فقد ولد الحب ليكون أسبانيا .. ليتمدد تحت ظلال أشجار الأندلس ولينتشى برائحة البرتقال والليمون .. ولتعلق بالفساتين السوداء البسيطة وليخرج من الأكمام المزركشة ، وليتكلم من العيون الواسعة العسلية ومن الرموش الطويلة ، وليموت على الوجوه الشاحبة ..

ان الأسبان هم الشعب الوحيد الذى قاوم نابليون .. انهم شعب لا يعرف الا الشرف الحقيقى . فقد اقتسموا مع الفرنسيين الشرف : الشرف الحقيقى لهم ، والشرف الكاذب لفرنسا .

واذا كان الفرنسيون يعيشون على الغرور ، والايطاليون على الحب والكراهية ، فان الالمان يعيشون على الخيال . فالالمان عندما يفرغون من مشاكلهم اليومية يتناقشون فى الفلسفة .

واهم ما فى الفلسفة الألمانية هو الحماس والايمان . والحماس لى شىء وطنى .
واهم ما فى الوطنية هى المجد ..

وقد حدث أن اثنين من الضباط كان يقفان وراء مدفع . فانطلقت من جانب العدو قذيفة أصابت أحدهما . ففرح الآخر وقال : سوف أنال ترقية .

ولكن الضابط المصاب نهض قائلا : لم تصبنى .. انها مرت بجوارى فقط .
وحرص الضابط على الترقية ، قد أنساه الموقف الانسانى .. وأنساه أن زميلا له وصديقا قد مات !

ولكنه المجد العسكرى !

وقد حدث أيضا أن رجلا قتل أحد منافسيه فى الحب . وحكم بالاعدام على هذا الرجل فسارت الفتيات بالملابس البيضاء يلقين عليه الورد . لأنه أحب وأخلص وقتل فى حماس شديد !

وبسبب هذا الحماس والايمان الشديد يظهر فى المانيا عبقرى كل عشر سنوات ..
واذا كانت الوصية السادسة من الوصايا العشر تقول : لا تقتل .. فان الالمان يرفضون هذه الوصية من أجل الوطن ومن أجل مجرّد الحماس والايمان بشيء !
واذا كانت القيود تشعل الحب فان الحرية تخمده .. وهذا واضح فى أمريكا ..

ففى أمريكا جمود عاطفى . . فالأب من الممكن أن يفاجأ بابنه الذى غاب عشر سنوات . ويستقبله ببرود كأنه انتقل من غرفة الى غرفة !

وهذا الجمود العاطفى لم يقدم لنا كاتباً واحداً عظيماً ولا شاعراً عبقرى ولا سياسياً فريداً . ولا موسيقياً خالداً ولا رساماً ولا حياً عظيماً .

ان السعادة ممكنة فى أمريكا . . ويقول استندال : انها سعادة ممكنة . . سعادة من نوع منحط من الاهتمامات الانسانية . لا أستنكرها ولا أتمناها لأحد من الناس ! أما فى سويسرة فيكفى أن أضرب هذه الأمثلة العادية وعليك أن تعرف أى نوع من الحب والحياة الزوجية والعلاقات العاطفية يعرفها هؤلاء الناس . .

لقد شكى أحد السويسريين من أن الثعالب قد أفسدت أشجار العنب فاقترح عليه أحد أصدقائه أن يشتري كلباً . فرفض الرجل بشدة قائلاً : ان الكلب سيجعل بناتى عوانس .

ولم يفهم الصديق فسأله : ماذا تقصد !

فقال الرجل : ان وجود كلب فى الحديقة سيمنع الشبان من التسلل الى نوافذ غرفة بناتى !

ويقال ان ضابطاً كبيراً أعجبه فتاة جميلة فسألها ان كان يمكن أن يمضيا الليل نسوياً .

فقلت الفتاة : يجب أن أستأذن من أمى .

وذهبت الفتاة الى أمها . ووقف الضابط الى جوار الباب يستمع الى ما يدور بين الفتاة وأبويها .

فقلت الأم لزوجها : دعها تذهب . أنت تعرفه . انه رجل وسيم .

وقال الأب : اعرف ذلك . ولكن كنت افضل أن يكون لك أنت يا عزيزتى . .

ومالت الأم تشكر زوجها على هذه التحية . ثم قالت للفتاة : اذهبي . . ولكن احترسى من البرد !

وقال رجل سويسرى لصديقه الفرنسى : ان زوجتى سيدة فاضلة . . اننى اعرف من هم هؤلاء الذين أمضوا معها ليالى الشباب . . ولكنها فضلتنى عليهم فى النهاية ! أما الحب عند العرب فيرى الأديب الفرنسى استندال انه أرقى وأعمق ما عرفت الانسانية من حب . وأن الغربيين يشعرون أمامه بأنهم بدائيون وحوش . . فالعرب من البادية كانوا ينصبون خيامهم تحت السماء . . وفى عزلة صافية يولد الحب العفيف . فلم تعرف الانسانية أن أحدا مات من أجل الحب . . أو أحب حتى مات الا عند هؤلاء العرب . . عند قبيلة بنى عذرة . .

فأينما ذهب العربى البدوى فهو ضيف على كل انسان . . فاذا كانت الصحراء واسعة فإن قلوب الناس أوسع . . واذا كانت الرمال كثيرة ، فكرمهم وسخاؤهم أكثر . .

ولا أحد قد تفوق على العرب في حياتهم البسيطة . وعلى عشقهم الصادق .

وأهم ما عثر عليه الفرنسيون في مصر وأتوا به الى فرنسا وإلى أوروبا كلها كتاب « الأغاني » لأبي فرج الأصفهاني . ففي هذا الكتاب تاريخ الشعراء وحياتهم وقصائدهم وتاريخ المطربين والموسيقيين . . . والغرب كله لم يكن يدري شيئا عن ذلك . وليس لديه مثل هذا كله . . . والذي يشك في صحة هذه العبارات فليرجع الى كتاب « الأغاني » وإلى كتاب « ألف ليلة وليلة » . . . وليرجع أيضا الى كتاب الشاعر التونسي المصري ابن أبي حجلة صاحب « ديوان الصبابة » . .

ويتحدث استندال عن الشاعر جميل الذي أحب بثينة حتى الموت . . . ولما سئل جميل عن سبب الحب حتى الموت قال ما معناه : ان نساء بنى عذرة جميلات وشبابها أطهار !

وفي قبيلة بنى عذرة مات ثلاثون من الشعراء العذريين بسبب الحب !

ومن أغرب قصص الحب أن واحدا أحب فتاة مسيحية ، وخاف ألا يلقاها يوم القيامة . . . فقير دينه . . . وخشيت هي ألا تلقاه يوم القيامة فقيرت دينها . . . ومات الاثنان !

وفتاة أحب ابن عمها أيضا وطلبت من يرسم لها صورته وعلقت صورته . وترددت عليها كل يوم تقبلها وتبكي أمامها . . . ولما مات الحبيب . وجدوها ميتة الى جوار الصورة !

ومن أبيات جميل في محبوبته بثينة :

هي البدر حسنا والنساء كواكب وشستان ما بين الكواكب والبدر
لقد فضلت حسنا على الناس مثلما على ألف شهر فضلت ليلة القدر

والعرب هم أول من عرف الحب العذري .

وهم أول من علم الانسانية كلها معنى الفروسية ومعنى الشهامة وأول من عرف أن الشرف هو : أن يحب الانسان حتى الموت .

أن يحب بلا مقابل .

والمقابل الوحيد للحب هو الحب .

. . . وإذا كان الحب جريمة اجتماعية فالموت الشريف هو العقوبة التي يدفعها المحب راضيا سعيدا .

ولذلك كان الحب حياة عند العرب ، ولكنه تاريخ حياة عند الفرنسيين !

فارس فود حصانه يحترق

هى نوع غريب من النساء : قوية وزوجها ضعيف أو فيها رجولة وزوجها فيه أنوثة .. أو هى تحب السيطرة وزوجها يحب الهوان .. فالكتب التى صدرت عن الامبراطورة أوجينى كثيرة جدا .. سواء عنها كفتاة أسبانية أو كامبراطورة لفرنسا .

عندما أعطت يدها لقارئة الكف وهى فى الثانية عشرة من عمرها . قالت القارئة : سوف تعيشين مائة سنة . وتموتين فى الظل بعد أن تدفنى أعز الناس عليك .. وقبل ذلك ستعيشين فى خطر وفى عظمة !

وكان رد أوجينى : المهم أن أعيش فى عظمة !

وماتت أوجينى سنة ١٩٢٠ عن ٩٤ عاما . بعد أن دفنت ابنها الذى قتل فى حرب الزولو .. وبعد أن دفنت زوجها الامبراطور نابليون أيضا .. ولما ماتت هى دفنت فى نفس الكنيسة التى أقامتها فى بريطانيا .

وأوصت أوجينى ألا يدفن أحد فى هذه الكنيسة ، ولم يدفن فيها أحد . وأوجينى دى مونتيخو وهذا هو اسمها الأسباني - ولدت فى غرناطة . والدها كان ضابطا فى جيش نابليون الأول . أما أمها فهى ابنة القنصل الأمريكى فى مدينة ملقة الأسبانية أيضا . ولسبب غير واضح أدركت أمها وأسرتها أن هذه الفتاة سوف تكون ذات شأن . الفتاة نفسها تقول ذلك . والأحلام التى تراها أمها فى منامها تؤكد ذلك .. فى المدرسة كانت هناك لعبة تشترك فيها الفتيات فكل واحدة تروى ماذا تريد أن تكون عندما تكبر .. وكان من عادة كل فتاة أن تقول : سأكون زوجة وأما لثلاثة أو عشرة من الأبناء . وكان من عادة الفتيات أن يقلن ذلك وهن جالسات وقد اغمضن العيون خجلا .. أو تمشيلا للخجل . ولكن أوجينى كانت تقف على مقعد وتقول : أريد أن أتزوج شابا جميلا غنيا ثم أجعله ملكا على أوروبا كلها !

وكانت هذه النكتة التقليدية تتكرر كل سنة !

وانتقلت أم أوجيني إلى باريس . . وسعها أوجيني واختها . وكانت باريس كلها تدور حول القصر الملكي حيث الثراء والقوة والأناقة . . وحيث الوجه الامبراطوري لفرنسا وأوروبا . وفي ذلك الوقت كان نابليون العاشق الولهان لعدد كبير من الفتيات والسيدات الفرنسيات والانجليزيات . وكانت النساء يتسابقن على ارضائه . .

وعندما كان نابليون رئيسا لجمهورية فرنسا أقام حفلة فخمة . . وذهبت الأنسة أوجيني مع أمها . . وكانت في العشرين من عمرها . سمرء في لون الشاي والورد معا . وشعرها أسود طويل . وصدرها مرفوع - أو على الأصح مرتفع فقد كانت أوجيني أول من علم نساء أوروبا خلع السوتيان والكورسيه أيضا - وكتفاها ناغمتان مستديرتان . . وأصابعها ناعمة ملساء مسحوبة . . وكانت عندما تضطرب تنتفخ وجنتاها ويتحرك لسانها كأنها تحاول ابتلاع شيء في هدوء حتى لا يراها أحد .

ورآها نابليون . وسأل من هي ؟ قيل له فتاة أسبانية . قال : جميلة . . قالوا : تحت أمرك . قال : أريد ذلك . قالوا : حالا . . وكان نابليون أسرع من الجميع . واتجه إلى الفتاة التي استمعت إلى قصص نابليون الأول وهي جالسة على ساقى الأديب استندال . كما أنها استمعت إلى مغامرات وبطولات نابليون الأول من الأديب مريميه عشيق أمها . . أنها مجنونة بنابليون . . أى نابليون . . ولمس الامبراطور ذراعها . . وتحركت في نفسها أحلامها . . ارادتها . وظن الامبراطور عندما رأى اللمعان الغريب في عينيها أنها على مسافة خطوات من فراشه . ولكن الفتاة أكدت بهدوء قاطع أن المسافة بينهما يشغلها كرسى العرش فقط . . واندھش نابليون . . ولكنه في نفس الوقت كان سعيدا بهذه المقاومة . . انها شيء جديد . انه لأول مرة يشعر أن سلطانه لا يقوى على هذه الفتاة . ولكنه قادر على أن يخطفها بالقوة . وتحديث باريس . . وامتلات بالشائعات . وقيل ان الفتاة صفعت نابليون على خده في الظلام . وقيل انه قبل يديها . وقيل ان سيدة ذهبت إليها في الليل تهددها بالموت اذا اقتربت منه أكثر !

ولكن أوجيني إلى جانب أنوثتها الواضحة جدا ، فيها رجولة خفية . فهي تقف منصوبة القوام . وهي تمشي بخطوات واسعة ناشفة . وهي عندما تمتد يدها تفردھا على آخرها وتضغط بأصابعها على اليد الأخرى وهذا كله غير مألوف . وعندما تركب الحصان فبلا لجام ! وعندما انتقد أحد النبلاء الانجليز طريقتها في ركوب الحصان . قالت : عندي رد على هذا النقد . ودخلت وأحضرت سكيناً وهرب النبيل الانجليزى . . وانتشرت الشائعات في باريس أن المغامرة الأسبانية قد قتلت أحد الانجليز ودفنته في حديقة بيتها . ولما سألها نابليون عن ذلك قالت : في نيتي أن أفعل ذلك !

وفي إحدى حفلات نابليون . . اقترب منها الامبراطور ونزع غصنا من الياسمين ولفه حول عنقها . وتحديث باريس . وقالوا : الامبراطور عانقها علنا . ويقال انه عضها في رقبتها أيضا !

وفي حفلة أخرى دخلت أوجيني مع أمها - وبحثت عن المكان المخصص لها . فجاءت إحدى سيدات البلاط واجلستها في مكان بعيد عن نابليون ولاحظ الامبراطور ذلك . فذهب اليها وأجلسها بالقرب من أفراد أسرته . وأثناء العشاء مالت عليها إحدى السيدات تقول لها : ابعدي عنه . هذا انذار نهائي . وكان رد أوجيني : وإذا لم أفعل . فعادت الأولى تقول : قلت لك ابعدي عن طريقه ! وكان رد أوجيني : بل قولي له يبعد عن طريقى !

وعندما استدعاها نابليون لترقص وجدها حزينة . فسألها : مالك ؟ قالت : أهانوني . قال : من هم ؟ قالت : جلالتك تعرف من الذى أهاننى . ولذلك قررت ألا يهيننى احد بعد اليوم سأرحل . وقال : دون أن ترحلى لن يهينك أحد بعد اليوم . سأزوجك !

وتسلل نابليون وأوجيني بعض الوقت وخرجت الفتاة الأسبانية من الظلام سعيدة .

ولاحظ نساء ورجال القصر ان شيئاً غريباً قد حدث لفستانها . . انه تكرمش أو تكسر . . أو لم يعد مشدوداً كما كان . وأصبح الفستان الذى لا يلتصق بالجسم موضحة الامبراطورية . . انه الفستان الذى لا يكثرث بالجسم . . أو الذى يحرر الجسم من قيود الترسى !

وعادت أوجيني الى أمها فى البيت لتقول لها : عندى خبر هام . أهم خبر فى حياتك . معى رسالة من نابليون لك . .

وراحت تقرأ الرسالة :

« سيدتى مدام دى مونتيسخو . .

« منذ وقت طويل أحب ابنتك وقد فكرت كثيراً فى ذلك . ولا بد أن أتزوج وقد أصبحت امبراطورا لفرنسا وأريد أن تجلس الى جوارى على العرش فتاة جميلة ذكية . ولم أجد أفضل من ابنتك فأرجو أن تقبلى عظيم تحياتى وامتنانى » . والامضاء طبعاً : نابليون !

وكان ذلك يوم أول يناير سنة ١٨٥٣ . . وملأت الأم بيتها بالزهور والورد . وظلت ترقب من النافذة مجيء الامبراطور . ولم يحضر أول يناير . ومضى الثانى من يناير فى ضيق . . والثالث فى ملل . . والرابع فى قرف . . والخامس فى توتر شديد . . وجاء فرناند دى لسبس قريب الأم واقترح عليها أن ترحل بهدوء الى اسبانيا ودون اذن منه . أما عشيق الأم الأديب مريميه والذى كتب عنها قصته المعروفة « كارمن » فكان من رأيه أن تبقى أوجيني فى باريس . فالامبراطور سوف يقيم إحدى الحفلات . ولا بد أن يدعوها . وأن يجلسها الى جواره . وعليها أن تخبره بقرارها وانها فى حاجة الى شىء من الراحة . . وجاء موعد الحفلة . . وجاءت الدعوة . وذهبت أوجيني وقد تعلققت فى ذراع المليونير جيمز روتشيلد . وبدأ كل من نساء

ورجال الحاشية في الغمز واللمز والهمس واللمس .. والسعال والعطس .. لقد دخلت أوجيني في صمت في قلب مقطوعة موسيقية مهينة . ولكن الامبراطور اقترب وسألها عن صحتها . واعتذر عن التأخير . وأكدت له رغبتها في مغادرة البلاد . انها لم تعد قادرة على احتمال النكت والأغاني الخليعة التي تسخر من علاقتها به ..

وفي يوم ٢٢ يناير سنة ١٨٥٣ أعلن الامبراطور زواجه الرسمي منها . وانخفضت البورصة ووقفت باريس على رجل . وأحس الفرنسيون بشيء من الهوان . فقد ضاعت النكت التي اخترعوها ضد أوجيني وأما الأغاني والمونولوجات الساخرة ، فلم تكن تضحك أحدا من الناس . ان أهل باريس قالوا ان الامبراطورة هي التي اختارت نابليون . وانها وعدت بأن تجعله زوجا مثاليا . وكان زوجها مثاليا لستة اشهر . وبدأ يعاود حياته العريضة من جديد . ولكن الامبراطورة كانت قد تعلمت بسرعة فن الجاسوسية . فقد نشرت حوله العيون والأذان .. وكان الامبراطور يندهش كيف كانت زوجته تعرف بالضبط ما الذي قاله الامبراطور في كل لحظة من لحظات خيانتها لها .. وفي إحدى المرات قالت : لم اكن اتصور أنك تقبل الأيدي التي لا تضع عطرا بين أصابعها .. كنت اظن أنك تفضل الأيدي القذرة بين الرجال فقط !

وفي مرة أخرى قالت له : اذا كانت هذه المرأة لا تضع السوتيان فلا بد انها تعمل هنا في هذا القصر . فأنا أول من خلع القيد الشديد على الصدر . فمن هي ؟

وكانت فعلا إحدى وصيفات القصر وأنجبت له ولي العهد سنة ١٨٥٦ .. وكان من عادة نابليون أن يأخذ بعض الدوسيهات الى فراشه وكان يترك الدوسيهات ملقاة على الأرض وينام . وتعلمت أوجيني أن تقلب الدوسيهات . وكان يضحك لهذا الاهتمام السخيف بالحكم وبالعدالة - وفي أحد الأيام فوجيء بعدد كبير من الرجال في داخل القصر .. وسأل : من هؤلاء الناس فقيل له : ضيوف الامبراطورة !

ودخل القاعة حيث يجلسون . واكتشف أن الامبراطورة قد استدعت عشرة من الخبراء تطلب اليهم أن يفهموها الميزانية . فهي تريد أن تفهم . وكانت أقدر على فهم شئون الحكم والادارة والسياسة من الامبراطور . وكانت أعمق فهما للدين من الامبراطور . وربما كان إيمانها الشديد بالكاثوليكية هو الذي جعل العلاقة بين التاج والفاتيكان أقوى وأهدأ . وكان من رأيها أنه من الصعب ان يكون الانسان ملكا وان يكون عادلا . فالعدل صفة من صفات الله .. والعدل شرف يدعيه الملوك .. أو العدل كالشرف يدعيه الملوك أيضا !

وعندما يغيب نابليون عن باريس كانت هي الامبراطور . وقد حدث ذلك عدة

مرات في سنوات ١٨٥٩ و ١٨٦٥ و ١٨٧٠ ..

وأوجيني هذه ذكية جدا وعصبية جدا . ولذلك فهي سريعة الملل . ومن المؤكد انها هي التي علمت نساء القصر أن يتكلمن بسرعة . فهي تريد أن تعرف بسرعة وفي إيجاز ولذلك انتشرت موضة الكلام السريع بين النساء . وأصبحت الموضة أن تقول المرأة كلاما مبهما وعلى الرجل أن يفهم بعد ذلك . وهذه السرعة في الكلام والسرعة في

ارتداء الملابس وخلعها . . قد دفعتها الى التخلص من كثير من الأربطة التي تشد الصدر والخصر والأرداف .

وهي صاحبة العبارة المشهورة التي تقول : ان فستان المرأة يجب ان يكون مثل ستارة المسرح يعلو ويهبط كثيرا وبسهولة في كل يوم . . !

أما المشروعات الاقتصادية فكانت صداقتها لأسرة روتشيلد اليهودية هي التي جعلتها تتجه الى الشرق الأوسط وإلى المكسيك أيضا .

ففي إحدى المرات فوجئت وهي تحمل مظلتها بشاب يتقدم منها . انه شديد الأدب وجميل الملامح . وتذكرته فورا . انه اسباني وكان أول من رقص معها في حفلة عيد ميلادها السادس عشر في مدريد . حدثها عن المجد الذي يمكن أن ينتظر فرنسا اذا بعثت بقواتها الى المكسيك والقضاء على الفساد هناك . . وقال لها : ابن نابليون الثالث يحمل اسم نابليون أيضا . ويجب أن تكون له أمجاده التاريخية . . .

ولعبت الفكرة برأسها طويلا . وانتقل اللعب الى رأس الامبراطور . . وإلى رعوس عشرات القواد . . .

وانتقل الى المكسيك عشرات الألوف من الفرنسيين . . والمصريين أيضا . واحتلوا المكسيك . وكانت الكارثة الكبرى على فرنسا .

وفي المعرض الدولي الذي أقيم بباريس التقت أوجيني بالمستشار الألماني بسمارك ونظرت اليه بعين فاحصة . فسألها : مولاتي تأمر بماذا ؟

فقالت : بأى شيء تظن اننى سأمرك ؟

وأجاب بسمارك : بالجلوس .

فقالت : لا .

وقال : بالوقوف .

قالت : بالمزيد من الحب بين الشعوب .

وضحك بسمارك قائلا : أى بالانصراف .

وكانت الحرب بين بروسيا وفرنسا وأطاحت بالامبراطورية الثانية وهربت الامبراطورة الى انجلترا .

ولحقها الامبراطور نابليون ومات هناك سنة ١٨٧٣ .

أما الاهتمام بالشرق الأوسط فقد استمعت الى قضايا ومشاكله من قريبها فردناند دلسبس . كان مع عروسه . . هو في الرابعة والستين وعروسه في العشرين . وقد أنجب منها بعد ذلك اثني عشر ولدا .

وبلغ اهتمامها قمته عندما قررت أن تגיע الى مصر لتشهد افتتاح قناة السويس في نوفمبر سنة ١٨٦٩ وجاءت الى مصر يوم ٥ نوفمبر من الاسكندرية الى القاهرة .

ثم اتجهت الى الصعيد لتشهد آثار الأقصر وأسوان وكان يرافقها الاثرى الكبير مارييت . وهو الذى شرح لها معنى وقوف المرأة المصرية القديمة الى جوار زوجها الملك ولماذا هى التى تحتضنه دائما . « نفس الملحوظة أبدتها الأديبة الفرنسية سيمون دى بوفوار عندما جاءت الى القاهرة منذ سنوات » وكان من رأى مارييت أن الرجل رجل . . أى أنه فى المقدمة وأن المرأة يجب أن تتمسك به . وعلى الرجل أن يحبسها ويحميها . وفى تلك الليلة قررت أوجينى أن تفعل شيئا فأرسلت برقية الى زوجها الامبراطور تقول له : انها تحبه رغم كل شيء . ان المرأة الفرعونية قد علمتها ذلك . وانه من الممكن أن يتعلم هو ذلك من الرجل الفرعونى .

أما الرجل الذكى الذى كان يحكم مصر فى ذلك الوقت فهو مختلف جدا عن الرجل الفرعونى وعن الامبراطور الفرنسى انه الخديو اسماعيل الذى أقام للامبراطورة قصرا فى الزمالك — مكان فندق عمر الخيام الآن — وفى القصر بنى لها عرش غرام صغيرا . وكان الخديو يداعبها ويفازلها أمام كل الملوك والأمراء . وكان يقول لها : أنت فى رشاقة الغزال وجماله وحيويته .

وتساءلت الامبراطورة عن هذا الغزال .

وانتهز الخديو هذه الفرصة ليجعلها تتفرج على الغزال فى حديقة الحيوان . . . ثم أتى لها بالغزلان فى قصرها لترى وجه الشسبه بينها وبين الغزلان . واستراحت الامبراطورة الى المعنى الجميل الذى قصده الخديو . . . وعندما حدثها عن شفيتها وعن العطر الذى يفوح منها ، وعن أذنيها ، وعن عنقها ، وعن صدرها . . أما شعرها فانه لم يجد له شبيها . . ورأت أوجينى أن الخديو كآى شرقى مبالغ فى كل شيء . . وان هذا الاسراف فى المدح مثل أى شيء آخر . . انه يشبه موائد الطعام الفخمة التى يقدمها لأربعين وتكفى ألوف من الناس .

وفى احدى الليالى بعث الخديو للامبراطورة أنه يريد ان يزورها فى قصرها . . . وجعل موعد الزيارة ليلا . . . وأدركت الامبراطورة أن الخديو قد تجاوز حدود اللياقة . فجمعت حاشيتها كلها من النساء وانتظرن الخديو . وتضايق الخديو اسماعيل . . واستمرت الزيارة نصف ساعة وخرج ولم يعد . ولكنه لم ينس . ولم يكف عن الاسراف فى المديح أيضا .

وفى الليل جاءها قسيسها الخاص واسمه باور وهو من أصل مجرى يهودى . وكان قبل ذلك رساما وموسيقيًا وبحارا . وكان يعرف اللغة العربية أيضا . وكان يحدثها عن جمال المرأة المصرية . وكان شديد الأناقة لدرجة لا تليق برجل الدين . . وقد شوهد هذا القسيس المعجب يعاكس الفتيات المصريات . وقد بلغ الامبراطورة ذلك .

ولما سأله قال : أريد أن أختار لك مجموعة من الفتيات لترى الجمال المصرى الحقيقى .

ولم تسترح الامبراطورة لذلك . . ولا الخديو اسماعيل .

وكان القسيس اليهودي من أقدر الناس على قراءة الكف . فاستأذن الامبراطورة
في أن يقرأ كفها . وقال لها : مولائي يجب أن تعودى الى فرنسا حالا . . فهناك أنباء
غير سارة تنتظرك .

وغضبت الامبراطورة . وطرده بأدب . ولكن بعد ساعة جاءت برقية من
الامبراطور يطلب اليها العودة فقد تضايق من ساوك الخديو اسماعيل . وتضايق من
أنها تمادت في تشجيعه . وان باريس تتحدث عن غرام جديد بين الوالى المصرى
والامبراطورة .

وعادت الامبراطورة وتوالت الكوارث على علاقتها مع الامبراطور . وتأزمت
الأحوال السياسية الداخلية والخارجية حتى كانت الحرب السبعينية وتوالت هزائم
القوات الفرنسية وخرج نابليون وخرجت الامبراطورة من فرنسا . . وسارا في نفس
الطريق الذى سار فيه نابليون الأول سنة ١٨١٥ .

وقالت أوجينى ما يقل في هذه المناسبة : ان تاريخ فرنسا يعيد نفسه . . بل لقد
مضى على فرنسا قرن من الزمان وحكامها يهربون الى الخارج .

وفي انجلترا نزلت أوجينى ضيفة على الملكة فكتوريا ثم قررت الامبراطورة أن
تكون لها حياة خاصة .

وكانت لها حياة خاصة . . وبعد أن مات زوجها وبعد أن قتل ابنها قررت أن
تبني لنفسها احد الأديرة . . وتأوى اليه . . وتقدمت لها دور النشر تطلب مذكراتها .
وكنتم ترفض قائلة : كل المذكرات كذب . . وأنا لا احسن الكذب . . ولذلك أترك
هذه المهمة لعشرات الناس يكتبون ذلك ويقدرون عليه !

وفي أحد أيام الدير ، فوجئت بالقسيس اليهودي وقد تزوج فتاة يهودية أصغر
منه بأربعين عاما . وفوجئت مرة أخرى بأنه عاد الى الديانة اليهودية وأنه يعمل في بنك
روتشيلد في لندن !

لقد كان جاسوسا على الامبراطورة !

ويقال ان المذكرات الخاصة بالامبراطورة أوجينى والتي نشرتها الصحف ثم كذبتها
هى كانت من تأليف هذا القسيس اليهودي . ومعظم وقائعها صادقة ولم تشأ أن
تكذبها !

وفي آخر أيام الامبراطورة أوجينى كانت تتحدث كثيرا عن معاهدة فرساي سنة
١٩١٩ . . وعن رأيها في المتفاوضين . . ثم أصيبت بشيء من الجنون . مما اضطر
بعض الرجال الدين الى أن يغلqوا عليها الأبواب . . ولكنها كانت تصرخ وتقول : لا أريد
أن أموت هكذا . . ضعوني فوق ظهر حصان يحترق ! واتركوه يفرق في المحيط !

وقبل أن يحترق الحصان . . اختفت الامبراطورية وظهرت الجمهورية . ولم
تتمت فرنسا . . وانما مات وسقط وشنق حكامها !

وعندما كانت أوجيني على فراش الموت طلبت أحد رجال الدين وسأله : هل أنت
من أصل يهودي ؟

فاندهش القسيس وقال : لا .. وعادت تسأله : ولا زوجتك !
فقال : لا ..

قالت : أطلب لي الرحمة يا أبي !
وطاب لها الرحمة .. ثم نشر هذا الحديث !



وراء كل عظيم .. فتاة مراصعة

الفرنسيون الذين ثاروا من أجل الخبز ، فازوا بالقبلات . وكل شيء في فرنسا يبدأ بالقبلات ولم يحدث أن اتخذ أى عظيم قرارا قبل أن يأوى الى فراشه الجميل . فاذا نهض من فراشه كان القرار جاهزا وكانت شريكته في الفراش هى صاحبة القرار . ولم يحدث اسراف فى الدم وفى القبلات كما حدث بين ١٧٨٩ ، ١٧٩٣ وهى كل أعوام الثورة والارهاب . ففى مواجهة الخوف تعانق الناس . وفى مواجهة الموت تمسك الناس بالحياة وفى مواجهة الرعوس التى تتساقط من المشانق كانت تهتز قلوب النساء الصغيرات .

فالمراة ترتعش أمام الدم ولا تخاف منه . فهى تعرفه كل شهر . ولكن منظر الدم واعدام الرجل كان يثيرها . وحول المشانق أقيمت حفلات الرقص . واختلط الدم بالنبيذ . وذابت الفوارق بين الرجال والنساء . الفقراء والأغنياء . العذارى والمحترفات . فى الشوارع والحدائق والسجون . وكانت السجون هى أعظم مكان للمتعة . ففى السجون يلتقى أصحاب المبادئ ، ويلتقى الذين يريدون أن تكون لهم مبادئ . ويلتقون جميعا فى أحضان النساء .

وكل شيء كان يغلى فى فرنسا . الدم فى عروق الناس . والناس فى حمامات الدماء . وأعماق فرنسا تطفو على السطح . والغانيات أكثر الناس وضوحا وأعلاهن صراخا وأكثرهن مطاردة للجيش فى كل مكان . وجاءت الثورة الفرنسية فأعطت للغانيات شرف المبادئ ، وشهادة الوطنية . وأصبحت الرذيلة أسلوبا سياسيا .

وابتداء من ثورة ١٧٨٩ أصبحت كل ثورة تمردا ناجحا ، وأصبح كل تمرد ثورة فاشلة . وعندما تكون ثورة ، يتحرر الناس من القيود . وتحررت فرنسا من قيود الجنس والعائلة وشرف العائلة . وأحس كل فرنسى أنه لى يكون فرنسيا ، ويتشرف بالانتساب الى فرنسا ، لابد أن يكون خبيرا فى الحب . فالذى لا يعرف كيف يجب كثيرا ، ليس فرنسيا والذى لا يعرف أكثر من امرأة ، احداها زوجته ، ليس فرنسيا . . . ويوم يشعر الأب ان أحدا أبنائه لا يعرف الا امرأة واحدة ، فانه يتعجل زواجه

واذا تزوج فانه يتعجل خيانتة لزوجته . . فاذا خانها شعر بالارتياح ومضى هو أيضا الى سرير الخيانة !

ولذلك من الطبيعى ان يكون الرجل الذى اسمه دون اورليانز تقيسا . فقد علم ان ابنه الأكبر ليست له تجارب . . وهذه اهانة لفرنسا . واهانة للأسرة المالكة الفرنسية . فهذا الدوق هو رئيس مجلس البلاط وهو الحاكم المؤقت لفرنسا . وليس بعيدا ان يكون ابنه ملكا بعد ذلك فكيف يكون ملكا ولا يكون فرنسيا أصيلا . . ولذلك قرر الدوق ان يبحث عن طريقة عملية ليكون ابنه رجلا وبسرعة .

وفى يوم ٢ مايو سنة ١٧٦٦ أرسل أحد رجال القصر الى دار الأوبرا . ومعه رسالة موجهة الى راقصة عمرها ١٥ سنة اسمها : روزالى . وقيل ان هذه الفتاة ذات شأن خطير فى فنون الحب . وقد سمع الدوق عشرات من قصصها العجيبة من شباب البلاط .

وفى اليوم التالى وقفت روزالى هذه أمام القصر الملكى . فراها أحد الحراس . وقبل ان يسألها قالت انا على موعد مع الدوق . . انه ينتظرنى . . ونظر الحارس الى وجهها وانزلق الى صدرها وقبل ان يقول كلمة واحدة كانت الفتاة قد دخلت القصر . واتجهت الى غرفة الدوق .

ووقف الدوق وانحنى . وسلم وقبل يد الفتاة - اقصى درجات الأدب والرقه . وقال لها : أنت تعرفين لماذا استدعيناك ! قالت الفتاة : لا أعرف . ولكن فى استطاعتى ان أقوم بأية خدمة تراها . قال الدوق : انها مشكلة ابنى . لا يعرف شيئا من متعة الحب . وأنا مستعجل جدا . وكل شيء بضمن . واذا نجحت اعطيتك ما تريد .

وبكل ثقة واضحة طلبت الفتاة ان ترى ذلك الشاب الذى سيفير ملامح التاريخ الفرنسى . وفرح الدوق . واستدعى ابنه الأمير فيليب . الذى اشتهر بعد ذلك باسم فيليب بطل المساواة .

واختفى الأمير والفتاة فى احدى الغرف . ولم تضع روزالى وقتها . وبدأت فى الدروس العملية للحب . . ولابد أنها وجدت صعوبة أول الأمر . ولكن تلاشت الصعوبات بعد ذلك . . درسا درسا ، ولعبة وراء لعبة . .

ولم يمض سوى أسبوع حتى جاءت الفتاة تطلب المكافأة وقال لها الدوق انا اعرف قدراتك الخارقة .

وبدا الدوق يرقب الأمير من بعيد وشعر بالسعادة . واستراح الى مستقبل ابنه . ولما لاحظ الدوق ان ابنه قد أسرف جدا فى الشهور التالية قرر ان يزوجه بسرعة واختار أبوه احدى الأميرات من حفيدات الملك لويس ١٤ من عشيقته مدام مونتسبان . وكانت هذه الفتاة من أسرة غنية جدا . وتم الزواج يوم ١٥ ابريل سنة ١٧٦٩ . اذن لقد أصبح الأمير زوجا . ومن الطبيعى بعد ذلك ان يخون زوجته .

وتم الزواج بالطريقة التقليدية التي كانت معروفة في ذلك الوقت : دخل العروسان في غرفة النوم ونزع الاثنان ملابسهما تماما وتمددا تحت اللحف . وجاء أفراد الأسرة المالكة يشهدون هذا الزواج . وجاء رجال الدين يباركون العروسين ويدورون حول السرير . . ويتعاقب العروسان وسط ضحكات أقرب العروسين . . وبعد ذلك يفلقون على العروسين الباب . وتبدأ الحياة الزوجية . . وفي اليوم الثالث للزواج ذهبت العروس مع زوجها الى دار الأوبرا . لاحظت أن عددا كبيرا من الفتيات يرتدين الملابس السوداء . وسألت زوجها : ولماذا تجيء النساء بملابس الحداد الى الأوبرا !

ولم يشأ زوجها أمير المساواة أن يقول لها أن هؤلاء الفتيات عضوات في جمعية « الأرامل المرححات » وهذه الجمعية تضم عددا من شبان باريس يتزعمهم الأمير فيليب . وهؤلاء الشبان يشربون ويرقصون ويمارسون ألوانا شاذة من الحب كل ليلة . وقرر أعضاء الجمعية أن يذهبوا الى الأوبرا ليروا زوجة الأمير . لكي يقيموا في الليل حفلة تأبين حمراء - حدادا على زعيم الجمعية !

وبسبب هجر الأمير المستمر لزوجته ، وبسبب ما أصابه من إرهاق شديد ، لم تكن زوجته تنجب أطفالا فقررت الزوجة أن تستحم في مياه أحد الينابيع التي اشتهرت بأنها تملأ البطون بالأطفال . وذهبت الأميرة واستحمت وحملت . وانجبت طفلا . ودخات القصر احدى الوصيفات لتعنى بهذا الطفل . وتعلق الأمير بهذه الوصيصة . وبسرعة أصبحت احدى عشيقاته . وكانت هذه العشيقة من هواة الأدب والشعر - وكانت زوجة ، ولكنها رأت أن تحقق أحلامها ومثلها العليا عن طريق هذا الأمير . وكانت هذه الفتاة ثورية وكانت ساخطة . وملأت الأمير بالسخط على الأسرة المالكة . .

وكان هذا الأمير شخصا غريبا . . فقد كان في نية الطبيعة ان تجعله رجلا كامل الرجولة ولكنها غيرت رأيها في منتصف الطريق . ولذلك حاول أبوه أن يعدل مسار الطبيعة وأن يفرض عليه الرجولة فرضا . . ونجح أبوه الى حد كبير . ثم جاءت هذه العشيقة التي تبلغ الثامنة عشرة من عمرها وقررت أن ترتبط به وأن تغير به وجهه تاريخ فرنسا . وكانت هذه العشيقة على صلة دائما بالمعارضين للملك . وكانت تعطيهم شعارات مثيرة . وكانت تقرأ عليهم صفحات من فلسفة روسو . وكانت تندس بين المتظاهرين . وكانت تنقل الى الأمير كل متاعب الشعب . وأصبح هذا الأمير رمزا للساخطين وزعيما للفقراء . وهجرت العشيقة زوجها وهجر الأمير زوجته . وعاش العاشقان معا يكتبان المنشورات ويوزعانها . . ونفاه الملك . ولكنه عاد مرة أخرى . . ولم يكده يعود الى باريس حتى كانت الثورة الفرنسية قد استعرت نيرانها في كل مكان . وعندما حاولت العشيقة أن تجعل منه شهيدا شنقوه . .

وكان الملك لويس ١٦ هو أحد الذين عجلوا بقيام الثورة الفرنسية فقد كان ملكا ضعيفا من كل الوجوه وقد تزوج وعمره ١٦ سنة . وزوجته ماري انطوانيت عمرها ١٥ سنة . وكانت زوجته قوية الشخصية . وكانت مخصصة لوطنها النمسا . وكانت تتلقى تعليمات بلادها من السفير النمساوي في باريس . وقد عرفت منذ البداية أن

زوجها ليس الا منظرا ولذلك لم تضع وقتها فقد كان لها أصدقاء من ضباط الحرس الملكى . وكن لها عشيق دبلوماسى سويدي اسمه فرسن . ومارى انطوانيت هى صاحبة الجملة المعروفة : لماذا لا تأكلون الكحك - قالت هذه العبارة الخالدة يوم ثار الشعب يطاب الخبز . فظنت بحسن نية وبلاهة ملكية أن الشعب قد زهق من الخبز ويريد طعاما آخر أو لعلها رأت أن الشعب يجد الكحك ويريد طعاما آخر . . ولذلك أمرت بأن يأكلوا الكحك بالقوة ولم تكن تعرف أن الشعب لا يريد تغيير الخبز وإنما يريد تغيير الذين يأكلون الكحك !

وتحت ضغط الشعب الجائع كان لابد أن يهرب الملك والملكة . وهنا يظهر عشيق الملكة فهو الذى أعد العربة وهو الذى أعد جوازات السفر الروسية المزورة عن طريق عشيقة روسية وعند الحدود انكشفت الحيلة . وعاد الملك والملكة الى باريس . والذين رافقوا الملكة سمعوها وهى تقول : مسكين حبيبى أرجو ألا يكون قد وقع فى أيديهم ! وحبيبها لم يكن الملك طبعاً ، وإنما هو هذا السويدي الذى قتله الشعب فى السويد بعد ذلك بعشرين عاماً .

ولما عادت الملكة الى باريس وعرفت أن حبيبها قد نجا بالسلامة فرحت الملكة وأقامت حفلة ساهرة صاخبة ونامت حتى الصباح فى أحضان رئيس الحرس الملكى ! وتم تنفيذ الإعدام شنقاً فى لويس السادس عشر فى يناير سنة ١٧٩١ . . وفى الملكة فى أكتوبر من نفس العام . ويقال إن لويس السادس عشر كان أكثر شجاعة يوم إعدامه مما كان عليه يوم زواجه .

واستمر الغايان فى باريس . . وذابت الفوارق بين الناس . وساحت الناس أيضاً . وانفتحت الأرض تحت أقدام الفرنسيين فخرجت من الشقوق الاجتماعية ألوف الغايات وتحولن الى ثوريات وصبحت الرذيلة نوعاً من الهدايا تقدمه النساء للشبان المحاربين . وكانت القوات الثورية تتابعها معسكرات الفتيات اللاتى يبذلن أجسامهن من أجل الثورة الفرنسية . وكانت الزوجات يتابعن الأزواج . ولذلك كانت هناك خيام للزوجات قريبة من معسكرات الجيش . وكانت مشكلة صعبة وتحولت المعسكرات الى فضائح فالرجال لا يريدون زوجاتهم . وفى نفس الوقت لا يستطيعون أن يهربوا الى العشيقات . .

وتراجعت النساء أمام قرارات عنيفة أصدرتها الثورة الفرنسية . وتفرغ الرجال للعشيق وتفرغت النساء أيضاً . وهربت العشيقات من معسكرات الجيش وعدن الى الحياة الناعمة فى باريس . ويقال إن فتاة واحدة قد أقامت خيمة بالقرب من أحد المعسكرات . واطلق الجنود على هذه الفتاة اسم سيدة الأربعين ألف رجل . . وماتت هذه السيدة قبل أن تكمل الألف رجل !

وكان من المألوف أن تمشى النساء وراء الرجال الى أى مكان . وأن يكون الحب فى أى وقت وفى أى مكان . وقد حدث أن عائق أحد زعماء الجمعية الوطنية فتاة فى

احدى الغرف . . ولم يسترح بعض الأعضاء لذلك . وكان رد الزعيم اننا لم نقيم بالثورة الا من اجل هذا . . فلا فارق بين هذه الغرفة واية غرفة اخرى — فكلها فرنسا الحرة !

وزعماء الثورة الفرنسية كانوا شبانا . وكانت نار الشباب تسعهم وتكوى بهم الفتيات ايضا .

فالثائر الرهيب « مارا » كان قد درس الطب في انجلترا . ومارسه في فرنسا . ولما قامت الثورة الفرنسية قرر ان يتجه الى السياسة . ورأى ان السياسة هي طب الشعوب . والثورة هي حمامها الساخن ونارها المطهرة . وتحول بسرعة الى صاحب صحيفة اسمها « صديق الشعب » وفي هذه الصحيفة كان يطالب بمزيد من الدماء والقتل . وكان يقول ان هناك مئات الرؤوس يجب ان تطير قبل ان يستريح الشعب . فالشعب جسم سليم ورعوسه مريضة مختلة .

وكان لابد من اعتقاله . . فهرب واختفى في الغابات . وفي كثير من البيوت . .

وفي احدى المرات اوصته عشيقته بأن يذهب الى بيت احدى قريباتها في باريس . وذهب ودق الباب . وكانت الفتاة الصغيرة تعرف ذلك . عمرها ١٧ سنة . واحبها . واحبته وكانا عشيقين ، وكان يملأ عليها مقالاته . وكانت تذهب بالمقالات الى المطبعة وفي يوم من الايام قرر الاثنان ان يتزوجا . وأمام النافذة المفتوحة وتحت شعاعات الشمس التى تتسأل من وراء الأشجار قال لها : أنت زوجتى على سنة الطبيعة .

ولكن خصوم مارا يطالبون باعدام هذا « الألماني » السفاح . لانه من اصل المانى . ولكنه مضى يطالب بالكثير من الدماء . ويرى ان الدماء هي الماء الطبيعى الذى يروى الافكار والدم هو النار السائلة التى ينضج فيها الوعى الشعبى . .

وفي هذه الاثناء جاءت فتاة من الريف . فتاة في احد الأديرة ولم يكن مسموحا في ذلك الوقت ان تدخل الدير فتاة عذراء فالدير للزوجات النادمات وللأرامل . ولكن الملك اصدر مرسوما بادخالها الدير . وخرجت من الدير بعد ان كرهت هذه الحياة . وبعد ان وجدت ان الأديرة لا تختلف كثيرا عن شوارع باريس . وكانت هذه الفتاة من انصار الملكية . ولكن ليست من انصار الملك . وكانت تقرا باستياء شديد كل مقالات الزعيم السياسى مارا . . وقررت ان تفعل شيئا يريحها . واخبرت والدها انها سوف تهجر الى انجلترا . وسافرت الى باريس . واشترت سكينا من احد المتاجر . وعرفت عنوان مارا . وذهبت لتدق الباب فتعرضها زوجة مارا قائلة : ولماذا تريدن المواطن مارا ؟

وقالت الفتاة واسمها شارلوت كورداي : عندي اخبار تهمه .

وقالت الزوجة : انه مشغول الآن . . ولا يقابل احدا .

وخرجت شارلوت لتكتب له خطابا بالبريد . وتقول في خطابها ان لديها معلومات عن بعض الثوريين الهاربين في شمال فرنسا ، وكان موضوعا يشغل بال الزعيم مارا .

وبعد يومين عادت شارلوت تدق الباب واستمع مارا الى المناقشة الصاخبة بين زوجته وبين شارلوت وقال : دعيها تدخل !

ودخلت شارلوت . . ووجدت مارا جالسا في حوض به ماء ساخن . فقد أصابه مرض جلدي ، لا علاج له الا بالماء الساخن . وكان في نفس الوقت يكتب إحدى مقالاته . وألقى عليها نظرة شرهة وفي نفس الوقت متسائلا : ان كان من الممكن . . وقالت الفتاة : من الممكن ان اكون عشيقتك . انه ش ف عظيم ياسيدي ! . واستراح مارا الى ذلك . ثم سألها وهو لا يرفع عينيه عن الورق المنشور امامه صدرها وماذا عندك من اخبار . . أذكرى اسما هؤلاء الناس وأنا سوف أشنقهم جميعا . .

ومد يده الى القلم ليكتب اسماءهم . وأخرجت السكين من صدرتها وأغمדתه بعنف في صدره وصرخ مارا وهو يقول : تقتلينني أنا يا حبيبتي ؟

وجاءت الزوجة وبعض الجيران . بينما وقفت شارلوت تنظر من النافذة وهي تقول : أعتقد أنني أرحت الشعب الفرنسي من هذا السفاح !

وفي المحكمة سألها القاضي ان كانت قد تدربت على القتل . ففضبت شارلوت وقالت : انك تصورني على أنني سفاحة . . أنني قاتلة فقط !

وفي المحكمة يجلس رجل قد جن حبا بشارلوت ، ولم يكذ يسمعها تتحدث بهذه الشجاعة حتى قال : بل انني أفديك يا أجمل فتاة في فرنسا . . حياتي من أجلك . . أشنقوني بدلا منها . . أخيرا وجدت لحياتي معنى . . أخيرا أستطيع ان ادخل التاريخ !

وذهب هذا الرجل الى السجن . . أما شارلوت فذهبت الى المقصلة . وقبل ان ينفذ فيها حكم الاعدام قالت للجلاد : بل دعني أفرج على المقصلة فأنا لم ارها قبل ذلك . .

وشنقوها . . وجاء دور الرجل الذي أحب شارلوت . . وشنقوه وهو يهتف بحياة الفتاة التي تمنى ان يكون خادما لها . . اما ان يكون زوجها فهذا كثير . وشنقوه !

ولكن مقتل مارا وشنق شارلوت . . أضافا نارا ودما الى شوارع باريس . . وتعددت الحفلات الراقصة واسيلت براميل النبيذ . وتعالت صرخات النساء على كل الرءوس التي تسقط حية أو ميتة . .

وسهرت باريس أياما متواصلة بعد ان مات الزعيم ميرابو . . وكان رجلا قوي الشخصية . . خطيبا فصيحاً . وهو صاحب العبارة التي تقول : اننا لن نبرح هذا المكان الا على أسنة الرماح ، وكان يقول هذه العبارة متحديا ارادة الملك . ولم يستخدم الملك الرماح . وانما بقى أعضاء الجمعية الوطنية مجتمعين في مكانهم . ولكن ميرابو هذا كان منافقا عظيما وكان ينفق من جيب الملك . وكان الملك يتولى بانتظام تسديد ديونه . .

وسمع الناس أن ميرابو مريض . وفوجيء الناس بأنه مات . وكان موته فرصة عظيمة لتشرب باريس وترقص وتضحك وتقيم حفلات مجنونة اسمها : ليالى ميرابو . .
أما كيف مات . . فقد كان عاشقا لاثنتين من راقصات الأوبرا وكلتاهما فى الثامنة عشرة . وقرر ألا يفضب الاثنتين . وقرر أن يسعد بهما فى ليلة واحدة وفى فراش واحد . . (الخديو اسماعيل مات أيضا وهو يضع فى فمه زجاجتين من الشمبانيا ويقال ان الملك فاروق فعل ذلك !)

وأحدى الفتاتين اسمها مدام لومباى . أما أوصاف هذه السيدة الصغيرة فقد وردت فى كتاب اسمه (فهرس بأسماء نساء باريس) . . أما أوصافها فهي : ناعمة البشرة صدرها له مستقبل . عيناها تفيان بالوعد . شفتاها مدريبتن . . ثم انها فرنسية بعد ذلك . وتتقاضى خمسة جنيهات . .

ولم يتهم البوليس أحدا بقتل الزعيم ميرابو . .

ولم يكن هذا الذى حدث لميرابو شيئا شاذا وإنما هو يتمشى مع أحسن التقاليد الثورية المعروفة فى ذلك الوقت وهو أنه من الصعب أن يتخذ انسان قرارا قبل أن يذم مع فتاة جميلة . .

وأخذت باريس تتسلى فى وقت فراغها بين أعدام زعيم وزعيم بقصة جاءت من لندن عن إحدى عشيقات الملك الأسبق وهى مدام دى بارى . هذه السيدة سرقوا فلوسها . وانزعج الفرنسيون فهم لم يعطفوا على السيدة التى سرت منها مجوهرات تساوى مليون فرنك . وإنما أدركوا أنه من الضرورى أن تكون المرأة عشيقة لتكون غنية . وان صاحبة هذه المجوهرات يجب أن تحاكم وأن تعدم وهربت هذه السيدة الى لندن لتقيم فى أحد قصور عشاقها . وكان القصر (مسكونا) ببعض الأرواح الشريرة . وفى إحدى الليالى تشجع صاحب البيت عندما رأى شبحا فى الظلام ولكنه استمع الى صوت يقول : أنا أحبك يا حبيبتى . .

وجاء صوت آخر : بل أنا التى أحبك يا أعز الناس . . يا أجمل خائن على الأرض ! وكان هذا هو صوت زوجته وهجم الزوج على غرفة مقفلة فوجد زوجته وعشيقتها ولم يكن هذا الشبح الذى ظهر ثانى يوم زواجه ، إلا عشيق الزوج .

ولما سمعت مدام دى بارى قصة الزوج المسكين تركت البيت وهى تقول : ان الفرنسيين ليسوا فى حاجة الى أن يكونوا أشباحا ليخونوا زوجاتهم . . وان الأشباح فى فرنسا هم الأزواج فقط . . اننى قررت أن أكون شبحا . . دعنى أسافر الى باريس . .

وسافرت لتكون قصتها هى الشبح الذى يطارد الأزواج فى باريس . .

وسهرت باريس على قصة الأشباح هذه . وظهرت رقصة جديدة اسمها رقصة الأشباح .

وفى ذلك الوقت كان حكم الإرهاب فى فرنسا قد بلغ قمته عندما تخلص الزعيم روبسبير من كل خصومه .

وكان روبسبير شخصا عنيفا داميا . وكانوا يسمونه بالرجل الطاهر . أو الرجل البكر . فهو لم يعرف فتاة في حياته . وقد قرر ألا تناله فتاة . وكان هذا الرجل أمل كل فتاة . لأنه كان صعبا أو لأنه جعل نفسه صعبا ..

وفي إحدى المرات هرب من البوليس .. وتصادف في ذلك الوقت أن عاد الملك لويس السادس عشر من الحدود الى باريس . ووقف روبسبير من النافذة يقول : هذا الرأس سوف يكون له شأن .. لابد أن يطير بعيدا عن فرنسا .

وعندما نزل الى الشارع اتجه الى أحد البيوت . وسألته صاحبة البيت : هل أنت روبسبير ؟ أجاب : نعم . قالت : اننى أقدم لك بيتى اذا أردت أن تختبئ فيه .

واختبأ روبسبير في بيتها . وكانت لهذه السيدة ابنة جميلة جدا . عمرها عشرون عاما . وأقام في هذا البيت ثلاث سنوات عشيقا للأم وللابنة معا .

وفي إحدى الليالى استمعت الأم الى صرخات في الغرفة التى ينام فيها روبسبير . وذهبت الى الغرفة تسأل : أيها المواطن روبسبير : هل تصرخ من الألم ؟ فأجاب والباب مقفل : بل انه كان كابوسا ، وتسلمت السيدة بسرعة الى فراش روبسبير . بينما تسلمت ابنتها من تحت السرير الى خارج الغرفة !

وعندما عرفت هذه الأم أن روبسبير شنقوه انتحرت .. والمؤرخون لا يعرفون بالضبط ان كان الزعيم الثورى عشيقا للأم أو لابنتها أو للثنتين معا .. ان انتحار الأم هى آخر محاولة لها لتؤكد انها هى التى كانت تحبه وهى التى كانت عشيقته !

بل ان السجون الفرنسية كانت من أعجب مسارح الحياة فقد كان هناك سجون للنساء وسجون للرجال . وكانت القضبان الحديدية تفصل بين الاثنين . ولكن من المألوف أن تتم القبلات والعناق بين هذه الحواجز الحديدية .. وكثيرا ما نرعت النساء ملابسنهن وتعرين تماما أمام عيون الرجال وكثيرا ما أدت الرشوة الى جمع الرءوس في الحلال والحرام بل لم يكن هناك حلال وحرام بل كان كل شيء حلالا !

وكانت النساء لا يتوقفن عن مطاردة الرجال والأزواج في كل سجن .. حتى أن ام الشاعر لامارتين كانت تتدرب على القوس والسهم لكى تتمكن من ارسال خطاب الى زوجها في السجن ثم راحت تتدرب على تسلق الجدران لكى تدخل اليه من النافذة .

وعندما صدر قرار بأن المرأة الحامل لا ينفذ فيها حكم الاعدام رفعت النساء في السجون شعارا جديدا : نريد أن نعيش .. نريد أن نعيش .. نريد الحب من أجل الحياة !

وحملت جميع النساء في السجون ومن السنة الاولى من الثورة الفرنسية بلغ الانحلال اقصى درجاته . وتقدمت بطلب الطلاق من نساء باريس ٨٣٧٠ واحدة من بين ٥٩٩٤ زوجة حامل !

وكان الشعب الفرنسى ضحية لفلسفة روسو التى تطلب بالعودة الى الطبيعة وان يعمل الانسان كل ما هو طبيعى بصورة طبيعية . وجربت باريس كيف تكون الحياة الطبيعية انحلالا طبيعيا . ولذلك عادت الثورة الفرنسية وامسكت بروابط الاسرة . واصدرت القوانين التى تخدم الحياة الزوجية . وتحترم حرية اختيار الزوجة . ووجوب صيانة البيت . وجعلت عيدا للأسرة . . وعيدا للأزواج . ودخل الفرنسيون فى مرحلة الحب والزواج . او الزواج القائم على الحب . اما الخيانة الزوجية فقد توارت لتكون سرا مخجلا . واحس الفرنسيون انه من الممكن ان يكون الانسان مهذبا فى كل وقت .

تماما كما حدث عندما تقدمت العشيقة الشهيرة مدام رولان من المقصلة فلاحظت ان الجلاد قد تقدمها خطوتين . فقالت له : الست فرنسيا كيف تمشى امام سيدة . . حتى لو كانت ذاهبة الى الموت !

وحرص الفرنسيون على ان يكونوا مهذبين فى الحب والفيرة والحرب والسلام والحياة والموت . . ومن الغريب جدا ان الفرنسيين لا يفرقون كثيرا بين هذه الكلمات جميعا . فهم يرون ان الحب كالحرب وخير وسيلة للدفاع هى الهجوم . . وان الذى يحارب يستمتع بسلام واحد هو انه بعيد عن المرأة . ولكن البعد عن المرأة هو البعد عن الحياة والحياة هى ان يموت الانسان فى المرأة لا لان المرأة شئ عظيم . ولكن لان هذا النوع من الموت شئ لذيذ !



وثيقة زواجه كانت العجب

كانت صديقات نابليون بالمئات وعشيقاته بالعشرات .. وكانت له ثلاث زوجات . احدها من اكبر منه بأربعين عاما .. والثانية اكبر منه بست سنوات والثالثة اصغر منه بثلاثة وعشرين عاما .. ومغامرات نابليون ممتعة ومثيرة ومسجلة بتفاصيل دقيقة جدا في مئات الألوف من الكتب . فقد شغل نابليون الدنيا في أوائل القرن التاسع عشر . وكان أقوى رجل في عصره . وكانت مغامراته صارخة وجريئة وعلى كل المستويات ومن كل الفئات : النبيلات وبنات الشعب . ولكن معظم مغامراته كانت بين الممثلات والمطربات وفتيات السيرك .

وكان نابليون يلقي بنفسه على الفتيات في أول حياته . وكان قادرا على الأحاديث الهامسة والغزل العنيف وله خطابات من نار .. ولكن بعد أن أصبح ضابطا منتصرا انهارت أمامه المدن والدول .. وانهارت النساء . وإذا كانت في حياة نابليون العسكرية هزيمة اسمها واترلو .. فليس في غرامياته واترلو واحدة .. فهو عشيق لم يعرف الهزيمة ..

ولكن مشكلة نابليون كانت أن النساء لا ينسين أبدا أنه بطل وأنه قوى وأنه مخيف . وكان هو يحرص على أن تنسى كل امرأة أنه قائد منتصر ، وأن تذكر فقط أنه رجل . وأنه ساحر وأنه جميل ولم يكن جميلا وكان يحاول أن يتصرف كرجل عادي كذئب . كان يقتحم البيوت ويتسلق النوافذ ولكن ملابسه العسكرية وأمجاده لا تختفى عن عيون النساء ولذلك كان نابليون يروى مغامراته لأصدقائه وحاشيته وكان يرويها للنساء أيضا . ويؤكد بهذه المغامرات أنه رجل .. وأن قوته في رجولته .. ولكنه هو وحده الذي يقول ذلك . وهو وحده الذي كان يدفع النساء على أن يتنافسن عليه لا خوفا من قوته ولا طمعا في ماله . ولكن لأنه أقوى الرجال .

ولأن إحدى الأرامل قالت عنه « ان كل شيء فيه رجل » قرر أن يتزوجها . هذه السيدة هي جوزفين وقد ترك لها زوجها الأول ولدا وبناتا .

وقد أعجب نابليون بالمرأة التى وصفته بأنه رجل .. ولم يخطر على بالها أبدا أن نجمه صاعدا وأنه قائد ولكن نابليون كان يشعر بوضوح أنه رجل اليوم والغد لفرنسا كلها . وكانت أناقة جوزفين أوضح من رشاقتها . ولكنها امرأة تدربت على الحب فى مجتمع باريس الملتهب .. وكانت جوزفين بارعة فى إخفاء عيوبها .. وكانت قدوة على أن تتكلم كأنها تغنى .. ونابليون كآى إيطالى له أذن موسيقية وكثيرا ما طلب منها أن تقول له أى شىء . وكان يداعبها قائلا : المعنى لا يهم الصوت فقط .

وإذا كان طلاق نابليون من جوزفين والعثور على قسيمة الطلاق فى الاسكندرية شيئا غريبا فان زواجه منها كان أكثر غرابة . فقد قرر نابليون فجأة وبسرعة أن يتزوج جوزفين واستدعى ثلاثة من جنوده واثنين من أصدقاء جوزفين وذهبوا جميعا الى العمدة . وظلوا ينتظرون نابليون ساعة بعد ساعة . ولم يحضر ونام العمدة . وكان الجو باردا والأمطار غزيرة وبعد منتصف الليل جاء نابليون وأيقظ العمدة وتم الزواج المدنى . وذهب الشهود كل واحد منهم الى طريق . أما سبب تأخير نابليون فهو أنه كان مشغولا فى تزوير شهادة ميلاده .. فقد جاء فيها أنه ولد بباريس فى حين أنه مولود فى جزيرة كورسيكا وادعى أنه فى الثامنة والعشرين . مع أنه فى السادسة والعشرين ، أما جوزفين فقد ادعت أنها فى التاسعة والعشرين مع أنها فى الخامسة والثلاثين .

وقرر نابليون أن يبدأ شهر العسل فورا .. وكان لا بد أن يقسم سريريه مع عروسه ومع كلب صغر . وحاول أن يقنع العروس بأنه لا داعى للكلب .. وعندما عضه الكلب فى قدمه هزت جوزفين رأسها كأنها تقول : بل لا داعى للعريس .

وضحك العروسان ولكن الكلب أخذها جد فقد أصر على أن ينام فى مكانه الذى اختاره .. بين العروسين .

وفى الصباح الباكر حمل نابليون خرائطه الحربية فى عربة تجرها خيول لاهثة متجها الى ايطاليا وكان ذلك بداية زحف الملايين الذى لم يتوقف الا فى هزيمة واترلو .

هذا الزواج عقده نابليون مرة أخرى عندما قرر تتويج نفسه امبراطورا على فرنسا . وزوجته امبراطورة طبعاً وكان قد مضى على زواجهما ثمانى سنوات . وهنا قررت الزوجة أن يكون زواجا شرعيا لا مدنيا وتم الزواج طبقا لتعاليم الكنيسة . ودون شهود أحد من رجال الدين ..

وفى اليوم التالى للتتويج دخل نابليون يستدعى زوجته لتشهد شيئا غريبا . وخرجت الزوجة لترى المحامى الذى كانت قد ذهبت اليه منذ ثمانى سنوات تستشيريه فى الزواج من الضابط الصغير الذى اسمه نابليون وجاء رد المحامى من الباب الذى لم يكن مغلقا : لا تتزوجى رجلا لا يملك الا سيفه .

ولم ينس نابليون هذه الاهانة .. وكتبها فى نفسه ثمانى سنوات .. ولما وقف المحامى مذهولا أمام الامبراطور سأله نابليون : الا تزال ترى أننى لا أملك الا سيفى ..

ولم تقل لنا كتب التاريخ ما الذى قاله المحامى أو الامبراطورة ولكن لا بد ان الصدمة قد اخرست الاثنين : ولم يكر نابليون فى طلاق جوزفين أبدا . ولكن زواجه من جوزفين التى تكبره فى السن جعله يتجه الى الفتيات الصغيرات . فقد أحب ابنتها التى تزوجت أخاه بعد ذلك ولم يكن هذا الحب بريئا . وفى منفاه الأخير أحب ابنة الحارس وكن عمرها ١٥ عاما وكان هو يكبرها بسبعة وثلاثين عاما .

وضاقت الامبراطورة بظهور فتيات صغيرات كثيرات . . وحاولت ان تمنعه . . وفشلت ولم يتوقف . .

وقد همس فى اذن نابليون بعض اقاربه بأن جوزفين مسرفة جدا . وانها مدينة بملايين الفرنكات للتجار والمرايين ولم يكن نابليون يهتز لهذه الهمسات فقد كان يحبها وكان يحبها انيقة . بل هو وحده المسئول عن اناقة وفخامة البلاط والقصور فى عصره ولكن بعد تنويجه بدأت فرنسا كلها تتحدث عن الوريث للعرش . وبدأ يحس هو بأن زوجته غير قادرة على انجاب الأطفال . اما هو فقد أنجب كثيرا من الأطفال غير الشرعيين . . وزوجته قد أنجبت هى الأخرى من زوجها الأول . . فالعيب فيه هو . وقد حاول نابليون ان يؤكد لنفسه ان العيب ليس منه . . وكانت تسعده الأنباء التى تقول له بأن عشيقاته قد أنجبن منه .

وعندما عاد من رحلته الى مصر كانت زوجته مدعوة الى عشاء فى بيت احد المرايين . ولكن أم نابليون واخوته قد تجمعوا فى قصره ينتظرونه . وقد اتفقوا على شئ واحد وعلمت الزوجة ان نابليون قد عاد . فتركت المراهى وجاءت فى عربتها تعلم بالعناق الطويل الذى يذيب خطاياها وقسوتها عليه وكم ذابت عيوبها وذاب نابليون فى أحضانها . وكان فى نية جوزفين ان تصل الى غرفتها لتكون فى استقبال نابليون قبل ان تنطلق عليه بطاريات الحقد الثقيلة من أمه واخوته . وكان عددهم ثمانية . وقد سبقها نابليون الى القصر . . واستمع منهم الى فضائنها وخياناتها وحماقاتها وديونها .

وامر نابليون ان تحزم حقائبها كلها فورا . وأن تلقى أمام الباب . وقرر انه لا بد ان يطلقها وانطلقت اخوات نابليون ينقلن النبأ السعيد الى كل باريس . وجاءت الزوجة واتجهت الى غرفة نابليون . . ووجدتها مغلقة ودقت الباب . وبكت وكانت كثيرة البكاء . . ولكن الصمت ابتلع دقات الباب بنفس السرعة التى ابتلعت بها السجاجيد دموع الامبراطورة وجاء ابنها وجاءت ابنتها وتضاعف الطرق على الباب . وانفتح الباب وانفتحت ذراعا الامبراطورة واختفى فيهما الامبراطور . . واختفى الاثنان وراء الباب . . وخرج ابنا الامبراطورة وصدمت باريس . .

ولكن كان لا بد ان يبحث عن وريث ووجد نابليون فى ابن أخيه وريثا . وهذا الابن هو حفيد جوزفين . وثار الابن وثار الأخ والاخوة والأخوات والأم ورجال البلاط .

واتجه نابليون الى مغامرات اخرى كثيرة . . في قصره وخارج القصر . . وعادت الاميرة البولندية التي احبها نابليون الى باريس تؤكد له انها حامل . . وأكدت ل عشيقه اخرى انها حامل . . وكان نابليون يتلمس جرحا في قدمه وجرحا في صدره على اثر محاولة اعتداء فاشلة . . وراح يتلمس العرش الذي يجلس عليه . انه عرش بلا وريث .

وذهب نابليون واستدعى ابن زوجته وكان ضابطا في الجيش واخبره انه مضطر الى ان يطلق امه وطلب اليه ان ينهي اليها هذا النبا بسرعة وبكى الابن وجاءت اخته وانهارت وجاءت الامبراطورة ولم يستطع نابليون ان يخبرها بهذا النبا . . وانما اخبرها نبأ آخر هو ان يمضيا شهر غسل جديد وسافر الاثنان الى الشاطئ وكان نابليون يداعبها وكن يلقي حذاءها وجواربها في الماء ويطلب اليها ان تعود الى العربية حافية القدمين وكان يقول لها : كثيرون الذين رأوا أصابع يديك ولكنهم لا يعرفون كم هي جميلة أصابع قدميك . .

وعانى نابليون بعد ذلك شهورا من القلق والعذاب والحيرة . انه يحب جوزفين . وهو في نفس الوقت لا يريد ان يطلقها . ومضطر الى ذلك . واخيرا جاءها وزير الداخلية ليتجرا على ان يهمس في أذنها كلاما لا بد انه بأمر من نابليون . قال لها : من أجل فرنسا يجب ان تضحي بزواجك . .

وأصبح واضحا ان الامبراطور قد اتخذ هذا القرار . وانهارت الامبراطورة وسقطت وحملها أحد الخدم ومن ورائهما نابليون يحمل مصباحا . وفي حفل عائليلقى نابليون خطاب الطلاق ووقفت الامبراطورة التي اعتادت على البكاء الكثير تلقى كلمة بلا دموع . فقد رات الدموع الكاذبة في عيني نابليون واخوته وقالت : من أجل فرنسا اضحي بهذا الزواج . ولكن سأظل صديقة للامبراطور . فانا مدينة لعطفه بحياتي .

وانسحبوا جميعا واتجهت الامبراطورة لتركن امام نابليون ويودعها الى الباب لتموت بعد ذلك بعشر سنوات . .

اما وثيقة الطلاق فقد وقعتها جوزفين أولا . . وكان نابليون آخر الذين وقعوها وبلغ عدد الامضاءات أكثر من الأربعين . .

وبعدها تزوج نابليون من أميرة نمساوية ولم ير صورتها . . وقد أنجبت له ولدا . . أو أنجبت ولدا . . ولا أحد يعرف ان كان ولده هو !

ومذكرات نابليون بعد ذلك تقول لنا انه احس يوم زواجه بحرج وخجل كأنه يرتكب جريمة أو يتستر على جريمة . . اما يوم طلاقه فكان جريمة بالفعل . .

حكمة لكل امرأة عند حاطوح

من المؤكد أن المرأة نسيت أن تضحك على هذه النكتة الطويلة وهي :
أن الرجل يحكم العالم .

وإن الرجل هو الذى صنع القانون ليطبقه على المرأة وليهزب هو
من عدالته .

وان المرأة هي الجنس اللطيف والرجل هو الجنس العنيف .

وان وراء كل رجل عظيم امرأة . كل هذه نكت تاريخية ..

فليس صحيحا أن الرجل هو الذى يحكم العالم ، بدليل أنه يجلس
في مناصب الوزراء والسياسة والقادة . مع أنه من الممكن أن يكون هناك
حكام أقوى ولكن لا تراهم .. فالمرأة هي التى تحكم الرجل بالفعل وان كان
ذلك ليس واضحا أمام عيون كل الناس .. فليس صحيحا أن وراء كل
عظيم امرأة ، وإنما الصحيح هو أن وراء كل عظيم وكل حقير امرأة ..
واكثر من امرأة .

ولم يكن قيصر يضحك عندما قال لابنه الصغير : أنا أحكم العالم وأمك تحكمنى
وأنت تحكم أمك - لقد كان جادا وحزينا !

ومن الممكن أن توضع هذه العبارة في معناها الصحيح لو أننا قلنا : أنا أحكم
العالم وأنت تحكمنى وأمك تحكمنا نحن الاثنين !

والمرأة تعلم بغريزتها أن الرجل طفل مغرور ، وأنه مغرور لأنه قوى ولأن المرأة
تقول عنه ذلك وتريده أن يكون قويا . ولكن عندما يصبح الرجل شيخا ، فإنه يكون
عنيدا . فالعناد هو غرور الضعيف والغرور هو عناد القوى . ولكن الرجل في جميع
الحالات طفل عندما تكون هناك امرأة بالقرب منه !

هذه هي المعانى التى حاول أن يتبعها كاتب فرنسى ذكى ظريف اسمه موريس
بارديش في كتاب ممتع بعنوان « تاريخ المرأة » في ٤٠٠ صفحة . فدرس في الحضارة

الصينية القديمة وفي الحضارة الفرعونية وفي بابل وآشور وعند اليهود وفي بلاد
الفرس والهند وعند الاغريق وعند الرومان وفي العصور الاولى المسيحية وفي الجاهلية
ثم في الاسلام .

وقد لاحظ منذ السطور الاولى ان تاريخ المرأة قد كتبه الرجل على هواه . وهوى
الرجل هو الذى اضاع حق المرأة فى الحياة الكريمة . . والتاريخ نصفه احقاد
والنصف الآخر تخمينات ولذلك لم يبق للمرأة شىء يمكن ان نهتدى اليه .

ومنذ اللحظة الاولى يجب ان نرفض ان المرأة قد عاشت « عبدا » للرجل . وان
تاريخها ليس الا حلقات من الرق والعبودية . . ليس هذا صحيحا .
فتاريخ المرأة متنوع ومختلف باختلاف العصور التى عاشت فيها مجتمعات
الرعاة والصيادين والفلاحين والعمال .

ومهما اختلفت العصور فقد كانت هناك حياة زوجية . وكانت هناك زوجة واحدة
معظم الوقت . فقد نجحت المرأة فى ان تقرض هذا النظام وان تصونه حتى الآن . .

والتاريخ القديم لا يؤكد لنا تفوق الرجل على المرأة ، وانما يقطع بتفوق المرأة على
الرجل . وبراعتها فى كل عمل طلب اليها ان تؤديه .

ففى بلاد الصين كانت المرأة هى التى تصنع الانسجة الجريية يوم كان الحرير
هو العملة المتداولة . فكانها هى التى تصنع العملة وهى التى تكسبها . وهى فى نفس
الوقت قوة وعصب المجتمع الذى عاشت فيه .

وكانت هناك فى بلاد الصين امهات يحرسن المدن فى مواجهة العدو .

وظل الرجل - الزوج - غريبا عن الحياة الزوجية . بل كان من المستحيل ان
يبعث الرجل فى بيت الزوجية . ولم يكن له حق الوراثة . . ومن الممكن ان تصبح
المرأة ملكة واولادها امراء ، ويظل الزوج خفيرا . وهذه القوة التى اكتسبتها المرأة
جعلتها تقرر ان يكون لها اكثر من زوج . .

وقد ذكر الاسكندر الاكبر انه رأى نساء محاربات فى آسيا . وانهن فى غاية
الشجاعة .

وام يضاعف سلطان المرأة فى بلاد الصين الا اكتشاف المعادن كالبرونز
والنحاس فمن هذه المعادن صنع الانسان سلاحه وحمله وقاتل به . . هنا فقط
استمد الرجال من المعادن صلابتها وسيطرتها على مقدراته . . وعلى المرأة ايضا !

اما فى مصر الفرعونية فقد كانت الحياة الزوجية مقدسة . والرسومات على
ان هان شأن المرأة على الرجل !

ويمكن ان يقال ان كل الحضارات كانت تعطى الرجل كل حق وكل سلطان على
المرأة : الا الحضارة الفرعونية فانها كانت تعطى المرأة حقها الكامل فى مساواتها
بالرجل . وفى معظم الاحيان كانت المرأة فى مكان اكثر احتراماً من الرجل . ولم يحدث
الا فى فترات قصيرة جدا فى تاريخ مصر الفرعونية ، وتحت تأثير عوامل خارجية ،
وان هان شأن المرأة على الرجل !

فمصر الفرعونية لم تعرف تعدد الزوجات ربما كان الأمراء والملوك فقط ، أما عامة الشعب فلم يعرفوا الا الزوجة الواحدة .

ولم يحدث في مصر الفرعونية أن تزوج الرجل أخته ، الا في العائلات الملكية ، ومن أجل حماية العرش .. وقد كان من عادة الزوج أن يقول لزوجته : يا أختي .. وهذا يحدث حتى الآن في الريف المصرى .. وقد أخطأ المؤرخون الأجانب عندما استنتجوا أن المصريين يتزوجون اخواتهم .

حتى الملك مينا عندما ظهرت صورته مع أربع نساء ، لم يكن زوجاته ، وإنما واحدة فقط هي الزوجة والباقيات عشيقات . وحتى عندما تكون عشيقات تكون الزوجة هي السيدة الأولى .. والفراغة يصفون الزوجة بأنها « ست البيت » أو صاحبة السرير الأول ..

وفي مصر الفرعونية كانت هنالك الآلهة ايزيس .. وهي نموذج للحب والوفاء والفداء .. وكانت تبحث عن أخيها أزوريس . وكانت تجمع عظامه من أركان العالم . وظلت ايزيس تحمى الأسرة وتحمى الفضائل العائلية .

والذي ينظر الى صور اممنحتب يجد أن زوجته تجلس على نفس المقعد والى جواره ويجد أنها قد وضعت يدها على كتفه ، والاثنان يواجهان الموت في أخوة وترايط .

وسنفرو يمد يده الى زوجته كما نفعل الآن مع الاحترام الشديد ..

وهذا الحكيم بتاحوتب (١١٠ سنوات) هو أكبر الوزراء سنا واعقلهم ينصح الزوج بأن يكون أخا لزوجته ، والا يكف عن تقبلها ما استطاع الى ذلك سبيلا . ويؤكد له أن المرأة لا تشبع من معدتها ، وإنما من شفيتها . ويقول للعريس : أسعدها . انها تنتظر هذا اليوم لا تتركها وحدها . لا تدعها تفكر في غيرك ، ولا تنس أن كل ما تأخذه المرأة منك ، قد أصبح حقاً لها . وسوف تطالبك به . واذا أسعدها أصبحت طيبة كالماء بين يديك !

حتى رجال الدين لم يعرفوا تعدد الزوجات . فقد كان الكاهن يتزوج امرأة واحدة فقط .

وليس معنى ذلك أن تعدد الزوجات كان ممنوعاً في مصر الفرعونية . وإنما كان مكروهاً .

وفي الصورة الفرعونية تعرف بسهولة من هي الزوجة ومن هي العشيقة .. العشيقة هي التي تترك صدرها عارياً .. أو كالعارى .

والمرأة الفرعونية كانت أنيقة ونظيفة . وكانت تعلم أن النظافة نصف الجمال . والنصف الآخر كانت تعرف كيف تصونه وتبرزه . فقد عرفت المرأة الفرعونية كل أنواع أدوات التجميل التي تعرفها الآن : البودرة والكريم والمرام والتدليك واحمر

الشفاه وماء الورد وعرفت الزيوت لتقوية الشعر ، والزيوت لاسقاط الشعر - وكانت تخلط معظم مواد التجميل - بعسل النحل - وهو ما تفعله دور التجميل الآن . وعرفت المرأة الفرعونية كيف تنظم النسل . بل وكيف تمنعه سنواب اذا ارادت واستطاعت المولدة الفرعونية ان تتنبأ بجنس المولود - وهذا ما لم نعرفه حتى الآن - وكانت تستخدم بعض البذور وتلقى عليها بقطرات من بول السيدة الحامل !

* * *

أما بالنسبة للحياة العملية فقد عثر المؤرخون على رسم لسيدة في ابيدوس من الأسرة الثالثة كانت تعمل عمدة لأحدى المدن . وانها كانت تقود قوة عسكرية طاردت بها اللصوص وواجهت بها قوات معادية ، وقد كافأها أحد ملوك الأسرة الثالثة بقصر فخم .

والمؤرخ الأغريقى مانيتون يقول : ان القانون فى الأسرة الثانية كان ينص على انه من حق المرأة ان تجلس على العرش أيضا !

والمؤرخ هيرودوت يقول ان الملكة نيتوكريس قد تولت العرش بعد مقتل أخيها . . وأهم من ذلك أنها قررت ان تنتقم لمقتله . فدعت النبلاء والأمراء وكل الذين شكت فى ولائهم لها وأقامت لهم حفلا كبيرا فى قاعة تحت الأرض ثم فتحت عليهم مياه النيل فأهلكتهم جميعا !

ثم أحرقت نفسها حتى لا يحرقها أعداؤها !

وعندما عرفت مصر الفرعونية أشكالا مختلفة من الاقطاع تضاعل نفوذ المرأة . . فقد أصبح لعدد كبير من الأمراء والنبلاء والأثرياء قصور وحدائق . وفى القصور عشيقات ومغنيات وراقصات وعندما تظهر الراقصات والعشيقات تنوارى الزوجات فى الظل ، وتحت أكداس من الملابس الحريرية والهدايا . كأن الرجل يكفر عن خطيئة الخيانة بالهدايا . . أو كأنه يشتري صمت المرأة بالحرير والمذهب - ولكن المرأة عرفت أيضا أن تشتري غرور الرجل بالتأمر عليه . فقد تحولت بيوت الزوجات والعشيقات الى مؤامرات ومؤامرات مضادة . تماما كما يحدث فى حريم سلاطين آل عثمان وفى بلاط الأسرة المالكة فى فرنسا . . وفى عصر الاقطاع تحولت مضر الى ما يشبه عصر النهضة فى أوروبا .

وفى ذلك الوقت تحولت المرأة الى حالة غريبة : لا هى أسيرة ولا هى سيدة . وانما هى تزحزحت الى الوراء قليلا . وكأنها تراجعت قليلا لتقفز الى الأمام وإلى أبعد مما يتصور الرجل .

وفى الدولة الحديثة تردد اسم اثنتين من النساء واحدة اسمها تيتشيرى والأخرى اسمها أحونب . والكلام قليل جدا عن هاتين الملكتين فى أوراق البردى وعلى جدران المعابد . . وكانت الملكة تيتشيرى هى صاحبة العبارة الملكية التى تقول : دمي يجب أن يجرى على العرش .

فقد استطاعت أن تجعل من اثنين من أبنائها ، ولدا وبنتا ، ملكين وزوجين على عرش مصر !

ولا يمكن أن ننسى الملكة حتشبسوت فهي شبيهة بالملكة كاترين دي مديتشي وكانت شخصية قوية . وعلى الرغم من أنها لم تكن ملكة عظيمة فقد كانت ملكة ضئيلة : قادرة جبارة . وكانت ترتدى ملابس الرجال ، بل وتضع لحية مستعارة . وكانت تخفى وراء ظهرها زوجها الملك .

وعلى الرغم من أن حتشبسوت هذه لم تكن دميمة ، فإن ملابسها المستعارة قد جعلتها دميمة . وبعد وفاتها كشف لنا التاريخ عن زوجها القوى الحكيم والمنتقم الجبار أيضا الذي منحا كل آثارها من فوق جدران المعابد والقبور . وهذا الزوج قد نصب ابنه وليا للعهد حتى لا تتكرر مأساة زوجته مرة أخرى !

وعندما أراد رمسيس الثالث أن يضع أحد أبنائه على العرش تأمرت على الابن إحدى عشيقات رمسيس وقتلته . فقد كانت تريد أن يكون ابنها هو ولي العهد وقد اشركت العشيقة في مؤامراتها هذه عددا من رجال القصر ومن الحرس الخاص لرمسيس الثالث . ولم تنجح المؤامرة . وأعدم رمسيس الثالث كل الذين اشتركوا في هذه المؤامرة . أما ابن العشيقة فقد طلب إليه رمسيس الثالث أن ينتحر !
وكان ذلك في سنة ١١٦٦ قبل الميلاد !

ورمسيس الثاني كان سعيدا بأولاده الكثيرين : عددهم ١٧ طفلا من بينهم ١١١ ذكرا !

ورمسيس الثاني كان رجلا متحررا ويمكن أن يقال متحالا أيضا . فقد ظهرت له صور عارية تماما مع نساء عاريات . وكان يلعب الشطرنج عاريا وله رسومات يختصن فيها امرأة جميلة لا يغطيها إلا شعرها !

وفي كل تاريخ الحضارة الفرعونية نجد انفصالا عن الجنسين فيما عدا الحفلات الرسمية الكبرى . ففي الحفلات يرتدى الجميع الملابس البيضاء . وأما المرأة فقد كانت تضع في يدها شئمة صغيرة . وفي هذه الشئمة كل أدوات الزينة والصابون وأخير الشفاه والكحل . وكانت تضع على رأسها البازوكة والزهور الطبيعية وتضع الحلى والدبابيس

وفي الأسرة التاسعة عشرة وما بعدها ذابت المسافة بين الجنسين . والمؤرخون يتحدثون عن هذه الفترة وكأنهم يصفون باريس في عصر لويس الخامس عشر : حيث الذوق والأناقة .

والذي يشاهد صور نفرتاري يدرك مدى أناقة هذه السيدة وبساطتها ، وقد حملت معها إلى قبرها كل فساتينها اللينة الشفافة . وفي ذلك العصر كانت خطوط الأزياء « دغرى » وكان القوام مشدودا ، والنهدان عاليين ومسحوبين أيضا . وكانت الأزداف متوسطة ، والساقان ناعمتين . وكانت ملامح الملكة نفرتاري هي ملامح مانيكيا

حديثه . فالعينان واسعتان مرسومتان والشفافة قد رسمها اللون الأحمر ممثلة مرفوعة ، أما شعرها القصير فقد غطته بباروكة تتدلى على كتفين صغيرتين ناعميتين . ومن المعروف أن عددا من اليهود كانوا في مصر في ذلك الوقت . وكان اليهود أكثر الأقليات انحلالا . وهم الذين ابتكروا لعبة وضع السيدة عارية في تابوت يلهو به السكارى .

وفي متحف مدينة تورينو بإيطاليا توجد ورقة بردى رفض العالمان الكبيران ماسبيرو ودريوتون ترجمتها . . ففي هذه البردية توجد صور عارية وقحة . وتوجد رسوم كاريكاتورية للسخرية بالملوك والنبلاء الفراعنة . أن هذه البردية وثيقة تاريخية للانحلال الملكى في ذلك الوقت !

لقد كانت المرأة في ذلك الوقت معشوقة الرجل ، ولعبته أيضا !

وكانت في ذلك الوقت قصص غرام وانما في عشق . . وكانت هناك رسائل تبعث بها المحبوبة تذكر العريس بدلة الزواج . وتذكره بالحب القديم . . وفي رسالة تقول المحبوبة : آه . . يا اخى . . يا حبيب روحى . . كم أتمنى أن أنزل الى ماء النيل أمامك لترى بعينيك جمال هذا الجسم الذى يحبك . . وكم أتمنى أن أراك أيضا . . ونصيد معا بعض الأسماك . . ترانى وأراك !

انها صريحة وواقعية . .

وهناك رسائل تبدأ هكذا : آه عندما تكون على صدرى . .

وهذه الرسالة الجميلة : أنه حبك الذى جعل اللمعان يملأ عيني . . أنه حبك الذى جعل وجهى مشرقا . . أنه حبك الذى جعل عيني مفتوحتين . . اننى أكاد أقول لكل الناس اننى احبك . . وفي كل مرة أحاول ذلك أخاف عليك . . وعندما أراك احتضنك . . ولكنى أراك فقط . .

ومن وصايا الحكيم « آنى » أنه من الضروري أيضا أن يحب . . ويقول : اعط لأمك كثيرا ، فقد اعطتك كثيرا . لقد حملتك وأرضعتك ولم تكن تقرف من رائحتك . أحمل اليها كل شيء على صدرك راضيا ، فقد حملتك على صدرها راضية سعيدة !

وربما كان أحد أسباب الزواج المبكر في مصر الفرعونية هو احترام الموتى والجنائز . فكل أب يريد أن يكون له أطفال يدفنونه ويكرمونه عند الدفن . وفي عقود الزواج التى ظهرت بعد ذلك كان يطلب الزوج الى زوجته أن تتولى دفنه . ولم تكن تطالب هى اليه أن يفعل ذلك . وهى ولا شك تحية من الزوج وإشارة الى أنه هو الذى سوف يموت قبلها !

وارق ما نقل الينا تاريخ مصر الفرعونية من صور : صورة الفيلسوف الملك اخناتون وهو يودع زوجته الى القبر . أنه ينحن على زوجته يقبلها وينحنى

عليها يودعها . ويقال انه طلب الى الفنان الذي يرسمه ان يمحو احدى الصور لانه لاحظ انه لا ينحنى بدرجة كافية لوداع زوجته .

ولكن كثيرا ما نلمح مثل هذه العبارات في وصف الرجال لزوجاتهم : تافهات ، سطحيات ، كذابات ، خائنات بالطبع . . وان المرأة كنز لكل الشرور . . وانها اكبر شرور الطبيعة وان الطريق الى النار يمر بالمرأة . . !

وتحت تأثير البابليين ظهرت عقود الزواج . . وهي عقود شائعة للرجل . . ففى العقد نص على ان المرأة خادمة للرجل . . وانها خلقت لخدمته وانها نزلت عن كل حقوقها من اجله . . وان كل من يعارض في هذا الحق يستحق اللعنة . .

وهذه العقود تجرد المرأة من كل حقوقها . . اقصى درجات الانانية من الرجل !

ومن اجمل قصص المغامرات في ذلك الوقت . . ان شابا رأى فتاة جميلة ومن ورائها يمشى خمسون من حاشيتها . فبعث يسأل من هذه . . ويقول ايضا : ان اسمى « استنهاها » احد البناة رمسيس . ويسأل ان كان في الامكان ان يقضى معها ساعة من الوقت مقابل عشر قطع ذهبية .

اما الفتاة فاسمها طابوبو . ووافقت واشترطت ان يكون ذلك في بيتها . وذهب الاثنان الى البيت . وكان البيت جميلا انيقا . وسألته : هل في نيتك ان تحترم هذا البيت ؟

فقال : نعم .

— هل تحب ان اقدم لك طعاما ؟

— انت اجمل من الطعام .

— اذن لا تريد طعاما ؟

— ليس من اجل هذا جئت .

واحضرت له فاكهة . وزيتا معطرا وامضيا يوما كاملا . وكانت تخدمه طول الوقت من وراء حجاب على وجهها وعلى جسمها .

ثم قالت : اذن الآن يجب ان ننهي ما جئت من اجله .

وقبل ان ينهض من مكانه قالت : لنحضر كاتبيا يسجل هذا العقد بيننا .

وجاء من يكتب العقد . ونهض ابن رمسيس ليقول : اعطى هذه السيدة التى هى اعز انسان عندى كل ما املك . . مع حرمان اولادى من الميراث !

اذن لقد كان متزوجا . . وعندما عرفت الفتاة ذلك قالت : اكون زوجة !

فقال الفتى : وصاحبة السرير الاول !

وكانت هذه نهاية مغامرة لشاب أخفى زواجه عن الفتاة التى احبها من اول نظرة !

وقد روى لنا المؤرخ هيرودوت الذى زار مصر أيام الاسكندر ان المرأة فى مصر كانت تدير التجارة والكباريات والحانات بينما يجلس الرجال فى بيوتهم .

وروى لنا المؤرخ ديودور الصقلى ان عقود الزواج كانت تنص على ان يكون للزوجين نفس الحقوق فلا فضل لرجل على امرأة .

والقانون ايضا فى أيام البطالمة كان يعطى المرأة الحق فى الطلاق من زوجها اذا كان قاسيا . . او اذا اكتشفت انه على علاقة بامرأة اخرى .

وفى هذه الحالة لم يكن من الضرورى ان تستأذنه فى ان تدير صالونا للحلاقة او مكانا للتجميل .

وكليوبطرة هى آخر امرأة قوية فى تاريخ مصر القديمة . اذا نحن حررناها من هذه الديكتورات التاريخية والمؤثرات الصوتية نجد اننا امام امرأة كبيرة الرأس وليست مثيرة الجسم فقط . فقد زوجها من أخيها الذى بلغ من العمر ٩ سنوات - نصف عمرها - وتخلصت منه فى حادث وبذلك تكون كليوبطرة قد طبقت تقاليد البطالمة وهم ملوك يتبارون فى قتل أخوتهم . ثم قتلت زوجها التالى وهو أخوها أيضا وكان فى الرابعة عشرة من عمره . واستدرجت قيصر الى مصر ومن بعده انطونيوس . . وحاولت استدراج اوكتافيو . . ولما خشيت ان يربطها فى ذيل خيوله فى شوارع الاسكندرية انتحرت . .

ولكن كليوبطرة نموذج للمرأة القوية الذكية المليئة بالطموح .

وما يزال أنف كليوبطرة هو الذى غير تاريخ مصر - كما يقول الفيلسوف باسكال - أنفها أو شفتاها أو عيناها . . هى أو شئ منها قد غير وجه مصر كلها . .

وبوفاة كليوبطرة تختفى تلك الصورة المتكاملة الكريمة للحياة الفرعونية الهادئة التى يشع فيها الاحترام والقداسة .

لقد كان للمرأة سلطان فى كل الحضارات القديمة . ففى الفرعونية كانت الراهبات أو الكاهنات يحكمن مصر من الداخل . وكانت زوجة كبير الكهنة ملكة غير متوجة . . وكانت تتلقى الهدايا من كل الحدود المصرية فى الجنوب وفى الشمال حتى البحر الاسود .

وكانت بلقيس ملكة سبأ شخصية قوية . .

وكانت سالومي تطلب رأس نبي من أجل رقصة . . ورقصت وطار رأس النبي يوحنا . .

اما سميراميس فلا أحد يدري أن كانت شخصية حقيقية أو خرافية كانت نموذجا للقوة المطلقة .

وفي تاريخ الخلافة الاسلامية كانت أمهات الخلفاء يحكمون قصور الخلافة في الشرق
وفي الغرب .. وفي قصور سلاطين آل عثمان كانت العشيقات هن اللاتي يحكمن .
وهن اللاتي يوجهن الملك والوزراء ..

اذن ..

لم تكن المرأة أسيرة للرجل . ولم يكن تاريخها سلسلة طويلة من الاستعباد
والهوان . وانما كانت المرأة هي الحاكم الحقيقي - على طريقته الخاصة - ويكفي
أن نستعرض بسرعة لا تاريخ الحضارات القديمة ولكن تاريخ الحضارة الحديثة
.. أن الانسان هو الانسان ونقطة ضعف الرجل هي .. ومن أهم نقط ضعف
الرجل أنه لا يزال يتوهم أنه الأقوى .. ومن نقط قوة المرأة أن جعلته يؤمن أنها
صدقت هذا الوهم . ولا شيء يدل على خبث المرأة إلا أنها تعرف هذه النقطة
التاريخية الطويلة ولا تضحك لها ..

ان هذا الكتاب قد اهداه المؤلف في آخر صفحة وفي آخر سطر : اهدى هذا
الكتاب الى كل امرأة ليس أقمى طموحها أن تكون مضيقة جوية أو سكرتيرة لمدير !



كل
اختفى الحریم ؟!

لماذا للسلطان حريم .. أصبح للحريم سلطان

لم يتفق الرجال على الصورة التي يحبون أن يروا عليها المرأة .. هل هي حواء العنانية ؟ هل هي ايزيس الأم ؟ هل هي مدام كورري الباحثة ؟ هل هي مارلين مونرو العاملة الجميلة ؟ هل هي حتشبسوت المسترجلة ؟

وموقف الرجل من المرأة يدلني على أي نوع من الناس هو .. ومن فهم الرجل لدور المرأة في حياته ومن الحياة العامة نعرف ما معنى الحرية عنده ..

والرجال في مواجهة المرأة :

أما أعداؤها .

أو خصومها .

أو أنصارها .

أو عشاقها .

وأعداء المرأة هم الذين لا يرون في المرأة أية ميزة . ويرون أنها انسان مختلف أيضا . أو أنها (رجل) هزيل ضعيف العقل . أو أنها ليست من أصل انساني . ويرون أيضا أنها بتاريخها الذليل وتركيبها المعقد قد أدت إلى تشويش حياة الرجل وإلى تعويقه عن التطور . وأنها ليست إلا جنسا فقط وإلا حيوانية تماما ..

والفيلسوف اليوناني سقراط هو الذي استطاع أن يترك ظله العنيف على كل الحضارة الغربية . فقد كان سقراط (رجلا) دميما .. ولم يكن رجلا بالمعنى الحقيقي .. وقد استولى الشذوذ الجنسي على الحضارة الاغريقية مئات السنين ، ولم يكن يستنكره أحد .. واستطاع سقراط بذكاء ونخب عميق أن يفرض احتقار الجسد الانساني .. سواء جسد الرجل أو جسد المرأة واحتقار كل ما هو حسي .. ولأن سقراط كان يرى أن المرأة هي حس فقط وجنس فقط فقد استبعدتها من دنيا

الحياة العقلية . ورأى أن المرأة والجسد والحس ضرور يجب أن يتخلص منها
الانسان ..

ووراء سقراط وتحت تأثيره الهائل سارت الفلسفة والأدب والمسيحية أيضا
حتى يومنا هذا ..

أما خصوم المرأة فهم الذين يرون أن المرأة انسان كالرجل . لا شك في هذا .
ولكنها مختلفة عنه في تكوينها الجسمي والنفسي والتاريخي أيضا . وتاريخها القريب
هو المسئول عن ضيق كتفيها وضخامة أردافها وقصر ساقها وضيق أفقها . وأن
أعظم عمل تقوم به المرأة هو أن تكون أما . والأمومة هي العمل الإبداعي الوحيد الذي
تنفرد به المرأة . أو الأنثى عموما .

والمرأة بطبيعتها لا تحب أن تستقل بنفسها وإنما هي تعتمد على الرجل في كل
شيء . وليست لديها أية قدرة على الإبداع والمغامرة . بل إن الأعمال التي تهم المرأة
لم تتفوق فيها فلا توجد طبيبة مولدة ممتازة ولا توجد حلاقة ممتازة ولا مصممة
أزياء عبقرية .. وعلى الرغم من أن المرأة تبكى بمناسبة ومن غير مناسبة فلم تختراع
علاجاً للبكاء .. ولم تؤلف مأساة واحدة خالدة . ولأن تجربة المرأة العملية قصيرة فهي
لذلك لا تصلح للأعمال خارج البيت . ومكانها الطبيعي الخطير جدا هو البيت . هو
الأسرة . هو أن تكون زوجة وأما .

أما انصار المرأة فيرون أن المرأة لا تختلف كثيرا عن الرجل . بل إنها أقوى من
الرجل جسميا وأقدر على احتمال الألم والمرض . وهي أطول عمرا من الرجل .
ولا يوجد أي فارق في تكوين جسم المرأة ولا في وظائفها العضوية . وبقاء المرأة في
البيت تعطيل لقوة هائلة يمكن أن ينتفع بها الانسان ولقد جربت الانسانية طوال
عشرات الألوف من السنين كيف تكون حياتها الاجتماعية والخاصة في ظل سيادة
الرجل وسيطرته فلماذا لا نجرب اشتراك المرأة مع الرجل في الحياة الخاصة والعامة .

لماذا لا نجرب دخول العنصر اللطيف في حياتنا العامة والخاصة ؟ ولماذا لا يكون
اشتغال المرأة بنفس الشروط والظروف التي يعمل فيها الرجل .

والمجتمع الآن قد علم المرأة وفتح لها كل الابواب . ولا يمكن أن يكون المجتمع
قد خسر شيئا بهذا العدد الهائل من الأيدي العاملة .. وقد دخلت المرأة في كل
المجالات : العلم والعمل والفن والأدب والسياسة والإدارة .

وإذا كانت هناك ضرور في المجتمع فليس سببها أن المرأة تركت البيت وذهبت
إلى المكتب أو إلى المصنع . وإنما السبب هو أن الرجال ما يزالون مسيطرين على كل
شيء .. وأن كوارث الدنيا تنبع وتنمو وتنفجر في عقول الرجال وأيديهم ..

وعشاق المرأة هم الذين يرون فيها ينبوعا رائعا للجمال والمتعة . وأن الحياة بغير
المرأة مستحيلة . وأن السماء قد أهدت البشرية حواء وبناتها لكي يكون أبناء وأحفاد .
ويكون حب .

بل ان النفس الانسانية بها كنوز لا يمكن ان تفتح الا بأصابع المرأة والا ياهتمامها .
فالله قد خلق المرأة لكي نحبها : اما زوجة أو ابنة . وإذا أقبلت المرأة فالحياة هي الجنة
وإذا ابتعدت فالحياة قطعة من العذاب وإذا كان لا بد للانسان أن يختار الراحة بغير
أمرأة والعذاب معها . . فانه يفضل العذاب معها على الراحة مع عشرات الملايين من
الرجال . وإذا نحن جردنا الأدب والفن من المرأة ، لم يبق بين أيدينا شيء . والأدباء
والفنانون هم أكثر المخلوقات حساسية وأكثرهم ادراكا للجمال واقدروهم على التعبير
وأبرعهم في التسمي بالحرمان والشوق والحنين .

وأعداء المرأة هم في نفس الوقت أعداء الانسانية كلها . وأعداء الحياة وهم عادة
أناس مشوهون جسميا وعقليًا أيضا .

وخصوم المرأة هم أكثر الناس حيادا مع المرأة وهم ينظرون اليها بعقل . والمرأة
لا تحب أن ينظر اليها الانسان بعقل . لأنها لا تعرف الا أن يكون الانسان : عدوا
أو حبيبا . ولكنها لا تفهم أن يكون الانسان عدوا أو حبيبا أو حبيبا عدوا . أو عاشقا
يتحفظ أو كارها بحساب . ومع ذلك فقد استفادت المرأة كثيرا من خصومها . لقد
أناروا لها الطريق . وأطلقوا حريتها بحساب . ومن بين خصوم المرأة عندنا : العقاد
وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ .

وأنصار المرأة هم الذين يدفعونها الى الحرية وإلى العمل وإلى تحمل الأخطاء في
تجاربها الجديدة . فالذي يعمل هو الذي يخطئ والذي يعمل هو الحر . والحر هو
الذي يتحمل مسئولية العمل وما دامت المرأة حرة فلا خوف عليها اذا عملت . ويجب
أن نحاسب الرجل اذا أخطأ دون أن نكتفى بحساب المرأة وحدها .

ومن أنصار المرأة كل المفكرين العلميين والاشتراكيين وفي مقدمة المفكرين الرواد
طه حسين وسلامة موسى واسماعيل مظهر . ومعظم الأدبيات طبعاً : من زيادة وسهير
القلماوى ولطيفة الزيات .

اما عشاق المرأة فهم كثيرون جدا . منذ أول انسان قارن بين وجه المرأة والقمر
حتى الرجل الذي قال : تعذبني برضه أحبك . . أو الذي قال وتجب خضوعي منين
ولوعتي بين أيديك . . أى حتى أحمد رامى ومعظم الشعراء الغنائيين . وهم الذين
يحرصون على أن تظل المرأة كتلة من اللحم الحى عروقا تجري بالبزير وانفاسها من
نار . . والطريق اليها بالدموع والشوك . . وهى التى يجب أن تتعذب وإن تحب
العذاب والهوان . . وأن تظل العوبة في يد الرجل وتلعنه .

ولا فرق بين أعداء المرأة وعشاقها . فأعداء المرأة يرونها (شيئا) كريها . وعشاقها
يرونها (شيئا) لذيذا . . ولا فرق بين أحمد رامى وبين مصطفى صادق الرافعى
والفيلسوف سقراط .

والذين عشقوا المرأة والذين عادوها لم يقدموا لها شيئا ينفعها في تحررها من قيود
الرجل . بل انهم جعلوا هذه القيود والصبر عليها وحب الدل والهوان ضرورة
حيوية .

بل اننا لم نجد في (ألف ليلة وليلة) دعوة واحدة الى تحرير المرأة أو الاشفاق عليها . لأن المرأة متاع للذيد . وهذا يكفي . والمك سليمان عندما حبس في قصره الوف النساء لم تسمع منه كلمة واحدة عن حرية المرأة . ربما كانت الفتاة (ثالوميت) هي أول امرأة تمردت على استعباد واذلال الملك سليمان . .

واوضح صورة لالتقاء العشيق والعداء للمرأة هي في صورة (الحرير) - أي في جمع أكبر عدد ممكن من العشيقاب في مكان واحد وتربيتهم وترويضهم للقاء السيد ، صاحب الحرير . سواء كان السيد شيخ قبيلة أو سلطانا من السلاطين . .

فالسultan يرى أن المرأة ضرورية . متعة ضرورية لا يستطيع أن يستغنى عنها . ولكنه في نفس الوقت لا يحترمها ولا يرى لها أي حق . فهي (شيء) مودع أو ملقى هناك . . وفي حالة انتظار مستمر لازادة السلطان الذي يريد أن يفرق في الجنس ثم يضربه بقدميه بعد ذلك .

والذين يرون أن المرأة يجب أن تكون حريما هم أيضا الذين يرون أن المرأة يجب أن تكون (هائم) أي أنثى انيقة في انتظار الجائع دائما : زوجها .

والذين يرون أن المرأة لا حقوق لها . وانها يجب أن تظل مربوطة في ذراع زوجها يبيعها ويشترها ويشترط عليها أن تعمل أو لا تعمل . . أن تبقى أو لا تبقى . وأن يعاقبها كما يريد وأن يرميها في الشارع كما يريد كل هؤلاء ينظرون الى المرأة على أنها حريم . . على أنها جزء من ممتلكات الرجل . وأن الزواج ليس الا عقد للانتفاع المشترك بين ذكر وأنثى . . وأن الذكر هو الأقوى وهو صاحب الحق وأن الأنثى هي الأضعف ويجب أن تبقى كذلك . ويجب أن لا تقوى الأنثى . لأنها اذا قويت لم يصبح الرجل قويا . ومن المفروض أن يبقى الرجل قويا بحق ومن غير حق .

ولكن أكثر الناس عداوة للمرأة هم لا شك عشاقها لأنهم ينافقون المرأة ولأن المرأة ضعيفة أمام النفاق ولأن المرأة ضعيفة أمام الاطراء وأمام الكلمة الحلوة والنظرة الحلوة ولا تزال المرأة تفضل الرجل الذي يكذب عليها على الرجل الذي يضارحها . واذا استعان الرجل المنافقون بالشعر والموسيقى فان هذا الكذب يذوب في أعماق المرأة فتحب العذاب والهوان وتنسى أن الذي تحبه هو الأداء والغناء والكلام واللحن والموسيقى .

اما اعداء المرأة من رجال القانون والفلاسفة فأمرهم سهل لأنه يمكن مناقشتهم بالعقل فلا موسيقى ولا غناء ولا نفاق ولا كذب . . ولأنها معركة حامية بين رجال . فهي معركة بالسلاح الأبيض . . وأساس المعركة : هل نحن كرجال نحترم انسانياتنا أو نحترقها ؟ هل نحن كرجال نرى أن الحرية من حقنا وليست من حق المرأة ؟ هل نحن كرجال نرى أن الكرامة حق للرجل والهوان حق للمرأة ؟

ان الذين يرون ربط المرأة بالرجل وتعليقها من كلمة في فم الرجل وتحويل المرأة الى سلعة أو احدى مستعمرات الرجل هم سلاطين عثمانيون يرون أن الرجل سلطان

وان المرأة حريم وان الحريم ذبيحة تأكل وتشرب وتتعطر وتتجمل وتزف كل ليلة الى فراش السلطان .

واذا كانت كلمة (حريم) قد انقرضت من معظم دول العالم فان المعنى نفسه ما يزال باقيا في عقول كثير من الناس في بلاد أخرى .

وامامى الآن كتاب نخم صدر اخيرا بعنوان (الحريم) للكاتب الانجليزى ب. بنزر وهو يعرض كيف نشأ الحريم في الدولة العثمانية او على الأصح كيف اشتد سلطان الحريم في الدولة العثمانية ، حتى كانت النساء هن اللاتى يحكمن اما السلاطين فكانوا غارقين فى الخمر . ونظام الحريم قديم جدا . . كان فى ايران وفى العراق القديم وفى الصين . . ولكن كلمة (الحريم) ومعناها فى اللغة العربية الشئ (الحرام) أو الشئ المحرم - أصبحت خاصة بالدولة العثمانية وحدها لأنه لم يحدث فى التاريخ أن أصبح مثل هذا العدد الهائل من النساء السجينات فى قصر السلطان سجينات فى الظلام والرطوبة والعطور وسجينات ارادة السلطان وأغوات السلطان .

وآخر السلاطين العثمانيين هو السلطان عبد الحميد الذى طرد سنة ١٩٠٩ كان يحتفظ بأربعمائة جارية عشيقة وبمائتين من الخدم الأغوات السود والبيض . ولم يعرف العالم الغربى حقيقة نظام الحريم الا فى أوائل هذا القرن من أن نظام الحريم السلطانى كان موجود ابتداء من القرن الخامس عشر فى العاصمة التركية . فمن أوائل القرن الخامس عشر لم يعد للسلطان زوجة شرعية وإنما السلطان كان لا يقامر بالزواج من فتاة فقد تنجب له بنتا . ولذلك فهو لا يتزوج الا الجارية التى تنجب له الولد . فاذا أنجبت الولد اتخذت لها لقباً جديداً هو (السلطانة الوالدة) وابن السلطانة الوالدة سوف تكون له مئات الجاريات والأم هى التى تختار لابنها العشيقات . . مئات العشيقات فاذا أنجبت العشيقة ولدا تحولت الى سلطانة والدة فكل السلاطين العثمانيين هم أبناء جاريات .

اما حياة الحريم فهى انتظار لمشيئة السلطان .

ولكن هناك طريقا طويلا قبل أن تحظى الجارية بنظرة واحدة من عين السلطان بالجارية تدخل السراى - والسراى كلمة ايطالية معناها قفص الوحوش . . وفارسية أيضا معناها المكان والسراى بمعناها الايطالى أقرب الى طبيعة القصر أو السراى التى تعيش فيها الحريم - وبعد أن تدخل السراى تتدرب على أن تكون تلميذة مجتهدة لاحدى العشيقات . وتتعلم الفسقة والطبخ . وبعد ذلك تصبح عشيقة . وتنتظر ارادة السلطان . . ولنفرض أن احدى العشيقات كانت محظوظة لدرجة أن السلطان رآها وليس من الضرورى أن يكون قد ملأ عينيه منها . وإنما يكفي أن يرمش ايمامها وهذا (الترميش) معناه أن هذه الفتاة تتحول فجأة الى كائن آخر . تدخل الحمامات وترتدى الملابس وتفترق فى العطور وبعد يوم أو يومين يجعلها الأغوات على كرسى . ويدخلون بها غرفة السلطان . . ويضعونها أمام سريره . ويكون السلطان عادة قد تغلبى

وتجئ العشيقة الجديدة وتقترب من الفراش وتأتى من الأصوات والحركات ما يجعل السلطان يصحو . . وهنا يختفى الأغوات . وفي الصباح المبكر يحملون العشيقة إلى جناحها وتكون كل الأبواب والنوافذ مغلقة على الجانبين ثم يكتبون في أحد السجلات تاريخ اللقاء السلطاني وينتظرون المولود السعيد فإذا كان ولدا فهي سلطنة . وإذا كان هذا هو أول أولاد السلطان فهي الجالسة على العرش إلى جواره . أما إذا غير السلطان رأيه وكان (الترميش) ليس دليلا على إعجابه بها وإنما كان سببه أن ذبابة اقتربت من وجهه السلطاني فيهجم الأغوات على العشيقة الجديدة ويمزقون ملابسها ويلقون بالماء القذر فوقها . ثم يعيدونها إلى بداية السلم . . إلى التي كنس البلاط ومن المؤكد أن هذه المسكينة لن تكون لها فرصة أخرى لكي ترى السلطان إلا ميتا .

ولم يكن أمام الحريم إلا الانتظار والالتئام والتواحم على الطريق إلى السلطان كن يستخدمن كل الأساليب : الاغتيال والسُم والقلوس والهدايا .

ومن أشهر الجانيات واحدة روسية اسمها روكسيلانا استطاعت أن تكون سلطنة وزوجة للسلطان سليمان القانوني . واستطاعت أن تتأمر على أخوة السلطان فقتلتهم جميعا . . . وكان عددهم ١٩ أمرا ويقال أنها قتلت السلطان نفسه لكي يبقى ابنها سلطانا بعد ذلك . وروكسيلانا هذه هي التي بدأت عصر دولة الحريم ولقد بدأت الدولة العثمانية في القرن الخامس عشر بأن كان للسلطان حريم هائل ولكن ابتداء من هذه السلطنة الجريئة أصبح للحريم نفسه سلطان وسيطرة مخيفة وعندما يكتشف أحد السلاطين أن هذا يحدث نادرا إن هناك مؤامرة ضده فانه يقتل بالحريم وقد حدث أن امرأ أحد السلاطين باغراق كل الحريم في البسفور فوضعت النساء في شوالات والقين في قاع البسفور وكان عددهن ٣٠٠ فتنة بين العشرين والخامسة والثلاثين .

وقد أغرق السلطان سليم ٢٥٠ امرأة في ليلة واحدة لا شيء إلا لانه يريد تغييرا في الحريم .

أما دور زوجة السلطان فهو لا يزيد على متابعة العشيقات الأخريات والتأمر عليهن أو التأمر على السلطان نفسه أما إذا رضيت بنصيبها فانها تشغل وقتها في الأعمال الخيرية مثل بناء المساجد والمستشفيات .

وهذا الكتاب يلفت إلى أن نظام الحريم لم يكن هو سبب الانحلال العثماني وإنما كان من مظاهر الانحلال فقد انشغل الرجال بالنساء عن كل القضايا للشعب والدولة فالسلاطين قد ولدوا من أمهات جاريات وعشن في سجن الحريم ولما كبر السلاطين عاشوا مرة أخرى في الحريم .

فالسلاطين لم يكن لهم حريم في الحقيقة وإنما الحريم هو الذي انتج السلاطين هو الذي انتج أتاتكا يكرهون الحرية لأنهم لم يعرفوا كيف يتحررون من عقليتهم .

الحريم وحياة الحريم ، وهم لا يفهمون حرية الآخرين ولا الأخريات فهم رجال من صنع النساء ، من صنع سجينات النساء .

وقد اختفى الحريم فى أوائل هذا القرن واختفى السلاطين ولم يبق فى السراى القديم والسراى الجديد الا القصر المعروف الآن على البسفور (توب كابى) .

ولكن ما تزال هناك عقلية الحريم عند بعض الرجال . انهم لا يستطيعون ان يعيدوا عصر الحريم . ولكنهم يستطيعون فقط ان يذكرونا به وقد نسيناه . ولم تبق الا بقع قليلة على الأرض هى التى تخفى وراء قصورها العالية سجوننا للنساء غارقة فى الخمر والعطر . ولكن هذه السجون وهذه القصور سوف تتلاشى فالحرية أقوى من الشمس . بل الحرية هى الشمس التى لا تغرب أبدا .

ومن المؤكد أن عقلية السلاطين هى التى يتعاقب فى داخلها : عشق المرأة واحتقارها . . عشق جسدها واحتقار عقلها . . والمرأة حيوان عاقل كالرجل - واحتقار العقلية الانسانية هو احتقار لأعز ما يملك الانسان لأخطر ما يتميز به المواطن الحر عن أبناء الجاريات فى عصر السلاطين .

وإذا كان حريم السلطان قد اختفى فان سلطان الحريم على عقول وغرائز الناس سوف يختفى أيضا قريبا عندما تظهر صيغة جديدة لقانون الأحوال الشخصية فى مصر وغيرها من البلاد العربية والافريقية .

لقد انتهى الحريم وانتهى السلطان . . فلا سلطان الا لكرامة الانسان .



ايف خلق الله!

بدون امرأة الحياة صعبة .. مع المرأة الحياة أصعب !

ما الذي يعرفه السمك عن الماء ؟

ما الذي يعرفه العصفور عن الهواء ؟

ما الذي يراه القط في الوعاء ؟

ما الذي يفهمه الرجال عن النساء ؟

(منقوش على أحد المعابد البوذية)

« من يعرف عدد زمرال الشاطئ يعرف ما الذي تقوله امرأة لامرأة عن امرأة

ثالثة ..

« من يعرف عدد أمواج البحر يعرف ما الذي تقوله امرأة لامرأة عن زوجها ..

« من يعرف عدد نجوم السماء يعرف ماذا تقبضه زوجة رجل غنى عن زوجة

رجل غنى ..

« من يعرف حقيقة .. يعرف سر المرأة .. »

(منقوش على معبد صيني)

بهذه المعاني مهدت الدكتورة الزابيث باركر لكتابها القيم « أعمار المرأة السبعة »

أو « المرأة لها سبعة أعمار » أو « المرأة لها سبعة أرواح » .. والمؤلفة طيبة ..

ودراستها للمرأة دراسة علمية .. فهي تقلب المرأة كآلة بشرية لها دم ولحم وأعصاب

وغدد سحرية .. ولها مشاكل نفسية وعقد اجتماعية .. والرجل وراء مصائب الدنيا

التي تحيط بالمرأة .. لأن المرأة تلميذة في عالم الرجل .. ومجرمة في محكمة الرجل ..

والرجل هو الذي أراد لها أن تكون على النحو الذي يراه ويشكو منه .. فهو يشكو منها

وهو في الحقيقة لا يشكو إلا مما صنعت يده ..

وقد أعلن الرجال من أيام الفراعنة أن المرأة سر . وأنها لغز . وأحيانا أنها لعنة .
وأنها الجنس الآخر . وأنها الجنس الضعيف . وأنها الجنس العنيف . . . وأنها
الجنس الضائع . . . وأنها الجنس فقط .

والنصائح التي كانت تقولها الأمهات للزوجات من أيام الفراعنة والصينيين تؤكد
أن نظرة القدماء للزواج مخيفة . وأنها لا شيء أقسى ولا أصعب من علاقة رجل بامرأة .
وكلمة الجنس لا تخيف المرأة . . . وهي أيضا لا تشينها . . . فالمرأة جنس طبعها . .
وسوف تبقى كذلك . والمرأة شخصية أنثوية . وعقلية أنثوية .

ولكن الرجل يميل إلى أن يضيف شيئا فيقول : أفهم أن المرأة أنثى . وكل شيء
فيها يؤكد أنوثتها . . . ولكن عقل المرأة غريب جدا . .

وهذا صحيح . . . فليس عقل المرأة هو الغريب . . . ولكن العقل نفسه شيء
غريب . . . وجهاز عجيب . . . عند المرأة وعند الرجل . . . والا فمن الذي يستطيع أن
يقول لنا ما معنى أن يتذكر الإنسان . . . ما معنى أن ينسى الإنسان . . . وما معنى أن
يحب وأن يكره وأن يخاف . كل هذه معان لا أحد يعرفها بالضبط . . . وفي علم النفس
عشرات النظريات المختلفة . ومئات العلماء العظماء الذين لم يتفقوا على هذه المعاني .
والنتيجة هي أن أحدا لا يعرف بالضبط ما معنى العقل . عقل الرجل وعقل المرأة . .
والرجل يجب أن يقول : ولكن سلوك المرأة معقد جدا . . . واندفاعها صارخة .
وعواطفها متطرفة . وهي تنتقل من حالة نفسية إلى حالة نفسية بسرعة مذهشة .

وهذا صحيح . . . ولكن كيف يفسر العلماء ذلك ؟

أنهم أيضا لم يتفقوا على رأي . . . أنهم يذهبون إلى البيوت وإلى المصامل وإلى
المستشفيات ويتفرجون على المرأة المريضة والمرأة السليمة . ويضربون رؤوسهم
بأيديهم . . . ثم يضربون رؤوسهم في جدران الليل والأرق . ولا يصلون إلى معنى
واضح . فإذا كان هذا موقف العلماء المتخصصين فلماذا نختار نحن معنى واحدا
لا يقبل المناقشة وهو أن المرأة متقلبة متغيرة .

وتكتفى بهذا المعنى الذي لم يتفق أحد من العلماء على صحته . أنه كسل من
الرجل في أن يناقش هذه الأفكار الثابتة الخاطئة . وحرص من الرجل على أن يتهم
المرأة . . . ويستريح . . . ويتركها تتعذب . أو يتركها خائفة في فهمه هو . وفي
فهم نفسها .

أما الحقيقة فهي : أن المرأة انفعلت وتنفعل كما علمها الرجل . واعتقدت ما علمها
الرجل . . . وخافت كما علمها الرجل أن تخاف . . . فالمرأة تتصرف وفقا للتقاليد
والعادات الموجودة في عصرها . فهي تفعل ما يتوقعه الناس منها . والمرأة ابنة
عصرها . أما الرجل فكثيرا ما يكون متمردا على عصره . . . أما المرأة فمن السابدين أن
تمرد لأنها تجيء وراء الرجل . . . تلميذة مطيعة من أيام القباة إلى زمن الإلكترون . .

ولذلك لا يمكن أن تشعر شهر زاد بعقدة النقص ولا بأنها مخلوق شاذ ولا بد أنها شعرت بالفخر لأنها استطاعت أن تحتفظ بشرف العذراء ألف ليلة وليلة ..

ثم اننا لو تساءلنا : من هي المرأة الحديثة وما هو سلوكها لوجدنا صعوبة في الاجابة . فاذا اخذنا هذا العام واذا اخترنا المجتمع الامريكى بالذات . فمن هي المرأة الحديثة ؟ ان هناك ملايين السيدات العواجيز وملايين السيدات الناضجات والشابات .. وكلهن يعشن في عصر واحد .. وفي بلد واحد . فمن هي المرأة التى تمثل العصر الحديث ؟

فاذا اخترنا الشباب دون العواجيز فلماذا ؟ ان الشباب يعشن في القواعد والقوالب التى وضعتها سيدات قبلهن .. سيدات في كفاحهن ضد الرجل . وضد سلطان الرجل . واذا اخترنا العواجيز فلا يمكن أن يكون هذا الاختيار دقيقا لأنهن لا يرقصن ولا يدخن الحشيش ولا يحملن قبل الزواج ولا يعترضن على الحرب فى فيتنام !

ونساء الريف غير نساء المدن .. والفتيات العاملات غير الفتيات المتزوجات فقط .. والمرأة الفنية غير المرأة الفقيرة .. مع انهن جميعا يعشن في عصر واحد وبلد واحد .. فنسلوك المرأة متنوع وليس جامد الخطوط ولا ثابت الالوان .

وان كانت المرأة هي المرأة .. وجسمها هو جسمها وبنائها ووظائفه وأنوثتها واحدة مهما كان لونها . وأمراضها واحدة . وما يريده الناس منها واحد .. والمرأة فى تكوينها الجسمى والنفسى تمر بمراحل مختلفة .. أو بأعمار متعددة . وهذه المراحل ليست محددة تحديدا واضحا فهى تتداخل بعضها فى بعض . كما تتداخل البذرة فى النبات الصغير . والنبات الصغير يتحول الى شجرة ثم الى شجرة ثم يجرى دور الازهار والثمار .

وجسم المرأة يتغير ووظائفها تنشط لتواجه احتياجات كل مرحلة من مراحل عمرها .

والحياة ليست مقسمة تقسيما واضحا .. وانما هى عملية مستمرة متطورة .. ويمكن وصفها بأنها عملية صاعدة .. فالمرأة ترتقى فى تكوينها الجسمى والنفسى حتى تصل الى مرتبة النضوج .

والمراحل التى تمر بها المرأة عادة : مرحلة الحمل .. أى عندما تكون طفلا جنينا .. ومرحلة الطفولة والشباب . ومرحلة النضج . ومرحلة الزواج والأمومة ومرحلة عدم القدرة على انجاب اطفال . والمرحلة الأخيرة وهى مرحلة الهدوء الجسمى والنفسى - يمكن أن توصف هذه المرحلة بأنها مرحلة الشيخوخة .. لولا ان هذه التسمية غير دقيقة .

وبعض الناس يصف الحياة بأنها مثل سفح الجبل . والانسان يصعد هذا السفح حتى يبلغ القمة . وعند القمة يتوقف الانسان قليلا . ثم يتجه الى السفح

الآخر . الى الهبوط . وهذه الضورة غير دقيقة . لان الحياة طريق صناعي . وهذا الطريق يتسع أحيانا ويضيق . وتعرضه العقبات أو الغابات أو البحيرات . . . ولكن الانسان يمضي فيه صاعدا . ومرحلة النضج التي تصل اليها المرأة ليست هي المرحلة السابقة على الذبول والشيخوخة . وانما هي المرحلة التي تنبع منها راحة الجسم والنفس والعقل . . . فالمرحلة التالية على النضج هي مرحلة استمرار النضج ولكن بكثير من العقل والهدوء .

وهذا الغموض وهذه الالغاز التي توصف بها حياة المرأة لم تغد سرا . فغن طريق الطب الحديث أصبحنا نعرف الكثير جدا عن المرأة . فبعد أن اكتشف الطب الحديث الوظائف الخطيرة للغدد الصماء لم يعد في جسم المرأة سر واحد لا تعرفه . . . لم يعد خافيا علينا أن نعرف غضبها وبكاءها . . . لم يعد سرا ذلك القلب اللئيم لحالتها النفسية مرة كل شهر . . . وأياما كل شهر . . . وهذه الغدد تؤثر في وظائفها الجسمية وفي غددها . انها بركان من الحيوية وليست نوعا من الفوضى . وانما هي نظام دقيق الى درجة الاعجاز . وفي هذا النظام الدقيق في الغدد تتجلى عظمة الخالق . فالانسان هو أعقد وأعجب المخلوقات التي نعرفها .

ومن مئات السنين . . . ومن ألوف السنين أيضا كانت هذه الاضطرابات التي تصيب جسم المرأة تجعلها تشعر بأنها مجنونة . أو انها في طريقها الى الجنون . وكان المجتمع ينبلها . ويؤكد انها فعلا مجنونة أو شريرة أو سامة . فالمرأة قديما - عندما كانت تصاب بالمرض الشهري - كان المجتمع يطردها . يمنعها من تقديم الطعام أو عمل الطعام . ويمنعها من زيارة أي انسان . وكان يعزلها في بيت الى أن يزول الغاريت التي تركبها .

أما الآن . . . فالمرأة لديها معلومات طبية وعلمية كثيرة تسمعها وتقرأها . وكل هذه المعلومات تؤكد للمرأة انها طبيعية . وان ما يحدث لها هو شيء طبيعي . لان تكوينها الجسمي ووظائفها مختلفة عن تكوين الرجل . وهذا الاختلاف بين الرجل والمرأة ليس معناه انه لصالح الرجل . . . وانما هما مختلفان فقط .

ولكن المجتمع ظل مئات السنين يؤكد للمرأة صفاتها السلبية . . . مثلا انها ليست في قوة الرجل . . . انها ليست في ثبات الرجل . . . انها ليست في ذكاء الرجل . . . انها ليست في عبقرية الرجل . . . وانها قلقة مضطربة . لا أمان لها . ولا احساس عتيدها . . . أي انها رقيقة ولكنها مثل رقة أمواس الحلاقة ناعمة وقاطعة . . . فالرقة ليس معناها الضعف . ولكن معناها القوة الناعمة . كرقعة الحرير الياباني . . . ناعم ولكنه متين . وهذا يدل على ان المرأة تعيش في عالم يعاديها . أو على الأقل ليس صديقا لها لانه عالم الرجل . الرجل القوي والرجل الأب . والرجل الأخ والزوج . والقانون والعادات والتقاليد والممنوعات والمحرمات وكلها من صنع الرجل . . . وكلها تشير الى ان المرأة انسان قاصر ومن الضروري الحجر عليها وتقييدها . . . وعلى المرأة أن تجد نفسها رغم هذا كله . . . وأن تؤكد وجودها وتنمي شخصيتها . وأن تواجه الرجل . وتعاديه وتصادقه وتعايشه بعد ذلك لتستمر الحياة .

والذى لا يعرفه الرجل عن المرأة هو هذه الحساسية الشديدة المرهفة في تكوينها . وفي استطاعة المرأة أن تقوم بتجربة بسيطة . . وفي هذه التجربة ستجد أن كل ما في جسمها يعمل وبرفق . ولكنه يعمل . فمثلا اذا خرجت للمشى على البلاج . ونظرت الى موج البحر بارتياح . ومالت صدرها من الهواء . ثم توقفت لحظة وتذكرت أنها كانت منذ أيام مع انسان عزيز . أو أنها سوف تكون هنا مع انسان عزيز . وأحست فجأة أن يدا امتدت الى عنقها ولمست شعرها . . وتوقفت في رعب وتحفز وارتفعت ضربات قلبها واحتشد الدم في وجهها وسرت في جسمها رعشة . ثم أدركت أنه لا أحد هناك . وإنما هي قد أغرقت خيالها . . هذه التجربة البسيطة جدا قد حركت ونشطت كل وظائف جسمها . وكل الغدد السرية المنتشرة في الدماغ ووراء الحلق وفوق الكليتين وغيرها مثل الغدد اللعابية . كل الأعضاء والوظائف أصبحت في حالة نشاط وتحفز . والعجيب في تكوين المرأة أن هذا النشاط كله يمكن أن يحدث عشرات المرات في اليوم الواحد . لأنها حساسة ولأنها سهلة الاثارة .

وهذه البهولة في نشاطها الداخلى هو السر الوحيد لاضطرابها وقلقها وتغيرها وتبدلها . وهذا كله يجب ألا يجعل المرأة تحس أنها غير طبيعية وأنها مجنونة . وإنما دون الناس جميعا . وعلى الرجل أن يفهم ذلك أيضا . وهذا التفهم من جانب الرجل شيء ضرورى . لأنه جزء من المعلومات العامة . ولأنه في نفس الوقت نوع من العذر يلتمسه للمرأة اذا اضطربت ضده أو اذا اضطربت من أجله .

ولكن ما الذى يريد الرجل من المرأة ؟

الذى يريد الرجل . . هو بالضبط ما تحاول المرأة أن تحققه . . فالمرأة تفعل ما يريد المجتمع والرجل هو المجتمع .

ومن المؤكد أن المرأة تريد أن تكون أنثى في مظهرها وفي أفكارها وفي علاقتها . وهي تريد أن تنجح في تحقيق هذه الرغبة . . والأسلوب الذى تستخدمه المرأة يتوقف على درجة الرغبة . وعلى الهدف . ولا شك أن المرأة كل امرأة - تريد أن تكون طبيعية . وأن تشعر بأنها طبيعية . . أى أنها أنثى . وأن أنوثتها واضحة لبنات جنسها ولأبناء الجنس الآخر .

ولكن المجتمع الذى تعيش فيه المرأة لم يحدد لها معنى الأنوثة . فالأنوثة مختلفة من مجتمع الى مجتمع ، ومن طبقة الى طبقة ومن عصر الى عصر .

وإن كان المجتمع قد استقر على صفة واحدة من صفات الأنوثة هي : المظهر الجسدى للمرأة . فالمرأة يجب أن تكون لها جاذبية جسمية . يجب أن تكون ناعمة البشرة . لامعة العينين . وحريرية الشعر . وأن تكون في جسمها انحناءات وبروزات . وكل ما يريد الرجل هو الجمال والشباب وما دام المجتمع يريد ذلك . فالمرأة أيضا حريصة على أن تحقق جمال الجسم . وأن تظهر مفاصله . وأن تلفت الرجل بجسمها . وإذا كانت المرأة قد تعلمت والرجل أيضا . فما يزال الرجل يريد منها أن يكون لها

جسم جميل . ومن النادر أن يختار الرجل امرأة لأن عقلها جميل . اذا صح أن يوصف العقل بالجمال .

والمرأة عادة عندما تريد أن تكون جميلة فهي تتوهم أن الجمال شيء والصحة شيء آخر . وأن الذي تفقده بالمرض تستطيع أن تكسبه بأدوات التجميل . وهذه غلطة . لأن الصحة قادرة على أن تحقق الجمال أيضا . لأن الجمال ليس مظهرا خارجيا فقط . ولكن الجمال نظام داخلي ووظائف منتظمة وغدد تفرز الهرمونات التي تحقق جمال الجسم . واتزان النفس . ولقد عاشت المرأة في أواخر القرن الثامن عشر مريضة عليلة مسلوقة . لأن الجمال في ذلك الوقت هو المرض ، هو الشحوب ، هو الضمور . . هو السعال ونزيف الدم . ولذلك قصرت أعمار النساء والرجال . . وكثيرون كانوا يتعجلون هذه النهاية فكانوا ينتحرون . ولا شك أن هذه مرحلة مريضة من الفكر الانساني . .

ولكن الصحة قادرة على أن تحقق الجمال الجسمي وتتوج المرأة بانوثتها : النعومة في البشرة والليونة في الأطراف والبريق في العينين ، وتكامل الشخصية . .

والمرأة تصبح تعيسة جدا اذا لم تكن جذابة الجسم . انها تحس بأنها ناقصة التكوين . بأن فيها عيبا جوهريا . وهو بالفعل عيب جوهري . وهذا العيب يزداد ايلاما للمرأة في مجتمع يرى أن الجمال الجسدي هو غاية الغايات ، ويهدف الاهداف من المرأة . . وهذه المعاني منشورة في الصحف والمجلات وقصص الحب وأفلام الجنس . الكل يصرخ : اكشفي عن جمالك يا حواء .

والأزياء وفن الألوان وعرض الأزياء هو أحسن أسلوب اهتمت اليه المرأة لتكشف عن جمالها أكثر وأكثر . فليس صحيحا أن الفساتين تغطي جنس المرأة . وانما هذه الفساتين تكشف عن جمالها . . ودلالها . ولا تكتفي الفساتين بأن تكشف جمال المرأة ، بل الفساتين تشير اليه من فتحة الصدر ، ومن شدة الحزام ، ومن الذيل الذي يرتجف فوق الركبة . . والألوان والقماش والتفصيلة . . كل هذه كلمات خرساء تشير في بلاغة الى جسم المرأة .

ولذلك فمن أكبر المشاكل التي تواجه المرأة : جسمها . . ومعظم السيدات في العالم سمينات . هذه قاعدة علمية . . حتى في آسيا . . ولا شك أن هذه السمينة هي مصدر من مصادر احزان المرأة على نفسها . وتعاستها . والسبب رقم واحد في سمينة المرأة هو أنها تأكل كثيرا . وكذلك الرجل . وفي استطاعة المرأة أن تنقص وزنها . وهذا حلم . وفي استطاعتها أن تستخدم الحبوب التي تسد النفس عن الطعام . وفي استطاعتها أن تأكل المسلوق وأن تمتنع عن النشويات . ولكن ثبت بالدليل النفسي أن معظم النساء يفضلن الحبوب والامتناع عن الطعام ولا يلجأن الى الرياضة . ويخشين أن تؤدي الرياضة الى اظهار العضلات أو الى إبراز العروق في الساقين والذراعين .

وواضح ان سبب السمنة هو كثرة الطعام . والحقيقة ان هناك سببا آخر هو نقص الطعام - أى نقص الأطعمة الضرورية جدا للجسم - فالناس لا يأكلون كل الأطعمة الجوهرية التى يحتاج اليها الجسم ، والتى تحتاج اليها أعضاؤه المختلفة .

ولا شيء يجفصل تعاسة المرأة محققة مثل السمنة . وأحيانا يكون للمرأة قوام سليم . . ولكن امتلاء جسمها باللحم يفسد القوام . وأحيانا يكون لها وجه جميل . ولكن جمال الوجه يضيع مع ضخامة الجسم .

والسمنة بالذات لا يمكن اخفاؤها فالمرأة تستطيع أن تغير لون شعرها . أن تصبغه . وتستطيع أن تغير لون بشرتها بالتعرض للشمس . وفى استطاعتها أن تطيل كعب حذاءها . ولكن المرأة لا تستطيع أن تخفى الشحم الذى فى جسمها . فالسمنة معناها أن الجسم قد اختزن الكثير من الدهون . هذه هى القاعدة .

وهذه المرأة التى أتحدث عنها طوال هذه السطور هى المرأة الناضجة . . هى قمة النضوج الأنثوى . هى ملتقى الطفولة والشباب والأمومة . . ولأنها ناضجة ولأنها قمة كل وظائفها ، فهى مشحونة بالحياة . ومشحونة بالعواطف . ويمكن استخدام كلمة أخرى بدلا من كلمة مشحونة - فهى « متفجرة » بالحياة . وهذا التفجر يراه الرجل انفجارا بالحركة وانفجارا بالبكاء وانفجارا بالدماء . .

وأمام هذه الانفجارات « المخيفة » التى يراها الرجل من المرأة ينسى أنه يعرف الحقيقة . . أو يتناسى الحقيقة . أو لعله لا يعرف . ولذلك فمن الضروري أن يعرف الرجل ماذا يحدث . وهذا عيب فى تربية الرجل وفى تربية المرأة ويحىء الزواج فيظهر فيه هذا العيب الجوهرى . فالمجتمع يعد المواطن لكل وظيفة يقوم بها . . الا الزواج . فلا يزال المجتمع رغم الحريات الكثيرة التى يستمتع بها ، لا يعد المواطنين لفهم مبادئ الحياة الزوجية . . أى مبادئ الحياة معا وثفترة طويلة . . ان هذه الحياة معا صعبة . ولكن ما هو السهل فى هذه الحياة ؟ . فلا شيء سهل ولا شيء بسيط . وإذا كانت كل علاقة « علة » : وكل ارتباط هو « رباط » ، فان العلاقة بين الرجل والمرأة هى أصعب العلاقات . ولكن الصعوبة ليست بسبب المرأة وحدها . ولكن بسبب الرجل أيضا . ولكن الرجل لأنه هو الذى يحكم وهو الذى يؤلف الكتاب والأغنية والسيناريو ، فهو يتحدث عادة عن صعوباته هو : أى عن المرأة - فهو قادر على أن يشكو . . وقادر على أن ينشر شكواه . وقادر على أن يفرس ذلك فى عقل المرأة فتصدق . . أى انها تصدق أنها موضع شكوى . وانها صعبة . وان العيب فيها . ولكنها لا تعرف ما الذى تفعله . وتحتاج إلى أن يقول لها الرجل ذلك . أى يقول لها ما الذى يجب أن تفعله حتى لا تكون موضع شكوى . . ويصبح الرجل بعد ذلك : هو الطبيب وهو المريض وهو الداء وهو الدواء . . والمرأة هى الضحية . .

ولكن اذا عرفت المرأة بوضوح حقيقة هذه المشكلة المعقدة فانها ستجد أنها بريئة وان الرجل ظالم . اما الجريمة نفسها فهى مشتركة بين الرجل والمرأة . . فلا أحد برىء ولا أحد مجرم . وانما الحياة جريمة يقتسمها رجل وامرأة وبمنتهى البراءة .

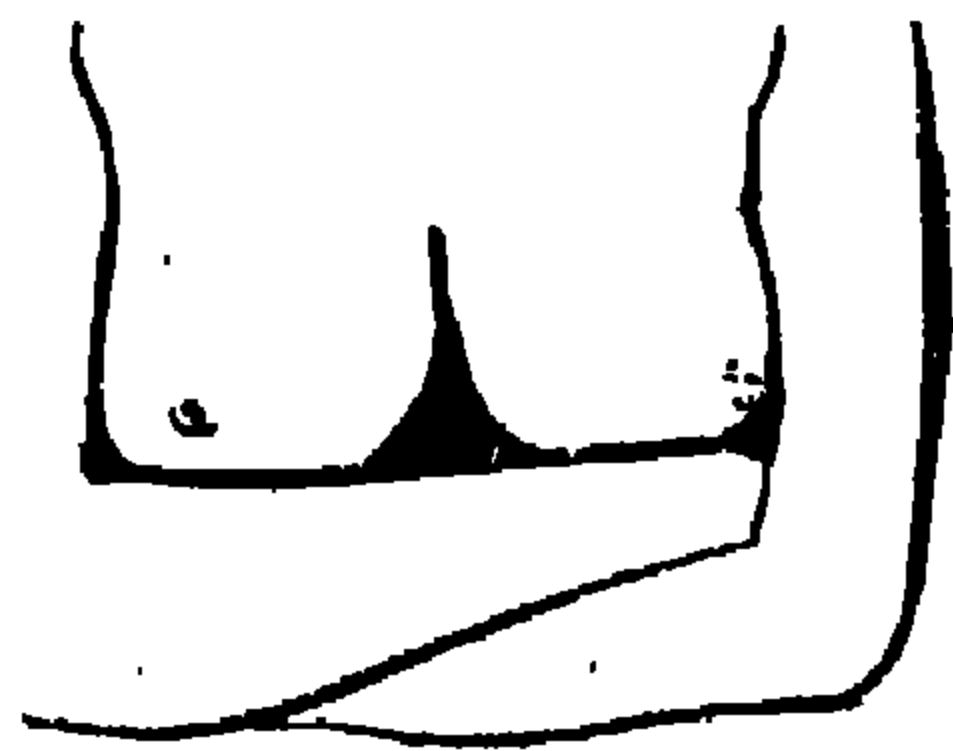
وهذه القصة من الأدب السنسكريتي جاءت في الصفحة الأولى من الكتاب . .
تقول القصة : يقال ان الله بعد ان فرغ من خلق الأرض والسماء والطيور والخشرات
والاشجار . . وبعد ان فرغ من خلق الرجل . جمع بقايا كل شيء وخلق منها المرأة .
خلق وجهها من استدارة القمر . وروحها من ارتعاشة الهواء . وبشرتها من نعومة
الافاعي . وعواطفها من التهاب النار . وخوفها من فزع البقطة . وجراتها من شراسة
النمر . . واخلاصها من وفاء الكلب . وكلامها من عسل النحل . . وغيرها من ابر
النحل . . وبعد ذلك أعطاها للرجل . .

ولم يمض سوى أسبوع واحد حتى عاد الرجل يزد هذه الهدية الى الله . وهو
يبكى قائلاً : أنت اعطيتني هذه فخذها . فهي لا تكف عن الكلام ولا تسكت عن البكاء .
ولا تعمل أى شيء . . وهي تريدني أن أداعبها ليلاً ونهاراً . . خذها يا رب .

وأخذها الرب غاضباً . . وبعد أسبوع عاد الرجل . . وهو يقول : أريدها
يا رب . . فقد كانت تغني وترقص . . وكانت تغمز لي بعينيها بعد الغروب . وأنا
أشكو من الوحدة .

وأعادها الله اليه . . وبعد ثلاثة أيام قادها الرجل الى الله وهو يقول : تعبت معها
يا رب . . تعبت حتى لم أعد قادراً على الشكوى منها . خذها يا رب . . خذها . .
وهنا ثار الله على الرجل قائلاً : اختر لك شيئاً . . هل تريدها أو لا تريدها . .
انطق فوراً الآن والا أعدمتك وأبقيت عليها وخلقيت للمرأة زوجاً غيرك . . انطق . .

واستدار الرجل وهو يسحب حواء من شعرها . . وهو يقول : لا أنا قادر على
بعادها ولا أنا قادر على قربها . . لا على الحياة معها . . ولا على الحياة بغيرها . .



ثلاثة ألوان
من الحب

الذبح أحبوا حتى الموت

(١)

الحب كالعفاريات .. كل الناس يتحدثون عنه ولكن أحدا لم يره .
ولكن هذه السيدة تؤكد أنها رأت الحب ورات عفريت الحب أيضا .
وقد أصدرت ثلاثة كتب في موضوع واحد : الحب والفرنسيون ..
الحب والانجليز .. الحب والأسبان ..

وهي في كل كتاب تؤكد أن لديها الأدلة القاطعة على أن الحب كان
موجودا .. وأنها رأت أسلوبه في الفن وفي بيوت الناس .. لأن الحب
هو خليط من الفن والفضيلة .. وأنها استطاعت بالممارسة الطويلة أن
تقول لنا : ما هو الفن .. وما هو الحب ..

اسمها : نينا ابتون . وقد تخصصت في دراسة فن الحب وتقول :
إنها فشلت في حبها مرتين .. ولكنها هذه المرة لن تفشل .

وهي بالفعل لم تفشل . فكتابها الكبير جدا عن « الحب والفرنسيون » ابتداء
من العصور الوسطى حتى يومنا هذا ، متعة فنية تاريخية ومثير جدا .. فهي لم تكتف
بدراسة التاريخ .. وانما وجدت متعة في أن تنقل لنا صوره المثيرة - يمكن أن أقول
العارية جدا . فهي لم تكتف بأن فتحت أبواب التاريخ على الحب ، وانما دخلت .
وتفرجت واشتركت في المناقشة .

وحماسها الشديد يدل على أنها تذوقت الكثير من القبلات والصرخات التي ملأت
الكتاب .

والمؤلفة تجعلك تشعر بأنها سيدة تؤرخ للأزياء في العالم .. وذلك بأن ترتدى
هذه الأزياء واحدا واحدا .. من الملاية اللف حتى المايوه المجنون .

وقد اختارت نينا ابتون بداية الحب في فرنسا في العصور الوسطى .

وفي هذا الوقت كانت أوروبا - وفرنسا أيضا - مشغولة بالحروب على حدودها .
وبالحروب الصليبية فقد ذهب الكثيرون باسم الدين للدفاع عن الأراضي المقدسة .
ذهب الرجال وبقي النساء .

وكان هناك فراغ لا أول له ولا آخر .

والفراغ هو « الجو » الذى ينمو فيه الحب . فعندما تكون اليد خالية ، ينشغل الرأس بالأحلام .

الرأس يحلم بالطعام الذى يملأ المعدة ، والطعام الذى يملأ القلب ، وبعودة المحارب الذى سافر الى بلاد بعيدة يحمل سيفه وصليبه .

وفى هذا الوقت لم يكن الحب معروفا بصورة صارخة .. ولم تكن هناك قصص حب معروفة . أى لم تكن هناك « نماذج » أدبية أو فنية للحب بين رجل وامرأة .. وفجأة ظهر الحب .. وأغاني الحب .

وكان هذا الحب عربيا صميما . فقد عاد أحد النبلاء من معركة له فى خيال البرانس على حدود فرنسا وأسبانيا . ومع هذا النبيل عدد من الأسرى . رجال ونساء . أما النساء فقد ارتدين الفساتين السوداء . وقد غطين وجوههن بنقاب أبيض . وكن سمراوات . وكانت الدموع بارزة فى عيونهن الواسعة . لقد عاد هذا النبيل منتصرا .

وفى الليل احتفل هذا النبيل بانتصاره . وكان من بين الأسرى مطربون . ومنشدون . وهؤلاء المطربون يغنون شيئا اسمه « الزجل » . لقد أطلق الفرنسيون فى ذلك الوقت على الأغاني العربية اسم « الزجل » . أما هذه الأزجال فكانت فى موضوع واحد هو : عذاب العاشق ، وصلابة قلب المعشوقة والاخلاص الى الأبد .

وفى قلعة هذا النبيل « دوق كيتان » سمعت باريس لأول مرة أغنية عربية . ولأول مرة يدخل الأدب الفرنسى معنى « الشهامة » و « الفروسية » .. والموت من أجل المحبوبة . والحياة من أجلها ومن أجل الاخلاص لها حتى الموت .

والفرنسيون عندهم الاستعداد الهائل للحب وسيرة الحب . والحياة به وله . فهناك أسباب جغرافية أدت الى انتعاش الحب فى فرنسا أكثر من غيرها من البلاد . ففرنسا جوها معتدل . دافئة . لياليها صافية . قمرها يظهر كثيرا وراء السحب وبلا سحب . وفى الليل يولد الحب وينمو . وتحت الأشجار وعلى الأعشاب يتعانق العشاق .. ويلتقى التأمل والأحلام .. تأملات أبناء الشمال ، وأحلام أبناء الجنوب . وفرنسا دولة لها حدود فى الشمال ، ولها حدود على الجنوب .

واذا كان العرب والفرس يتحدثون عن البلابل فى قصائدهم ، فالفرنسيون يتحدثون كثيرا عن الزهور وألوانها وأنواعها وعطورها .. وهم يرون أن الحب هو القادر على أن يجعل لكل شيء لونا ، ويجعل لكل لون معنى .

كما أن الفرنسيين يستطيعون أن يناموا فى الحقول ، فى ظل الأشجار نهارا ، وتحت أشعة القمر ليلا ، دون خوف .. فلا توجد فى فرنسا زواحف سامة .

وهناك سبب آخر وهو لأن الفرنسيين خليط من أبناء البحر الأبيض المتوسط وأبناء الشمال .. فقد أصبحت لديهم حرارة القلب ، وبرودة العقل . فأبناء البحر الأبيض فيهم حرارة حارقة . والحب حرارة ملتهبة . وفيهم برودة العقل

الشمالي . والحب أيضا له قواعد وله أصول وله حدود . . وقد عرف الفرنسيون كيف يحترقون بعقل أو كيف يدق قلبهم بحساب . فكانت الأعمال الأدبية والفنية . . أى كانت النار فى داخل الآنية الزجاجية الشفافة . فكل عمل فنى هو عبارة عن قطعة من النار وقد اعتقلت فى اناء شفاف جميل .

والسبب الثالث هو اللغة . . فاللغة الفرنسية غنية بكلمات الحب والهيام . . ورقيقة . . ومنها كلمة : أنت . . وما أسهل أن ينتقل المحب الولهان من مخاطبة حبيبته بقوله : حضرتك . . الى أن يقول لها : أنت .

وبين كلمة « حضرتك » الى كلمة « أنت » ينتقل كل شىء من الرجل الى المرأة وبالعكس . تنتقل ملكية الدنيا كلها . فيصبح الرجل مالكا للمرأة ، وتصبح المرأة مالكة للرجل . . وملكة عليه أيضا .

وأخيرا هناك السبب التاريخى . . ففى العصور الوسطى كان هناك نموذج من الحب لا بد أن يؤثر فى سلوك وأدب الفرنسيين والأسبان والاطاليين . . والانجليز والألمان . . وهو « الحب الشهم » . . أو « أخلاقيات الفروسية » .

فقد ظهر فى فرنسا فى القرن الثامن عشر شعراء فرسان . . الذين يسمون بالطوروبادور - وهى كلمة مأخوذة من كلمة « طرب » العربية - هؤلاء الشعراء أغلبهم من النبلاء . . أى من الشبان الذين عندهم متسع من الوقت ، وليسوا فى حاجة الى البحث عن عمل . وليسوا فى حاجة الى أن يعرف الناس أصلهم وعراقة دمهم . . فهؤلاء الشبان يؤلفون أغانيهم . . ويغنونها أيضا . وبلا مقابل . . حتى الحب نفسه بلا مقابل . . انهم يحيون للحب . ويحيون لأنهم يريدون أن يخلصوا وأن يتعذبوا فى الحب . . فهم يطلبون المزيد من العذاب فى الحب . .

وأول شاعر طوروبادور فى التاريخ هو الدوق جيوم داكيتان (١٠٧١ - ١١٢٧) . وهو ابن ذلك النبيل الذى عاد منتصرا فى الحرب ومعاه المطربون والمطربات العرب . وعندما عاد أبوه من ميدان القتال . كان هذا الطفل واقفا على باب القصر . وسمعهم يقولون :

وفى الليل تسلل هذا الشاعر الصغير الى حيث يجلس أبوه واستمع الى الموسيقى والأغاني ورأى الرقص الشرقى الأسبانى .

وكان الطفل فى السابعة من عمره . . ولما مات أبوه كان فى الخامسة عشرة من عمره . . ولكن رأسه قد امتلأ وقلبه بدأ يتفجر بشىء يعرفه جيدا اسمه : الحب . وقد أعلن أبوه للحاضرين أنه أتى بهذه الرقصات من بلاط الخليفة . . وأن هذه « الأزجال » التى يغنونها كانت من تأليف شاعر أسمى اسمه « مقدم » الذى تأثر كثيرا بما كتبه الفيلسوف العربى ابن سينا . . وهو أيضا يتغنى بالحب والعشق .

ولقد سأله زوجته : ولكن هؤلاء الناس ما الذى يعرفونه عن الحب ؟

وكان رد الدوق داكيتان : كل شىء . .

وعادت الزوجة تقول : كيف يتكلمون عن الحب وهم يحبسون زوجاتهم وراء ستائر ثقيلة .

وقال الزوج : بسبب هذه الستائر الثقيلة كان الحب وحده القادر على أن يزيع الستائر وكان هو وحده القادر على ادخال السلوى على قلوب الحريم . . فالحب يجعل كل امرأة في الحريم ملكة على عرش لا أول له ولا آخر . . فالحب وحده هو طريق الخلاص .

وقد سمع الدوق عن قبيلة عربية اسمها (بنو عذرة) . . وهذه القبيلة مشهورة بالحب العفيف . . بل مشهورة بشيء آخر أقوى من الحب . . أنهم يحبون حتى يموتوا . . أو يحبون أن يموتوا . فالحب عندهم والموت بمعنى واحد .

وقد تأثر الطفل جيوم داكيشان أول شعراء الطروبادور بكل ما سمعه من أبيه . وبعد وفاة أبيه انطلقت موهبة هذا الشاعر الشاب بالأغاني المثيرة . . والأغاني العنيفة الفاجرة أيضا . وكان هذا الشاعر يقول عن نفسه : ولا واحدة تستطيع أن تقاومنى . . ولا واحدة تكتفى بأن ترانى مرة واحدة .

ولم يكن مبالغا فيما قال . .

وفى ذلك الوقت كانت تدور المعارك من أجل المحبوبة . وكانت تسيل الدماء . وكانت تذهب المحبوبة لانقاذ حبيبها . . فهي تغسل جروحه . واثناء تجفيف الدم يفتح القلب . فالحب يولد فى قلب المرأة عندما تهزها الشفقة والاعجاب بالرجل الذى تعذب من أجلها .

ولكن الحديث الطويل مع الفارس الجريح لم يكن محترما فى ذلك الوقت . . فكثيرا ما انتقلت الشائعات بأن فلانة تكلمت مع فارس جريح . . وكانوا يعيرونها بعولهم : كلامها صريح مع أصحاب الجروح .

وكان الطروبادور ينادون بالفضيلة اذا تغنوا ، ولكنهم فى الحقيقة ليسوا كذلك . ولم يكن حب الزوجة فى ذلك الوقت شيئا محترما . . أو مطلوبا . وانما كان الزوج - والكنيسة أيضا - يرى أن الانسان يجب ألا يحب زوجته . . وانما العلاقة بين الرجل والمرأة هى علاقة تعاون من أجل زيادة عدد سكان فرنسا .

ولذلك ظهرت فى ذلك الوقت أنواع غريبة من قمصان النوم الغليظة الجافة ، هذه القمصان تجعل الزوج اذا تمدد الى جوار زوجته لا يستطيع أن يفرق بين جسم الزوجة والحائط . لأنه ليس من الضرورى أن يكون هناك حب . . وانما يكون هناك أولاد فقط .

وكثير من هؤلاء الشعراء العشاق كانوا يختمون حياتهم بالتكفير عنها . أى بأن يذهبوا الى الأديرة . . أو بأن يوصوا بممتلكاتهم الى الكنائس .

وقد اختلطت القيم فى ذلك . . فالعاشق يذهب الى الكنيسة يقسم على الحب والاخلاص مدى الحياة أما الزوج فيقسم على الزواج بلا حب مدى الحياة .

وفى هذا الوقت كان ينام العشاق والسيوف بينهم . . فكل من تساوره نفسه أن يقترب من المعشوقة يجب أن يغمد السيوف فى قلبه . .

وأصبح من المألوف أن ينام العشاق الى جوار معشوقته عارية . فلا يمسسها .

وفي هذا الوقت أبرزت الكنيسة تمثال العذراء .. أى نموذج « الحمل الطاهر »
.. أى نموذج للسيدة الطاهرة التى حملت دون أن يمسيها بشر .

وقد استولى هذا المعنى على الفكر والفن فى العصور الوسطى لدرجة أن المحبين كانوا يرون أن العلاقة بين الرجل والمرأة يجب أن تكون طاهرة أو يجب ألا تكون هناك علاقة تؤدي الى حمل .

وقد حدث أن تزوج أحد الشبان . ولكنه قرر أن تكون العلاقة طاهرة . فذهب وأخفى خاتم الزواج وراء تمثال للعذراء . وفى ليلة زفافه استغرق فى النوم . وزارته العذراء فى نومه وعاتبته على أنه يخونها مع امرأة أخرى فنهض من فراش الزفاف وذهب الى الدير بقية حياته .

أما ملامح المرأة فى ذلك الوقت ، فالصور واللوحات والتماثيل تكشف عن نوع غريب من الجمال . فالمرأة قد تغطت كلها بالأزياء طبعاً .. وهى ترتدى الملابس الخضراء اذا كانت حديثسة العهد بالحب .. والملابس الزرقاء اذا كانت مخصصة فى الحب .

وكانوا يفضلون الشقراوات فى ذلك الوقت أيضا .

ولكن اللوحات تفضح لنا جمال المرأة فى ذلك الوقت : فهى ضيقة الكتفين نحيفة الذراعين مفعوصة النهدين .. وهى مدببة الأنف منقوخة الجبهة ..

فيما عدا سيدة واحدة هى « انيس سوريل » التى كانت عشية الملك شارل السابع . فقد اكتشفت فى نفسها مظاهر الأمومة .. فارتدت فستانا عارى الصدر .. فبرز نهذاها .. وبهذا الفستان أصبحت النهود العالية موضة . وكان المثل عندهن : النهد الذى يمكن أن يثبت عليه الشمعدان فلا يقع .

ولم يكن المجتمع فى ذلك الوقت يتسامح مع الخيانة الزوجية فالزوجة الخائنة يحلقون شعرها ويلقون بها فى السجن حتى تموت .

أما العشيق فكانوا يسلخون جلده وبعد ذلك يقطعون بعض أعضاء جسمه .. ويتركونه حتى يموت .

وكانت الأغاني فى ذلك الوقت تطلب من العاشق الولهان أن يحترس فى اختيار من يبعث معهم برسائله الى المعشوقة .

وانتشرت فى ذلك الوقت الأمراض الخبيثة التى انتقلت من أمريكا .. الى ايطاليا وفرنسا .. وكانوا يسمونها أمراض نابلى .. وكان الايطاليون يسمونها : أمراض باريس .

وفى سنة ١٢٢٣ صدر قرار بسجن سيدة لأنها شتمت جارة لها بقولها :

الهى ربنا يتليك بمرض نابلى .

وفى القرن الخامس عشر ظهر مارشال اسمه جيل دى رتس .. هذا الرجل اتهموه بقتل مئات الاطفال الصغار . فقد كان شديد الشذوذ .. ولذلك صدر قرار باعدامه حرقا .

وكان هذا المارشال أحد الأشرار الذين سبقوا الماركيز دي صاد الذي نسبت إليه كلمة « الصادية » . . أى لذة تعذيب الآخرين .

وفي هذا العصر كنا نلمح بعض اللفتات الغريبة من الملك روبير الطيب . . فهو كان صديقا للبغايا والغانيات . . وقد حدث أن رأى وهو فى طريقه الى الكنيسة « شابين يتعانقان » ، فنزل من فوق حصانه وغطاهما بردائه . . وانصرف يصلى .

* * *

وفي القرن العشرين وبعد الحرب العالمية الأولى نجد حرص الناس على الحياة . . على أن يعيشوا بعد أن مات منهم أكثر من مليونى فرنسى . ولذلك نجد الحب بعد الحرب العالمية الأولى يصبح حسيا جدا . . أو حسيا فقط . ونجد أدباء كبارا يرفعون رايات العرى والتعري . ونجد من يقول : ان الانسان استطاع أن يجعل من الجنس وهو وظيفة حيوانية ، ينبوعا له معنى جميل . .

ولكن انتشار « الحسية » الشديدة يرد هذا المعنى الجميل الى مجرد وظيفة . . ويجعل ينبوع يفيض بالوحل . . وليس بالجمال .

وفي كل القرن العشرين نجد الكثير من المعانى الفنية والقيم الجمالية تصبح ضحية للشك والضياع .

وضاع الحب بين المعانى التى ضاعت فى زحمة الشكوك والارتباب والخوف من الموت ، والخوف على الانسانية كلها والسفر الى الكواكب - أى هجرة الناس من الكرة الأرضية والهرب من مصائبها وانشغال الناس بالناس واطعام الناس وتحرير الناس ، والابقاء على الناس من أجل المحبة العامة ، وليس الحب بين اثنين فقط من الناس . .

والعاشق الولهان قريب الى حالة الموت . . لأن العاشق لا يرى أى تفسير فى الدنيا ، فهو لا يراها ويريد الدنيا أن تقف وأن تسكن . وأن تظل السعادة الأبدية . وأن بخلو له الكون هو ومحبوته . فالعاشق - اذن - يتصرف كأنه ميت . . كأنه لا يشعر بما حوله . . أو لا يريد أن يشعر بما حوله . . فهو يريد أن يعدم الدنيا كلها ليعيش هو . .

مثل هذه النزعات الفردية العنيفة قد تلاشت فى القرن العشرين . فقد ظهر نوع آخر من الحب . . ولكنه ليس حبا سليما . . انه حب مريض .

واذا كان الكبار قد انشغلوا عن الحب ، فسيظل المراهقون أمراء الحب . . وإذا قام الانسان بأجراء مباريات فى كرة القدم على ظهر القمر ، فلن يتوقف الأطفال عن لعب الكرة فى الحواري .

ولذلك سيبقى الحب لعبة الصغار ، ما دام هناك أطفال صغار فى أى مكان على الأرض أو على أى كوكب آخر .

العربة والمحصاد والحب

— ٢ —

أما الذى يحيط بهذه الجزيرة أو ما الذى يجرى فيها فلا يمكن أن يكون الحب .
ولا لغة الحب ولا كل ما هو مألوف فى المواطنف بين الناس فى القارة الأوربية .

وهذه المعانى هى التى جعلت السيدة « نينا ابتون » تحس أن العالم كله يتحداها
أن تجد انسانا واحدا فى انجلترا يحب .

ولكى تخفف على نفسها روح التحدى وتجىء عبارتها هادئة تخيلت حوارا يدور
بينها وبين القارئ العادى :

القارئ : لم أملك الا الابتسام عندما عرفت أنك تؤلفين كتابا عن الحب عند
الانجليز .

المؤلفة : أى نوع من الابتسام ؟

القارئ : ابتسام السخرية طبعاً .

المؤلفة : اذن فقد صدقت تلك التشنيعة التى اطلقت علينا وهى أننا لا نعرف
الحب .

القارئ : لا تستطيعين أن تنكرى أن نصيبنا نحن الانجليز من الحب ضئيل جدا .

المؤلفة : هذه غلطتنا . فقد تركنا لأدباء القارة الأوربية حرية تصدير نظريات
الحب الى بلادنا واغراقنا فى الغرام وفى أشياء أخرى كثيرة . . ولكننا أثبتنا بعد ذلك
قدرتنا على العمل .

القارئ : وهل وجدت نماذج للمحبين فى تاريخنا ؟

المؤلفة : لا يوجد نموذج للمحبين . فالحب أسلوب فريد . وهنساك عادات
وموضات فى الحب . وهذه الموضات يقلدها الناس من عصر الى عصر . . وإن كنا
نجد فى كل قرن عشاقا خالدين . ومهما تغيرت الموضات ، ومهما تغير هؤلاء الخالدون
فجوهر الحب واحد ، والموقف فقط هو الذى يتغير .

القارئ: إلا يمكن استخلاص جوهر الحب هذا ؟

المؤلفة: هذا ما لا أتمناه .. فان البحث عن استخلاص للحب وتقطير له في جملة أو في وصفة يفسد علينا الكثير من متع الحياة . لأن الحب مزيج من عناصر لا ترى . والقليل من الناس يملك هذه العناصر ويصبح قادرا على تركيب الوصفة السحرية في أنفسهم . وسوف يكون دائما عدد قليل من كبار العشاق .. بينما سيكون هناك عدد هائل من الملهمات .

القارئ: لا أعرف من الذى قال ان الحب وهم في وهم .. وانه ليس أكثر من قطعة من المعدن اللامع ملفوفة حول حقيقة بيولوجية .

المؤلفة: لا يمكن أن يكون صاحب هذه العبارة رجلا قد عرف الحب .

القارئ: ولكن أين وجدت أنت هذا الوهم الذى اسمه الحب ؟ لا بد أنك قد عثرت عليه بالصدفة في كتبنا القديمة ؟ لا بد أنك صادفت شيئا مخيفا .

المؤلفة: أبدا . بالعكس - لقد وجدت الحب في أماكن أخرى . وجدته في الخطابات الغرامية المصمغة منذ وقت طويل .. وعثرت عليه في المذكرات الخاصة التى احتفظت بها سرا ، عائلات عريقة كثيرة .. ثم لم تشأ أن تنشرها .

القارئ: وما الذى دفعك الى التعب وتأليف كتاب عن شيء لا نعرفه نحن الانجليز ؟

المؤلفة: بعد أن صدر كتاب عن « الحب والفرنسيون » تلقيت تهنئة من صديق فرنسي مثقف . وجاء في خطابه : من المستحيل أن أجد مادة للكتاب عن الحب عند الانجليز . وان مقالا واحدا يكفي لسرد كل قصة الحب عند الانجليز . واحسست انه يتحدثني وما يؤسف له أنني قد صادفت كثيرا مثلك .. ولهم رأى مثل رأيك لديهم شكوك . وسوف أبدد هذه الشكوك .

القارئ: اذن سيكون كتابا دفاعا عن الانجليز .

المؤلفة: نعم . انه دفاع عن الحب الذى أهملناه وعن العشاق الذين نسيناهم . وقد الفت هذا الكتاب ليستمتع به القارئ . أما أنا فقد استمتعت به . واختصرت منه الكثير . ولو قدر لى أن أتناول بالتفصيل سيرة الحب عند الانجليز لأصدرت ستة كتب لا كتابا واحدا من ستة فصول ، ولاستعنت بعدد من الخبراء من بينهم : مؤرخ وفيلسوف وشاعر وطبيب وباحث اجتماعي .

القارئ: دائرة معارف عن الحب .

المؤلفة: بلا شك . ولأننى أعتقد أن هناك مجالا كبيرا لتفصيل الحب عند الانجليز . أرجو أن تقبل هذه الوجبة الخفيفة الفاتحة للشهية ومعها زجاجة شمبانيا .

بهذه اللهجة الحارة والنبرة العالية تمضى المؤلفة في دفاعها عن مواطنيها من الانجليز . وتقلب في كل صفحات التاريخ لتعثر على العشاق والمحبين والخطابات

وأول قصة حب نصادفها في الكتاب تقول لنا ان أحد الملوك طلب الى ابنه ان يتزوج أرملة بعد وفاته . . ولكن الابن كان يحب سيدة أخرى . وعندما قرر ان يتزوج من امرأة أبيه . . جاءت حبيبته على رأس جيش وهزمته وجرت به بالحبال ليقبل قدميها ويطرد أرملة أبيه . . ثم يتزوج . . الحبيبة المنتصرة .

ومحاضر البوليس ودواوين الشعراء ومسرحيات شيكسبير ، واعترافات الفيلسوف المثالي توماس مور . .

وصدرت قوانين تحرم زواج الابن من أرملة الأب . ثم عادت الى الظهور مرة أخرى . واضطر القديس أوغسطين ان يعلن خروجه من انجلترا ومن الديانة المسيحية . ولكن رأى القديس بطرس في نومه يعنفه ويضربه . ويطلب اليه ان يبقى الى جوار المسيحيين . ونهض من نومه وما زالت علامات الضرب دامية على كل جسمه .

وقصة الملك وليام الفاتح : لقد تقدم لخطبة إحدى النبيلات . ورفضت لأنها تحب رجلاً آخر . . وهذا الرجل لا يحبها . فذهب الملك أمام الكنيسة وانتظرها حتى خرجت وانهال عليها ضرباً حتى سقطت على الأرض . ولكن النبيلة كانت تحب الرجل الذي يضرب المرأة . . فأحبت الملك ووافقت على الزواج منه . . ولما طلب اليها ان تختار أى قطعة من الأرض لتبنى عليها قصرها . . اختارت أرض الرجل الذي كانت تحبه ولا يحبها . واستولى الملك على الأرض . وجاء بالرجل مربوطاً بالحبال وألقى به عند قدمي الملكة فأودعته السجن حتى مات .

وكان من المؤلف في القرن الثامن عشر والثالث عشر ان يتزوج الأطفال وهم صغار . أما السبب فهو ان أصحاب الأرض كانوا يستولون على الأطفال ويسخرونهم في خدمة الأرض بلا مقابل . . ولذلك كان الناس يبادرون بتزويج أطفالهم .

وكان من المؤلف في القرن الثاني عشر والثالث عشر ان يتزوج الأطفال وهم ان ترث ما يتركه الزوج ، ما دامت الأرملة قد تحولت الى راهبة .

وعندما تنبه الناس الى جشع الكنيسة كانت الأرملة تتزوج بعد وفاة زوجها . وفي هذا الوقت راح رجال الدين ينشرون خرافة ظهور أرواح الأزواج يطاردون الأراامل في كل مكان .

ومن أغرب القصص التي جاءت في الكتاب قصة الفيلسوف توماس مور صاحب كتاب « المدينة الفاضلة » فقد جاءه رجل يخطب إحدى ابنتيه . فأخذ الرجل من يده واتجه مباشرة الى غرفة ابنتيه . ووجدهما نائمتين تحت غطاء واحد . . فنزع من فوقهما الغطاء . وأحسنت الفتاتان بشيء من هذا فتقلبتا على الوجه الآخر وهنا أعاد الرجل الغطاء فوق ابنتيه العاريتين تماماً . . وقال للرجل الذي جاء يخطب

واحدة منهما : الآن لقد رأيت كل شيء .. فأننا من رأى أن الرجل يجب ألا يتزوج امرأة إلا بعد أن يراها عارية تماما .

وسواء كانت هذه القصة صحيحة أو مخترعة ، فإنه قد ذكر في « المدينة الفاضلة » أنه يجب ألا يكون هناك كذب أو خداع من الرجل والمرأة .. وأن التفاهم يجب أن يكون تاما .

وقد تزوج الفيلسوف مور مرتين . وعندما مات كتب على قبر وقبر زوجته : أيها الموت امنحنا جميعا ما حرمتنا الحياة منه .. أن نعيش معا في سلام .

ولم يكن كل الأدباء والفلاسفة والعشاق من أنصار الحب والزواج ، فقد ارتفعت أصوات صارخة تلعن الحب وتلعن الزواج .

حتى قبل أن يقول بيرون : الحب الذي يؤدي الى زواج ، مثل نبيذ يتحول الى خل .

وقبل أن يقول « كارليل » : الحب ليس كله هديانا . ولكن فيه معانى الهديان . والعالم الكبير تشارلز دارون كتب في ١٨٣٧ يقول عن مزايا الزواج : أطفال وصديق للعمر وموسيقى وثرثرة للنساء .

وكتب دارون عن عيوب الزواج : ضياع رهيب للوقت وإذا كان هناك أطفال كثيرون فإنهم يرغموننا على كسب القوت ويقتلون فينا روح الكفاح .

وقال دارون أيضا : ولكن من الصعب أن يقضى الإنسان كل عمره كالنحلة يبحث عن الطعام ثم يأوى في النهاية الى بيت قدر . أنه في حاجة الى الزوجة الجميلة والى الدفء والموسيقى . قارن حياتك بعد الزواج بحياتك قبل الزواج . سيكون الفارق واضحا أنه لصالح الزواج .. فتزوجوا .. تزوجوا .. تزوجوا ..

وتشارلز دارون كان من أحسن الأزواج وأكثرهم اخلاصا .. وهو الرجل الذي اكتشف نظرية أن الانسان أصله قرد .

وكل أشكال الحب لا ترضى كاتبا كبيرا مثل ه . ج . ولز . فهو يرى أن الناس على هذا الكوكب غير قادرين على الحب . وأنهم في انجلترا غير قادرين على أن يكونوا ناسا . وأن الانسان عموما ليس الا حيوانا مراهقا وأنه شديد التقلب من المحبة والكراهية والاخلاص والخيانة والغيرة والبلادة . وأن كل ما كتبه الناس عن الحب ، يشبه أصوات الآلات تحت أصابع العازفين قبل بداية الحفلة .

أما الفيلسوف راسل فهو ينظر الى المجتمع الانجليزي عموما ويقول : لا أمل في اصلاح هذا المجتمع الا اذا مات كل الناس فوق الأربعين .

وعلى الرغم من الحريات الممنوحة للمرأة .. وعلى الرغم من أنها في كل مكان يقف فيه الرجل .. فإن المرأة لا تزال سندية لا .. أنها الفتاة المسكينة التي تحلم

بأمر على حصان أبيض .. وتنتظره . ولا يهم أبدا أن يجيء .. فالمرأة لا تشبع من الحب . والكلام عن الحب . ولو تزوجت المرأة ألف مرة وتكسرت أسنانها ، فإن معدتها تظل - حتى الموت - قادرة على هضم كل كلام عن الحب .

ولا شك أن هذه الأحلام عند المرأة هي نوع من الخيانة العقلية .. ولكن الرجال قادرون على التفتيش عن هذه الخيانة العقلية بمشاهدة الرقص العارى والانغماس فى كثير من اللهو والملذات التى يسمح بها المجتمع للرجال ولا يسمح بها للمرأة ..

ولا يزال المعنى القديم هو شعار الحياة الزوجية فى كل عصر : فزواج بلا حب ، عربية بلا حصان .. وحب بلا زواج حصان بلا عربية .. وعندما يجتمع الزواج والحب ، فمن الصعب أن تبقى العربية عربية . وأن يبقى الحصان حصانا .

وتقول المؤلفة نينا ابتون وقد بلغت المائة الرابعة من كتابها : أعتقد أننى قد دافعت بما فيه الكفاية عن البرود والجمود عند الانجليز ..

والحقيقة أنها قد نجحت فى الدفاع ولكن نجاح المحامى فى الدفاع لا يعنى أنه على حق دائما .. بل يعنى أنه محام بارع . فقط !.



يوميات لارمه وأخواتها

— ٣ —

إذا كان الفرنسيون يصنعون الحب ، فان الانجليز يتحدثون عنه ،
والألمان يفكرون فيه ، والطيّان يأكلونه . . أما الأسبان فانهم يرقصونه .
والرقص لا تغرب عنه الشمس في أسبانيا .

وهناك أكثر من أسبانيا : أسبانيا المتدينة جدا ، وأسبانيا المتحررة ،
وأسبانيا المتحررة جدا . . وأسبانيا الموجودة في مدريد .

وقد شاءت السيدة « نينا ابتون » في كتابها عن (الحب الأسباني)
أن تختار بداية عربية صميمة للحياة العاطفية في أسبانيا . وقد جعلت
هذه البداية في العصور الوسطى .

وقد اختارت كتاب (طوق الحمامة) لأبي محمد علي بن حزم الأندلسي دستورا
للمحبين في الأندلس . وهذا الكتاب يضم عددا من الرسائل في الحب والغرام والنظرة
بالعين والعفة والفيرة والطاعة والكرامة . . وكيف يمكن أن يكون الانسان محبا
عفيفا . .

وابن حزم قد اختار كتابه (طوق الحمامة) لأن من عادة العشاق أن يبعثوا
رسائلهم مع انسان أمين ، أو حيوان مخلص لا يذيع أسرار العشاق . ويقول ابن حزم
في سبب اختياره للحمامة رسولا الى محبوبته :

تخيرها نوح فما خاب ظنه لديها وجاءت نحوه بالبشائر

سأودعها كتبى اليك فهاكها رسائل تهدي في قوادم طائر

. والشاعر ابن حزم كان رجلا رقيقا . وقد تعلم الرقة من عشرته الطويلة
للجوارى . ولكن هذه العشرة جعلته يعتقد انها كائن ضرورى فقط ولكنها ليست كائنا
يستحق الاحترام والاعجاب . فقد رأى من حيل النساء وكيد النساء الشيء الكثير .

ولكنه عندما أحب جاريته « نعم » تزوجها . وكان دون العشرين . ثم ماتت نعم هذه ، وظل حزينا سبعة شهور لا يغير ملابسه ، وبكى . . حتى أصابه مرض في أحشائه جعل عينيه لا تدمعان ، فهو عاجز عن البكاء ، وهو لا يقوى على النظر الى الضوء .

ورغم هذه الحياة الرقيقة المضطربة ، ورغم معاركه السياسية والعاطفية فقد ألف أكثر من ١٠٠ كتاب . ولم يصلنا من هذه الكتب الا القليل جدا . وابن المعتز مثل كثير من الشعراء الرومانسيين في أوربا بعد ذلك فقد نظم معظم شعره وهو في العشرينات ، مثل رامبو ، ولوتريامون ، ونوفاليس ، وبيرون ، وشيللى ، وكيثس . . وغيرهم . .

وكان ابن حزم يعتمد على ذاكرته في رواية الشعر حتى أرهق ذاكرته . . وعلى الرغم من أنه كان يكتب كل ما يحفظه فإن الذى لم يكتبه كثير جدا . وقد أصيب بفقدان جزئى للذاكرة لمدة سنة ، ثم عاودته ذاكرته ، وخشى أن يفقدها مرة أخرى فسجل كل ما فى رأسه . .

ويبدأ ابن حزم فى تحليل الحب فيقول : ان الله لم ينهنا عن الحب . . ولا رسوله ، وان عددا كبيرا من الخلفاء ورجال الدين قد أحبوا . فعبد الرحمن بن معاوية أحب دعجاء وتزوجها ، والحكم بن هشام أحب طروب وتزوجها ، ومحمد بن عبد الرحمن أحب غزلان وتزوجها ، والحكم المستنصر أحب صبيح وتزوجها .

ويقول ابن حزم : لولا أن هناك كثيرا من الأسرار الخاصة جدا فى قصور الأمراء والولاة ورجال الدين لرويت عنهم الكثير .

ويقول ابن حزم عن علامات الحب عند الناس : ان الذى يحب هو الذى ينظر بامعان . يدمن النظر الى الجارية أو الفتاة التى يحبها . فالمحب يميل معها واليها كما تميل الحرباء مع الشمس .

ومن علامات الحب : الحرص على الحديث مع المحبوبة ، ومن علامات الحب : التضحية .

ولكنه يرى انه لا حب أقوى ، ولا أبقى من حب الله . . وحب الناس فى الله . ويقول ابن حزم أيضا :

غزال وقد حكى بدر التمام	كشمس قد تجلت من غمام
سبى قلبى بالحساذ مراض	وقد الغصن فى حسن القوام
خضعت خضوع حب مستكين	له ذلت ذلة مستتهام
فصلنى يا فديتك فى حلال	فما أهوى وصالا فى حرام

وتقول السيدة نينا ابتون أن ابن حزم هو أول من كتب عن معنى (النظرة) . والذى يقرأ ما كتبه ابن حزم عن نظرة المرأة الى الرجل يجد أنه قسم جفنى المرأة

الى مربعات وكل حركة في مربع لها معنى . . فالإشارة بمؤخرة العين الواحدة معناها : لا تقترب .

وتفتير العين - تسبيلها - معناها : ماذا تريد ؟

وكسر النظر معناها : فرجت .

وتقليب الحدقة ثم صرفها بسرعة معناها : احترس واحذر .

والإشارة بمؤخرة العينين معناها : ماذا تريد ؟

وقلب الحدقة من وسط العين بسرعة معناها : ابتعد نهائيا .

ويقول ابن حزم : أما ترعيد الحدقتين من وسط العين فمعناها : ممنوع منعا باتا . . الخ .

ويهاجم ابن حزم (الإذاعة) هجوما عنيفا جدا . أما الإذاعة فمعناها : أن يذيع الانسان سر حبه وأسرار محبوبته .

وتلاحظ المؤلف ابن الكاثوليك المتعصبين في أسبانيا في أيام ابن حزم ، أى في القرنين العاشر والحادى عشر حرموا تصوير المرأة عارية . ولذلك لا نجد لها صورة في أى مكان الا فوق احدى الأبنية المصنوعة من الزجاج . وهناك اثناء مشهور عليه أربعة من الرجال وأربع من النساء ، وسيدة تنفخ في الناي .

والطقس العاطفى فى الأندلس فى ذلك الوقت كان صورة جديدة لما كان يجرى فى بغداد . فقد انتقلت كل لوحات ألف ليلة وليلة الى قصور الأمراء والشعراء ، وامتألت الشرفات بالجوارى السمرات والشقراوات .

ولكن الخيط الذهبى الذى يربط هذه اللوحات الحية كلها هو : الصراع بين الحب والشرف . .

وكان الشرف ينتصر دائما . .

وفى غرناطة واشبيلية كانت النافورات تتألق فى عيون المحبين ، وكانت أشجار البرتقال تثمر من أجل العشاق ، وكانت الوسائد الحريرية والستائر الوردية ، وكانت موائد الطعام ، وكان ضياء القمر . لقد كانوا يعيشون فى عالم آخر . . فى هروب جميل . . فقد كانت دنياهم تبدأ بالمائدة وتنتقل الى السرير وتنتهى بالحمام . وفى هذا الطريق الملتهب كانت تتردد الأغاني وتعالى رنات الخلاخيل .

ان سانت تريزا نفسها اعترفت فى رسائلها : اننى لا أستطيع أن أصلى فى مدينة اشبيلية ، فللشياطين هناك آلاف الأيدي والأرجل .

وتاجر الكتب المقدسة المشهور دون ميغيل الأشبيلي كان يقول : لا أستطيع أن أبيع هنا شيئا . . فالناس جميعا أجسامهم فتية ، وقلوبهم ملتهبة ، والنساء عيونهن سوداء . . ولا شيء عندهن الا الحب والحب . . أمور . . أمور .

وكان من عادة العشاق فى هذا الوقت أن يبعثوا رسائلهم مع أناس لا يتطرق الشك اليهم . وكانت « الماشطة » هى أحسن رسول . وكذلك السيدات العواجيز ، والأطفال . ورجال الدين كانوا أهم وسيلة من وسائل نقل بريد العشاق .

وكانوا يكتبون رسائلهم بالدموع والحبر معا .
 وكان من المألوف أن يكتب العاشق رسائله بالحبر والدم أيضا ..
 ومن عادة الأسبان ألا ينشروا رسائلهم الغرامية .. فالحب سر ، ولذلك يجب كتمانها . وكانوا أكثر كتماننا للحب ..
 وقد حدث في الحرب الأهلية سنة ١٩٣٦ أن دخل أحد الضباط بيتنا مهجورا ، فوجد به رزمة من الخطابات الملفوفة في أنيقة تامة ففتحتها ، وقرأ وبكى . وبلغ من شدة تأثيره أن قرر كتمان هذا الحب الى الأبد .. فأحرق الرسائل كلها .
 فالحب عاطفة محترمة ، وهو عاطفة قوية .. ولكن الشرف أقوى دائما .
 والفيلسوف الأسباني أورتيجا اى جاسيت عندما كتب مقدمة الترجمة الأسبانية لكتاب (طوق الحمامة) قال :
 بعض الراهبات يتوهم أن الله قد خلق العالم كله من أجلهن ، ولذلك جعل الحب حراما .. مع أن الله قد خلق العالم في إطار من الحب . وأن الله قد خلقنا لكي نحبه . ونحب أنفسنا أيضا عندما نحب الله .
 وعبد الرحمن الخامس قال مرة : لو كانت الكراهية تأشيرة المرور الى الجنة ، لطلبت من الله أن يدخلني جهنم .
 وكما تأثر الفكر كله بالأدب العربي والفلسفة العربية ، فكذلك الحب .. فقد انتقل الناس من حب المرأة الى حب الحب ، ومن حب الجسم الى حب الروح أيضا .
 وفلسفة ابن سينا ومعنى الحب الإلهي عنده ، قد أشاع التأمل والنظر الى كل ما هو أبقي وقد أدى هذا أيضا الى أن ارتفعت قيمة العواطف النبيلة ، والى أن المرأة لم تعد جسما فقط .. لم تعد شيئا يلمسه الرجل فتشتعل النار .. وبعد أن تخمد النار يتجه الرجل الى مصدر آخر للاشتعال . فكل ما يشتعل هو كل ما يخمد أيضا . ولكن الذي لا يشتعل ولا يخمد هو الحب الروحي .. فهو يضيء دائما .
 وقرأنا بعد ذلك في القرن الخامس عشر من يضع المرأة في مرتبة أعلى من الرجل .. لأن الله أرادها كذلك . فإله خلق آدم في الأرض ، وخلق حواء في الجنة والله خلق آدم من تراب وخلق حواء من كائن حي .. والله خلق آدم بين الحيوانات ، وخلق حواء بين الملائكة . ولأن حواء أذكى من آدم فقد أغراها الشيطان .. أول أغراء للشيطان . ولأن آدم أقل ذكاء من حواء ، فقد أغرته حواء . وحواء لم تخطيء ، فإله جعل التفاحة المحرمة على آدم ، وليست على حواء .
 وهناك تيارات أخرى تنزل بالمرأة من السماء الى الأرض ، وتجعلها حيوانا متقلبا ، ولذلك فلا أمان لها .. والرجل يجب أن يؤكد لنفسه هذه الحقيقة ليلا ونهارا ، وبذلك يأمن شرها .
 وقد كتب خوان رودريجث في كتابه (الوصايا العشر للحب) يقول : الفقر والحب لا يعيشان في بيت واحد . والشيخوخة والحب لا يعيشان في جسم واحد . وهذا المعنى قريب مما قاله أحد الشعراء :
 إذا شاب شعر المرء أو قل ماله فليس له في ودهن نصيب
 وهذا طبيعي جدا . فإذا كان الرجل مجوزا مفلسا ، فلماذا يطلب من امرأة أن

تعبه ؟ ولماذا يندهش اذا هي لم تشعر نحوه بأية عاطفة .

وفي هذا الوقت ايضا انتشرت المواخير في اسبانيا كلها . ولم يكن الماخور أو بيوت الملذات الخاصة شيئا غير أخلاقي ، وانما كان مألوفا جدا أن يكون لأي انسان بيت . . . واذا صح المثل القائل : الناس على دين ملوكهم - وهو صحيح - فان الملوك كانوا يتسابقون في الحصول على أكبر عدد ممكن من الجوارى والراقصات . . . وكانت الجوارى أجمل هدية يقدمها ملك لأمير ، أو خفير لأمير .

والملك فردريك وزوجته الملكة ايزابيلا قد أصدرتا قرارا بمنح أحد الضباط العائدين من القتال سبعة مواخير في سبع مدن كبرى ، وأن يرث أولاده من بعده هذه المواخير وأن يضيفوا اليها اذا شاءوا . . .

وفي نفس الوقت يجب أن يراعى الناس الآداب الاجتماعية . . . يجب أن يتستروا على مبالهم . فلا مانع من ارتكاب أى شيء ، ولكن يجب ألا يجاهروا بذلك . . . ففي سنة ١٤٣١ صدر قانون بعقوبة كل من يعترف علنا أو يخرج علنا ومعه عشيقته في مكان عام . فاذا فعل وجب عليه أن يدفع نصف مرتبه أو دخله غرامة .

وفي هذا الوقت انتشرت الكتب التي تتحدث عن اعادة الشباب ، وعن تقوية الشبان خصوصا بعد انتشار الشذوذ الجنسي في كل أسبانيا . وقد أصدر القس خوان رويث كتابا عن فوائد العقاقير العربية في اشعال نار الحب والغرام . . . فقد وصف الشطة والقرفة وخشب الصندل والكمون والليمون والبصل والكرات ، وخصوصا الكرات . . . ولا يزال الناس في أمريكا يستخدمون الكرات ومشتقاته لنفس الغرض الجنسي .

وفي هذا الوقت ظهر عدد من الأطباء اليهود يعالجون الضعف الحيوى عند الشبان والشيوخ . . . وكان أشهرهم ليون العبرى الذى هرب من أسبانيا وأصبح بعد ذلك طبيبا خاصا لملك نابلى .

حتى الفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون كان يشتغل بالطب . وعندما جاء الى مصر كان طبيبا للناصر صلاح الدين . وقد تخصص في الدراسات الدينية والفلسفية ، ثم اتجه تماما الى الطب . فكان أحسن طبيب في علاج معظم الأمراض . . . وأمراض الضعف الحيوى بصفة خاصة . . . ولا يزال حتى الآن معظم الأطباء الذين يعالجون الأمراض الجنسية من اليهود . . .

وعندما ظهرت قصة (دون كيخوته) لأديب أسبانيا العظيم سرفانتس تناول الحب بكل صوره ، ولكنه كان ساخرا من كل صور الحب الجسمى والروحي . وفي ذلك الوقت صدر كتاب عن (أصول الحب) لرجل جرىء اسمه لويس فيفيت . وهذا الكتاب حرّمته الكنيسة فور صدوره . وهذا الكتاب عبارة عن مئات الصفحات للمحبين والعشاق في أسبانيا وغيرها .

ويبدأ الكتاب من البداية : لا تصدقوا أن أحدا مات من الحب . . . أبدا . فالحب يؤلم ولكنه لا يميت . والمرأة يجب أن تكون أقوى ، أن تكون على شيء من الرجولة ، وهى بالفعل أقوى من الرجل ، ولكنها لا تريد ، أو لكنها تريد أن تكون كما يريد لها الرجل : ضعيفة رقيقة منكسرة . . . مع أن المرأة أقوى جسما وأطول عمرا . . .

ويقول أيضا مستنكرا الرقص : ما معنى أن تظل سيدة - كالبلهاء - تمسك رجلا من قراع طول الليل .

وفي القرن السادس عشر ثارت الدولة على المسارح لأن هذه المسارح تبعث على الكسل والخمول . . وفي ١٥٧٩ صدر قرار بمنعها .

وفي هذا الوقت أيضا كان الأسبان يبنون أماكن اللهو بالقرب من ساحات مصارعة الثيران . فالدماء التي ينزفها الثور أو مصارع الثيران تثير الناس في نفس الوقت فيتدققون على بيوت اللهو . .

وأيام الرومان كانت المواخير قريبة أيضا من الساحات التي يتصارع فيها الوحوش والمحكوم عليهم . . ولنفس السبب .

والرقص والمصارعة كانا يؤديان إلى رشاقة المرأة والرجل ، ولذلك فالمثل الأعلى للجمال هو جمال الرجل . ولذلك لم تكن الصدور العالية تفتن الأسبان . فالمرأة كانت حريصة على إخفاء صدرها بكل وسيلة . وكانت وسائل الإخفاء عنيفة . فالمرأة كانت (تفحص) صدرها بالأربطة القوية ، وأحيانا كانت تضع الواحا من المعدن تحت ملابسها ، حتى لا يكون لها صدر . .

واللوحة العارية التي نقلتها لنا المتاحف لامرأة عارية كانت للرسم فيلاسكويث . وكانت لآلهة الإغريق فينوس . . ولم تكن عارية تماما .

والأسبان كالعرب والصينيين أيضا ، كانوا يخفون أقدام المرأة ، خصوصا أصابع قدميها .

وقد كتبت السيدة (النوى) عن رحلتها إلى أسبانيا فقالت : ان نساء أسبانيا يخفين أقدامهن بعناية . فأقدامهن أجمل عضو في كل الجسم . . والمرأة الأسبانية يعد أن تكون قد أعطت لحبيبها كل شيء ، تتوج هذا العطاء السخي بأن تكشف له عن قدميها . وهذا هو أقصى ماعتدها .

وحتى الملكة ايزابلا عندما كانوا يمسحون جسمها بزيت البركة ، رفضت أن تكشف عن أصابع قدميها . . فمسحوا جواربها من الخارج فقط . .

وكان من الأخطاء التي لا يمكن أن تغفرها المرأة أن ينظر انسان - حتى زوجها - إلى جواربها أو حذائها .

واختفى من المسرح الأسباني (دون كيخوته) أو كل موهوم في الحب . . وكل ساخر منه أيضا . .

وظهر (دون جوان) - الأسبان ينطقون الاسم بالخاء . وهذا الدون خوان هو عبيد جديد للرغبة الجنسية ، وهو رجل لا يبحث عن الحب وإنما عن المتعة فقط . وهو رجل يجد لذة في تعذيب الاخريات . وهو انسان عنده عقدة أوديب . فهو يحب أمه ويكره أباه . . وهو لأنه يحب أمه ، لا يحب أية امرأة أخرى . ويجب أن تكون العلاقة بين الرجل والمرأة كالعلاقة بين الانسان وأمّه . . وهو لذلك يحتقر الجنس ويحتقر المرأة ، ويرى أن المرأة تستحق أن يعاقبها الرجل لأنها تثير فيه الرغبة الجنسية ، ولأنها تخمد هذه الرغبة أيضا . . .

والأسرة الأسبانية كانت متماسكة ولا تزال . ولذلك فعقدة أوديب هذه على

أشدها . ولذلك فالأسبان لا يعرفون الحب الحقيقي وإنما يرقصون للحب ويفنون له .

ولا يزال في أسبانيا ، ومن أقدم العصور ذلك المجتمع الغريب من الفجر انه مجتمع مقفل على نفسه يعيش في كهوف وفي أسرار وعطور . وهم يعرفون كل أنواع الحب . وكل صور العشق . ولكن لا يعرفون الدم في الحب فاذا كان الأسبان عندما يرون امرأة في الشارع يجرحون أنفسهم بسكين أو بموسى ، فتنحنى الفتاة الأسبانية ترد هذه التحية الدامية فان الفجر يرون ان أحسن دماء للحب هو النبذ ، وأحسن سكين في الحب هو : الزواج .

وعندما بعثت أسبانيا بمعرضها الضخم الى باريس سنة ١٨٣٨ اهتزت فرنسا وأوروبا . فقد اكتشف العالم ان الأسبان في جحيم من القبل وفي جهنم من القرام . . وأن ألوانهم هي الدخان والنيران . . وصرخت العذاب في عالم مجنون بالرقص والغناء والطرب . وفي هذا الجو المكهرب بالألوان والألحان ظهرت كارمن . وكارمن هي أية فتاة عاشت فوق الحب . لقد جعلتها الكرامة فوق الحب . وانتشرت قصة كارمن الفجرية فكتب الشاعر الرومانسى ميريميه « غراميات كارمن » والموسيقار بييزيه كتب أوبرا كارمن . وكل فتاة أسبانية هي كارمن المرحلة العفيفة العاشقة الشريفة . . ان كارمن هي الحب وكارمن وأخواتها هن كل نساء أسبانيا .

وفي سنة ١٨٣٩ هربت الأديبة « جورج صاند » ومعها عشيقها الموسيقار شويان في سفينة الخنازير من جزيرة مايوركا . لأنهما لم يطبقا الحياة في الجزيرة الأسبانية . لقد تغيرت الدنيا واختفى الحب الرومانسى ، وظهرت نساء من نوع آخر مختلف . . يرقصن ويرقصن ويشربن ويصرخن . . وبعد ذلك ينمن كالخنازير .

وتشرح لنا المؤلفة « نينا ابتون » ان الأسبان من أكثر شعوب العالم « بصبصة » للنساء . والبصبصة عندهم نوع من اللمس بالعين . أو نوع من التدليك الاجبارى لكل أعضاء المرأة . فالرجل الأسباني ينظر الى المرأة بلا خجل في الشارع وفي السيارة وفي المحلات العامة . .

وقد سئلت سيدة أسبانية : ولماذا لاتعترضن على هذا الاسلوب غير المهذب ؟ فكان ردها : ان الرجل اذا لم ينظر لى هكذا ، أشعر باننى مليئة بالعيوب . . وأشعر اننى امرأة يستطيع الرجل مقاومتها . . وان يتجاهلها أيضا . وهذا اقصى درجات العذاب . .

أما أسبانيا التى تعيش في مدريد ، فهي مجتمع آخر . . خليط من كل مافى أسبانيا من عيوب ، ومن كل مافى الدنيا أيضا . واذا كان الأسبان أنفسهم لا يعرفون ملامح بلادهم اذا ذهبوا الى مدريد ، فان الأجنبى لا يعرف من هم الأسبان . .

والمرأة في مدريد الآن تشبه الى حد كبير ذلك النوع من النساء الذى صورته لنا الشاعر جارتيا لوركا في مسرحية « بيت برناردا ألبا » . . انهن نساء مشغولات بالنساء وبالثرثرة وبالتجسس على النساء . . وبالزواج . أما الباحثون عن الحب في أسبانيا ، ففي استطاعتهم أن يجدوه في الجنوب وفي الشمال . . هناك يجدون العصور الوسطى الخرافية . . وهناك يجدون جميع المواد التفسيرية لقوانين الحب والغرام كما جاءت في كتاب « طوق الحمامة » لابن حزم الاندلسى .

من الحب
الى الفرج

ظروف يصنعها الآباء يلومونه عليها الأبناء

(١)

أمريكا تهز العالم في ميدانين : الحب والحرب .. بالقبلة والقنبلة ..
ونحن يذهب الى المجتمع الأمريكي في السينما .. وننتظره أمام
التلفزيون .. ونراه في المجلات الأوربية ..

والخوف من الحرب هو الذى جعل الناس يسرفون في الحب .
ففى مواجهة الموت يتشبث الناس بالحياة .

ولا يوجد حب أمريكى وحب فرنسى .. وانما يوجد أسلوب أمريكى
وأسلوب فرنسى .. ولا يوجد زواج ايطالى وزواج مصرى ، وانما يوجد
أسلوب يونانى في الزفاف ، وسلوب هندى في شهر العسل .
فالحب هو الحب ، والزواج هو الزواج ..

والمجتمع الأمريكى يهتز ويهز غيره .. فتساقط القيم الاخلاقية في أمريكا وفي
اماكن اخرى .. والعلاقات العائلية في أمريكا تتفكك على المسرح وعلى الشاشة ..
ومظاهر الاحتجاج والسخط واضحة في الخنافس والهيبرز .. وواضحة في أجمل
وأعمق كتاب أمريكى صدر أخيرا . ومؤلفه هو فانيس باكار أعنف ناقد للمجتمع
الامريكى والاوروبى .. بل انه يرى عيوب المجتمع الأمريكى ويبرزها ويلعنها كأشد
الناس عداوة لأمريكا .. ويتقدم بعد ذلك بالحلول .. والكتاب اسمه « الضياع
الجنسى » .. ضياع الشبان بين القديم والجديد .. بين الدين والسياسة .. بين
علماء النفس والأطباء .. بين الجنس والأخلاق .. بين قيود البيت وحرية الشارع
بين تحديد النسل وتجديد الشهية .

ويتساءل المؤلف : هل هؤلاء الشبان في كل العالم : حائرون أو ثائرون ؟ هل هم
أطفال يبحثون عن الأب فلا يجدون الا الابن .. ومزيذا ما الأبناء في سن مبكرة ؟
هل هم يبحثون عن حنان البيت ، فلا يجدون الا ظلمات المقاهى والحانات والكهوف
ورءوسهم في سحب الحشيش والهوس ؟

انها ليست مشكلة أمريكا أو أوروبا .. انما هى مأساة الشباب فى كل العالم .
ولكنها أوضح وأقوى وأكثر ألوانا وأعوانا وصراخا فى أمريكا ، وفى هذا الكتاب .
ان العلاقة بين الرجل والمرأة لم تكن سهلة فى أى وقت . ولا فى أى مجتمع .
فالرجل والمرأة ينظر كل منهما للآخر على انه كائن غريب مخيف .

ولذلك هناك صعوبات فى أن ينفرد أحدهما بالآخر .. ولكن تصبح هذه الصعوبات
سهلة ، اذا كان هناك حب أو كان هناك زواج ، ومن السهل على الرجل أن يكون
عابدا للمرأة ، ومن الصعب أن يكون محبا لها . والفاشلون فى الحب هم الذين يعبدون
المرأة : أى الذين ينظرون اليها على انها كائن فوق مستوى البشر . وفوق مستوى
اللمس والهمس والجنس .. ان هؤلاء العباد هم الفاشلون فى الحب لانهم يرون
العذاب صلاة ، والتعاسة قداسة .

ولكن من المؤكد أن المرأة قد كسبت كثيرا فى هذا الاضطراب العاطفى . واذا كسبت
المرأة فليس على الرجل الا أن يستسلم وان يضحي بالكثير من أجل أن تبقى هذه
العلاقة بينه وبينها ..

والمرأة هى « الفعل » الآن . والرجل هو « رد الفعل » .. فالمرأة فى أمريكا
وفى أوروبا هى التى تضرب كرة اليد ، والرجل هو الذى يصددها .

ومع ذلك فان المرأة تستعير أساليب الرجل والرجل يستعير أساليب المرأة
فى الملبس والتفكير . ومن الغريب ان عشرات الألوف من الفتيات يذهبن الى الأطباء
ويسألن : كيف أتصرف لكى أبدو أنثى ؟ وبعض الشبان ، ألوف من الشبان - يسألون
الأطباء : كيف أبدو رجلا ؟

واختلاط الملابس والتسريحات والألوان بين الجنسين معناه : ان هذه الفوارق
بين الجنسين فى طول الشعر وطول الأزياء ولونها لم يعد لها أى معنى كبير . فمن
الممكن ان تكون الفتاة قصيرة الشعر والفتى طويل الشعر ، من الممكن أن ترتدى الفتاة
قميص رجل . ويرتدى الفتى بلوزة امرأة .. ان هذه الاختلافات فى لون وحجم
الناس ليست هى الفارق بين الرجل وبين المرأة ..

هذا الاضطراب انعكس على الحياة الزوجية . ولم يكن الزوج أو الزوجة تعسا
فى أى وقت . كما هو تعس الآن . ويتمرد الزوج . ويتمرد الزوجة . ويخيم عليها
الفشل فى بيت الزوجية . هذه الزوجة . أو زوجة ثانية أو زوجة ثالثة بعد ذلك .
فالمجتمع هو الذى ينتصر على غرام الأشقياء فى النهاية .

ربما كان هؤلاء الشبان يتزوجون وهم فى سن المراهقة . من المؤكد انهم يفعلون
ذلك . أى انهم لم يصبحوا ناضجين بعد . ولذلك ننصح الشبان بأن ينتظروا .
وهم ينتظرون . ولكن ما الذى ينتظرونه . وما الذى نفعله لهم أثناء فترة الانتظار .
اننا نطلب اليهم فقط الا يتزوجوا فى العشرينات . وانما أن يتزوجوا فى الثلاثينيات
ولكن ما الذى قدمناه لهم بين العشرين والثلاثين .. وما هى تأشيرة المرور بين المراهقة
والنضج . اننا لا نعطيهم شيئا .. انهم يدخلون فى الحياة الزوجية بلا تجارب
بلا نصائح .. وكل ما نقوله للشبان هو : أن الحياة كفاح ، كل ما نقوله للشابات :
انتظري .. اصبرى سوف يسقط فى النهاية .

ونترك الاثنين يحاولان ويقاثلان وننشغل عنهما بأمور أخرى ..

وفي ١٩٦٧ عندما بلغت حركة « الهيبز » أقصى درجاتها كانوا يتساءلون ما هو الفرق بين الرجل والمرأة ؟ ما هو السلوك المناسب ؟ .. ما هو الموقف المثالي ؟ .. ما الذى يرضى الناس ؟ .. وفى إحدى مظاهرات هؤلاء الشبان تقدمت فتاة فى فيستان هراكشي وصندل صينى وأعلنت أنها قررت وحدها ألا تكون مجرد ماكينة لتفريـد الأطفال فى ركن بيت قدر .

والذى ينظر الى هؤلاء الشبان ويسخر منهم ، يتجاهل حقيقة انسانية هامة : أن هؤلاء الشبان قد هزوا المجتمع وهزوا قيمه القديمة . ومفهوماته البالية . ثم انهم يريدون احدا يقنعهم بأن هذه العبارة يجب ان تكون صادقة الى الأبد : الحب يأتى بالزواج .. والزواج يأتى بالأولاد .

لتكن هذه حقيقة . ولكن يجب أن يفهمها الشبان و يرفق . لا يكفى أن الأب قد اقتنع وأن الأم ايضا .. فكل شئ يعاد من جديد . وكل شئ يتكرر من جيل إلى جيل . واذا كنت هذه الأجيال قلقة مضطربة فهذه مصيبتهم . وهذا قدرهم .. والمشكلة الآن ليست فى أن هؤلاء الشبان يدوسون القوانين . ولكن فى أنهم لا يريدون أن يكون هناك قانون .. وكل انسان له قانون خاص فى لون وطول شعره .. أن هذا الجيل يعيش فى فوضى أخلاقية .. كأنهم يعيشون فى فترة بين وفاة ملك وتويج آخر .. فالملك القديم لم يترك قيما .. والملك الجديد لن يتقدم بقيم أخرى .. أن المحبين هذه الأيام مثل راقصى البالية الذين ليست لهم خطوات معروفة ومتفق عليها .. أنهم يرتجلون عواطفهم وقوانينهم - أنهم يشبهون ممثلى الكوميديا على المسرح المصرى « يؤلفون فورا » ويخرجون على النصوص المكتوبة .. وهذا التأليف الفورى قد أدى الى ارتباك الممثلين ..

ومشكلة الشبان فى هذا الجيل : أن الذى يقال لهم كثير جدا ومن أناس كثيرين . ومن المؤكد أن اضطراب الأبناء صورة من اضطراب الآباء . والأبناء المراهقون مضطربون بطبعهم ولذلك فهم مضطربون عدة مرات .. فما الذى فعله الآباء فى مواجهة هذا الضياع عند الأبناء ؟ اما بالتسامح التام .. واما بالصراحة الفاضحة واما بالرفض الخائق .. ولكن الشبان مضوا فى طريقهم .. واختلف العلماء فى تفسير هذا الضياع الجنسى عند الشبان .. بعض العلماء يقول : ليس ضياعا ولكنها ثورة عاطفية .. أو نهضة جنسية .

وعلماء آخرون قالوا : بل ان الحرية الجنسية والانطلاق العاطفى قد تجاوز حدود الأمان فى طريق الانحلال الاجتماعى والانهيـار القومى .

وفى مؤتمر « الأسرة السعيدة » الذى عقد سنة ١٩٦٥ أعلن أحد العلماء : ان الأسرة لم تكن بهذه القوة فى أى وقت من تاريخ أمريكا .

وأعلن أحد علماء فرنسا أن اشتغال المرأة مع الرجل نكسة أصابت الانوثة فى

صميمها ..

وتساءل عالم ايطالى ان كان فى استطاعة الأسرة ان تبقى بعد ان أصبحت المرأة مستقلة عن الرجل والشبان يقرأون ذلك كله ويسمعونه ويسمعون عنه . ويناقشونه ويلعنونه ويعكفون على ظلامهم وضياعهم .. وينفجرون بعنف فى مواجهة المجتمع والقانون .

ولا يمكن ان يكون هذا السلوك ثورة : لأن الثورة معناها الطريق الواضح المفهوم الذى يأتى بجديد ويقضى على قديم ويلقى تأييدا من الكثيرين .. ولكن مشكلة الشبان ليست هى الجديد ، ولكن مشكلتهم هى الطريق الواضح المفهوم .. هذا الاضطراب وقع على أرض تغيرت معالمها .. فالأرض تغيرت معالمها .. فالأرض تغيرت وتقلبت وتبدلت والشبان من فوقها كذلك . وهذا يجعل الصورة صعبة . ومعالمها متداخلة .

ومع ذلك يمكن ان يقال :

هناك ستة تغيرات أثرت فى العلاقة بين الرجل والمرأة فى أمريكا ، وفى العالم أيضا ..

١ - من أهم هذه التغيرات انه أصبح فى الامكان منع الحمل .. فقد ظلت الانسانية تتبع طريقة واحدة فى منع الحمل ظلت ٢٥٠٠ سنة .

حتى ان الفيلسوف اليونانى ارسطو كان يطلب الى المرأة ان تستخدم نوعا من الزيوت ليمنع الحمل . وفى القرن ١٩ كانت هناك أبحاث كثيرة عن « الفترة الآمنة » التى لا تحمل فيها المرأة .. وفى سنة ١٩٥٤ اكتشف اثنان من الأطباء هما بنكوس وروك عقارا على شكل حبوب اذا تناولتها المرأة أحدثت اضطرابا فى نمو البويضة ومنعتها من الاخصاب .. فلا تحمل المرأة .. وفى ١٩٦٧ بلغ عدد النساء اللاتى يتعاطين حبوب منع الحمل بانتظام أكثر من ستة ملايين ..

كما اخترعت « العوازل » التى تمنع البويضة المخصبة من ان تجد مكانا مناسباً للنمو ..

ولأول مرة فى تاريخ العلاقة الجنسية تنفصل المتعة عن الوظيفة .. أى انه من الممكن ان تكون هناك متعة ولا يكون هناك حمل .. أى لا يكون خوف من الولادة ..

كما ان تحديد النسل قد حرر المرأة أكثر مما حررها حق التصويت . وتساءل الناس بعد اختراع حبوب منع الحمل : ان كانت العفة القديمة هى مجرد الخوف من الحمل .. أو الخوف من الفضيحة فقط ؟ .. ولكن يمكن الرد على ذلك بأن نقول ان العفة قد انتشرت أكثر من أى وقت مضى . والدليل على ذلك أن الشبان الآن يتزوجون فى سن مبكرة . أى انهم يفضلون العلاقة المشروعة على أية علاقة أخرى .

وانتقلت الآن مسئولية تحديد النسل من الرجل الى المرأة . كما ان المرأة قد استراحت نفسيا وعصيا فلم تكن للرجل مشكلة لا قبل الحبوب ولا بعدها .

كما ان صناعة التغذية والمقويات الحيوية قد تطورت وأصبحت فى متناول الجميع . وقد أدى ذلك الى تحسن صحة المرأة والرجل . وكل انسان يتزوج الآن

يجب أن يعرف أن هذه العلاقة التي بينه وبين زوجته سوف تبقى حلقة في سلسلة طويلة حتى نهاية القرن الواحد والعشرين ..

والأرقام تقول لنا أن عمر المرأة قد طال بنسبة أربع سنوات .. وعمر الرجل أيضا . ومن المنتظر أن يكون متوسط عمر المرأة حتى نهاية القرن تسعين سنة .

وهذه التطورات العلمية التي طرأت على التغذية وأدوات التجميل قد جعلت المرأة لا تخاف على جمالها في العشرينات أو الثلاثينات .. والمجلات تحدثنا عن جميلات فائتات في الأربعين . والصحف تحدثنا أيضا عن أمهات قد تفوقن على بناتهن في القدرة على الاغراء . وعلى النجاح في الحب .

وهذه المبتكرات العلمية قد خلقت نوعين من التغير عند المرأة .. أولا جعلت المرأة قادرة على الحمل والولادة حتى الخمسين . كما جعلت الفتاة الصغيرة قادرة أيضا على الحمل في الثالثة عشرة .

فهذه المبتكرات قد عجلت بمجيء المرض الشهري عند الفتاة الصغيرة وأخرته عند المرأة الكبيرة .

٢ - هناك تغييرات تكنولوجية : ففي المجتمع الأمريكي ألوف المؤسسات وألوف المصانع .. وألوف المدن المنفصلة بعضها عن بعض والمتباعدة أيضا .

وقد تباعدت البيوت . وتباعد الناس في البيوت .. وفي البيت الواحد .. فالأب يذهب الى عمله . والأم تبقى في البيت .. والأطفال في المدرسة .. ولا أحد يدري بأحد .. ولا أحد يستطيع أن يسيطر على الصغار إذا كبروا وخرجوا الى الشارع .. وهذا الشعور بأن كل انسان في حاله .. وبأنه واحد ضمن ملايين .. هذا الشعور هو الذي جعل الهيز يكونون لأنفسهم قبائل وعشائر وجماعات . تماما كالانسان البدائي .. وهذا يدل على أنهم يحنون الى الأسرة التي حرموا منها .. والمواطن الأمريكي لا يفهم معنى الصداقة ولا معنى الجار .. فلا وقت عنده للصداقة ، او القرابة او الشعور بالجار .. ان المجتمع الأمريكي هو مجتمع الفجر .. ومن المؤلف جدا ان تجد الأسرة الواحدة قد غيرت مكان سكنها وعملها أكثر من ٢٥ مرة في العمر .. بل أن هناك عائلات غيرت مكان اقامتها ثلاثين مرة في ثلاثين سنة .. وليس هذا غريبا .

والأسرة الأمريكية هي « الأسرة الذرية » - أي التي تضم الأب والأم والابناء فقط . فهي صغيرة ومحدودة .

أما البيت فلم يعد مكانا للإنتاج وإنما هو محطة للخدمات : به غسالة ومطبخ وأطعمة محفوظة ومكنسة وتليفون وتليفزيون وسيارة .

أما المرأة فأنها بعد أن ترتب البيت في ساعة أثناء غياب أطفالها فأنها تتفرغ بعد ذلك للعبة الكوتشينة والاشتراك في الجمعيات والاندية او القراءة .. الى أن يعود الابناء من المدرسة والزوج من العمل ..

ومن أهم التغييرات التي حدثت في تاريخ أمريكا ان المرأة المتزوجة تعود الى الوظيفة . وان المرأة التي عندها اطفال لا تتوقف عن الاستمرار في عملها .

واختراع السيارة من أهم الآلات التي أثرت في حياة الأسرة أيضا . فهي وسيلة للتنزه ومكان للتنزه أيضا .

وبعد السيارة تجيء « البزازة » التي اخترعت سنة ١٨٤١ . وكانت البزازة أول الأمر عبارة عن جلد غزال محشو بالاسفنج . وتضعها المرأة في صدرها لتوهم الطفل بأنه ثدي حقيقي . وبعد ذلك لم تعد البزازة هي المشكلة وإنما اللبن الصناعي المغذي . فاخترعت زجاجات اللبن الصحية . . وأهم من هذه الزجاجات الصحية أن المرأة لم تعد في حاجة إلى إرضاع الطفل ، وإنما تركت ذلك كله لأبيه .

٣ - التنافس الهائل بين الشركات قد أثر في حياة الشبان . فنصف الشعب الأمريكي الآن دون الـ ٢٧ سنة . وفي بعض الولايات يكون الشبان أكثر من ٤٠ ٪ . من السكان . وفي ذلك خطورة . فهم جميعا قد ولدوا بعد الحرب العالمية الثانية وهم الآن متجهون إلى المراهقة . ويصعب التفاهم معهم . . ولذلك يقف رجال الأعمال أمام هؤلاء الشبان حائرين فبعض رجال الأعمال يرى أنه من الأفضل أن يبقى هؤلاء الشبان بعيدين عن العمل معتمدين على آبائهم في الطعام والشراب حتى ينضجوا . ووجود هؤلاء الشبان في الأسرة معناه زيادة الاستهلاك . . فالشاب الذي لا يعمل مسرف في طلباته .

وفريق آخر يرى أنه من الضروري أن يتزوج الشبان في سن مبكرة . والزواج المبكر معناه بناء البيت الجديد بالثلاجة والسخان والتليفزيون .

وفريق ثالث يرى أن عدم زواج الشبان يؤدي إلى رواج السيارات الرياضية . فمعظم الشبان الذين لم يتزوجوا هم أكثر الناس إقبالا على شراء السيارات وعلى المغامرات . . وعلى شرب الشمبانيا والسجائر الفلتر والأطعمة المحفوظة . . بل إن أحد علماء الاقتصاد يؤكد أنه لا وسيلة لإنقاذ الاقتصاد الأمريكي إلا بأن يبقى الشبان بلا زواج عشرات السنين .

ويعنى ذلك أن الشبان ليست لهم أية قيمة إنسانية . . وإنما قيمة الشبان أنهم قوة شرائية من نوع خاص . وأنهم ضحايا معركة تجارية صناعية مالية وحشية . . أن هناك عشرات من أصحاب الملايين تسيل دماؤهم من أجل امتصاص دماء هؤلاء الشبان . .

انتشار التعليم قد غير معالم الحياة الاجتماعية والعاطفية والجنسية في أمريكا . فأكثر من ٥٠ ٪ من سكان أمريكا يواصلون تعليمهم في الجامعات . والأغلبية من الفتيات .

ومن الضروري أن يحصل المواطن على مؤهل جامعي والا فإن يجد مكانا في مصنع أو مؤسسة . كما أن إعفاء الجامعيين من الخدمة العسكرية قد جعل الشبان يتمنون دراستهم الجامعية . . وما تزال الجامعة هي أنسب مكان يلتقى فيه الشبان ويتفاهمون بالعقل وبالقلب . ولا تزال الجامعات هي أنسب مكان يستطيع فيه الشاب الجامعي أن يجد الزوجة الجامعية المناسبة . .

وهناك مثل هندي يقول : التعلم للفتاة مثل القرد اذا أعطيته مسدسا . . هذه العبارة لايجرؤ أمريكي واحد أن يقولها مهما كان رأيه في المرأة أو في القرد .

والذهاب الى الجامعة يخاق مشكلة أخرى : وهى ان الدراسة الجامعية تؤدي الى تأجيل تحمل الشبان للمسئولية . فالتالب الجامعى يعتمد على والديه . وبدلا من الزواج فى العشرين فانه يتزوج فى الثلاثين .

ومشكلة الشبان فى العالم كله الآن هى انه : ناضج جسميا . عاجز اجتماعيا . . وهذا الموقف يخلق مشكلة أخرى : فالشباب عندما يشعر انه يعتمد على والديه ، يجد نفسه مندفعاً الى القيام بأعمال تدوس الأسرة والمجتمع . . لأنه يريد أن يبدو مستقلاً حراً ثائراً على كل شيء وعلى والديه . . وعلى مدرسته . . وعلى حاكميه أيضاً . . وهذا ما يحدث فى أمريكا وأوروبا الآن . .

٥ - حدث تغير فى المثل العليا والمعتقدات الدينية . . وفى المزاج القومى العام .

فعدد الدين يترددون على الكنائس لم ينقص عددهم . ولكن رجال الدين هم الذين يحرصون على أن يكونوا « مودرن » فهم يسمحون بموسيقى الروك اندرول فى داخل الكنيسة . . ويسمحون باللوحات السيريالية . . ويسمحون ببناء الكنائس على أحدث النظريات المعمارية التى لا تتناسب مع وقار الكنيسة . . كما أنهم يضعون لافتات من النيون يعلنون فيها عن مواعيد الصلاة . واللافتات متحركة كأنها مدخل احدى دور السينما .

فرجال الدين يريدون أن يذهبوا الى المؤمنين لا أن ينتظروهم امام المذبح . . انهم يريدون أن يجذبوا الناس الى الكنيسة بكل الطرق .

أما الاكتشافات العلمية والجيولوجية والفضائية فقد هزت الايمان فى أمريكا . . فقد كان الناس يتصورون أن « السماء » هى سقف هذا الكون . . هى هذا اللون الأزرق الذى فوقنا . . فلما انطلقت سفن الفضاء ملايين الأميال بعيداً عن الأرض ولم تصطدم بالسماء بدأ الناس يشكون فى الدين - مع أن هذه الرحلات ليست الا عبث اطفال اذا ما قورنت بما سوف يكشفه العلم فى المستقبل . . ومع أن الكون نفسه أعظم اغز يدل على عظمة الله . . فليست هذه الاكتشافات الا محاولة متواضعة لمعرفة سر الكون ، وعظمة الذى خلق الكون . . ولكن الشبان بطبعهم متمردون على الأب والمدرس والقسيس والسياسى . . ولذلك فقد اهتز ايمانهم فى أوروبا وأمريكا أيضاً .

وقد كانت المسيحية فى عصرها القديم ترى أن المرأة هى مصدر الخطيئة . وكان القديس بولس ينصح الناس بالألا يامسوا المرأة . . واذا تزوجوها فليكن لمسها معتدلاً أو معدوماً .

وقد ساهمت المجلات الجنسية العارية في اشعال النار في ملابس الجنسين .
وهناك مجلات تنادى بعبادة الجسم .. جسم المرأة . وتفننت هذه المجلات في الصور
والألوان والأحجام ، وإذا كانت الصور عارية فإن الكلمات أكثر عريا ..

وإذا كان الرجل ينادى بالمساواة منذ ثورة سنة ١٧٧٦ حتى القرن ال ١٩ ، فمن
المعقول أن يطلب المساواة له وللمرأة أيضا . ولذلك فالمساواة حق طبيعي للمرأة .
وجاء الحب الرومانسى فجعل موقف المرأة أقوى . لأن الرجل الذى يحب ، هو الذى
ينزل عن كثير من حقوقه من أجل المرأة التى يحبها .. فكان المرأة قد حصلت على
المساواة ، وجاء الحب وأعطاهما ما هو أكثر من المساواة ..

ولأول مرة نجد أن الشبان يتأثرون بأناس آخرين خارج الأسرة ، فليس الأب
هو الشخص الوحيد الذى يقوم بتطوير وتشكيل أفكار أولاده .. وإنما هناك أناس
آخرون : الأدباء والصحفيون والمثليون .. وهناك الرحلات التى يقوم بها الأبناء
خارج البلاد يرون ويقارنون ويتأثرون وتكون لهم أفكار مستقلة ومختلفة عن أفكار
الأب - ومن رأى الأبناء أنها أفضل .

٦ - وآخر التغيرات كان بسبب الحرب والتوترات الدولية . فالرجل مفتون
بالقوة وهو ضحيته أيضا . والرجل يعلم انه كلما ابتعد عن البيت ، تحررت منه
المرأة وانشغلت واستغلت عنه . والمرأة التى كانت فيما مضى تقاوم الحرب : قد
استفادت منها .

فالحروب أعطت المرأة فرصة نادرة لأن تملأ مكان الرجل أثناء الحرب العالمية
الأولى . وليس من الصدف أن تفوز المرأة بحق الانتخاب بعد الحرب العالمية
الأولى .. لقد كان انتصارها هذا مكافأة على خدماتها ، أما أثناء الحرب العالمية
الثانية فقد ذهبت ملايين النساء الى المكاتب ليشغلن مكان الرجل . والحرب اذا كانت
قد هزت المجتمع وباعدت بين المحبين ، فانها خلقت نوعا من الحرية والتحلل من
القيود العاطفية ..

كما ان الحرب الحارة والباردة والتشنجات الدولية قد خلقت شعورا عاما هو :
مشى اللحظة التى انت فيها .

ومن هنا كان الحب الخاطف . واللذة العابرة . والحرية المركزة .

فالقنبلة الذرية قد خلقت عندنا احساسا حزينا بأنه من الممكن أن يموت الناس
فى أى وقت .. ولذلك يجب ان يعيشوا فى أى وقت .. ولأى وقت . فالغد لا يهم .
اليوم هو الأهم .

هذا الضياع الجنسى الذى غرقت فيه أمريكا وأوضاع أوربا ، أشكال وألوان ..
حتى الشرق الأوسط بدأ يتعلم لعبة الضياع . فالنساء سافرات . والشبان أكثر
تأثرا بالحضارة الأوروبية والأمريكية فى الأزياء والرقص والعبادات الأخرى ..
الوجه الى نزهة على النيل (؟) ولم يكن ذلك مأثوفا من قبل .. وفى اليونان لا نجد

الزواج منظما ولا دينيا في المدن . وانما الاغنياء فقط هم الحريصون على هذه الطقوس التقليدية . وفي الحدائق يتعانق الشبان علنا . بينما في الريف اليوناني لا يسمحون للمرأة أن تكشف أبعاد من قدميها ويديها ووجهها أحيانا .

ومنذ ثلاثين عاما كان الرجل الياباني سيد البيت . . سيد المرأة . وكانت طاعته واجبة . واراادته قضاء وقدراما الآن فقد اقلت المرأة قنبلتها على الرجل فمزقت اراادته وقداسته . . وربما كان ذلك هو سبب عودة كثير من الرجال الى البيت في ساعة متأخرة مخمورين . . وفي نفس الوقت هناك رجال يقدمون مرتباتهم الى زوجاتهم في مظازيف مقفلة . . أى ينقلون الفلوس من الصراف الى الصرافة - أى الى الزوجة . واصبح من حق المرأة أن تذهب الى المدرسة والى الجامعة ومن حقها تحديد النسل ومن حقها أن تنفصل عن الزوج بالطلاق . . ومن حقها أن تتناول طعامها وتنام . واصبح الرجل مضطرا أن يخلع حذاءه ويفسل قدميه . . ووجهه ايضا .

والمرأة الامريكية هى المسئولة الى حد ما عن ذلك . فالجنرال ماكازثر عندما اعلن الدستور الياباني ، جعل من الضروري تحرير المرأة .
وغير المرأة اليابانية نساء كثيرات تحررن . . وتحلن ايضا . .

* * *

وليست هذه صورة لاعماق المجتمع الامريكى واوضاع المجتمع الأوربى ومخاوف العائلة الافريقية والاسيوية ولكنها وعد برسم صورة وتشخيص حالة وعلاجها بعد ذلك . . وكما ان المرض عام ، فالعلاج عام ايضا . . واذا كان الآباء هم الذين صنعوا هذه البيئة التى القوا فيها بأبنائهم ، فان الأبناء هم الذين خلقوا الشكوى من البيئة ومن الآباء . فالشكوى كالمريض وكالعلاج ، عامة ايضا . . والمشكلة كرة يضربها الآباء فى الأبناء ، ويضربها الأبناء فى الآباء . . وارضية الملعب ملتهبة . . وهذه صورة للجميع . .

عصر ترى فيه الفتاة أمها ولا تسبها

(٢٠)

ويمكن أن يقال عن الشباب أنهم والعة .. أنهم غابة مشتعلة ..
قل ما يعبك .. ولكن قل لى بعد ذلك ما الذى يجب أن نفعله أمام هذا
الدخان الذى ينعقد فى العقول والقلوب .. وتحول الى حجارة والحجارة
الى جدران .. والجدران تفصل بين الجنسين .. وتجعل كل جنس
معتقلا فى خوفه .. ثم تتباعد المسافة بين هذا الجيل والجيل الذى قبله .
ان فلاحا ايطاليا رفض ان تسافر ابنته الى أمريكا الا اذا وافقت احدى شركات
التأمين أن تحمى عفتها .. ووافقت شركة التأمين . فهذا الخوف على البنت من
الولد قديم جدا . فالكاتب المصرى القديم قد نصح بأن نبعد الولد عن البنت فى النوم
والمرح . ولا مانع أن نجتمع بينهما فى العمل . وعمر هذه النصيحة اربعة آلاف سنة .
واذا كان مزاج الشبان مختلفا عن مزاج الرجال ، فان هذا الخلاف يصبح أقوى
وأعنف لأن الشبان عددهم أكثر . وقد حاول كثير من العلماء ان يفهم ماذا يريد
وماذا يقول الشبان . وأعلن انه لم يفهم بالضبط . وهذا ما يعرفه الشبان أيضا .
انهم يتكلمون لغة أخرى بأساليب أخرى .
بل أن الشبان حريصون على ان يظلوا شبانا ومنعزلين عن غيرهم من الكبار .
لقد قال لى شاب انه فى الاجازة الصيفية لم يتحدث الى واحد اكبر من ٢٥ سنة .
ولم ير ضرورة لذلك .
ولأن فترة التعلم قد طالت ، فان الشبان يعتمدون على آبائهم أو على اخوتهم
الكبار .. وعلى الرغم من حاجتهم الى الأكبر سنا . فانهم يظاون منعزلين يحتمون
فى سنهم وفى عاداتهم وفى دنياهم الغريبة ..
ومن العجيب أن نجد فى مدينة نيويورك محطتين للإذاعة : احدهما للشبان
والأخرى للكبار .. وكثيرا ما استمع الكبار الى اذاعة الشبان ، ويندر أن يستمع
الشبان الى اذاعة الكبار .

والسؤال الذى يقول : ما الذى نصنعه مع الشبان فى فترة « اليقظة الجنسية » هو الذى سوف انقل الاجابة عنه حالا ..

هناك دائما « يقظة جنسية » أو « صحو عاطفى » أو « فوران عضوى » أو « غايان كيماوى » فى جسم كل شاب . هذه حقيقة . واطفاء هذه النيران ليس موضوعا . وانما توجيه فائض البخار هو الموضوع .. تماما كالقطار . نحن لانطفئ ناره ولا نحبس دخانه . وانما نحن نوجه هذه الآلة الى الأنفع والأهدأ . من اؤكد أن البيئة تغيرت .. ان الظروف التى يعيش فيها الشبان قد تطورت . وليس صحيحا ان الشبان فى عزلة تامة عن العالم . فمثلا ...

١ - لقد تغيرت سيطرة الأبوين على الأبناء . ولم تعد قوية ولا محكمة . فالخلاف بين البنت وأمها حاد . والمسافة التى تفصل بينهما أطول وأعرض من الشارب الذى تسكنان فيه .. فالأم تتهم ابنتها عادة بأنها جريئة وانها لاتستحي . وخصوصا قبل الزواج . ولذلك عندما تتزوج الفتاة تحس الأم انها أعفيت من الرقابة الليلية على ابنتها . وان أحد رجال الشرطة الشرعيين قد تكفل بهذا العبء الثقيل . ومن النادر أيضا ان تستشير البنت أمها فى عريسها . ان الأم تفاجأ بالعريس فى البيت أو على الباب اذا كانت الأسرة محافظة . وفى أمريكا اللاتينية اختفى تماما الزواج العائلى . فالفتاة تختار وتقرر وتتزوج . وتدعو أمها وأبها حتى اليوم لشهر العسل وليس الزواج فقط هو الذى يعتبر مفاجأة فى ساوك البنت .. ولكن كل سلوكها سر ولغز . وأصبح من شعار الأمهات والآباء : عندها البيت تفعل فيه ما تشاء بشرط ألا تكسر الادوات والا توقظ الكلاب .

وليس هناك نصائح أو موعظة . ثم ان الشبان خاضعون لنفوذ اناس آخرين فى الصحف والمجلات والكتب والميكرفون والشاشة . وفى هذه الأجهزة الإعلامية القوية دعوة للفتاة أن تنتهز الفرصة . وان بيضة اليوم احسن من دجاجة الغد . وتمسكت الفتيات بالبيض . وشجعت الصحف الشبان على الثورة والتمرد على البيت والأسرة والكنيسة . بل ان احدى المجلات السينمائية عندما تحدثت عن المثلة ثيوزداى ولد قالت : انها أصبحت تصافح أمها كلما رأتها خارجة من الغرفة المجاورة ولكنها لا تعيش معها ولا تكلمها .

* * *

وانتشار الروك اند رول وبقاؤه حتى الآن دليل على أن الشبان يهتمون جدا بإزعاج الآباء وتحديهم أيضا . وانتشار التدخين والخمر والسيارات كل ذلك يؤكد أن الشبان حريصون على صدم الراى العام بكل الوسائل ليفهم الجميع انهم مختلفون . وانه من الضرورى أن يختلفوا .

وتحير الآباء ماذا يفعلون . انهم ضعاف امام هذا العدد الهائل من القوى الضاربة فى الخيال وفى نفس الوقت لاتعتقد انها خيالية . أكثر الشبان يقول : أنا واقعى ..

وهو بالفعل واقعي : لأنه يتصرف طبيعيا . والطبيعى انه قوى . وان أفعاله الحقيقية : . . وأنه مختلف عن والديه . .

والفيلسوف أفلاطون قد حدثنا في كتابه المعروف « الجمهورية » عن دوحه الآباء والأبناء . . فقال : اضطرب كل شيء : الآباء يسلكون كالاطفال . والاطفال يتصرفون كالرجال والرجال يقلدون الشبان حتى لا يصفهم الشبان بالجمود أو الرجعية .

ومع ذلك فالشبان يطلبون النصيحة الى الوالدين في المشاكل الاجتماعية والاخلاقية . والأرقام تنطق بأن الشبان يقبلون النصيحة وينفذونها أيضا .

ومنذ اقدم العصور نرى أن المجتمع سلطان قوى على كل الناس . وان المجتمع يعتمد على قوته التاريخية في مواجهة الشبان وعيوبهم . ففي سفر « التثنية » من الكتاب المقدس يقول : ان الأب اذا اكتشف ان ابنته ليست عذراء عليه أن يحملها الى خارج البيت وعلى الناس جميعا أن يضربوها بالحجارة حتى الموت .

فالمجتمع قوى . وسلوك الشبان هو نوع من الهرب من المجتمع ومن عيون الناس . ولذلك ٧٠ ٪ من الشبان الأمريكان يرون أن امتلاك سيارة أمر حيوى . . فالسيارة ليست وسيلة للانتقل بل هى أيضا غاية يقضى فيها الشبان أجمل أوقاتهم . . ومعظم اللقطاء في أمريكا هم أبناء السيارات أيضا . والشبان في أمريكا يقولون : لاسيارة . . لافتاة .

والى جانب ضعف سيطرة الآباء على الأبناء ، هناك ضعف الكنيسة أيضا . فرجال الدين يريدون ألا يكونوا مكروهين لدى الشبان ولذلك لا يضغطون على سلوكهم . ولا يضعون النصائح عقبات في طريقهم واذا التقى رجال الدين بالشبان فإنهم لا يتحدثون عن الحرام والحلال ، وانما يتحدثون عن الصحة الجسمية والصحة النفسية . . انهم يريدون أن يكونوا علماء فقط .

كما ان الجامعات لا تسيطر على الشبان . فالفتاة تجد حبوب منع الحمل في اجزاخانة الكلية . ولا أحد يسألها عن سبب شرائها للحبوب . بل ان الجامعة ترى ان حبوب منع الحمل مثل أى دواء آخر لمنع الزكام مثلا .

ولا تتدخل الجامعات في شئون الطلبة اذا هم تركوا غرف النوم وذهبوا الى الفنادق المجاورة .

وعندما سافر بعض الامريكان الى روسيا ووجدوا ان روسيا تسمح بزيارة الجنسنيين فى أماكن السكن الجامعية ولساعات محدودة ، رجعوا الى أمريكا يتوسعون في ساعات اللقاء ، وأنه كانت هناك كليات كثيرة ترفض الزيارة الليلية لبيوت الطلبة والطالبات . وهناك طبعاً تعليمات مضحكة في الطريق الى غرف النوم مثل : يجب أن تكون هناك ثلاث أقدام على الأقل ملازمة للأرض . . والشبان ينفذون هذه التعليمات حرفياً فينامون على الأرض . . وهناك تعليمات تطالب بأن يكون الباب مفتوحاً بحيث

تدخل فيه ساعة المهملات - وكثيراً ما طبق الشبان سلال المهملات ووضعوها بين ضلفتى الباب . أو يكون الباب مفتوحاً لدرجة يدخل منها كتاب من ٥٠٠ صفحة - والشبان يفتحون الكتاب على صفحة ٢٥٠ ويضعونه بين ضلفتى الباب - ومن الضروري أن يكون مصباح الغرفة مضاء ، ويطلونه باللون الأزرق القاتم .

أن الأيدي التى تمسك أيدي الشبان قد تراخت . . ولم يجد الشبان صعوبة فى أن ينطلقوا وفى أن يستغرقهم شبابهم . ويهدمهم . ويهدمهم أيضاً . .

٢ - وفى نفس الوقت يتعرض الشبان لغارات لياية مركزة على أعصابهم من السينيما والتليفزيون .

فكل الشبان فى السادسة عشرة قد رأوا القبلات أشيكالا والوانا ، والعناق الرقيق والعناق العنيف . أن أى شاب إمريكي رأى ١٥ ألف ساعة تليفزيونية ورأى « الجو » الذى يؤدى الى ذلك ،

ورأى « الجو » الذى تم فيه ذلك و « الحالة » التى كان عليها الجنسان بعد أن تم ذلك وذلك .

ففى أحد الأفلام خلعت صوفيا لورين ملابسها مع الموسيقى . . كأن كل نعمة اصبع رقيقة واثقة تسحب منها ومن عليها قطعة من ملابسها . . ورأى الشبان أفلاماً تتناقض فيها الفتاة بين الأحضان وكل واحد يقبلها بصورة مستقلة مختلفة . والفتاة سعيدة . وبعد مشاهدة هذه الأفلام العارية تحدث الصحف عن هذه الأفلام وتشرح ما كان خافياً وتشجع عليه وتدعو اليه . وحتى إذا اكتفت الصحف بالكلام عن روعة الإخراج فقط ، ففى ذلك موافقة ضمنية على الجنس العريان . . موافقة أبوية واجتماعية أيضاً على أن يحدث هذا وأن يشاهده الشبان . وأن يتخيلوا ويحلموا بعد ذلك . . وأن ينتقلوا من خيالهم الى واقعهم . لأنه مسموح به . .

تغيرت الدنيا جداً . والذين شاهدوا فيلم « روميو وجولييت » بطولة لزللى هوارد ونورما شيرر لابد أن يضحك من الجملة التى قالتها جولييت عندما اقترب منها روميو : لا . . يا روميو . . يجب أن تبقى قدمك على الأرض !

وفى سنة ١٩٣٠ ظهرت هيدى لامار فى فيلم اسمه « منتهى النشوة » عارية تماماً . . . وبعد هذا الفيلم أصبحت الأفلام أجراً .

وفيلم « الانفجار » يبين لنا صورة فتاتين عاريتين تغريان رجلاً على كل شىء . ولم يعد العرى كافياً لاثارة الجنس ولذلك اتجه التليفزيون الى الاثارة العنيفة بالكلام وبالحركة . . .

أما الاغانى فهى أيضاً أكثر اثارة من الأفلام . ويكفى أن تستحضر كلمات الكثير من الاغانى التى تعجبنا لنجد انها جنسية صارخة : خدنى بين أحضانك خدنى . .

وهات عنيك وايدريك ورجليك .. الخ وعذاب الحب .. حب العذاب .. وهوان
العشق هو عشق للهوان .. وهناك أغنية تندب حفظ فتاة قررت أن تغود مبكرة
فهي لم تجد فراشا آخر تأوى اليه .

وكذلك الرقص . فمن المعروف أن الشبان أكثر خجلا من الشابات . وإن الفتاة
أجرا . وأكثر حبا لكل ما هو عريان في الملابس وفي الكلام . ولكن الرقص الجديد
يقضى على خجل الشاب . فابتداء من سنة ١٩٦٠ وجدنا الرقصات كلها تجر جر
الشباب وسط عشرات الرقصات لينسى خجله في الزحام . وليس على الشاب
الا أن يرمى نفسه في بحر الرقص وبراكين الموسيقى ويستمتع بالنظر الى الفتاة وهي
تتاوى يمينا وشمالا .. وتعلو وتهبط .. وتقترب وتبعد .. تقترب بساقها وتبعد
بصدرها .. وكلها حركات جنسية .. أما الرقص الهادى فهو التصاق ملتهب ..
وفي بعض الرقصات الحديثة ينزل الشبان بالبيجامات والفتيات بقمصان النوم ..
وأحيانا بالملابس الداخلية فقط وفي مصابيح خافتة .. كان المصابيح قد تغطت بكل
ملابس الراقصين .. وهناك رقصات يهيم فيها الراقصون على مراتب السرير
وينزلونها الى الأرض ويرقصون أفقيا .

ووراء هذا كله نجد الصحف والمجلات التي تناقش موضوعات على المكشوف ..
فمثلا نجد مثل هذه الموضوعات : كيف تعودين عذراء مرة أخرى .. كيف تتزوجين
لثالث مرة وكأنها المرة الأولى .. وإذا لم تكن عندك مغامرات فعندنا برنامج حافل
لك .. أن الرجال يفضلونها صاحبة تجارب .. لا تظنى أن هذا هو الرجل الوحيد
في حياتك .. في جسمك كنوز لا تعرفينها .. ليس بالشفتين فقط تعيش الفتاة ،
وفي جميع الظروف كانت المرأة تتعري . أو كان هناك من يحرص على تعريتها
بمساحات متفاوتة وفي أماكن مختلفة . وقد تغيرت هذه المساحات وهذه الأماكن بمرور
الزمن . انتقلت من خط الوسط الى خط الرقبة . ومن الركبة الى مافوقها .. الى
الساقين والقدم ..

وفي نهاية القرن الماضي كان منظر تحت الابط يثير الرجل . ومضت سنوات
لم يعد أحد ينظر الى هذا المكان . وفي سنة ١٩٦٠ اتجهت السينما للبحث عن أماكن
أخرى تثير الرجل .

وفيما بين ٦٥ و ١٩٦٧ ابتعدت الكاميرا عن الصدر الذي أثار الناس وقتا طويلا .
وتركزت الكاميرات على السيقان . ولذلك قصرت الفساتين وضاعت البنطلونات .
وقام القماش المطاط ببقية الاثارة - كما ظهرت الفتحات في الملابس الداخلية للمرأة ..

ولكن لاتزال الملابس الملتصقة هي المثيرة أكثر لأنها تطاوع خطوط الصدر ، وتنافق خطوط الارداف ، وتتلصص على الساقين .. وتتطفل على كل شيء آخر ..

في سنة ١٩٦٨ ظهرت البازوات بلا حمالات ..

وعادت الموضات بعد ذلك الى الصدر والتركيز عليه . لتصرف العيون عن السيقان . وبذلك تتخلص المرأة من ملايين الفساتين القصيرة .

والمايوه البيكينى لم يعد موضوعة الآن . فقد ظهرت موضوعة أخرى تثير الرجال أكثر . وكل ما فعله المايوه البيكينى هو انه ترك المساحات العارية في جسم المرأة . واخترع رجال الكيمياء دهانا جديدا للوقاية ضد الشمس ويحتاج الى يد قوية لتمسح به الجسم . وهذه اليد القوية هي عادة يد الرجل . والرجل يمسح على ٩٥ ٪ من جسم المرأة - متعة لللاثنين !

والاعلان في أمريكا هو الذى يحرك الجميع في اتجاه المرأة او بعيدا عنها . فهو يطلب الى المرأة ان تستخدم أحدث العطور . ان هذه العطور مصيدة الرجال .. وهناك عطر اسمه : قبل واثناء وبعد .. انه هو وحده القادر على تزويج الاجسام والعقول والقلوب .. وفي اخذ الاعلانات عن عطر يرى الشبان فتاة عارية في الفراش .. وشعرها منكوش .. ويتلاقى على وجهها الاستسلام والارهاق والارتياح - مفهوم . وتقول : لا اعرف ان كان هو او عطره ؟

والامريكان عندهم عقدة ان المرأة الامريكية ليست أنثى . ولذلك يطلبون اليها ان تعرف كيف ترتدى الملابس لكي تخلعها بعد ذلك . ولذلك فالمرأة الامريكية تسرف في الظهور بمظهر الأنثى فتكون جريئة ووقحة وتحاول ان تبدو مثيرة جنسيا . مع ان الجراة تتنافى مع الأنوثة . لان المرأة من الممكن ان تكون مثيرة ورقيقة ايضا .

والامريكان لهم مشكلة خاصة . وهي انهم ينتقون من مكان الى مكان وهذا التنقل يجعل الأم تخاف على ابنتها الا تجد صديقا او غريسا . ولذلك نجد ان الأم تطلب من ابنتها ان تكون أنيقة مثيرة . ويسعد الأم ان يكون لابنتها صديق . ويسعداها أكثر ان يكون لها أكثر من صديق في وقت واحد او الواحد بعد الآخر . لانها تريد من ابنتها ان تتفرج وتشوف قبل ان تختار ابن الحلال ولكن الفتاة تؤكد لامها ان شخصيتها قوية وان الذى يعرفها يتمسك بها ، او انها هي شخصيا لاتخطيء في الحكم ، فانها تتمسك بصديق واحد .. وبصورة منتظمة .

وكثيرا ما ذهبت الأم الامريكية الى المدرسة وطالبت بحفلات للرقص والام الامريكية تشعر بالسعادة عندما تجد ان الشبان متمسكون بابنتها من اول الحفلة الى آخرها .

والفتاة في شمال أوروبا تدفع حسابها اذا تناولت الطعام مع شاب . ولكن في أمريكا نجد الشاب هو الذى يدفع . اما الفتاة التى تدفع فينظرون اليها على انها مسترجلة او مستهتره .

وكل الأشياء المثيرة قد استخدمها الشبان . ولم تعد هناك أية مغامرات جنسية . ولكن هناك أفكارا أخرى عند الشبان . هناك الحرص على أن يعيش الواحد في خطر . أو خطرا . أو قريبا من الخطر . وهناك انتشار المخدرات وعقاقير الهلوسة . . وهناك نوع من الشذوذ الجنسي عند الجميع . فمن المظاهر المتكررة أن تفاجأ الفتيات بأن شابا قد نزع ملابسه فجأة فتصرخ الفتيات . ويسقط الشاب على الأرض في حالة نشوة . وقد اعترف الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو بأنه كان يجد متعة شخصية في ذلك .

٣ - وإلى جانب ضعف السلطات المختلفة في مراقبة الشبان ، وإلى جانب تعرض الشبان للحملات الإعلامية العنيفة ، هناك أيضا ضعف عام في القيم الأخلاقية . وهزال في التعاليم الدينية . . وعندما سئل أحد الشبان عن سبب هذا الإغراق في الجنس . . قال : اننى لم أسمع كلمة : لا . . من أحد .

ولم يعد أحد أيضا يهتم بما كانت تفعله الفتاة قبل الزواج . ولا يدور حوار بين الفتى والفتاة بعد الزواج موضوعه : هل في نيتك استئناف ما كان قبل ذلك أيضا . كما أن هناك نظريات واجتهادات عديدة في تفسير السلوك الجنسي للرجل والمرأة قبل وبعد واثناء الزواج .

هناك رأى يقول أن المجتمعات القديمة حرصت على شرق البنت ، صيانة للنسل . . لنسل الأغنياء والأشراف فقط .

هناك نظرية تقول : ان ما كانت تفعله الفتاة قبل الزواج سوف تفعله بعد الزواج أيضا .

أما دائرة المعارف الكاثوليكية التى طبعت أخيرا فقد خصصت ٤٠ صفحة للكلام عن الخطيئة . من بينها ٣٠ صفحة عن الخطيئة الجنسية فقط .

وفي القرن ١٩ فى بريطانيا عاش الناس عصر الطهارة الأخلاقية والجنسية . والقرن ١٧ كان عصر الطهارة بالقوة . وكانت المرأة الشريفة هى التى لاهتم بالجنس ولا تذكره . وتبالغ فى قرفها من الرجل واحتقارها للانسان الذى يقلد الحيوان فى كل شئ . والموضحة فى القرن ١٩ كانت توضح هذا المعنى فالمرأة قد غطت جسمها من القدمين الى اليدين .

ولما جاءت الحرب الاولى أطاحت بهذه القيود . وهدمت العمارات الأخلاقية . ورصفت الطريق بين الجنسين . وانتقلت أسلاك الجنس بين الطرفين . ورأى الأوربيون مئات الألوف من الأمريكان . ولا يزال الناس يتصورون أن المرأة الفرنسية هى أكثر النساء اثارة . . وان صناعتها الحب . وهذه شهرة فقط جاءت من الحرب الاولى . والحقيقة أن المرأة الفرنسية ليست كذلك . لا فى الحرب الاولى ولا الثانية . بل انه من المؤكد أن المرأة الفرنسية هى أقل نساء أوروبا فجورا . بل أقلهن حديثا فى الموضوعات الجنسية بصورة علنية .

وبعد ذلك رفعت الفتاة شعرها ، وذيل فستانها ، وبرزت بصدرها . واقت
بالنار على الجنس الآخر .

وأخيرا ...

ظهرت نظريات العالم النمساوي فرويد التي اكتشفها أثناء معالجته للمرضى
والمجانين : فهو يرى أن المحرك الأول للنشاط الانساني كله هو الجنس . وأنه ليس من
الطبيعي أن نضحى بالجنس من أجل القيم الأخلاقية المعاصرة . لأن معظم اضطرابات
العالم بسبب الكبت الجنسي . وأن العلاج الوحيد هو : التفريغ أو التصريف
أو الانطلاق - هذا هو المعنى .

والغريب أن فرويد نفسه كان معتدلا جنسيا . بل كان دون الاعتدال . وكان
محافظا متمسكا بالدين اليهودي . وقد اعترف بأنه أصبح عاجزا جنسيا تماما دون
الأربعين بكثير .

وظهر عالم آخر في أمريكا هو الدكتور كنزى وحل المجتمع الأمريكى وكشفه .
وفضح . وفي نفس الوقت قدم المجتمع الأمريكى هدية لعلماء النفس والأطباء
ورجال الدين والسياسة . وكان من رأى الدكتور كنزى : أن الأشياء والعلاقات كما
يجب أن تكون ، هى الأشياء كما هى . أى كل ما هو طبيعى ، هو ما يجب أن يكون .
وأن الانسان يحاول أن يكذب . فإذا اضطر الى الكذب التوى . وإذا التوى فقدنا
معالم الطبيعة الانسانية .

وتقرير الدكتور كنزى صورة مخيفة للمجتمع الأمريكى والأورنى .. صورة
للانحلال والاصرار عليه .

وبعد الدكتور كنزى ظهر الدكتور ماسترون وهو الذى صور العلاقات الجنسية
بين الشبان فى أفلام ملونة . وهو يعتقد أن المجتمع الأمريكى يضع النبل القديم فى
زجاجات جديدة . وأن الأمريكان يحاولون أن يحشروا آراءهم القديمة فى ردوس
الشبان .. فى حين أن من الأفضل أن نستمع كثيرا الى الشبان وأن ننظر اليهم
أطول . وأن تقترب من هذه الظاهرة الجديدة لعلنا نفهم الحاضر والمستقبل .

وأمام التضارب الهائل بين كلمتى : نعم ولا .. وبين المنع والاباحة .. وبين الزهد
الشديد والزهد المستمر فى العلاقات الجنسية .. وبين الارهاب الجنسى والانحلال
الجنسى اضطرب الشبان . فهناك شعاران فى أمريكا : الجنس رجس والجنس أنس
.. والشبان يقبلون والآباء يعدون القبلات .. والأمهات مشغولات باللقطاء ..

أن النيران قد أحاطت بالغابة .. وهنا نار وهناك دخان .. ولا بد أن يكون
هناك حل ما .

مكتوب على الفتاة والجزمة تاريخ المرأة

— ٣ —

كانت قوة شمشون الجبار في شعره الطويل .

وكانت دليلة اقوى من شمشون لأنها هي التي حلقت له فأصبح ضعيفا . وكل شمشون له دليلة . وكل دليلة لها حيلة . ولا تزال دليلة واخواتها يلعبن بكل شمشون : في شعره وفي عقله وفي قلبه وفي مستقبله .
والمرأة بغير زتها دليلة .

واذا كانت المرأة لا تعرف هذه الحقيقة فان هناك ألوما من الرجال يشرحون لها ذلك . يشرحون لها كيف يمكنها أن تغلب على أي شمشون . فالرجال هم الذين يساعدون المرأة على هدمهم وخراب بيوتهم وعقولهم وقلوبهم قبل ذلك .

وتجد المرأة من يقول لها دائما انها ضعيفة ، مع انها — بمعونة الرجل وضد الرجل — لا يمكن أن تكون ضعيفة . .

ولم يحدث في عصر من العصور أن تحررت المرأة ، وأصبحت مساوية للرجل في كل شيء ، كما في هذا العصر . فمن حق المرأة أن تتعلم وأن تعمل ، ولها أن تختار الزوج ، أو لاتختار وأن تعمل أو لا تعمل ، وليس من الضروري أن تبحث المرأة عن الفلوس يكفي انها تتزوج رجلا عنده فلوس ، ولا يزال المجتمع ينظر باحتقار للرجل الذي يتزوج المرأة لفلوسها .

واذا كان الرجل هو الذي يكتب التاريخ ، فقد جاء دور المرأة أن تكتب تاريخها هي أيضا . . تاريخها بquam الرجل . وما دامت المرأة هي التي سوف تقرأ تاريخها ، فالرجل المؤلف حريص على أن يكون محبوبا من المرأة ولذلك فالرجل يكتب التاريخ لصالح المرأة . . وبقولها . .

فالرجل هو الذى سجل على المرأة انها كاذبة مخادعة ، وان الحياة معها كالحياة على قمة بركان ثائر .. او سوف يثور بين لحظة واخرى ، وثورة البركان معناه ان البركان يدخل طرفا فى النزاع بين الرجل والمرأة وانه يقف الى جوار المرأة ضد الرجل .

والرجل هو الذى صور المرأة فى الروايات والمسرحيات فى شكل مخيف .. مخيف للرجل والمرأة ايضا حتى ان المرأة كثيرا ما لعنت حظها انها خلفت امرأة ، ولم يخلقها الله رجلا .

واذا كان القديس بولس قد نصح المرأة الا ترفع صوتها فى الكنيسة ، فان الرجل قد أسكت المرأة بل كتم أنفاسها - تطبيقا لنصيحة القديس بولس .
ولكن شيئا حدث فى العالم كله بعد الحرب العالمية الاولى ..

انتقلت النساء اثناء الحرب الى العمل فى اماكن الرجال . وبعد الحرب عاد الرجال يعملون فى اماكن الرجال والنساء ايضا ، وبعد الحرب احس الرجال ان المرأة قد صنعت شيئا نافعا من أجل المجتمع .

ومن الصدف الغريبة ان يصدر فى امريكا قانون بحق التصويت للمرأة وفى نفس الوقت قانون بتحريم شرب الخمر ، وكان ذلك فى سنة ١٩٢٠ ، وكانت المرأة هى التى تطالب بتحريم الخمر ، اذن لقد سمع الرجل صوت المرأة واعطاها حق التصويت .. أى الحق فى ان يكون لها صوت ضد الرجل ..

وفرحت المرأة بالحقوق الجديدة التى اكتسبتها ، وفرحت ايضا بحريتها .. ولكن ما الذى صنعتته المرأة بحريتها ؟ هل هى حرة فى الاستفادة من حريتها ؟ هل هى حرة فى حريتها ؟ ..

فى الاربعينات من هذا القرن اشتغلت المرأة . ولم يعترض أحد على عملها ، ولكن كان عند المرأة شعور بأنها ست بيت ايضا ، او تحب ان تكون كذلك ، وان العمل خارج البيت ليس الا نوعا من الترف او انه دليل على انها قادرة على ان تكون شيئا آخر غير الزوجة وغير الام . وكانت المرأة تشعر بالسعادة وقد التف حولها اولادها الخمسة او السبعة . وكان من مباحج الحياة العائلية ان تخرج الأسرة فى سيارة كبيرة امتلات نوافذها بالاطفال ..

وكانت الصحف تتحدث كثيرا عن المرأة الصغيرة التى لها بيت صغير وتديره بنفسها والذى امتلا بالاطفال الصغار السعداء .. انها أسرة سعيدة .

والمرأة عندما تحس انها مرغوبة ، فانها تحرص على ان تكون أنثى ، والمرأة عندما تحس انها أم سعيدة فانها لاتهتم كثيرا بأن تكون رشيقة او نحيفة . لأن البيت يحتم عليها الحركة البطيئة ، ويحتم عليها ان تكون فى صحة جيدة ..

وفى الخمسينات من هذا القرن امتلأت الدنيا بالخوف من الحرب الذرية ..

وبالخوف من الموت والفناء وأحس كل أب وكل أم أن حياته صعب عليه ، وأنه لا داعي لأن يأتى بأولاد من أجل الموت . .

ولاحظ أيضا علماء الاجتماع أن هناك اضطرابا نفسيا وعقليا عاما ، وأن التعليم قد أزهق الفتاة ، وأنه كلما تعلمت الفتاة وطالت فترة الدراسة ، وتعطلت عن الزواج ، ارتبكت عواطفها ، وهذا الارتباك قد ظهر بصورة صارخة في موقف الفتاة من الرجل . هل تحبه ؟ نعم . وماذا بعد الحب ؟ انها لا تعرف . ومتى تعرف ؟ انها أيضا لا تعرف . . وعندما سئلت فتاة جامعية عن مشروعاتها للمستقبل قالت : عندي مشروعان . . واحد إذا تزوجت . . وواحد إذا لم أتزوج . .

و كثيرا ما سئلت عشرات الألوف من الجامعيات عن المستقبل ، وقد أجابت الأغلبية بأنهن حريصات على مواصلة التعليم الجامعي والعمل بعد ذلك ، ولكن المفاجأة تقع في منتصف الطريق : عندما تتزوج زميلاتهن ويتركن الجامعة ، والزواج هو أحد الأمراض المعدية ، وهو ينتقل بين الأصدقاء بسرعة ، وقد سئلت إحدى الطالبات التي تزوجت في الشهر الأول من عامها الدراسي الأول : وكيف تزوجت ؟ . . فأجابت : لم تكن عندي أية فكرة إلى أن رأيت زميأتي قد تزوجت أحد أصدقائنا ، فذهبت إلى صديقي وقلت له : وانت ما رأيك ؟ فتردد وقال : ليس الآن . . وقلت له بشدة : الآن والا . . فأحسني رأسه قائلا : الآن .

وهكذا تزوجت واحدة . . ومثلها عشرات الألوف .

ولما سئلت إحدى الفتيات أيضا عن مشاريعها بعد الزواج قالت : أن أتزوج وأن أستمر في الزواج وأن يكون لي أطفال ، وأن أعمل ، والا أكون مملة لزوجي . . وأن أكون أثني دائما .

انها مهمة شاقة جدا أن تكون المرأة كل هذه الصفات في وقت واحد ، وأن تنجح في أدائها دائما وأمام شخص واحد . . أن صعوبة مهمة المرأة ليست في إيقاظ حواسها ، فهذا سهل ، ولكن في إيقاظ حواس الرجل والاحتفاظ بحواسها أيضا ، وأن تفقد هذه في العمل وأن تستعيدوها مع الطفل ، وأن تشعل النار فيها للزوج . . فالمرأة ليست ضعيفة تولا قابلية للكثير كما وضحها الرجل من مئات السنين . .

ولكن هناك مفكرات وأديبات يستنكرن الزواج ، ويرين أن الزواج نظام استبدادي ، وأن الرجل طاغية ولا شيء يدل على طغيان الرجل الا بقاء هذا النظام الذي يربط المرأة في سلاسل من حديد ، لا يتقيد بها الرجل . .

فالأديبة الفرنسية سيمون دي بوفوار - التي رفضت الزواج من الفيلسوف سارتر - من زائها أن المرأة لن تستقل الا اذا عاشت بعيدا عن الرجل - أي الا اذا تحطمت العلاقة الزوجية والأسرة .

ولكن هذا الرأي لا تؤيده معظم النساء ، فالمرأة تريد الأسرة ، وتريد الطفل من

الرجل الذي تحبه . وتريد القيد الذي يفرضه الحبيب ، وتريد الحماية التي تشيعها
الرجولة . والامان الذي يضيفه الحنان ، والضمان الذي تعكسه الفاوس .
ولكن في نفس الوقت تريد المرأة ان تكون شيئا « أكثر » من ان تكون زوجة ..
او اما .. ان تكون موظفة ان تعمل شيئا .. حتى لا تفقد احترامها لنفسها ..

والذي يرى الفتيات ذاهبات الى العمل او يراهن في المكاتب والؤسسات يخيل
اليه انه لا توجد فتاة جالسة في البيت ، فكلهن يعملن ولكن بريطانيا تشكو من نقص
في الفتيات العاملات ..

وفي امريكا منذ ٢٥ سنة كان ٢٠٪ من النساء العاملات متزوجات ، أما الآن
فمعظم العاملات متزوجات ، واكثر نسبة للعاملات المتزوجات في العالم موجودة في
الاتحاد السوفيتي ..

ومن الملاحظ انه كلما كان تعليم الفتاة عاليا ، كانت رغبتها في العمل أكثر . ونسبة
المشتغلات اكبر . ففي امريكا ٦٠٪ من العاملات مدرسات و ٦٪ ممرضات و ٥٪
سكرتيرات ، و ٥٪ عاملات تليفون .

ومن بين ال ١٥٠ وزيرا امريكيا في الاربعين عاما الماضية كانت اوزيراتان فقط .
وبين اعضاء المحكمة العليا لم يكن غير امرأة واحدة ..

وفي امريكا ايضا نجد ان اجر الوظيفة اقل من اجر الموظف .. وفي معظم الدول
الأوربية ايضا . وهناك محاولات للمساواة بين الجنسين ، ولكن حتى الآن لم تنجح .

فالذي ينظر الى المرأة عموما يجد انها تعمل ، وترقص ، وتدخن ، وتستكن
وحدها ، وتتزوج مرة بعد مرة .. ولكن هل المرأة سعيدة بحريتها ؟

ان المرأة تقول : لا لست سعيدة . فهل الرجل سعيد بحريته ؟ ان تاريخ حرية
الرجل قديم جدا ، وتعاسة الرجل ليس سببها انه حر او ليس حرا ..

بل ويمكن ان يقال اننا مقبلون على مرحلة غريبة من تاريخ العلاقات بين الجنسين
.. عصر يشهد فيه قلق الرجل ، ويزداد فيه هدوء المرأة ، كأنهما يعيشان في عالمين
مختلفين ..

وعلى الرجل ان يواجه « المرأة الجديدة » .. وعليه ايضا ان يتعامل معها ،
وان يواجه مشاكله ومشاكلها بروح جديدة : روح القسمة العادلة اي ان يحمل هو
نصيب الأسد من الهموم ؟ ..

منتهى الظلم . لأن هموم المرأة التي تضعها على دماغ الرجل أكثر من همومه ،
ولأن الرجل ضحية أفكاره هو التي تقول انه (جمل) وانه (حمال الأسيه) ..
والحقيقة ان الرجل لا هو جمل ولا قادر على الأسي .. وانما مقدرة المرأة على تحمل
الهموم والتخلص منها اقوى .. وقدرة المرأة على الصبر اعظم .. ثم انه لم يعد

هناك مبرر لأن ينفرد الرجل بالهموم .. ان المرأة أصبحت مثله .. تعاملت وعملت وكسبت وهى قادرة على أن تتركه وتعاود الحياة مع رجل آخر فليس هذا الرجل بالذات هو كل ما لها في الدنيا . فالذى لها في الدنيا كثير غيره ..

ومن مخاوف المرأة : انها لا تحب أن توصف بأنها أنثى فقط ، ولا تحب أن توصف بأنها موظفة فقط .

ومن مخاوف الرجل : انه لا يحب أن يوصف بأنه رجل والسلام ، او انه موظف فقط .

ومعنى ذلك ان كلا منهما حريص على أن يكون صورة ناطقة لجنسه .. وصورة معبرة للوظيفة الاجتماعية التى يؤديها ..

واذا كان الرجل فى أمريكا قد ترك مكانه للمرأة ، فان الرجل الايطالى ما يزال الصورة القوية للأب والاخ والزوج ، وما يزال هو السيد ، والمرأة التى تقتل زوجها الخائن جريمة عادية والرجل يرى هذا القتل طبيعى .. وان هذه الجريمة التى ترتكبها المرأة هى تحية للرجل الذى مات والذى لم يمت ، فمعنى ذلك ان هناك امرأة رأت ان الموت من نصيب الرجل الذى يخونها أو الذى يهدد أمنها العاطفى .. ومن الاكتشافات النفسية الفريدة ان الرجل الحديث يفار من المرأة القادرة على ان تنتج شيئا يعجز هو عن انتاجه .. ان تلد مثلاً ..

فالمألوف ان تغار المرأة من رجولة الرجل . ومن المجتمع الذى صنعه الرجل لنفسه . ولكن العجيب ان هناك شبانا يفارون من أنوثة المرأة ومن قدرتها على ان تكون اشياء كثيرة فى وقت واحد . ويحسد المرأة على انها تستطيع أن تعيش من غير زوج واحد بالذات . وان المهم عندها ان تكون اما فى الدرجة الاولى وان تكون زوجة فى الدرجة الثانية ، وان احساساتها عميقة ، اما الرجل فاحساسه غير صادق فى الأبوة وفى الزواج وفى حبه لأولاده بعد ذلك . ان مشاعره تولد بعد كل طفل ، اما مشاعر المرأة فسابقة على كل طفل ومعه وبعده .

ويقال ان الهنود الحمر يتخذ رجالهم موقفا غريبا عندما تلد الزوجة . فالزوجة تذهب الى الغابة مع بعض صديقاتها قبل الولادة بأيام . ويساعدها على الولادة ، فاذا ولدت اختفى الزوج وأضرب عن الطعام وقد يظل كذلك حتى يموت ، اما تفسير ذلك فهو ان الزوج يفار من المولود .. ويفار من الزوجة التى انشغلت عنه هو بهذا الطفل ..

اما فى اليابان فقد تحررت المرأة لدرجة ان الرجال يصرخون من حريتها الزائدة ..

اما الشبان فلا مانع عندهم من أن تنال المرأة من حريتها ما تشاء بشرط ألا تمشى معهم فى الشارع ، فان المشى فى الشارع يستنكره الآباء والأجداد .

وامام التليفزيون تتم التسوية النهائية لما تبقى للرجل من سلطات فالمرأة اكثر

الناس جلوسا أمام التليفزيون . وفي التليفزيون مسرحيات مضحكة ، ومادة هذه المسرحية السخرية من الرجل الذى يقف على شنبه الصقر ، والرجل الكشر ، والرجل البخيل والرجل الذى يدعى العسلم بكل شيء . . . وأعظم أبطال الكوميديا فى كل العصور : الرجل المغفل . .

والتليفزيون يؤثر فى ملايين النساء ويتم بين التليفزيون وبين النساء اتفاقية علنية توقعها المرأة تحت أنف الرجل ، هذه الاتفاقية تقول : ان هذا الرجل لم يعد مخيفا . . . والاعلانات فى الصحف تؤكد ان المرأة هى التى تسحب الرجل وراءها الى محلات الأزياء . . . وهى التى تفرض عليه العلاقات الاجتماعية ، وهى التى تغير أسلوبه فى الحياة .

فمثلا فى سنة ١٩٦٦ أعلنت شركة « كوتى » لمستحضرات الجمال عن عطر جديد . . فنشرت صورة لفتاة عارية وقد أفرغت زجاجة العطر على صدرها وتحت الصورة هذه العبارة : لكى تجعليه رجلا . . كونى أنثى .

وصورة أخرى لرجل على الرأس واقف الشارب وقد نامت على صدره نفس الفتاة العارية ، وتحت الصورة : . . وهذه هى النتيجة . .

ان المرأة هى التى جعلته يشتري العطر الذى تريده . .

وفى سنة ١٩٦٠ وما بعدها حدث تطور خطير فى أزياء المرأة ، والذى سيكتب تاريخ المرأة سوف يقرأ سطور هذا التاريخ على شعرها وعالي فستانها وجزمتها . . ومن الغريب ان معظم مصممي أزياء المرأة مصابون بشذوذ جنسى ، وهذا الشذوذ قد انعكس على فلسفتهم فى الأناقة . . كأنهم حريصون على أن يروا خليطا من الرجال والنساء . . الرجال فى ملابس النساء ، والنساء فى ملابس الرجال . .

والمصمم الممتاز هو الذى يرسم الذوق العام . . ويبدو أن الذوق العام هو التقريب بين الجنسين : أى أن يقرب الرجل من المرأة ، وان تدخل المرأة فى ملابس الرجل ، وان يكون هناك جنس ثالث : لا هو رجل ، ولا هو امرأة ، وانما هو الاثنان معا .

والمرأة عندما حرصت على أن تكون نحيفة وعالى أن تكون منكششة الأرداف ضيقة البنطلون ، فهى تريد أن تقول انها ليست ست بيت ، وانما هى خفيفة الحركة ، وان حركتها خارج البيت ، وان مثلها الأعلى : بريجيت باردو . . التى فيها صفات (الولد الناعم) أو (البنت المسترجلة) . . وليس أغرب من منظر بريجيت باردو وهى ترضع طفلا . .

وبعد سنة ١٩٦٠ رأينا المرأة وقد ارتدت ملابس الرجال ، البنطلون الضيق لرعاة البقر . والحذاء الغليظ والشعر المنكوش ، فهى لوايتا الصغيرة أو هى فتاة السيرك مروضة الوحوش مع أن الرجل لم يعد متوحشا بل المرأة هى التى أصبحت متوحشة ، ومع ذلك فالرجل لا يقوم بدور فتى السيرك . .

وقد ظهرت الفتاة في الحفلات الرسمية بالبنطلون وهذا ما لم يحدث في كل تاريخ الحضارة الغربية .

وتركزت الأضواء على ساقى المرأة من جديد عندما ظهر الفستان القصير في سنة ١٩٦٦ .

وأصبح من المألوف أن تذهب المرأة الى محلات أزياء الرجال تشتري البنطلونات . . بل ان الذين شاهدوا فيلم (حيث توجد الجواسيس) بطولة دافيد نيفن يجدون فتاة تشبه سوستة بنطلونها . . والسوستة من الأمام . لم تعد سوستة بنطلونات الفتيات على الجنب ، مع ان الرجل يجد حرجا في أن يقفل سوستة بنطلونه أمام المرأة . .

وفي سنة ١٩٦٧ قدم ايف سان لوران مصمم الأزياء المعروف بنطلونات رعاة البقر ومبعا أحذية عالية مفتوحة . .

وفي معسكرات الجامعة استخدمت الطالبات كولونيا الشباب . . وبعد أن كانت الفتاة تقول : أستطيع أن أعرف الرجل من رائحته ، أصبحت الفتاة تعجز عن ذلك .

وفي البلاد التي يكون فيها الرجل سيدا لانجد المرأة ترتدى البنطلون . . في إيطاليا وأسبانيا ومعظم دول أمريكا اللاتينية . فالرجال يفضلونها بالفستان . . وكذلك في إنجلترا والسويد . .

وكان الرجال يرون أن الشعر الطويل من الأنوثة . . أصبح الآن شعر الشبان أطول من شعر الفتيات . . ومن الممكن أن ترى شعر الرجال طويلا على حدود أمريكا ، وذلك لندرة الحلاقين ، أما في العواصم الأوربية والأمريكية فالشبان شعرهم طويل رغم كثرة الحلاقين ، بل من المناظر العادية أن يذهب الشاب الى الحلاق يطلب وضع اللوسيون والبرماننت وإن يجلس تحت المشوار ساعة وساعتين .

وأكثر من ذلك حدث أيضا ، فالشبان أكثر نعومة ، وأكثر رقة .

والخنافس الانجليز هم الذين نشروا النعومة والأنوثة بين الرجال فهم أطالوا شعورهم ، وأطالوا كعب الحذاء ، ووضعوا الأحمر في الشفاه ورسموا الحواجب والفليضة وزينوا أصابعهم وأيديهم وصدورهم وآذانهم بالحلى والمجوهرات . . بل أن فرقة من الخنافس الأمريكية قد ظهرت أمام مئات من الألف من الفتيات المصابات بالجنون ، وقد صبغن الشعر بلون أحمر وردى . .

وخرج الشبان من البدل الزرقاء والرمادية ، ودخلوا في الألوان الوردية الزاهية حتى بدل الرجال قد ضاقت اكتافها واتسعت أردافها .

ان الرجل بدأ يتجه الى المرأة : فهو يستخدم عطرها ودهونها ، والأرقام تقول ان الرجل الأمريكى أكثر من المرأة استهلاكاً لأدوات التجميل . في العام الماضى فقط

استهلك بما يساوى ٧٠٠ مليون دولار .. وقد اخرجت شركات التجميل مساحيق
لرسم عين الرجل ومراهم لازالة التجاعيد ومراهم لنعومة اليدين وتلميع الاظافر ..
ولكن لماذا اختار شمشون أن يكون دليلة ؟

لان الرجل مايزال فى حركة احتجاج على صورة (الرجولة الخشنة .. والرجل
العضلات) .. ويرفض أن يدخل فى الاطار الذى وجدته جاهزا عندما أصبح رجلا :
لا بد أن يكون غليظ الصوت رافع الشارب .. جافا مغرورا .. محتقرا للمرأة وخائفا
منها .. ان الرجل لا يريد ان يكون كما اراد له المجتمع ..

اما هذه القذارة التى نجدها فى شعر وملابس الرجال فسيبها أيضا : انه لا يكثر
باقتراب أحد منه .. ولا يكثر أيضا بنصائح الأب .. والمدرس ، والقسيس ، وهم
جميعا يطلبون اليه ان يكون نظيف الملبس ..

والمرأة أيضا لا تريد ان تكون هذه الصورة التى اشتهرت بها .. والتى رأتها فى
أمها وجدتها .. لا تريد ان تكون بالضبط كما ارادت الاجيال السابقة .. ولذلك فهى
تمرد على تمثال الأنوثة .. وتكفر بصورة الفتاة التى تمشى الى جوار الحائط وتنتظر
ابن الحلال .. انها عرفت طريقها الى ابن الحلال .. وابن الحلال قد عرف طريقه اليها
.. التقى شمشون بدليلة .. أو شمشون فى ملابس دليلة .

ان الشبان قد ابتعدوا عن الآباء .. ولكن هذا الابتعاد قد أقلقهم من جديد ..
فهم اذا اقتربوا قلقوا ، واذا ابتعدوا ازدادوا قلقا ..

اما الذى يريح الجميع فهو شىء بعيد ..

العلاقة التي يمكنها بأوراق الورد

— ٤ —

هذه قاعدة : نحن نتعب في البحث عن الراحة . . ونشقى في البحث عن السعادة . . ونفلس جريا وراء الفلوس . . ونولد ، ونموت وننسى أن نعيش .

قاعدة أخرى : الذي يشتري الحب بالفلوس يفقد الفلوس . . والذي يشتري السعادة الزوجية بالفلوس لا يجد الفلوس ولا السعادة ويجد الزوجية .

قاعدة ثالثة : التدخين وغسل الأطباق وكراهية السيارات القديمة . . والزواج عادة سيئة في أمريكا .

وأحدث قاعدة : إذا لم نجد دبله خطوبة فلنرسمها على أصابعنا ولنتزوج فليس عندنا وقت للتفكير في النتائج .

وعندما نعرض هذه القواعد على الشبان في العالم الآن فانهم يختارون الزوجة التي تعجبهم . وبعد ذلك لا يهم ما يقوله الآباء في البيت أو الأساتذة في الجامعة . فالحب يعزلنا عن الناس . والزوجية تجعل العزلة سعيدة . . ولذلك يفضل الشبان أن يكونوا سعداء في أى مكان بعيد . . عن الأهل والمدينة وعن الراحة التقليدية أيضا .

والذي يجعل العزلة حالة نفسية عند الشبان وضرورة بعد ذلك أن حياة المدن تفرض العزلة . فالمدينة الكبيرة مليئة بالناس من الجنسين . ولكن أهل العمارة الواحدة لا يعرفون بعضهم البعض . بل أن الكثيرين من أهل الدور الواحد من لا يتعارفون ولا يتزاورون . ولذلك فإن الفتاة الأمريكية تشعر أن المدينة منفى هائل أو أن المدينة برج بابل القديم وقد هرب منه الناس كل واحد قد اتلع لسايه ، أو هو يتكلم لغة أخرى لا يعرفها أحد سواه . . وليس من الضروري أن يعرفها أحد .

ثم ان الحياة الحديثة تقتضى من الموظف أو العامل أن ينقل من بيت الى بيت ومن مدينة الى مدينة ومن وظيفة الى أخرى . وهذا معناه انه من الصعب على الفتاة أن تعرف جارها أو تحبه أو تتزوجه بعد ذلك .

وكثيرا ما تسأل الفتاة الموظفين في الشركة التي سوف تعمل فيها : وكم عدد الشبان هنا ؟

وهناك أعمال مليئة بالفتيات . ومعنى ذلك أن فرض اللقاء والحب والزواج بعد ذلك ممكنة : مثل : التدريس في المدارس الابتدائية .. وتفصيل الأزياء والعمل في التليفونات والمجمعات النسائية وشركات التأمين .

وهناك أعمال تسهل على الفتاة أن تجد الزوج المناسب : كأن تكون سكرتيرة للمدير .. أو كأن تعمل في إحدى شركات الاعلانات .. أو المجمعات الاستهلاكية أو أن تكون ممرضة في أحد المستشفيات الخاصة ..

وهناك تجار ورجال أعمال لا تغمض عيونهم عن التفكير في الشبان . انهم يبحثون عن الطرق التي يحصاون بها على أموالهم . فرجال الأعمال يعرفون أن الشباب الحديث يشعر بأنه وحده .. « وحداني » .. فالمدينة كبيرة .. وهو لا يستطيع الا القليل .. وهو مختلف عن أبويه ومختلف عن المدرسين .. وهو يقف وحده .. وهو لا يجد الصديق الا بصعوبة ..

ولذلك انشئت الفنادق والمطاعم والبارات وكلها تتجه الى الانسان «الوحداني» . وتقول له في استطاعتك أن تستمتع بوقتك ومع فتاة وحدها .. وهذه الفنادق موجودة بكثرة على البلاجات الامريكية .. وهناك فنادق تنشر هذا الاعلان : أتت حر ايها الشاب الوحداني . في استطاعتك أن تفعل ما تشاء مع من تشاء وفي أى وقت تشاء .. بشرط واحد : الا تلقى الورق أو أعقاب السجائر في حمام السباحة .

والمجلات تنشر اعلانات راغبي الزواج .. ولكن الامريكان ينظرون الى هذه الاعلانات ولا يندهشون .. ولا تمتد يد تقطع هذه الاعلانات باعتبارها وعودا بزواج أو بعريس .. ويقول المؤلف الامريكي فانس باكار في كتابه (الضياع الجنسي) .. ان المصريين يفعلون ذلك وهو ينقل معلوماته هذه عن كتاب صدر بالانجليزية بعنوان « اعلانات الزواج في مصر » والكتاب من تأليف سيدتين هما (جانيت أبو لغد ولوسى امين) وفي المانيا يهتمون باعلانات الزواج أيضا .

ومن الممكن أن تجد في امريكا مثل هذا الاعلان : واحد عنده وابور جاز يريد أن يعرف واحدة عندها غسالة . أرجو ارسال صورة الغسالة .

واذا كانت اللقاءات صعبة ، فان الزواج أسهل بكثير جدا . لأنه من الممكن أن يلتقى اثنان من الشبان ، ولا يدور بينهما كلام كثير . وبعد ذلك يتزوجان قبل أن يفكر أى واحد منهما في الخطوة التالية : الفلوس .. والبيت .. والأولاد .

وعلى الرغم من أن الشبان يجدون الشجاعة في الزواج . فان الزواج السريع يتقدم من التفكير الطويل في صعوبات وعقبات الحياة الزوجية . فالشبان عندهم مثل عليا . وهذه المثل العليا تملأ رءوسهم وتجعل العثور على هذه المثل العليا صعبة . وكثرة المثل العليا هي أحد عيوب الثقافة . ولذلك فأسهل جدا أن يقرر الشاب أن يتزوج من أن يفكر ويستشير . ثم بعد ذلك يعدل عن الزواج يوما واحدا ويتزوج أية واحدة في اليوم التالي - حدث ذلك كثير جدا بين طلبة الجامعات الأمريكية - فقد حدث أن ابن عميد إحدى الكليات عرض على والده زميلة له . واعترض الأب - لأسباب وحيهة جدا صحية وأخلاقية ومادية . ولم يقتنع الابن . وفي اليوم التالي فوجيء الأب بأن ابنه قد تزوج فتاة أخرى . وسعد بها الأب فهي فتاة جميلة وذكية ومن أسرة محافظة .

ولما أحس الابن أن هذا الزواج جاء مطابقا لرغبة الأب تضايق ، وأحس - كما يقول - أنه تزوج بناء على رغبة والده ومشورته . . . ولذلك طلق الفتاة .

فما الذي فعله هذا الابن ؟ أنه فقط مارس جريته وعناده بصورة ظالمة له ولأبيه ولأثنين من الفتيات .

وقد تغيرت الصورة المثالية للفتاة والفتى أيضا في أمريكا وفي أوروبا . والشبان يفضلون نوعا من الفتيات للنزهة - ونوعا آخر للزواج وهذا ما يضايق الفتيات أيضا . ولذلك تحرص الفتاة من أول لحظة على أن تعرف بالضبط ما هي الفتاة التي يريدونها . . . وأحيانا يتفق الشبان على ذلك من أول لقاء .

أما الشبان فيفضلون : الجميلة اللطيفة المخلصة . .

أما الشابات فيفضلن : المرح الحنون الناضج عاطفيا . .

والفتيات يفضلن العلاقات الطويلة التي تنتهي بالزواج . .

والشبان يفضلون العلاقات السريعة المفيدة . .

ومن النادر أن تجد فتاة لا تتحدث عن الزواج . .

ومن النادر أن تجد شابا يتحدث عن الزواج . .

ولكن في الجامعة يناقشون الزواج بوضوح بين الجنسين . وتحرص الجامعات في أمريكا على أن تكون هذه المناقشات علنية . فالجامعات الأمريكية تعرف أن الشاب الحديث يعاني من العزلة . ولذلك توفر له الجامعة أن يكون قريبا من أحد . أو مع أحد . أو . . معا في الأكل والفسحة والنوم .

وقد كانت عنابر النوم في بعض الجامعات متباعدة . . الشبان في جانب والشابات في جانب آخر . أما الآن فقد رأى علماء التربية أن هذا سلوك غير طبيعي وغير حديث فتجاورت عنابر النوم . واشترك الجنسان في الحمامات ودورات المياه . ويقال أن هذا التقارب قد أدى إلى تحسين السلوك الاجتماعي . وإلى تهذيب في الألفاظ . . وإلى تقدم في الذوق الفني .

وإذا كانت هناك جامعات ترفض التعليم المشترك ، فإن مصير هذه الجامعات أن تجعل التعليم المشترك ضروريا في المستقبل . . وقد حدث كثيرا أن تقدم الآباء أنفسهم يسحبون أوراق بناتهم من الجامعات النسائية ويقدمونها الى الجامعات المشتركة . لأنهم لا يريدون لبناتهم أن ينظرن الى الرجل على أنه وخش مخيف وفي نفس الوقت يطلبون من البنات أن يتزوجن عن حب وفهم سليم للرجل .

ومن الاستفتاءات التي اشترك فيها طلبة الجامعات أعلن عدد كبير من الفتيات : انه من الممكن أن تعيش المرأة سعيدة من غير زواج . ولكنها لا تفضل ذلك ، لأنها لا تجد الاحترام الضروري من الناس . . ولا تجد احترامها لنفسها أيضا .

وفي أمريكا وفي أوروبا اتجاه عام ضد الزواج . وكفر تام بالحياة الزوجية . على أساس ان العلاقات الطويلة الثابتة مملة . والمثل يدفع الى العنف . والعنف يؤدي الى الجريمة . وأهون أنواع الجريمة الطلاق - خصوصا اذا كان هناك أطفال صغار .

ثم ان الأسرة نفسها لم تعد تلك العلاقة الضرورية . فقد كان الانسان من الوف السنين يحتاج الى معاونة الزوجة والأولاد في حماية البيت وفي إنتاج الرغيف . أما حماية البيت فالدولة تتولاه . . وأما إنتاج الرغيف فهناك شركات تنتجه وتبيعه وتبعث به الى باب البيت .

ومعنى هذا الرأي أن الزواج علاقة لا ضرورة لها . .

وهناك آراء أخرى تقول بأن الزواج تكلمة ضرورية . .

ورأى يقول بأن الزواج محاولة عاطفية عقلية للقضاء على العزلة والوحشة . . وقد سئلت إحدى الطالبات عن مفهومها للسعادة فقالت : أن يكون هناك شخص آخر ترتبط به . .

وقالت طالبة أخرى : لا يد أن يكون حبي لشخص آخر قادر على أن أفهمه ويفهمنى . . وحريص على أن يكون أقرب وأقرب . وقالت فتاة ثالثة : انما تزوجت حتى لا يسألني أحد ان كنت متزوجة أو في الطريق الى ان أتزوج .

وإذا كان الآباء يرون في الزواج عبئا ثقيلا : فإن الشبان لا يرونه كذلك . وقد كان الآباء من أربعين سنة مثلا اذا فكر واحد منهم في الزواج فانه يحس أنه الثور الذي حمل الكرة الأرضية على قرنيه . . ولا يتصور أن هناك كارثة اكبر من كارثته . . ويعرض أمراة على أقاربه وعلى رجال الدين . . ويسأل ويجمع الآراء . ثم يقرر أن يتزوج تماما كأنه قد حصل على تفويض من كل الناس . مع أن الزواج قرار شخصي يلتقى فيه شخصان معظم الوقت وحدهما وجها لوجه . ومعظم الوقت في الظلام .

.. أما الشباب الحديث فانه يقبل على الزواج كما لو كان مدعوا لحفلة زفاف شخص آخر غيره . . وكثيرا ما ذهبت العروس بعد المعريين بساعات وكثيرا ما اضطرت العروس

الى تناول العشاء والرقص مع ضيوفها قبل ان يجيء العريس ويشاول طعامه وحده ويعاود الجميع السهر والرقص من جديد .

حدث ان ذهب أحد علماء النفس لمشاهدة فرح لاثنين من تلامذته .. ووجد مقعدا خاليا فجلس . فجاءت فتاة وجلست الى جواره . وكانت تلهث ، وبدأ شعرها منكوشا . وقال لها العالم النفساني : يبدو أنك جئت الى هذا الفرح بسرعة .. وأدركت الفتاة انه ينظر الى شعرها وملابسها فقالت : فعلا . لقد حدث كل شيء فجأة .

وقال الرجل : الزواج تم على غفلة ..

قالت الفتاة : لقد كنت اظن انه سوف يتزوج أختي ..

وقال العالم : آسف .. أرجو أن تجد أختك عريسا أحسن منه ..

قالت الفتاة : أرجو ذلك .. ولكنه لم ينبهني الى هذا كله . لقد حدث في لحظة .

قال العالم : هل أنت صديقة العريس ؟

قالت الفتاة : لا بل أنا العروس .. بهذه السرعة والسهولة تم الزواج .

ومهما قيل في الزواج ، فلا تزال هذه العلاقة قوية ومستمرة ، ولم تجد الانسانية علاقة أقوى ولا أكثر احتراما منها . واذا كان الزواج يقوى العلاقات ، فان الأسرة هي ثمرة الزواج . والأسرة هي قاعدة المجتمع الانساني في كل العصور .

ولكن لابد أن تكون هناك أسباب قوية تجعل الزواج منتشر بين الشباب في أوروبا وأمريكا .. وفي العشرين من العمر .. ومتوسط زواج الشبان ٢٣ سنة ومتوسط زواج الشابات ٢٠ سنة - اقصد الزواج الأول .

ومن بين هذه الأسباب التي يذكرها الشبان : أن الزواج نوع من الهرب من الحياة الاجتماعية التي ليس فيها أمان ولا ضمان . ولا يجد الشبان الا هذا المخبأ العاطفي الأكيد .. وان هذا المخبأ قد يحميهم من الغارات الاجتماعية . ولكن المخباء لا توقف الحروب .

ومن بين الأسباب أن يفاجأ الشاب بأن الفتاة التي أحبها قد حملت .. وانها لا تريد أن تتخلص من الجنين وكثيرا ما تم الزواج والعروس حامل في شهرها الثامن وأحيانا التاسع ..

وهناك أنواع من الوظائف تحتم على الشاب أن يتزوج . بل أن بعض الشركات لا يمكن أن تمنح موظفيها ترقية ادارية الا اذا كان الموظف زوجا ولذلك كان الزواج ضرورة عملية ..

وعدد كبير من الشبان يريدون الزواج لانهم يحبون الأطفال .

وقد تحدثت بعض الحروب العالمية الأولى أن عاد عشرات الألوف من الجنود وهم يحلمون بالبيت الصغير والزوجة والأولاد .. وتناثرت البيوت الصغيرة في كل المدن

وعلى أطرافها . وبعد الحرب العالمية الثانية يشهدون : البيت . . البيت . . ما أجمل البيت . .

وامتلأت البيوت بعد الحروب بالأولاد والزوجات . .

ولكن معالم المجتمع تغيرت . .

وإذا كان الزوج من أربعين عاما يفكر في أن يكون له بيت وقطعة أرض قبل أن يتزوج أو بعد أن يتزوج فـ الأزواج الشبان لا يفكرون في أى شيء من هذا كله . بل أن الشبان إذا خیرتهم بين الزوجة وبين السيارة الجديدة ، يختارون السيارة . . وقد يتزوج الشباب عشر سنوات دون أن يفكر في أن يملك شيئاً على الإطلاق ولا يتصور أن هذا ضرورى وأن الحياة من غير امتلاك لا تساوى شيئاً . انه يفكر فقط في أن يعيش وأن يستمتع بحياته . . وهذا يكفى أسلوباً وغاية .

وهناك اختلاف بين الرجل والمرأة في النظر الى الزواج . .

فالمرأة - قبل الزواج - تفكر كثيرا في الزواج والرجل لا يفكر . ولكن الرجل هو الذى يفوز بالراحة النفسية والجنسية بعد ذلك - لأن الزواج يرهق المرأة بالعمل في البيت والانشغال بالأطفال .

والرجال لا يعترفون بأنهم فكروا في الزواج . ومع ذلك يتزوجون . ولكن المرأة تعترف بأنها فكرت . وبعد الزواج لا تقول انها هى التى استدرجت الرجل الى الحياة معها ، ولكن تقول انه هو الذى فعل ذلك .

والمرأة - طبعاً - تفضل أن يشدها رجل اليه ، على أن ترمى نفسها عليه . . أو تقوم هى بشد الرجل وارغامه على الحياة معها .

وإذا كان الحب قادراً على تخفيف أعباء الحياة عموماً ، أو الزوجية بصفة خاصة ، فإنه يبرر كل تصرفات الاثنين فالحب هو المسئول عن العنف في حياة الزوجين وعن الشجار . وعن الخلاف الى درجة الطلاق . لأن الحب لا يواجه المحبين ، انه يبعث اليهم بمندوب عنه هو : الغيرة . . والغيرة لا تؤمن الا بنوع واحد من المساواة : هى المساواة في الظلم . وذلك بأن تضع المحبين في اثناء واحد يغلى : فيحترق الاثنان بنفس الدرجة .

فيا سم الحب اقرب الناس أكثر وأكثر ، وباسم الحب تباعد الناس . . ولكن الحب نفسه لا يعرف الزمن . . فالذى يحب فتاة من عشرين عاماً ويتركها ويذهب الى آخر الدنيا . . ويتزوج . . ويكون له أولاد . . ويتزوج مرة ثانية . . فان الفتاة الاولى تهز قلبه من مكانه . . ولذلك يحرص المحبون اذا كانوا أزواجاً ، على أن تهتز قلوبهم من حين الى حين بشرط أن تبقى في مكانها . وأن يبقى الاثنان معاً . . يعيشان معاً .

وقد حدث تغير في موقف الرجل في الأسرة الحديثة . فمن المعروف الآن أن هناك مساواة بين الجنسين في العلم والعمل . وقد حرزت روسيا والصين وكوبا المرأة تحريراً تاماً . وخلعت الرجل من زمامة البيت . .

وكان الرجل مسموحا له منذ أوائل هذا القرن أن يضرب زوجته بشرط ألا تكون العصا أغلظ من أصابع اليد . وعلى الزوجة أن تطيع . لأنه هو الرجل وهو سيد البيت أو السيد فقط .

ولا بد أن قوة الرجل كان مصدرها أن الرجل هو الأقوى صلحيا أو الأقوى اجتماعيا . أو هو الذي يكسب لقمة العيش . ولكن العلم الحديث يؤكد حتى الآن أن المرأة أقوى صحيا . وإنها أقل تعرضا للموت والمرض وأن المرأة تكسب أيضا . وإذا كانت المرأة أكثر مالا . كانت أكثر سيطرة .

وكان الحكيم الصيني كونفوشيوس يقول : على المرأة أن تطيع زوجها طاعة عمياء . وعليها أن تدوب في خدمته . . حتى يتلاشى وجودها تماما ويبقى الرجل واحدا لا شريك له .

ومات كونفوشيوس من مئات السنين ولكن حكمته هذه لم تمت إلا أخيرا جدا . ففي القرن الماضي في إنجلترا كان ترتيب الأسرة حسب الأهمية : الابن الأكبر والاخت والأُم والبنات بعد ذلك .

وفي البيت الأمريكي نجد المرأة هي المسئولة عن الطعام والفصل والأطفال . . والرجل مسئول عن الإصلاحات المختلفة وعن إصلاح النور وإصلاح السيارة . . وهو أيضا الذي يلقي بالفئران التي ماتت في المضيدة .

أما المرأة الفرنسية فهي أكثر نساء العالم محافظة على التقاليد . . فهي تفضل أن تكون المرأة هي المرأة . . وأن يبقى الرجل رجلا . وكثيرا ما يسمعنها تطلب من زوجها أن يخرج من المطبخ . فالمرأة الفرنسية الحريصة على أن تكون أنثى وسيد بيت ، هي التي وضعت هذا الفاصل الحاد بين الرجل والمرأة .

وكذلك الروس . .

والأمريكان لا ينسون ذهشة العالمة السوفيتية « ايليا مانفتش » عندما وجدت الرجل الأمريكي يساعد زوجته في غسل الأطباق . . صرخت وقالت : أنهم يستاعدون زوجاتهم . سأعمل على نشر ذلك في روسيا .

وفي إنجلترا نجد الرجل يساعد الطفل على النوم . . وكثيرا ما دفع عربة الطفل أمامه في الشارع ، بشرط أن تكون زوجته معه .

باختصار أن الأوضاع الإدارية قد تحددت بوضوح في البيت الحديث : فالرجل هو عضو مجلس الإدارة المنتدب . . والمرأة رئيس مجلس الإدارة . . وهذا الوضع ، واضح جدا في الزواج الحديث . .

صحيح أن الزواج ليس معناه أن يلتقي اثنان أمام الناس ، ليفترقا بعينتهما عن الناس . . ليس معناه أن يتواجد اثنان عند الطعام ، وأن يعطى كل منهما ظهره للآخر عند النوم . . ولا أن يقول كل منهما للآخر : أنت من هنا وأنا من هنا . . أنت في حالك وأنا في حالي . . أن هذه نهاية علاقة . . نهاية زواج .

ولكن الزواج الحديث قد حول البيت الى وحدة استهلاكية لا وحدة انتاجية ..
فالازواج يلتقون في فندق .. في مكان يتلقون فيه الخدمات . وليس في مصنع يقوم
كل منهما بعمل شيء من أجل الحياة الزوجية ومن أجل الحياة العامة ..

وكثيرا ما رأى الناس في أمريكا زوجين في حالة من التعاسة التامة أمام انبوبة
بوتاجاز خالية .. خلت فجأة لأن البيت مطعم .. وعدم وجود بوتاجاز معناه الا يوجد
طعام .. والا يكون هناك بيت .

ومهما اختلفت أنواع الزواج ، سواء كان زواج الزمالة والتفاهم ، فان موقف
الشبان واحد وهو : أنه ليس أسهل من الزواج ، وليس أضعف من الحياة بعد ذلك ..

ولكن الشبان لا يفكرون « بعد ذلك » .. المهم أن يقرروا أن يتزوجوا ..

واذا كان الزواج في الشرق أساسه : الناس يتزوجون ثم يتحابون ، فانهم في
الغرب يتحابون ثم يتزوجون ..

ولكن المهم يحدث بعد ذلك .. هنا يشعر الانسان بأنه زجاجة ممتلئة بسائل مركز
هو خلاصة تجاربه الماضية في الحياة وفي الحب .. أو انه زجاجة خالية شفافة ..
إن الزجاجة الخالية أكثر رنيناً .. ولكنها اقصر عمراً وأقل فائدة .. ولكن الشبان
يختارون ما يعجبهم . وما يعجبهم هو الذي ولد معهم في عثرهم .. وقريب من
عقولهم وقلوبهم . والقريب المهم هو الزواج السريع الخاطف الصغير بعيداً عن
الناس . وعن المجتمع .

وزواج الشبان ضرورة نفسية وجسمية واجتماعية وخصوصاً في المجتمع الحديث
الذي اقتلعت جذوره وبدوره . فلا بد أن يكون هناك رباط قوى يمسك النباتات
الصغيرة لا بد أن يكون هناك ماء كالصمغ . يمسك الأرض ويشد الإقليم الى الأرض .
وبذلك يستقر الشبان . وتكون لهم أوزاق وثمار .. وحديقة ، ومواقية بعد ذلك ..

أما الأسئلة التي يوجهها المجتمع للشباب فهي : ان كانت هناك ديلة .. أو كانت
هناك ورقة تمسك العروسين ان هؤلاء الشبان يفضلون الأوراق الملونة .. أوراق
الورد يسجلون عليها رغبتهم في الزواج وفي الحياة معا حتى الموت .. ولكن المصيبة
أن الشبان الذين يخبون الأوراق التي لها لون الورد ، لا يحترمونها .. ان آباءهم
يفضلون الورق الأبيض وشهادة الشهود .. فقد عاشت الإنسانية واستمرت لأن
عشرات الملايين قبلهم قد احترموا كلمات انطيمت على أوراق بيضاء ..

وقد حدث أن احتفل عشرات الألوف من الطلبة منذ سبع سنوات بزواج جماعي
ورفضوا أن يكون عقد الزواج على ورق أبيض .. لأنه يذكرهم بكراريس
المخاضات . واختاروا ورقاً وردياً .. ولكن أوراق الورد نفسه كأورد نفسه شرعان
متأذبل ومعها الحب والزواج .

ومن قبل عاشت ملايين العائلات في كل مكان لأنها اختارت ورقاً لا يتأذبل وضائت
عهوداً لا تموت .

السوي قاع الحرية

— ٥ —

نيسبت مشكلة كبيرة أن تنتقل الدبلة من اليمين الى اليسار . . وأن تظل في اليسار حتى الموت . . وبعد الموت تنتقل دبلتان الى اصبع واحد في يد أحد الزوجين . . فقد عاشت الانسانية ألوف السنين من غير أن تعرف الدبلة وكان هناك حب أفضى الى الزواج . . وزواج أفضى الى زواج آخر . .

فكل انسان يريد أن يحب . ويريد أن يتزوج بعد ذلك . وأهم من ذلك . وهو ما يهمنى هنا . أن يبقى الحب حيا . ويظل الزوج مخلصا . ويتعاون الزوجان على أن تبقى الأسرة هي أكمل العلاقات بين الرجل والمرأة . فإذا كانت هناك الأسرة . وألوف الأسرات . سقيذة أصبح المجتمع نفسه سليما قويا . وليس هذا أملا بعيدا ، فقد تحقق كثيرا وبلذجات متفاوتة في بلاد مختلفة وعصور مختلفة أيضا .

ومن المؤكد الآن أن العلاقات بين الرجل والمرأة قد تغيرت . ولكن سيصبح هذا التغير واقعا بعد عشرات السنين . وليس من الضروري أن يكون التغير الى الأحسن . فآثر العلم الحديث في سلوك الجنسين . وسوف يظهر بعد خمسين عاما أو أكثر . وسوف يكون لذلك أثره المباشر على الحب وعلى الزواج وعلى الأسرة وعلى الأطفال ، أى على الأجيال القادمة التى هى مستقبل الانسانية كلها .

فمنذ أربعين عاما عندما انتشرت البطالة في العالم ، كان من الضروري أن تكون للرجل الأولوية في الحصول على لقمة العيش . وكان يقال : يكفي أن يعمل شخص واحد في الأسرة . . وأن يكون هذا الشخص رجلا . . وفي المستقبل عندما تؤدي الآلات الحديثة الى تعطيل الأيدي العاملة ، سوف يكون الرجل مرة أخرى — هو المفضل عند اختيار العمل الضروري .

وقد تنبأ كثير من العلماء الجادين والباحثين باختفاء الأسرة .. وفشلت هذه النبوءة قبل ذلك مرات .. ولا يزال بعض العلماء يؤكد أن الأسرة لن يكون لها وجود بعد قرنين من الزمان . ولكن يبدو أن هذه النبوءات جميعا لن تتحقق فقد مرت الأسرة - كمشكل للعلاقة الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والجنسية - في تجارب عنيفة . واستطاعت أن تواجه الريح . فاهتزت ولم تسقط . وأن تصمد للزلازل الاجتماعية والمدنية والسياسية . ولم تتكسر .

ولكن مع هذا التزايد الهائل في عدد السكان في العالم كله سوف يحدث شيء غريب . سوف تحتشم المرأة . وسوف نطلب منها ألا تكون عارية أو فاضحة . بل أننا سنطلب إلى المرأة ألا ترقص عارية ولا تسرق في الأغاني العاطفية .. وألا تضنن كتب للرجال مشرة جنسيا .. وألا تظهر الإخصان والقبيلات العنيفة على الشاشة . لماذا ؟ لأننا نريد ألا يثور ويشار أي إنسان وتنتهى الثورة بالقبيلات والقبيلات بالإخصان . ويحىء الأطفال بعد ذلك إلى عالم مليء بالرجال . وليس في حاجة اليهم .

ولكن يبدو أيضا أن الآثار الجنسية لا علاقة لها بالزواج . ففي القرن التاسع عشر كان متوسط عدد الأطفال في كل أسرة في بريطانيا - مثلا - من ٧ إلى ٩ أطفال . وكان عدد المواليد منخفضا في أمريكا . ونحن نعرف أن القرن ١٩ كان نموذجا للطهارة الأخلاقية والاحتشام .

أما الذي يجسم الموقف في داخل الأسرة فهو تطوير العلم الحديث لوسائل منع الحمل . ولا شك أن اختراع حبوب منع الحمل هو أعظم ما اكتشف الإنسان في العصر الحديث . وكان من نتائج حبوب منع الحمل أن يأتي الإنسان بالأطفال حسب الطلب . وعلى الرغم من أن حبوب منع الحمل ما تزال يدائية ، لأن المرأة يجب أن تحرص على تناولها في مواعيد منتظمة . فتكون الحبة الأولى في اليوم الخامس بعد المرض الشهري حتى اليوم العشرين . وبعض العلماء يفكرون في وسائل أدق من الحبوب . كحقن المرأة لمنع الإبويض من التلقيح لمدة شهر أو أكثر . وهناك فكرة وضع حبوب تحت الجلد تفرد هرمونا يمنع الحمل لمدة ستة شهور أو لمدة سنة . فإذا قررت المرأة أن تحمل نزلت الحبة الموجودة تحت الجلد . وهناك مصل للرجال يحول بيضهم ويمنع الإفراز الذي يؤدي إلى الحمل .

وهناك نوع من الأقراص اسمه « الأقراص الصباحية » وهي التي تتناولها المرأة في الصباح . وهذه الأقراص لها نتائج ذات اثر رجعي . ففي استطاعتها أن تقتلع الإبويض الملقحة من مكانها فلا تنمو .. ولا يكون حمل .

وهناك تغيرات أخرى ..

ففي العشر سنوات القادمة سوف يكون متوسط عمر المرأة ٨٠ عاما ، ومتوسط عمر الرجل ٧٥ عاما .

ومعنى ذلك أن يزيد عدد المتزوجات في العشرين .. أي عدد الأمهات الصغار . وينشغل أيضا أن تزداد مشاركة المرأة في الحياة العامة . وسوف تهتم المرأة بالناس

أكثر من اهتمامها بالأشياء الأخرى . فإذا دخلت المرأة في الحياة العامة ، سيكون لها أثر كبير على العلاقات الإنسانية وعلى الفكر الإنساني أيضا - أي على تفكير الرجل .

وسوف يتسع الوقت أمام الأزواج . . فإذا اتسع الوقت ، فأول ما تسعى إليه المرأة أن تطالب بحقها أو نصيبها من الحياة أو من الرجل . فالمرأة لا تنسى حقها ، سواء كان ذلك رغم أنف الرجل أو على عينه . .

ومن الطبيعي أن تتأثر الأسرة مرة أخرى في المستقبل . ستبقى الأسرة . ولكن سيكون احترام الناس لها أقل . . وسوف تنحل الأخلاق ، الأخلاق بسبب حبوب منع الحمل ، وسهولة الاختلاط بين الجنسين على كل المستويات ، مستويات الدراسة والملاعب والعمل واتساع المدن وانشغال الرجل والمرأة . وانشغال كل الناس ، كل واحد بحاله .

وشيء آخر هام : ستكون الفتاة أيضا أكثر انشغالا بالجنس من أي وقت مضى . تماما كما حدث للرجل . أما النتائج فتقع عادة على رأس الرجل : الأب والزوج . . وهناك تجربة اجتماعية كبرى حدثت في روسيا بعد الثورة السوفيتية مباشرة . فقد أحس الناس بالانطلاق . وتفككت العلاقات الاجتماعية . وكان من السهل جدا أن يبعث أي زوج إلى زوجته بورقة الطلاق بالبريد . وينتهي كل شيء . . وقد ينقل الزوجان يعيشان في غرفة واحدة بغض الوقت إلى أن ينقل أحدهما إلى غرفة أخرى مع زوج آخر . . وقد ظن الناس في روسيا بعد الثورة مباشرة أن هذه هي الحرية . وأن الدولة عليها أن تعنى بالأطفال بعد ذلك - سواء كانوا شرعيين أو غير شرعيين . .

ولكن لينين أنقذ المجتمع السوفيتي من الفوضى . فقيّد الزواج والطلاق . وحزّم الأجهزة . وتماسكت الأسرة . . وأصبحت ذات شكل تقليدي . كما أن الاثارة الجنسية نفسها قد اختفت من الصحف والمجلات والتلفزيون والسينما . وأقام الاتحاد السوفيتي « قصورا للعرائس » ينتقل إليها المشرجون . . وفي هذه القصور يعيش الأزواج أجمل أيام العمر . . وفي غرف أنيقة فخمة . . ويرقصون في الحدائق وحول النافورات . .

حتى الطلاق في روسيا أقل من الطلاق في أمريكا . .

وأدت الثورة السوفيتية إلى محو الظلم الجنسي . . أي ظلم جنس لجنس آخر . . فتحررت المرأة . وأصبح العلم والعمل من حقها . وتحررت المرأة أيضا من سجن البيت والمطبخ . فليس معقولاً أن تقضي المرأة ثلاثة أرباع عمرها تطبخ وتغسل . وهذا العدل بين الجنسين كان من أهداف الثورة السوفيتية ، فالثورة في حاجة إلى كل قوى البشر : الرجال والنساء . أما الأطفال فلهم دور حضانة ورياض أطفال . وهي جميعا ملحقة بالمصنع أو المؤسسات . . ومن حق المرأة أن تحصل على أجازة

أربعة شهور عند الولادة .. أما التلاميذ الصغار فيدخلون المدارس بعد الظهر أيضا ، حتى لا يدوروا في الشوارع أثناء انشغال الأم والأب بالعمل في المصانع والحقول ..

ومن المؤلف في روسيا أن تحمل الأم طفلها الصغير بعد الإفطار مباشرة وتتركه في دار الحضانة . ومن حق الأم أن تجيء لرؤية طفلها لمدة نصف ساعة .. وأن يتكرر ذلك كل ثلاث ساعات دون أن يخصم من أجرها مليم واحد .. ولقد ظن بعض علماء النفس أن هذه التجربة سوف تؤدي إلى اضطراب الطفل الروسي . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث . فمن الملاحظ أن الطفل الروسي مهذب ويحترم والديه . ووالداه يفعلان نفس الشيء ..

ومن الملاحظ أن المرأة السوفيتية ما تزال هي الأكثر اهتماما بالبيت : بالطبخ والغسل ..

وفي سنة ١٩٦٠ حدث تغير في روسيا فقد اهتمت المرأة بالرشاقة والاثافة وبمظهرها العام .

وتغير آخر : لقد أحسنت المرأة الروسية أنه ليس من العدل أن تعمل المرأة في الصناعات الثقيلة مثل الرجال . لأن هذا قد يرهقها ويكسر وسطها : وإنما العدل أن تعمل ما هي قادرة عليه أو ما يتفق مع موهبتها واهتمامها . وهذا يؤكد أن هناك رغبة قوية في روسيا في أن يعيش الناس وأن يتذوقوا الحياة .. وأن يعمل كل إنسان على قدر طاقته وعلى ذوقه .. فإذا عمل كل الناس بارتياح تحقق العدل العام لكل الناس ، وزادت معدلات الإنتاج .. وابتعدت بذلك روسيا الآن عن الجمود الذي كانت عليه في السنوات التالية لقيام الثورة السوفيتية سنة ١٩١٧ ..

وهناك أحدث أنواع التجارب على الحرية بين الجنسيتين في الدول الاسكندنافية .. وفي السويد بوجه خاص .. فقد اتخذت السويد شعارا هو : أننا نتوجه الى مجتمع لم تعرف له الانسانية مثيلا في كل القصور ..

والعلماء يؤكدون أن العالم كله يتجه الى الحرية على الطريقة السويدية .. وأن كانت السويد سبقت الدنيا . وليس من المنتظر أن نبلغ ما بلغته السويد ..

والسويد أكثر تحرا من جارتها النرويج . فأهل النرويج محافظون نسبيا . ولكن على الحدود بين الدولتين تتحقق الحرية الجنسية في أكثر حالاتها انطلاقا . والناس يمارسون حرياتهم وراء الأشجار الكثيفة . وقد قال ألد الكتاب الساخرين : أنه لو أخفيت في داخل كل شجرة جهاز تسجيل : لراحت كل شجرة تروى قصة أطول من أساطير الاغريق .

وأهل الدانمرك أكثر تحرا من أهل النرويج .

ولكن الخسرية متقاربة في هذه الدول الاسكندنافية الثلاث . وهناك قاعدة واحدة : أن الحرية العاطفية والجنسية جزء من الحرية العامة . فمن حق كل إنسان

أن يدخن السيجارة التي تعجبه وأن ينسجم على الجنب الذي يريجه . وأن يختار
للبراعية الفتاة التي تسعده . .

وفي سنة ١٩٦٥ طالبت بعض الأحزاب السياسية بأن المساواة بين الجنسين
تُحتم أن تشترك المرأة في الجنس أيضا .

وبعض الأدبيات يؤكدن أن هذه الحرية التي حصلت عليها المرأة ، ليس سببها
أن الرجل أراد أن يريح رأسه من المرأة كأنها طفل لا يكف عن البكاء أبدا . . . إن
المرأة تحررت لأن الرجل تحرر . ولأن المبادئ الأساسية تقول : لا فرق بين الرجل
والمرأة . فليس ذلك من باب عطف الرجل على المرأة ولا الشفقة بها . ولكنها تحررت
لأنه من الواجب أن تتحرر . فليس الرجل صاحب فضل في أن المرأة أصبحت
متساوية له في كل شيء . وإذا كان الرجل لا يحب أن تسأله المرأة عن ماضيها ، أو
يحب ذلك ، فالمرأة لا تحب ولكن في استطاعتها أن تتحدث عن ماضيها إذا شئت ،
لا فرق بين ماضيه وماضيها . سواء كان هذا الماضي مليئا بالأزواج أو بالأصدقاء ،
بالأطفال الشرعيين أو اللقطاء .

ولكن لماذا يتحدث الناس في السويد عن الجنس وأساليب الجنس وأشكال
الحب بصورة واضحة في كل مكان في البيت في الشارع في المدارس في الضجف ؟
من أين الأسباب أن مستوى المعيشة في السويد مرتفع . وأن المجتمع متفتح على
كل شيء ويقدم لكل الناس قرضا متساوية . وأن هذه البلاد قد عرفت نوعا من
الاستقرار السياسي الذي أدى إلى الاستقرار الاجتماعي الطويل . فلم تعرف هذه البلاد
المشاكل التي تهدد حيل الدول الأخرى . فليس عندهم مشاكل لقمة العيش .
ولا عندهم مشاكل الدفاع عن لقمة العيش . . لا أزمات اقتصادية ولا معارك
عسكرية .

كما أن معظم أصحاب الآراء الحرة يشغلون المناصب الرئيسية في أجهزة
الإعلام . ولذلك يملأون الراديو والتلفزيون والسينما بالمناقشات الجنسية الطريفة
.. الصريحة جدا . ليس الجنس حقيقة ؟ من المؤكد أنه حقيقة . ليس الشوق
والحنين مثل الجوع إلى الرغيف والعطش إلى الماء ؟ من المؤكد أن هذه حقائق ضرورية
.. ثم ما دام الإنسان لا يعيبه أن يقول أنه لم ينم أمس بسبب الأرق ، فما الذي
يخجله أن يقول نفس الشيء إذا أحس أن فراشه خال وأن حضنه خال أيضا ؟

إن أهل السويد قد جعلوها سهلة على أنفسهم . . وعلى غيرهم أن يفهمهم على
هذا النحو . فهذه طبيعتهم . . وهذا هو الطريق الذي ساروا فيه ، ومن المؤكد أن
تمشي فيه الشعوب الأخرى بعد ذلك . . فالإنسانية واحدة وأهدافها واحدة . .
وأول ما يشاهده زائر السويد هذا المرح على وجوه الفتيات . وهذه الابتسامات
الداعية أو المرحبة . . ولكن ليس هذا ابتداء في سلوك الفتاة . وإنما هن مهابات
فقط . فالفتاة لا تشكو من نقص في شيء . فالمجتمع سمح لها بكل شيء . فهي لا تلقى
نفسها عند قدميك من أول ابتسامتها . . وإن كانت سوف تفعل ذلك فيما بعد الابتسامات
الثانية أو الثالثة . .

٢٠ والفرق بين الفتاة السويدية والفتاة الأمريكية أن الفتاة الأمريكية تجد متعة في أن تثيرك وتشعل النار فيك ، وليس من الضروري أن يكون بينكما أية علاقة بعد ذلك ، أما السويدية فهي تبحث عن الود عن الصداقة عن الدفء ، أما النار فتجنى بعد ذلك من تلقاء نفسها . فالأمريكية لعب ، والسويدية جادة . . والأمريكية تمسكتها أن الرجل يؤكد لها أنها ليست أنثى ، ولذلك تحب أن تلعب بأوثقها ، وتعذب من الحرمان بعد ذلك . . أما السويدية فهي تعرف عن يقين أنها أنثى . . قبل لها ذلك ألوف المرات . وهي قادرة على أن تثبت ذلك . ومن هنا فلا يهمها إلا الصديق ، أما الباقي فأمره سهل جدا . .

٢١ ومن المناظر المألوفة في استوكهولم عاصمة السويد أن يلتقي الشبان في « حديقة الملوك » . فالفتيات يرتدين الصنادل والشبان يلبسون جاكيت من الجلد ، حتى لو لم يكن هناك مطر . . وينحني أى واحد منهم . ويتبسم الفتاة . ويختفي الجميع بعد ذلك في الغابات . .

ولقد عرفت السويد هذه الحرية الاجتماعية والعائلية أكثر من أربعة قرون . . ومن المألوف جدا أن تحتفل الأسرة بالعلاقة الجديدة بين ابنتها وجارها . وتقام حفلة صغيرة . . وقد تمضى شهور أو سنوات قبل أن يكون لهذه العلاقة أى شكل قويم . أو قد لا يكون لها ، ومن المألوف أيضا أن تعيش الفتاة مع شاب سنوات عديدة دون أن يرتبط الاثنان بالزواج ودون أن يعترض أحد على ذلك . . أى أحد .

٢٢ وفي سنة ١٨٨٠ كان أكثر من ٧٥٪ من النساء قد أنجبن أطفالا قبل أن يعقدن الزواج بنفسه .

٢٣ وفي سنة ١٨٨٠ كان أكثر من ٧٥٪ من النساء قد أنجبن أطفالا قبل أن يعقدن الجنسية المتعددة الطويلة قبل سن السادسة عشرة . . ولا اعتراض لأحد على شيء . أما الآباء أنفسهم فيغمضون عيونهم ، أو يفتحونها على شيء آخر ليقولوا :
أبناءنا أحرار .

ولكن لماذا هذه الإباحية في السويد ؟

هناك أسباب عديدة . مثلا : ليالي الشتاء الطويلة الباردة .

٢٤ كما أن الكنيسة ليس لها أى دور قوى . فالسويد لم تعرف المسيحية إلا في عصور متأخرة جدا . . ففي أواخر القرن الحادى عشر بعد الميلاد . حتى أهل السويد القدامى كانوا في غاية التحرر . أما الآن فقد اتجه أهل السويد إلى بعض التمسك بالدين ومعظم عقود الزواج تتم في الكنيسة وإن كان ٥٠٪ من الشعب لا يتردد على الكنائس .

٢٥ وعقد الزواج لا يهم . الذى يهم هو ما قبل العقد ، وما بعد العقد . فليس العقد هو الذى يمسك الناس . . ولكن الناس هم الذين يصنعون للعقد ويشمسكون به أو يمزقونه بعد ذلك .

ثم ان معظم أهل السويد يتزوجون في العشرينات . ومتوسط عمر الزواج في الدول الاسكندنافية هو ١٦ سنة للفتاة و ٢٣ سنة للشباب . وسبب ذلك هو انه ما دامت عندهم حرية مطلقة ، فلماذا يتزوجون . ان الزواج لن يعطيهم أكثر مما يأخذون . ولولا ان هناك مشاكل أخرى لتزوج الشبان في سن مبكرة جداً ، أو لتوقفوا عن الزواج نهائياً . فالشباب لا يريد أن يتزوج لأنه لا يجد الشقة . . وأحياناً يتزوج لأن الدولة تعطيه الشقة . .

وهناك سبب آخر يرغب الشاب على الزواج : أن تحمل فتاته ولا تريد أن تتخلص من الجنين . . وهو لا يريد أن تفعل ذلك .

وفي الدانمرك من حق كل فتاة حامل أن تحصل على شقة . ولذلك تحمل الفتاة لتجد الشقة وتتزوج فيها .

ولا بد أن الحمامات العامة في السويد قد ساعدت على هذه الإباحية . . فالحمامات العامة وحمامات البخار يتعري فيها أبناء الجنسين . .

والفن أيضاً أدى إلى تشجيع التعري وجعل الجنس شيئاً عادياً . فهناك حديقة للنحات الكبير فيجلاند . . وفي داخل الحديقة تمثال ارتفاعه ٥٦ قدماً . التمثال على شكل عضو الرجل وقد امتلأ بعشرات من النساء والرجال العراة تماماً .

ومن أغرب الأرقام في السويد أن ٨٠ ٪ من الفتيات ليسن عذاري عند الزواج . . وأن ٥٠ ٪ في حالة حمل . .

ولا بد أن يكون للرياضة دخل كبير في التقريب الشديد بين الجنسين . فاهل السويد رياضيون من الدرجة الأولى . والشباب الرياضي يغفر له المجتمع الكثير من الخماقات . بل انه من العادي جداً أن تخرج فتاة وفتى للانزلاق على الجليد . ويبيطان في الخيام والفنادق . وأحياناً يطلبان المأوى في أي بيت قريب من الجبل . وصاحبه يعلم طبيعة العلاقة بين شابين في السادسة عشرة . ولكنه يطلب أولاً أن يريه قدرته على الانزلاق قبل كل شيء . ويذهب الشاب يستعرض قدراته . . وهنا تفتح للشابين الصغيرين غرفة ويقفل عليهما باب .

وفي جامعات استوكهلم من حق الطالب أن يستضيف طالبة في فراشه وان كانت اللوائح تستنكر ذلك . وليكن اذا لم يحدث انسان ضوضاء فلا أحد يعترض على شيء .

وأهم من ذلك ألا يكون هناك اكراه على شيء . . فاذا اكراه طالب زميلته ، طرده الجامعة فوراً .

ورغم هذه الحريات ، فان الفتاة السويدية - كالمرأة في كل الدنيا - تتطلع إلى الزواج .

وفي كل أسرة في السويد عندها فتاة في العشرين من عمرها ، يوجد شاب صديق لها يأكل ويشرب وينام في البيت . انه صديقها .

وكثيرا ما دارت مناقشات بين الأب والأم والبنت وهذا الصديق في مستقبل العلاقة بينهما . وقد تجيء هذه المناقشة بعد سنة من اقامة هذا الشاب في البيت .

واذا واجهت الفتاة مشكلة : كالأجهاض مثلا ، فان الدولة تتدخل فقط من أجل صحتها . فاذا كان الاجهاض ضارا بها منعتها . . واذا لم يكن هناك ضرر سمح لها الاطباء . واذا لم يسمح الاطباء سافرت الفتاة الى بولندا مثلا - وتخلصت من الجنين .

فاذا أنجبت الفتاة طفلا أعلنت الصحف عن ميلاد هذا الطفل هكذا : ولد لفلانة وفلان طفل اسمه حنفي - مثلا - والصحف لا تقول ان كان هذان الشبان زوجين أو ضدّيين .

ويحدث كثيرا جدا أن تتزوج الفتاة والد هذا الطفل بعد ذلك .

واذا حملت تلميذة في مدرسة ثانوية فان المدرسة تعني بصحتها - واذا حدث ذلك في أمريكا طردوا الفتاة فورا .

وفي الحدائق العامة والغابات لوحات تنبه الشبان الى نتائج هذه العلاقات الجنسية . مثلا - لوحة تقول : فكرى . . فكرى . . هل يمكنك الاعتماد عليه ؟ . . ولوحة أخرى تقول : أطفال جدد ؟ فقط عندما نريدهم !

وفي الشوارع عقول الكترونية تشرح للشبان معنى العلاقات الجنسية والأمراض والحمل والولادة . . فكل المعلومات الجنسية في متناول الجميع في كل وقت . .

وفي المدارس يتعلم الأطفال بصراحة معنى الجنس ولكن على درجات . ففي البداية من العمر يعلمون الطفل من أين جاء وكيف ولد ؟ ولماذا ؟ وفي سن ١١ و ١٣ يشرحون للطفل تفاصيل الجسم الانساني والأمراض الشهرية عند المرأة . ولا يشرحون له العلاقات الجنسية .

ومن الطبيعي أن تكون أخلاقيات الأسرة منحلة في السويد . فنسبة الخيانة الزوجية عالية جدا . .

وفي السويد من الممكن أن يترك لك الزوج زوجته اذا كنت ضيفا عنده . ويرى أن هذا من الكرم . ولكن المرأة السويدية تضيق بهذا الموقف . لا لأنها تعترض على أن تذهب الى فراش الضيف ، ولكن عندما يتصور زوجها أنه هو الذي قدمها للضيف . كأنها شيء يفعل به ما يريد ، انها اذا ذهبت الى فراش الضيف ، فلأن الضيف أعجبها وهي التي ذهبت بمحض ارادتها وحريتها وليس بأمر من الزوج . فالزوج لا حق له في أن يفرض عليها الفراش الذي يعجبه .

والمرأة في السويد منع ذلك - ككل نساء العالم - تفضل أن تكون مخلصة لزوجها . .

وُدفعَت المرأة السويديّة ثمن حريّتها غالِيَا . . فقد أسفرت هذه الجنسيّة عن مشاكل ومثاعب وأمراض واضطرابات نفسيّة لا حد لها . .
فالشبان دون الـ ١٦ سنة ١٠ ٪ منهم يعيشون مع أم فقط أو مع أب فقط .
أى يعيشون في أسرة لها عائل واحد . .

كما أن نسبة الأمراض الخبيثة عالية جدا . .

٦٠ ٪ من حالات الزواج تنتهى الى الطلاق . .

أما نسبة المواليد بلا زواج فعالية أيضا . .

أما البقاء فلا وجود له في السويد ، لأنه لا ضرورة له . .

كما أن الكتب الجنسيّة الفاضحة قد انتشرت في السويد وتباع في كل مكان . .
حتى دورات المياه . . وكذلك الأفلام الجنسيّة العارية مثل فيلم « أريد أن أعرف »
وهو فيلم ملون يشرح عمليا وبالتفصيل ما يدور بين رجل وامرأة . .

والقانون الذى صدر بشأن الزواج في سنة ١٩٢٠ ينص على : أن الزوجين
مسئولان مناصفة عن البيت ومصاريف البيت . وأنهما يلتزمان بمعاونة كل منهما
للآخر . وأن تربية الأطفال مسئولية مشتركة .

والمرأة في السويد تقوم بدورين معروفين : أن تعمل وأن تكون ست بيت . ولكن
هناك حدودا بينهما وبين زوجها . فهي مسئولة عن ارضاع الطفل وتغيير ملابسه
لفترة معينة . وبعد ذلك يقوم الأب بارضاع الطفل بالزجاجة وتغيير ملابسه
وغسلها أيضا . .

وليس من العدل — هكذا تقول المرأة في السويد — أن المرأة التى لها وظيفتان
مستريحة كالرجل الذى له وظيفة واحدة . ولذلك يجب أن يشاركها الرجل في
أعبائها المنزلية . والا كان هذا العدل كاذبا . .

أما كيف يتحقق العدل الشامل في السويد ، فهناك مشاريع تتقدم بها المرأة لكل
الهيئات الاجتماعية . . والسياسية . لأن المرأة السويديّة لم تبلغ العدل
المطلوب بعد .

ولذلك يجب أن يعمل الرجال بعض الوقت كالمرأة تماما . . وبذلك يستطيع أن
يساعدها في شغل البيت .

يجب أن يستبعد الرجل من رأسه تماما أن هناك أعمالا للرجال وأعمالا للنساء .
فحيث يوجد الرجل تكون المرأة .

لا بد أن يقسم الرجل والمرأة العمل في البيت . وأن يصدر بذلك قانون ينظم
العمل المنزلى .

يجب أن يكون هناك بيوت للحضانة حتى لا يتعطل الأبوان عن العمل . .

يجب أن يكون التعليم مشتركا في جميع المراحل .

وقد حدث ذلك في معظم المراحل . فالأولاد يدرسون علوم المرأة مثل شغل الإبرة والطبخ وتربية الطفل . والحضانة . والتدبير المنزلي . والبنات الصغار يدرسن الأعمال اليدوية وفك الأبواب واصلاح أدوات البيت . (ولكن من الملاحظ أن التفوق في كل الفنون ما يزال من نصيب الأولاد) ..

ومعظم الذين يدرسون في كلية الهندسة من الذكور .. ومعظم الذين يدرسون في طب الأسنان من الإناث و ١٤ ٪ من أعضاء البرلمان من السيدات . وتوجد وزيرة واحدة . ومن المشاهد المألوفة في استوكهلم أن تجد رئيس الوزراء يركب في سيارة زوجته المدرسة في الجامعة . وتقوده إلى مكتبه ثم تتجه إلى عملها ..

وما تزال ٩٠ ٪ من الأعمال القيادية السياسية والخارجية والاقتصادية في أيدي الرجال ..

وهذه الروح المتحررة قد انتقلت إلى العمارات نفسها . فكما أن هناك شققا مفروشة ، هناك شقق مزودة بالمربيات . فالأسرة تنتقل إلى شقة جديدة . وفي الشقة يجتذون مربية للطفل . أو تجد الأسرة في العمارة شقة خاصة بحضانة الأطفال . أو في العمارة تجد الأسرة مطعما عاما يقدم الوجبات لكل أسرة وبذلك لا يتعب الزوج أو الزوجة في اعداد الطعام ..

وبعض العمارات تنظم رعاية الأطفال فتتولى كل ام يوما في الاسبوع رعاية أطفال العمارة كلها ..

ومن حق الأم أن تأخذ ستة أشهر عندما تنتظر مولودا . ومن حق الأب أيضا أن يحصل على إجازة مماثلة إذا كانت زوجته في حاجة إلى مساعدته . وستة ومن حق الزوجة أن تحصل على ستة أشهر أخرى ، ولكن بلا مرتب . وكذلك الزوج .

وإذا نهض الطفل من النوم واحتاج أن يشرب أو يستحم أو يأكل أو يذهب للدورة المياه ، ففي استطاعته أن ينادي على أبيه أو على أمه وهو ضامن أن أحدهما سوف ينهض فوراً .. وعندما يسمع الأبوان صوت الطفل يفتح كل منهما النور ويمد يده تحت المخدة ليقرأ الجدول ليعرف أن كان هو الذي عليه الدور لرعاية الطفل هذا الاسبوع - أو هذا اليوم .

ومهما تقاربت المسافة بين الجنسين فسوف تبقى هناك مسافة أخرى .. هذه المسافة تحت الجلد .. هناك خلافات واختلافات بين الجنسين . لا دخل لهما فيها .. هذه الاختلافات تعري الجنسين بأن يتقاربا ، وتضطرهما إلى أن يتباعدتا . وفي هذه المسافة بين الرجل والمرأة توجد كل المشاكل الانسانية منذ كان هناك رجل وامرأة .. لا على الأرض وإنما في الجنة .. وسوف نرى ..

مرحباً أيها الجنس الثالث

— ٦ —

الرجل تعب من محاولة فهم المرأة ..

المرأة لم تتعب لأنها لم تحاول .. ولا بد أن يكون سوء التفاهم قد بدأ منذ كان الاثنان في الجنة .. وكل شيء بعد الجنة قد تغير .. ولكن بقيت هذه المشكلة دون تغيير .

وان كانت هناك نظرية حديثة تقول بأن النساء سيوف يكن في حجم وشكل بريجيت بارردو .. وان الرجال سيكونون في حجم توت عنج آمون .. أى تختفى الفوارق بين الرجال والنساء ، لا عضلات ولا شوارب للرجال ، ولا صدر ولا أرداف للنساء .

وقد حدث في المؤتمر الدولي للعائلات الذى انعقد في أمريكا سنة ١٩٦٥ أن وقف أحد العلماء يتساءل جادا : هل من الضروري أن نستعد الآن لعالم القد الذى تتحكم فيه المرأة بشكلها وذوقها ؟ هل من المناسب أن نرسم العلاقات بين الجنسين على نحو ما يجرى في السويد الآن ؟

ومن الغريب أن هذا المؤتمر قد أسفر عن إجابات مختلفة عن هذا السؤال . فقد قرر العلماء أنه من الخير للمجتمع أن يبقى الرجل رجلا وأن تبقى المرأة أنثى . ولكن من الواجب أن تكون الفرص متساوية أمام الجميع .

وقرار آخر يقول : صحيح أن الرجل مختلف عن المرأة . وصحيح أنهما متشابهان أيضا .. ومن الممكن أن تدوب هذه الخلافات التى بين الجنسين بأن يعلم الأطفال الذكور مبادئ الرقة والحنان .. وبذلك نجعل الرجل أقرب الى المرأة . ومن الممكن أن نعلم الأطفال الإناث كيف يكون العمل اليدوى .. وكيف تكون العناية بالآلات والأجهزة . وفى ذلك تقريب للإناث من الذكور ..

ومهما حاولنا التقريب برفق أو بشدة ، فهناك خلافات واضحة بين الجنسين .. خلافات جسمية ونفسية واجتماعية وتاريخية .. فاذا كانت المرأة تحب أن تكون محكومة من الرجل ، فهي أيضا تحب أن تكون حاكمة !!

واذا كان الرجل يحب أن يكون طفلا للمرأة ، فانه يحب أن يكون أبا أيضا .. ثم انه لا يوجد مجتمع في العالم كله يساوى بين الرجل والمرأة في كل شيء .. لا أكثر المجتمعات تطورا ، ولا أكثرها تخلفا . صحيح أن كل رجل له خمس حواس ، وللمرأة أيضا ، ولكن هناك خلافات أخرى شديدة وعميقة وحادة ..

مثلا .. على الرغم من أن المرأة قادرة على الاستمرار طويلا في المباريات الرياضية ، فانها عندما تلعب يظهر عليها التعب بوضوح .. بينما لا يكون الرجل كذلك . وفي نفس الوقت يكون قادرا على الوصول الى النهاية ..

ويبدو أن الطبيعة قد قررت أن تكون متوازنة : فعدد المواليد من الذكور أكثر من عدد المواليد من الإناث . ولكن الإناث أقوى صحة وأطول عمرا . ومن الإحصائيات التي أجريت سنة ١٩٦٣ في ٨٣ دولة لم نجد غير خمس دول فقط يزيد فيها المواليد الذكور على الإناث .

كما أن الرجل ميال الى العدوان بطبعه . فالمرأة تنتظر والرجل يجيء . المرأة تتلقى والرجل يعطى .

والرجل ميال الى المفامرة والمقامرة منذ أيام الحياة في الكهف .. ولو درسنا الأطفال الصغار لوجدنا الذكور أعنف وأميل الى التدمير ..

والمجتمع يقبل هذا السلوك ويشجعه . ويحرص عليه أيضا ..

وفي المناقشات نجد أن الرجال يتكلمون أكثر وبصوت مرتفع .. وعند الأطفال دون الرابعة نجد الذكور ميالين الى التدمير . وهم أكثر قلقا . وهم يحرصون على تكسير أدوات غرف النوم ..

ومن الملاحظ أن الصحف تنشر أركانا أو صفحات خاصة بالمرأة . صفحة المرأة . أخبار حواء . للنساء فقط .. وهذا يدل على أن الصحف حريصة على أن تعطى المرأة ما تريده ..

ومعنى ذلك أيضا أن المرأة تحرص على موضوعات خاصة بها . ويهمها أن تجدها وحدها بعيدة تماما عن السياسة والاقتصاد والموضوعات الأخرى . وان كانت المرأة تشارك الرجل الاهتمام بالرياضة .

وقد أجريت تجربة في أمريكا على ١٥٠ طفلا و ١٥٠ طفلة . وطلب الى الجميع أن يقوم كل منهم بإخراج فيلم سينمائي .. وأعطيت لهم جميعا أدوات متشابهة . فماذا حدث .. كان اهتمام الذكور بالمناظر الخارجية والحوادث والكوارث .. وكان اهتمام الإناث بالمناظر الداخلية في البيوت ..

وعندما أجريت تجربة أخرى على نفس الأطفال ، وطلب اليهم أن يرسموا أى شيء . رسمت الإناث وجوها وأشخاصا ، ورسم الذكور سيارات وحدائق وعمارات فالمرأة تهتم بالأشخاص ..

والرجل يهتم بالأشياء والأفكار ..

ولذلك فالذكور يختارون علم الكيمياء ، والإناث يخترن علم الحياة .

والمرأة لا تهتم فقط بالأشخاص ، وإنما بالعلاقات الشخصية . ولذلك تحرص المرأة على أن تنظر الى الانسان فى وجهه والى ملامحه واحدة واحدة وبدقة .. بينما يهتم الرجال بالعلاقات الانسانية عموما وبالعواطف الانسانية ..

ولذلك تحب المرأة أفلام رعاة البقر وأفلام الحياة فى الغابات ، لأنها تهتم بالعلاقات الانسانية المحددة أو تهتم برؤية الأشخاص بوضوح أكثر .

والمرأة خبيرة بمعرفة ما الذى يمكن أن يفعله الانسان اذا وضع فى موقف معين . وليس الرجل كذلك . وقد أجريت تجربة على عدد من الأزواج والزوجات . وكان السؤال : ما الذى يمكن أن يفعله زوجك اذا حدث كذا وكذا ؟ وقد نجحت كل النساء فى الاجابة وفشل كل الأزواج .

وفى داخل الأسرة الواحدة نجد الخلاف واضحا بين الرجل والمرأة . فالرجل أقدر على تكوين علاقات عملية ناجحة . وأقدر على الاتصال بالعالم الخارجى .

ولكن المرأة أقدر على التعاون والتدبير وتنظيم حال الأسرة .. والرجل أكثر تركيزا وأكثر استغراقا فى عمله . ولذلك يبدو الرجل كأنه منعزل عن الدنيا ، اذا راح يفكر فى شئونه العملية .. للدرجة أنه لا يشعر بالبيت أو بمن فى البيت .. ولكن المرأة تنشغل بالبيت وبكل مسمار فى البيت ، للدرجة أنها تحس ان الدنيا كلها قد انكمشت وانحشرت فى جدران شقتها الصغيرة .. ولو جلس رجل وامرأة أمام التليفزيون ورأيا انفجارا ذرييا وقال الزوج : كارثة ما الذى سوف نفعله بعد ذلك ؟ لأجابت الزوجة على الفور : ولا كارثة ولا حاجة نطلب من البواب أن يبحث لنا عن واحدة أخرى ؟

وواضح ان الرجل يتحدث عن الانسانية ومصيرها بعد هذه الانفجارات .. أما الزوجة فتتحدث عن مشكلتها مع الخادمة .. وانها لابد أن تبحث عن غيرها .

وعندما يتشاجر رجل وامرأة . فكل الرجال ميالون الى الصمت . أو الانسحاب أو الخروج من البيت .. أما المرأة فهى تواجه الموقف بالصراخ والبكاء .

والعالمة الأمريكية مرجريت سيد ترى أن الدنيا من الممكن أن تكون أحسن لو اعترف الجنسسان بأن كل واحد منهما أقدر من الآخر فى مجالات مختلفة .

فالرجل أقدر من المرأة فى الموسيقى والعلوم والرياضيات .. (فالرجل من الممكن

أن يحسب المسافة التي بين النجوم . ولا يعرف كيف يحسب أقساط الشلاجة على
عشرين شهرا) . . والمرأة أقدر من الرجل في العلوم الانسانية الآن هذه العلوم تحتاج
الى حاسة سادسة .

ولا تزال المرأة أقدر من الرجل في الكلام ، وهي طفلة وهي شابة . وأقدر من
الرجل في التعبير عن نفسها ولذلك تفوقت المرأة في اللغات . والرجل أقدر من المرأة
في حل الألغاز والفوازير ، والرجل أقدر منها على حل الأشياء وتركيبها . والمرأة
أقدر من الرجل في الأعمال التي تحتاج الى الملم سريع شامل ولذلك تفوقت في أعمال
السكرتارية .

والمرأة أقدر من الرجل في التربية والعناية بالآخرين . فالمرأة لها موهبة خاصة
في مراقبة الحياة عند الطفل وفي الحيوان وفي النبات - والانسان الآن أحوج الى المرأة
من أى وقت مضى . لأننا في عصر صناعة الموت بأشكال مختلفة . كما أننا في عصر
تتقدم فيه العلاقات الانسانية مثل : التربية والتمريض والتعليم . ولذلك تفضل
المرأة أن تشتغل بالتدريس والصيدلة والبحث الاجتماعى . .

وفي الإرجنتين نلاحظ أن ٩٠٪ من الذين يدرسون علم النفس في الجامعة من
الفتيات بينما ٩٠٪ من الذين يدرسون الهندسة من الفتيان .
وفي المستعمرات الاسرائيلية كانت المرأة تقوم بكل ما يقوم به الرجل . ولكن
المرأة اتجهت من تلقاء نفسها الى اختيار الحضانة والتربية والطهى .

وعندما حاول شباب « الهيز » أن يشعروا على التقاليد والعادات وعلى الأسرة ،
فانهم عادوا الى التقاليد القديمة . فهؤلاء الشبان أقاموا في الشوارع والاصطبلات
وفي الخيام . ولكن اتجه الشبان الى جمع الخشب واحرقه بينما اتجهت الفتيات
الى الفسل والطهى والكنس . . وفي الوقت الذي خرج فيه الشبان يبحثون عن
عمل ومال ظلت الفتيات يقطن الانتظار في التريكو . .

واذا كان الرجل يحب المغامرة ، فإن المرأة تفضل أن تكون محافظة . ولا تغامر .
والأحزاب السياسية في النرويج تدين بوجودها لمشاركة المرأة فيها .

وفي سنة ١٩٦٥ ليلة الانتخابات الفرنسية توجه الجنرال ديغول الى الشعب
الفرنسى قائلا : « الى كل سيدة فرنسية والى كل رجل فرنسى » ونجح ديغول لأن
المرأة هي التي أيده . . لقد حصل ديغول على ٤٠٪ من أصوات الرجال و ٥٣٪
من أصوات النساء . . والمرأة سعيدة بأنها أعطته صوته . لأن المرأة تحب ان يكون
لها هذا الأب الطيب الذي ينظر اليها ويرعاها . والمرأة تكره العنف وتكره الحروب
وتكره الفتن - لأن المرأة تحب أطفالها . . وأبناءها ولا تريد لهم ان يموتوا . ومن
الملاحظ أن المرأة في الجامعات الأمريكية بعيدة تماما عن كل الاتجاهات الثورية .
ولذلك فالمرأة أميل الى الدين والأخلاق والعلاقات الشخصية من الرجل . .

والمرأة أكثر احساسا بالروائح من الرجل . وإذا كنا نرى في الاعلانات رجلا يعانق زوجته قائلا: ما أجمل هذا العطر وراء أذنيك .

فليس سبب ذلك حب الرجل للعطور . ولكن سببه أن المرأة هي التي تحب العطور . وهذا الاهتمام بالعطور هو الذي جعل الرجال ينفقون ملايين الجنيهات على الصابون وعلى الكولونيا . .

أما الأشياء المنظورة فالرجال يفضلون الخطوط البسيطة الواضحة أما المرأة فتفضل الأشكال المعقدة الملونة . . حتى في البلاد التي لا يرتدى النساء والرجال شيئا ، فإن الرجل يصبغ جسمه بخطوط متقاطعة . . أما المرأة فتضع بقعا لونية متعددة الألوان على الصدر والخصدين والظهر والساقين . .

والمرأة أسرع نضجا من الرجل . . ففي الـ ١٤ سنة الأولى يجد الفتاة تنضج أسرع من الفتى .

بل أن الفتاة أكثر تقدما في النضج بستة شهور من أي شاب في سنها أي تسبقه في النضج العقلي والجسمي أيضا . وتكون أطول منه بثلاثة أرباع البوصة . ولذلك تحرص الفتاة على ألا يكون صديقها في مثل سنها ، لأنه في هذه الحالة يكون أقل منها نضجا . ولذلك تفضله أكبر منها سنتين أو ثلاثا . . أي في مثل نضجها العقلي ولذلك نجد الفتيات في المدارس الثانوية أكثر وعيا من الفتيان . أما في الجامعة ، فإن الشبان يستدركون ما فاتهم بسرعة . .

ولكن من الواجب أن نتساءل هل صحيح أن هذه الخلافات الاجتماعية بين الرجل والمرأة طبيعية ، أم أن المجتمع هو الذي خلقها ؟

هناك رأى يقول أن أنثى القروء تميل إلى ارتداء الملابس وخلعها . وتميل إلى الزينة أيضا . ولو أعطيت هذه الملابس إلى الذكور لجعلتها على شكل كور وراحت تتقاذفها - بين القروء . ومن الممكن أن نجد سلوكا شبيها بذلك بين أطفال الإنسان أيضا .

ومعنى ذلك أن هذه الخلافات في السلوك الاجتماعي طبيعة عند الإنسان وعند القروء أيضا .

ولكن يلاحظ أن الأدباء إذا وجدوا طفلا ناعما رقيقا انزعجوا لسلوكه . وطالبوه بأن يكون رجلا حمشا . وإذا وجدوا طفلة فيها خشونة وعنف طالبوها بأن تكون رقيقة . فالمجتمع لا يريد الأنثى التي تسترسل ولا يريد من الرجل أن « يستأنث » . وإنما يريد الرجل رجلا ، والأنثى أنثى . ويحرص على ذلك . ويدعو إليه . ويكافئ الجميع .

ومن المؤكد أنه في تاريخ الحضارات الإنسانية - وعددها أكثر من مائة - وجدنا

الرجل هو الذى يصيد الوحوش ويصنع الأسلحة ووجدنا المرأة هى التى تطحن القمح وتجمع الأخشاب والبذور وتربى الطفل ..

وبعض العلماء يؤكّدون أن الكيمياء سوف يكون لها أثر كبير على السلوك الاجتماعى للرجل والمرأة . فقد لاحظ بعض العلماء أنهم عندما حقنوا أنثى القرد أثناء الحمل كان وليدها بعد ذلك عنيفا شرسا حتى لو كان هذا المولود أنثى . إذن فى الامكان أن تكون الأنثى مسترجلة - اذا أردنا .

والتربية المنزلية لها دخل فى تشكيل السلوك الاجتماعى للأطفال . فلو فرضنا أن إحدى الأمهات تعامل طفلها - ولدا أو بنتا - بمنتهى القسوة والاهمال . فسوف تكون النتيجة لن تصبح البنت عنيفة ، أما الولد فسوف يكون مائعا . وإذا أحبت الأم بنتها ، عادت للولد صفات الرجولة . أما البنت فستكون فى غاية الرقة والحنان . ومن المناسب أن نسأل : هل التعليم المشترك هو الذى أدى الى نعومة الأولاد وحشونة البنات ؟ واضعاف الفوارق بين الجنسين ؟.

ان التعليم فى العالم كله لا جنس له . ففى رياض الأطفال يجد الأطفال الذكور أنفسهم فى مجتمع نسائى تماما . فالناظرة والمدرسات والطالبات أغلبية ساحقة من الجنس الآخر . وسوف يجد الطلبة الذكور ان هذا المجتمع يطلب اليهم ضرورة الطاعة والكلام بصوت منخفض أو الصمت والنظافة وعدم اللعب وعدم تكسير الأدوات - وفى هذا الجو تستريح الطفلة - لأنه جو نسائى طبيعى جدا وهو عكس ما يريد به الطفل . فالطفل يستريح الى الصراخ والزعيق واللعب العنيف والحركة . ولذلك يضيق الأولاد بهذا الجو .

وفى المدارس التى يجلس فيها الذكور وحدهم والإناث وحدهن أثناء الدراسة ، يشيع الهدوء والصراحة . فكل جنس يشعر أنه فى مكانه الطبيعى وأنه منسجم مع الآخرين ..

ولكن من الأفضل أن يلتقى الأطفال الذكور والإناث بعد ذلك فى الفسحة وفى المطعم وفى الملاعب .. يجب ألا يتباعد الجنسان ويجب ألا ينعزلا ..

ومن المؤكد أن تقارب الجنسين يؤدى الى القضاء على الكثير من الأوهام والمخاوف بين الجنسين . وما دامت الأسرة رجلا وامرأة وأطفالا بعد ذلك ، فلا بد أن يلتقى الجنسان فى كل المناسبات ليكون التفاهم بينها مؤكدا بعد ذلك . وما دام الحب طريقا الى الزواج ، فكيف يكون حبا بلا رؤية واضحة وتعاطف واحساس بالتواجد والتقارب المستمر ؟

واقرب الآراء الى المنطق أن يقال ان هناك خلافا بين الجنسين . لا شك فى ذلك . ولكن هناك آمالا واحلاما مشتركة . ولا بد من أن تؤكّد الرجولة للرجل ، والأنوثة للأنثى ..

...والأطفال يحتاجون الى نماذج جيدة :- الطفل الى- الأب والطفلة الى الأم ..
والمجتمع نفسه محتاج الى قدرات خالقة من الايات والرجال : عبقرية الرجل
في التفكير والابداع . وعبقرية المرأة في الانسجام والعناية والرعاية والحب من أجل
أن تبقى الانسانية ، وأن يبقى العالم الذي نحلم به ..

لا بد من وجود الرجل والأنثى لكي يكون لدينا نوع من الاثارة اللذيذة التي
لا يمكن أن تتوافر في مجتمع كله رجال أو في مجتمع كله أناث .. لا بد من الجاذبية
الجنسية بين الطرفين .

ومن المؤكد أن الحياة تصبح أحمل وأروع لو استخدم كل جنس أسلحته
في اجتذاب الجنس الآخر . وليس أعظم من بيت يصنع فيه السعادة اثنان .
ويقتسمه اثنان ويبنيه اثنان . ولا بد أن يكون هناك اثنان هما مصدر الحب
والسعادة والحياة للأطفال آخرين ..

أما اذا حاول كل جنس ان يبدو كالآخر ، فالمرأة كالرجل ، والرجل كالمراة ،
لخسرنا الرجولة والأنوثة وخلقنا جنسا ثالثا . ان كل الاتجاهات الحديثة في الفكر
الأوربي ترحب بالجنس الثالث .. وتهتف بحياة الجنس الثالث .. ولكن من المؤكد
أنه لن يبقى الا الجنس الأول والجنس الثاني .. هذا جنسان يختلفان يلتقيان
ويتعانقان .. بشرط أن يكون للجنسين نفس الحقوق ولكن لهما واجبات مختلفة ..



في القرن الواحد والعشرين

— ٧ —

لن يكون هناك فارق كبير بين زوجتك يوم ٢١ ديسمبر سنة ٢٠٠٠ وبينها يوم أول يناير سنة ٢٠٠١ أى في اليوم الأول من القرن الواحد والعشرين . وربما كانت مرهقة بعض الشيء بسبب الضحك المفتعل الذي أطلقته من أعماقها كأنها تريد أن تقتلع الماضي من نفسها . . أو كأنها تريد أن تقتلعك أنت وقرفك من تاريخها . .

وربما كان الضحك والارهاق وهذه المحاولة العنيفة قد هدت حيلها وجعلتها أهدأ جسميا ونفسيا ، وقد تنوهم أن القرن الواحد والعشرين قد بدأ والعالم كله لا يدري بنهاية قرن وبداية قرن آخر . . وفي استطاعتك أن تقوم بتجربة واحدة لا تخطيء : امتدح أية واحدة كانت بالقرب منك يوم رأس السنة . . وإذا حاولت زوجتك أن تتظاهر بأنها لم تسمع بوضوح . . فقل لها بوضوح . . وهذا الوضوح من جانبك سيفرئ الزوجة بأن تكون أوضح ، وسوف تستعين زوجتك على توضيح وجهة نظرها بيديها وعينيها في معظم الأحيان ، فإذا وضعت يديها في خصرها وامام كل الناس فهي تريد بذلك أن تكون واضحة مرئية للجميع ، الذي يراها يريد أن يسمعها أيضا ، وسوف تقول بالحرف الواحد : انت فاكِر نفسك ايه . . انا أثبت بك من الشارع وعلمتك كيف تسكن البيوت النظيفة . انت لم تكن تعرف غير الجرابيع من مثل هذه السيدة . ولكنك الآن تعرف أحسن الناس . انت لم تكن تعرف معنى الطعام النظيف والملابس النظيفة والنوم الهاديء . . ولا داعي لأن تفعل بالمرّة . ولا تشعر مطلقا بأن زوجتك قد افتتحت القرن الواحد والعشرين بفضيحة . لا تفضب فسوف يتصرف جميع الأزواج من تلقاء أنفسهم والزوجات أيضا .

فقد حدث ذلك في كل بيت في نفس اليوم أو قبل ذلك بأيام . ومادام قد حدث في القرن الواحد والعشرين فسوف يظل الى نهاية القرن . ان طبيعة المرأة لم تتغير . ولن تتغير . وسوف تشعر المرأة دائما أنها محكوم عليها بأن تظل مرتبطة بالرجل ، وأن تعاني هذا الارتباط . . ولذلك لا تجد ممتعة في الارتباط ولا تجد مفرا منه .

ولو خرجت أمام البيت الذى أمضيت فيه رأس السنة يوم ٣١ ديسمبر سنة ٢٠٠٠ لوجدت اثنين من المتسولين : رجلا وامرأة ولسمعت هذا الحوار بالحرف الواحد ، كما رواه لنا الأديب اليابانى الفائز بجائزة نوبل فى العام الماضى ..

تقول زوجة الشحاذ : كنت لا تجرؤ على الجلوس أمام العمارات أما الآن فأنت تجلس .. بل أنت تبصق على الأرض أمامها . وتمسح قدميك فى جدرانها .. كيف الحال الآن ..

— لا أفهم .

— أنت عادة لا تفهم ما يضايقك ..

— لا أفهم أيضا ..

— لأنك لا تفهم أى شىء على الإطلاق أنا لا أعرف كيف كنت تعيش .. لا أنت تفكر فى شىء .. لا فى نفسك .. ولا فى غيرك .. ولا مستقبلك .. من الذى جعلك تفكر فى كل شىء .. من ؟ قلها ! ولو مرة واحدة ! قلها !
— أنت ...

— وتقولها من تحت الضرس .. صعب عليك أن تعترف لى ولو مرة واحدة بأننى نقلتك من الحوارى الى أرقى الأحياء .. حتى ولو القى القبض عليك الآن .. فلن يقول أحد انك شحاذ .. سيقولون انك متشرد فقط .. ومعظم الناس متشردون ..

— ولكنك لست متشردة ..

— هل أتشرد وأنت على قيد الحياة . أين الرجولة .. أين التضحية .. لو كنت رجلا لركبت سيارة ومددت يدي للناس .. ولكنى امرأة كل ما تملكه هو قلب يحس .. ويحب رجلا لا يدرى به ..

— وهل للشحاذ قلب .. قلب الشحاذ فى معدته ..

— انت وحدك الذى لك قلب فى معدتك .. اننى أعرف شحاذين يتناولون طعامهم المتواضع فى ظلال الأشجار فى الليالى القمرية ..

— لأنهم وجدوا الخبز أثناء ظهور القمر فى السماء .

— أنت لا ترى القمر .. أنت لا ترى غير رجال البوليس .. ومع ذلك فأنت لم تعد تخافهم .. أنا شددت ساعدك وجمدتك قلبك .. ولكنك تنسى .. وحتى اذا أخذك رجال البوليس وضربوك بالكرباج فهذا افضل لأنهم فى الأحياء الفقيرة يضربون الناس أمثالك بالجزمة . ألا تقل لى كلمة شكر واحدة .. كلمة واحدة .

— بل أجد أكثر من كلمة : ألف شكر يا زوجتى العزيزة .. ويجب أن نعود الى الحوارى ..

— الى الحوارى ؟ .. عد وحدك .

— وأنت سوف تهودين .. لأنك هنا تتكلمين كثيرا وتصدين نفسى عن التسول .. فأما أن تسكتى أو نموت جوعا ..

.. الخ هذه القصة التي تؤكد انه حتى زوجة الشحاذ تذكر فضلها عليه لانها ارتفعت بمستواه من حارة الى شارع ، ومن الضروري أن يذكر لها زوجها هذا كله بالامتنان .. ولو أدى ذلك الى موته جوعا ، أما هي فلن تموت وانما سوف تبكى عليه . وفي بكائها اثارة لشفقة الناس .. وعلى شفقة الناس ، وعلى جثة الزوج تعيش من جديد ..

وسوف تبقى المرأة عاملة في القرن ٢١ فالعمل قد اعطى للمرأة أهمية وجعل لها شخصية ، وأدخلها في برواز اجتماعي . فلها ساعات عمل . ولها صفة ، ولها مرتب ، وهي في ذلك تتساوى بزوجها ، ولم تعد مجرد ست بيت .. أو ست في البيت ..

وان كانت المرأة العاملة تتمنى لو استطاعت أن تشعر بأمومتها معظم الوقت وكثير من العاملات يندمن على أنهن لم يمضين وقتا كافيا مع الأولاد . وان كنا نجد أمهات عندما يذهبن الى مكان العمل يحمدن الله بصوت مرتفع : فلا أطفال و لا دوشة ..

وأحيانا : ولا أطفال ولا زوج ولا قرف ..

والأرقام تؤكد أن الزوجات العاملات يتمنين لو كانت عندهن امكانيات العناية بالطفل . وهذه مشكلة سوف تقوى في القرن ٢١ ، فاذا كانت الأم قد اعتادت الآن أن تنجب أطفالا حسب الطلب . فمشكلة هؤلاء الأطفال المرغوبين أنهم لا يجدون الأم ولا يجدون الأب : أي لا يجدون النموذج والقدرة الحسنة . واذا كان القرن العشرون قد عانى كثيرا بسبب هؤلاء غير المرغوب فيهم من الأطفال ، فسوف يتعذب القرن التالي من الأطفال الذين دعاهم أبائهم الى الحياة فلما جاءوا لم يجدوا أصحاب الدعوة .

صحيح ان الفتاة تفضل وهي دون العشرين أن تكون جذابة للرجل . ولأن المرأة لا تريد أن تكبر وأن تظل صغيرة ، فهي تحب أن تكون جذابة أطول وقت ممكن . وهذا يضع عليها فرصة أن تكون زوجة وأن تكون أما ولكن اذا أصبحت أما فانها تحب أن تكون أما محبة لأطفالها ، ولا توجد أم تفضل أن يكون لها طفل واحد ولا اثنان . أكثر الأمهات يفضلن أن يكون لديهن ثلاثة من الأطفال على الأقل . في القرن الماضي كان من المألوف أن تجد الأم ووراءها سبعة أو تسعة من الأطفال ..

واذا اشتغلت المرأة ، في هذا القرن أو القرن المقبل فمن الضروري أن تجيب عن هذه الأسئلة الثلاثة : ما أثر العمل على الزوج ؟ وما أثره على الأطفال ؟ ثم ما أثره في الحياة الزوجية نفسها ؟

كثير من الأزواج يفضلون أن تعمل الزوجة . لأن العمل يريحها نفسيا أو لأن العمل يستغرق فراغها . أو لأن العمل يجعلها تعرف كيف يتعب الرجل أو كيف يحصل على القرش الذي تتخلص منه الزوجة بلا تعب .. أو لأن الرجل يريد أن تذوق زوجته معنى المساواة في التعب والعرق والحرمان من البيت والأطفال ، ولكن المرأة تفضل أن تعمل وسوف تعمل وسوف تدفع الثمن من راحتها ومن انوثتها أيضا . وبعض الرجال يفضلون أن تعمل الزوجة ، لأنها تساعد في نفقات الحياة .

وفى الكتاب المقدس جعل الله العمل عقوبة للرجل وجعل الولادة عقوبة للمرأة ، ولكن أقسى العقوبات أن يعمل الرجل ولا تقدر المرأة تعب الرجل . فالعمل مرهق وسوء التقدير عذاب آخر . وأقسى من هذا العذاب أن يجد الرجل نفسه مربوطا من عنقه بامرأة تحرص على أن تسيء اليه وإلى عمله . . وأن تحول بأصابعها الساحرة كل ما جاء من ذهب إلى تراب . وإذا وجدت يدها خالية حولت الرجل أيضا إلى تراب . . ومشت على الجميع ؟ . .

ولكن المجتمع الحديث ينظر باحترام واشفاق أيضا إلى أصحاب الياقات البيضاء . . أى العاملين من الرجال والنساء . . ولكن الاحترام الاجتماعى شيء . والحياة الاجتماعية شيء آخر . . وإذا كان الناس يريدون الاحترام فمن الممكن أن يحصل عليه الإنسان بالصمت . . أى بالامتناع عن الكلام . . ولكن الحياة شيء آخر . ولذلك عندما ينفرد الزوجان فى بيت واحد فليست هناك ياقات بيضاء ولا مجتمع ولا احترام المجتمع ولذلك يحس الزوجان أن المجتمع أرحم لأنه أوسع وأكثر تنوعا وأقل تضيقا وقيودا . وهناك مثل أمريكى معروف يقول : أن الإنسان لا يكون فى نظافة الياقة البيضاء التى يضعها أمام الناس . .

ومن الأمثال أيضا قول الحماة : بل أريد أن أراه من غير ياقة بيضاء — أى تريد أن ترى العريس على طبيعته . .

ولابد أن يكون لعمل الزوجة أثر على أطفالها . وأثر على حياتها الزوجية نفسها طبعاً . ومن المناظر المألوفة فى المدن الأمريكية أن نجد (أطفال المفاتيح) — أى الأطفال الذين تعلقت المفاتيح فى أعناقهم — يدخلون البيت ويخرجون كما يريدون دون أن يكون هناك أحد ، لأن الأم تعمل والاب أيضا . .

ويمكن أن يقال أن الرجل نفسه فى القرن ٢١ لن يكون حمشا ولن تكون له عضلات مخيفة . فالعلم الحديث قد وفر على الرجل عضلاته فهو لا يمشى من القاهرة إلى الاسكندرية أنه يركب المواصلات . وهو لا يقطع الصخور . الآلات تفعل ذلك ، وهو لا يحمل أثاث بيته على كتفيه ، السيارات تنقل ذلك . . فلا توجد فرص للرجل لكى يظهر عضلاته وقوته . وهنا نجد المرأة التى انتظرت طويلا فرصة مناسبة . فهى بلا عضلات ، ولكن عضلات المرأة أعصابها ، وقوة المرأة احتمالها وعمر المرأة صبرها .

ولن يطرأ أى تغيير على الرجل فسوف يبقى محكوما بالعمل ، وسوف يستغرقه العمل حتى يفرقه . فإذا أغرقه العمل أرهقه وهد حيله ، ولكن المرأة تنتظر منتعشة ولا ترى إلا رجلا مهتما ، والمرأة لن تضيق وقتها فى الرثاء لحال الرجل والبكاء على شبابه . فهذا شأنه وهو الذى اختار وهو الذى يجب أن يبكى على حاله وأن يمشى فى جنازة نفسه . وأن يترحم على حياته الغالية وهو على قيد الحياة ، أما المرأة فيجب أن تستدرك ما فاتها مئات السنين ، وأن تعيش . . فالحياة للأصلح . والمرأة أم الحياة وأصلح للحياة من الرجل . المرأة قادرة على أن تعيش . ولكن الرجل قادر على أن يخلق أساليب المعيشة : يشق الطريق ولا يمشى فيه . يصنع الطعام ولا يذوقه . يضيء لغيره ويموت ليعيش غيره . . وغيره هو المرأة دائما .

. ولكن المرأة لا تتسلط على الرجل - عادة - الا اذا كان ضعيفا . ضعيف الجسم
أو ضعيف الشخصية أو فقيرا ..

ومن المشاهد الجميلة في تعبيرها في احدى قصص دستوفيسكى ، أن زوجة
تلقت في يوم واحد أن زوجها فصل من عمله . وانكسرت ساقه . وأحرقت النيران
بعض مذكراته . وأصيبت الزوجة ببرود شديد .. وعجزت عن البكاء الأول مرة .
وأخيرا نهضت تقول لزوجها : هل من الضروري أن ادعو أقاربك ليشهدوا هذه
النهاية ..

. ولم يفهم الزوج . فعادت تقول له : ان لم تكن تعرف انك مت فعلا .. فمتى
تعرف ذلك .

وقامت الزوجة ولفت الزوج في ملابسه .. وكومتها على رأسه ، وطلبت اليه :
تستطيع الآن أن تموت في هدوء . فقد كان يوما قاسيا عليك .. لقد قتلوك أكثر من
مرة .

وسألها الزوج ساخرا : والى اين تذهبين ..

قالت الزوجة : لا أخفى عنك .. فانت الآن على فراش الموت . فلا أنت تكذب
ولا انا .. سأذهب الى ابن عمى لقد انتظرني طول عمره .. هل نسيت ..

وخرجت . ولم يعترض الزوج ، وظل في مكانه ينتظر الموت الذى « فرضته »
الزوجة على زوجها .

فهل سيبقى الجنس ضرورة أيضا ؟

والجواب أن الجنس احدى الضرورات ، ولكنه لم يكن الضرورة الوحيدة ..
فهناك ضرورات : الطعام والشراب والامن والجنس والتقدير والعمل .

وفرويد كان يقول : ان الحضارة لم تتقدم الا على أساس من التضحية بالضروريات
.. ومن بين الضروريات الجنس . فقد تسامت الحضارة بالجنس . واتجهت الفريزة
الجنسية الى أنواع مختلفة من النشاط : الحب وحب الجمال والموسيقى والفناء
والرياضة ..

والاديب همنجواى يقول : ان الجنس قوة خطيرة ولكنها قوة تدمر الابداع
الانسانى أيضا . ولذلك على الذى يبدع أن يربط نزعاته ويحبسها فى داخله ..

ويقول كامى : ان أظم ينابيع الحياة قد فجرها الانسان فى السرير وتركها
هناك . وعاد أخف وزنا وأقل قلقا وأقصر جناحا ..

ولكن الحب هو وحده القادر على أن يجمع بين طرفين من الناس . وأن يذيبهما
بالجنس . وأن يذيب المسافات الباردة - العزلة - بين الناس ، وبعد أن تذوب
المسافات . يتجمد الناس على مسافة واحدة أو تتجمد المسافات بين الناس .

وكان العالم الكبير اشتراسمان يقول : انه كلما كبر صدر المرأة صغر عقلها ،
وكلما كبر عقلها صغر صدرها .

وقد جاءت هذه النظرية تتويجا لدراسة شاملة على مئات النساء اللاتي لا ينجبين .

غير أن هذه النظرية التي هزت الفكر الانساني في أوائل القرن العشرين ليست دقيقة ، فهناك سيدات ممتازات عقلا وجسما أيضا . وهناك سيدات عظيمات أمهات أيضا . ولكن من الصعب أن يكون للمرأة صدر وتفكر بعقلها . ومن الصعب على الرجل أن يرى ساقين جميلتين ويستمتع الى ما تقوله المرأة ..

ولن يكون الزواج هو بر الأمان في القرن ٢١ ، لن يكون الزواج هو المنقذ من الضلال ، ومبعوث العناية الالهية .. ولن تكون الزوجة أيضا هي منحة السماء والملاك الحارس . وانما سيكون لكل شيء حجمه ووزنه . فالزوجة : امرأة . والزوج : رجل . وشاءت الصدفة أن ترمى بالاثنيين في مكان واحد . وشاءت صدفة أخرى أن تقرب ذبابة من وجه المرأة فاخرجت مندليها بسرعة من شنطتها وسقطت الشنطة عند قدمي رجل كان يلعب في شعره .. والتقت عينان ، وخرجت بسرعة من فمها كلمة : شكرا .. ومن فمه كلمة : عفوا .. وكانت كلمة المرأة (سنارة) متواضعة جدا .. وتعلق فيها الرجل الطويل العربة وشاءت المرأة بذكائها وخبثها أن يسبقها الرجل وهو مربوط في السنارة ليتصور أنه هو الذي يسحبها ورائه .. وسحبها الى البيت .. وعلق السنارة على الحائط رمزا لانتصاره في عالم الصيد ..

وسوف يكون الطلاق أمرا سهلا .. لأن الزواج كان سهلا . وسوف يتخذ الزواج شكل الأعمال التجارية شكل الشركات .. التي تكون لها شروط .. قابلة للفسخ اذا قرر أحد الطرفين ذلك . وبذلك لا يكون الزواج نعمة ولا يكون الطلاق نقمة . وانما هي علاقات حرة . تظل ما دامت ضرورية . وتنفك عندما لا تكون لها أي ضرورة . وفي ذلك أمان وضمن للمرأة . وقد كان الزواج - فيما مضى - هو الضمان الوحيدة للمرأة فأصبح العمل والاستقلال الاقتصادي والاعتماد على النفس هو الأمان الوحيد عند المرأة ..

وفي أمريكا اتجاهات عامية للتخفيف من أعباء الحياة الزوجية . أو الزواج نفسه . وذلك بأن يكون للزوجين الحق في أن يتعاقدا لمدة سنتين فاذا نجحت هذه العلاقة لمدة سنتين كان في امكان الزوجين أن يتعاقدا مرة أخرى على الاستمرار في الزواج . فاذا فشل الاثنان في السنتين الاوليين كان من حقهما أن ينفصل كل منهما عن الآخر ..

اما العلاقات بين الجنسين في القرن ٢١ فسوف تكون لها أشكال مختلفة :

١ - الزوجة الواحدة .. أي يكون للرجل زوجة واحدة دائما .. لا زوجة واحدة حتى الموت .. ولكن من حين الى حين . أي أكثر من زوجة ..

٢ - علاقات زوجية أو جنسية بلا مسئولية . وهذه العلاقات موجودة الآن في كثير من الطبقات الفقيرة وربما كانت هذه هي العلاقة التي سوف تنتشر في القرن ٢١ ، أي علاقات ثابتة غير زوجية ..

٣ - وعلاقات متعددة للرجل والمرأة أيضا .. أى تكون هناك واحدة للحب وواحدة للفسحة وواحدة للأطفال وواحدة للفلوس .. ونفس العدد للزوجة أيضا . ومن حق الزوجين أن يتساءلا أيضا : ولماذا الزواج ؟

٤ - وسوف يعرف الناس أبوة بلا زواج .. وأمومة بلا زواج .. وهذا منتشر جدا في السويد . من المؤلف في السويد أن تجد الفتاة أما لاربعة من الأطفال : كل واحد له لون وله أب .. والأم لم تتزوج قط .. ومن الممكن أن يكون هناك أب دون أن تكون له زوجة . كأن تكون الأم قد ماتت . أو اختلفت مع الزوج وتركت له الأطفال لأنهم صورة منه ، وهى لا تريد لا الصورة ولا الأصل .

٥ - وتقول العالمة الأمريكية الكبيرة مرجريت ميد ان المستقبل سوف يعرف الأسر التى تنجب الأطفال فقط . والأسر التى لا تنجب الأطفال .

وان الأطباء والعلماء هم الذين سيقرون أن بعض السيدات أقدر على الأمومة من غيرهن .

٦ - العلاقات الشائعة .. أو علاقات على المشاع كالتى بين شباب الهيبز الآن . فهم يعيشون فى أماكن محددة : الشبان والشابات معا .. ينامون معا ويأكلون معا .. الى آخره .. الى آخره .

٧ - تعدد الزوجات شرعا .. فقد لوحظ فى أوائل هذا القرن أن عددا كبيرا من الأرامل قد تجاوزن الستين وانهن غير قادرات على الحياة . ففكر عدد من الرجال الطاعنين فى السن القادرين ماليا ، على الزواج من أكثر من واحدة . واستنكرت الكنيسة ذلك ، ولكن أمام اصرار العواجيز والشيوخ وحسن النية ، سكنت .. وسوف يحدث ذلك فى المستقبل دون أن يعترض أحد .

٨ - وسوف يحلم الناس فى القرن ٢١ بحياة ممثلى الشاشة الذين يتزوجون وينفصلون بسهولة ؟ وعلى الرغم من هذه الحرية التى يستمتع بها الممثلون ، فلهم علاقات أخرى .. ومع ذلك لا يستنكر الناس المعجبون بهم ، هذه العلاقات الخارجة على القانون والتقاليد والأخلاق والدين .

أما الزواج نفسه فهو فى معظم الأحيان مقامرة .. والقمار فى معظم الأحيان جنون .. والزواج الطويل ليس معناه الزواج الناجح . ولكن سوف يبقى الزواج اطارا تتحرك وتتحرق فيه العلاقات الانسانية .. وسوف تجد المرأة حريتها فى هذه القيود الزوجية ..

وسوف يجد الرجل فى قيود العمل حريته .. وسوف تتصارع حرية المرأة وحرية الرجل فى ميدان واحد ضيق هو البيت .. وسوف تتطاي شظايا تصيب الاثنين أو الصنفار .

ورغم هذا كله فسوف يبقى الزواج لأن الإنسانية لم تجد شكلا أحسن منه : ولا
اطارا أقوى منه ، ولا قيذا يتحداه الرجل ويستسلم له في النهاية . أما المرأة فسوف
تظل تتفرج على الرجل وتبكيه . وتبكي عليه .. وعلى نفسها أكثر .. ولكن الدموع
لم تفرق أحدا ولا شيئا .. ولذلك بقي الحب وعاش الزواج ومات الأزواج أولا ..
والزوجات بعد ذلك .. واستأنف الأطفال لعبه الحب التي هدفها الوحيد : الزواج



أجل وأقصى
ما خلق الله

النساء شيء طبيعي أو رياضي خلقه لنا

(١)

المرأة أقل من رجل وأكبر من طفل .
إنها باب جهنم ..

لم يخلقها الله من رأس آدم حتى لا تسرف في طموحها ، ولم يخلقها من قدميه حتى لا تمرغ كرامتها في الأرض ، خلقها من ضلعه لتكون قريبة من قلبه .

أسهل جدا أن تمشي وراء أسد من أن تمشي وراء امرأة .
ليس أسوأ من امرأة ، ولو كانت طيبة .

وعبارات أخرى التصقت في عيني الرجل وهو ينظر الى المرأة من خلال منظار متلون اسمه : رغباته الملتهبة .

وإذا مسح الرجل هذه العبارات من ذاكرته ونظر الى الشارع .. أى شارع . فمن السهل جدا أن يرى أن الانسانية مكونة من جنسين مختلفين في الشكل والملايح والأزياء والوظيفة والهموم : رجل وامرأة . وليس من الصعب أن يلاحظ أن هناك ميلا خفيا بين الجنسين . وأن كل واحد منهما يحاول أن يخفى هذا الميل أو يتفنن في إخفاء ما يريد أو في اظهار ما لا يريد .

وإذا اقترب من المرأة أكثر فإنه يجد أن المرأة تشعر بشيء من « الحرج » من وجودها « مع » الرجل في مكان واحد .. أى مكان . ولذلك فهي تحاول أن تبذل جهدا كبيرا لتبدو طبيعية . كأن أحدا آخر ليس موجودا . ومن بين محاولات المرأة في أن تكون طبيعية كأي رجل . حرصها على أن تستعير بعض أساليب الرجل في الكلام والحركة وبعض العادات . بعض النساء يحاولن أن يستخدمن عضلاتهن وكثيرا لا يفلحن .

هناك أدبية معروفة غضبت من أنهن وضعوا صورتها بين مجموعة من الأدبيات .. وطالبت بأن تكون صورتها بين الأدباء . ولم يستمع أحد إليها .. فاستعانت بنفوذ

زوجها ! فكأنها وحدها لم تستطع .. وهى وحدها عاجزة عن أن تفعل شيئا . وهذا ما يضايق المرأة كثيرا .

كما أن المرأة التى تحاول أن تقلد الرجال لا تلقى احتراما من الرجال ومن النساء ولكن احساس المرأة دائما أنها أقل من رجل ، يضايقها . ولا تعرف ما الذى تفعله لكى تبدو مساوية للرجل . ان الكتب التى تدرسها المرأة تؤكد لها دائما ، انها أقل . وانها تعتمد عليه . انها شىء يضاف اليه .. انها من « متعلقات » الرجل .. أنها ضمن عالمه .. وليس لها عالم خاص ولا يمكن أن يكون لها عالم خاص ... فالمرأة تقرأ ان الفيلسوف أرسطو يقول : ان المرأة رجل ناقص التكوين ..

وتقرأ أن القديس توماس يصفها بأن خلقها لم يتم ..

والكتاب المقدس يقول : ان الله خلقها من ضلع آدم ..

أى أنها أقل من الرجل أو جزء منه ..

والحديث النبوى يقول : انهن ناقصات عقل ودين ..

ما الذى تصنعه المرأة أمام هذا « الموقف » ؟ ..

ان المرأة ليست ضعيفة . ولا هى اقلية . فعدد النساء مثل عدد الرجال . ولكن النساء لسن طبقة . أو لسن عنصرا . فلسن كالطبقة العاملة مثلا التى تريد التحرر من الاستغلال . ولسن مثل الزنوج ..

والنساء ليس لهن تاريخ خاص بهن وليس لهن دين خاص بهن . وانما النساء مبعثرات فى دنيا الرجل . لا تربطهن أية رابطة واحدة تجعلهن قادرات على التحرر من الرجل . ومن قيود الرجال .. ومن عالم ولدن فيه ورببن وكبرن وثرن عليه اسمه : دنيا الرجال ..

والنساء فى دنيا الرجال كل واحدة مرتبطة أو مربوطة من رجل : أبيها أو أخيها أو زوجها أو ولدها .

ان المرأة اذن ليست حرة تماما .

وفى كل تاريخ المرأة لم نجد لها قد اكتسبت حقا جديدا . وانما أخذت المرأة ما أعطاه الرجل من حقوق . فكأن المرأة لم تفز بحق . وانما فقط تسلمت حقا من حقوقها .

وعلى الرغم من أن علاقة المرأة بالرجل كانت — زمنا طويلا جدا — علاقة السيد بالخادم . أو علاقة الحر بالعبد . فان المرأة لم تستغل ضعف الرجل أمامها .. احتياجه الشديد لها . وانما ازدادت حقوق السيد ولم تزد حقوق العبد . والسيد يضيف الى حاشيته مزيدا من الحريم ولكن الحريم لا يضمن اليهن مزيدا من الرجال ..

والأساطير الاغريقية تحدثنا عن هرقل الذى مرض . فحكمت عليه الالهة بأن يعرض نفسه للبيع فى سوق العبيد . ففى ذلك شفاء له . واشترته الملكة « امفال »

وأحبته . وأنجبت منه طفلا . وكانت تجد متعة في أن تجعله يجلس بين النساء يمسك لها الخيوط وهي تغزل . وكانت تجد متعة في أن ترتدى هي ملابسها ويرتدى هو ملابسها . وكانت تجد لذتها الكبرى في أن تضربه بالكرباج وبالجزمة . . وكانت تجد متعة أكبر في أن يفعل بها ذلك . .

ولكن « امفال » هذه لم تستطع أن تتحكم في هذا البطل هرقل بسبب حبه الشديد لها . . انها أعطت نفسها وكانت نشوتها الكبرى في أن تذوب بين ذراعى الرجل الذى تحبه .

وقصة ميديا التى أحبت جانسون . وكانت تعلم أنه يجب أولاده . وخانها فانتقمت منه بأن ذبحت أولاده أمام عينيه . وكان فى استطاعتها أن تتحكم فيه بسبب حبه الشديد لأولاده . ولكنها لم تفعل .

والفنان العظيم اريستوفانس يروى فى إحدى مسرحياته كيف ان النساء انتقمن من الرجال . وذلك بأن سيطرن عليهم تماما . أى أن النساء تحكمن فى الرجال . ولكن هذه السيطرة لم تظهر الا على المسرح فقط .

كما حاولت نساء مقاطعة سابيين أن يعذبن الرجال فأضربن عن الحب والقبلات والحمل والولادة . . ولكن هذا العناد لم يستمر طويلا . . فقد تهاوت قلوب النساء واحدا بعد واحد .

ولم يحدث قط أن تحررت المرأة من قيود الرجل عن طريق التحكم فى رغباته وشهواته - أى عن طريق التحكم فى الجنس وانجاب الأولاد .

وعلى الرغم من أن فرص المرأة فى الحياة أكثر من أى وقت مضى عليها ، فان هناك صعوبات وعقبات كثيرة فلا يزال الرجل يحتكر المراكز الكبرى ويحصل على أكبر أجر . ولا يزال هو السيد المطلق فى عالم السياسة والصناعة . صحيح أن المرأة قد احتكرت مهنة التدريس والأطفال . ولكن ما الذى تقوله المرأة للأطفال ؟ انها تلقنهم تاريخ الانسانية . وتاريخ الانسانية هو تاريخ الرجل . أما ما الذى تقوله المرأة أيضا للفتاة الصغيرة فهو تاريخ الرجل أيضا . واذا كانت المرأة هى التى تعلم المرأة ، كان الزواج هو هدفها النهائى . والزواج هو حصن الأمان للمرأة فى دنيا الرجال .

ولكن ماذا يحدث لو انكرت المرأة هذه التقاليد والعادات التى سبقتها الى الوجود ؟ .

ان المرأة قبل أن تولد سبقتها الى الدنيا قواعد ثابتة . وقوانين وأصول . كلها من صنع الرجل لحماية الرجل وربط المرأة به . فالرجال من اليهود فى دعائهم فى صلاة الصبح يقولون : شكرا لله فقد خلقنا رجالا ولم تخلقنا نساء . أما النساء اليهود فيقولن : شكرا لله فقد خلقنا كما شئت ارادتك .

وكان أفلاطون الفيلسوف الاغريقى يقول : شكرا للالهة مرتين . . مرة لأنهم خلقونى حرا . . ومرة لأنهم خلقونى رجلا

وكان يكفي لأفلاطون أن يقول انه رجل . فالرجل هو الذى عنده الحرية .
فالرجولة حرية والأنوثة قيد .

اما الذى يفعله الرجال بحرياتهم ، فانهم يجعلون رغبتهم قانونا . ويجعلون هذه القوانين مبادئ الطبيعة نفسها . أى أنه من قانون الطبيعة أن يكون الرجل سيدا . وتكون المرأة عبدا .

فاذا حاولت المرأة أن تصطدم بهذه القوانين وحاولت أن تنكرها ، كان عقابها اليم . فالمجتمع أقوى منها . والمجتمع هو الرجل . فأما أن تطيع أو تموت — وليتها تفعل ذلك !

ومنذ أقدم العصور نجد الأدباء والشعراء يصورون المرأة انسانا غامضا خبيثا . وإن كانت المرأة معذورة تماما فى أن تدور حول القيود الحديدية فلا يملك الضعيف إلا أن يلف ويدور . ولكن لم يحدث أن استطاعت النساء أن يتآمرن أو يقمن بثورة على الرجال .

وهذا العداء بين الرجل والمرأة . أو بين جنس الرجل والجنس الآخر أصبح تقليديا . وإذا كان بعض الرجال يصفون هذا العداء بأنه تافه فلأن الرجال حولوا الخلاف بين الجنسين الى نوع من « الخناقة » . فاذا تحولت قضية المرأة الى خناقة أصبحت شيئا تافها . مع أنها ليست كذلك . فهى عميقة فى جذور تاريخ العلاقات الجنسية والاجتماعية .

ولم ينظر الرجال الى المرأة بوضوح إلا فى القرن الثامن عشر . فى هذا القرن فقط ترددت عبارات ونظريات تقول : بل هما متساويان تماما . وعلم التشريح يؤكد ذلك . والوظائف تقطع بذلك . فاذا كانت للمرأة غدد وهرمونات فللرجل أيضا . لا خلاف من الناحية العلمية . ولكن التاريخ يكذب ذلك .

فالرجل عندما يقول : نحن الرجال — فهو يجلس على عرش صنعه من قبله كبار الفلاسفة والعلماء والساسة والشعراء والعباقر . فالرجل وريث لمجد طويل عريض اكيد . ولكن عندما تقول المرأة : نحن النساء فلا بد أن تجيء عبارات أخرى للبدلالة على الظلم والاضطهاد وانها طعام يشتهيها الرجل ويخطفه ويجرده من انسانيته ويجعله مجرد شيء .

وفى القرن التاسع عشر عادت مشكلة الجنسين . والخلافات بينهما وجاءت الثورة الصناعية فأخرجت المرأة من البيت وألقت بها فى المصانع الى جوار الرجل . منافسا خطيرا له وفى القرن التاسع عشر تمسك الرجل بالأسرة . أى بسحب المرأة من المصنع الى البيت . اذا كانت الطبقة المتوسطة لا تملك الأرض ، فانها تملك شيئا جديدا اسمه « كيان الأسرة » . أما الطبقة العاملة فقد ضاقت بالمرأة لأن المرأة اذا عملت فانها تقبل أجرا أقل . وفى ذلك خطورة على الرجال العاملين .

ويبدو أن العلماء عندما وصفوا الجنسين بأنهما متشابهان تماما ، قد أعلنوا هذه العبارة العلمية ووضعوا لها شرطا اجتماعيا هو : انهما متشابهان في كل شيء ، بشرط أن يبقيا منفصلين .

وهذا يشبه بالضبط القانون الذى وضعته أمريكا للزواج : لا فرق بين أبيض وأسود في الحقوق والواجبات بشرط أن يظل الاثنان منفصلين تماما .

اذن ما هو الحل ؟

هذا السؤال معناه أن هناك مشكلة وأن هذه المشكلة لها حل . وأن من الواجب أن يكون لها حل . . . وأن هذا الحل طبعا في صالح المرأة . فالظلم كله واقع عليها . ثم أن المرأة مرتبطة تماما بظالمها وقاهرها وسيدها .

وقبل التساؤل عن الحل ، هناك سؤال آخر : ما هو موقف المرأة ؟ ما هو وضعها ؟ أن برنارد شو يقول : أن الأمريكان يطلبون من الزوج أن يمسحوا الأحذية ، ثم يقولون أن الزوج لا يصلحون إلا لمسح الأحذية .

وكذلك المرأة حين تقول انها ضعيفة وانها مسلوبة الحقوق وانها مظلومة . هذا صحيح . ولكن ليس معنى ذلك أنه من الواجب أن تكون هذه حالتها وانما يجب أن نتساءل : ولماذا كانت المرأة كذلك ؟ من فعلها ؟ من ظلمها ؟

أن هناك رجالا يحبون المرأة ويمتدحونها . . ولكن رجالا آخرين يلعنونها . هناك رجال يقولون : أن الله خلق آدم أولا . . وخلق حواء بعد ذلك ، فأدم هو الطبعة الأولى وحواء هى الطبعة الثانية . ولذلك كانت أجمل .

وهناك من يقول أن الله جعل أنبياءه من الرجال ، لأنه من الضرورى أن يكون التنبى متواضعا .

من اذن الذى نحتكم اليه في قضية المرأة ؟

هل نحتكم الى الرجل ، فيكون قاضيا والقاضى عليها أيضا ؟

هل نحتكم الى المرأة فتكون هى القاضى والمخامى والمتهم . . ؟

هل نحتكم الى كائنات « خنثى » - أى تجمع بين صفات الرجل وصفات المرأة - وبذلك نضمن الحياد في الحكم للمرأة أو عليها . . أن مثل هذه الكائنات ليست هى المعادلة الصعبة بين الرجال والنساء ، وانما هى كائنات ينقصها أن تكون رجلا أو تكون انثى . . انها حاقدة على الاثنين لأنها تشويه الاثنين .

وليس باستطاعتنا أن نحتكم الى الملائكة . .

وعيوب الكتب التى أصدرها الرجل عن المرأة انها كتب مفرضة . . انها تشبه تماما القصة العربية المعروفة التى نسبت الى كثيرين . يقال أن رجلا أحب فتاة جميلة . ووعدته أن يلتقيا ، وذهب الى لقائها فلم يجدها فكتب على بابها :

ان النساء شياطين خلقن لنا . . . نعوذ بالله من شر الشياطين
ويقول انه بعد ان كتب هذا البيت رآها مسرعة الى لقائه فأعاد تصحيح
البيت هكذا :

ان النساء رياحين خلقن لنا وكلنا يشتهي شم الرياحين
والمرأة دائخة منذ مئات السنين بين السرعة التي تتحول بها الشياطين الى
رياحين . . وبالعكس .

ولكن من المؤكد أن المرأة أقدر على فهم عالم المرأة من الرجل . وأقدر في الدفاع
عنها . . وعن نفسها . . ولكن عيب الكتب أو الروايات التي تؤلفها عن المرأة انها
تطالب بحقوقها دائما . فقط تسجل ظلم الرجل لها . ثم تتقدم بشكوى وفي الشكوى
شهود من الرجال ثم تبكى وتثير شفقة الآخرين عليها . ولكن المرأة لا توضح
قضيتها . ولا تعرضها بصورة تقنع المرأة أولا ثم تقنع الرجل أن هذا لم يحدث
الا نادرا . . ومن الحالات النادرة لذلك كتاب « الجنس الثانى » بجزأيه للأديبة
الفرنسية سيمون دى بوفوار . وعلى الرغم من أن هذا الكتاب قد صدر من حوالى
عشرين عاما ، فانه ما يزال الكتاب رقم واحد في تاريخ المرأة الحديثة . فالأديبة
الفرنسية لا تعرض قضية فقط . انها تعرضها وتدافع عنها . وتتألف الى الحضور
فاذا بهم يتحولون الى شهود اثبات أما القضاة فقد ألغوا عليها بالورود . . وفي نهاية
الجزء الثانى يصدر الحكم لصالح المرأة . منتهى الأدب من الرجال . وأعظم تحية
للأدب والفكر الجميل .

ولا تزال قضية المرأة بكل ملفاتها ودوسيتها وحيثياتها معروضة . حتى المؤلفة
الفرنسية نفسها لم تشأ أن تتزوج ، وتخضع بذلك لتقاليد المجتمع التي ترفضها . .
وعلى الرغم من حرصها على ذلك واعتزازها بهذا الموقف ، فانها عندما تتألف وراءها
تجد أن الطابور الذى وقفت على رأسه له رأس وليس له ذيل . . فهى وحدها التى
قررت أن تحرر نفسها من قيود الزوج . . لا من قيود الرجل . .

ولا يزال كتابها « الجنس الثانى » هو أروع ما كتبه امرأة عن امرأة . . فى كل
تاريخ المرأة ، الخادمة والعاملة والمتمردة .



المحبوب ليس لهم قوام مشرود

(٢)

هناك أسطورة يونانية قديمة تقول : ان الآلهة خلقت ثلاثة انواع من الكائنات : الرجل والمرأة و « الخنثى » - أى التى تجمع صفات الرجل والمرأة معا .. و خلقت الآلهة لكل واحد من هذه الكائنات رأسين وأربع أذرع وأربع سيقان . ثم شطرت كل كائن منهما قسمين .. ثم « لخطبت » هذه الأطراف وبعثرتها .

ومنذ ذلك اليوم يحاول كل كائن أن يبحث عن النصف الآخر . وهذا البحث ليس عقليا ، وانما هو بحث عاطفى . حار ملتهب . مضطرب . ومن النادر أن يجد الانسان نصفه الآخر .. وانما يجد فى كثير من الأحيان نصفا « آخر » .. وليس نصفه « الآخر » .. ولذلك يتعذب الناس فى الحب وبالحب وبسبب الحب . ويتساءلون من ألوف السنين : ان كانت هناك طرق أخرى يعثر بها الانسان على النصف المناسب له .. عن النصف المكمل له .

وهذه الأسطورة اهانة للمرأة .. اهانة قديمة . لأن الرجال هم الذين يشكون عادة من أنهم لم يجدوا النصف المناسب . ولأن الرجال هم الذين يقولون ويحكمون ويعلمون .. لأن صوتهم هو المسموع دائما . ولكن احدا لم يسأل المرأة ان كانت قد وجدت نصفها الآخر ؟

ومن المؤكد أن للمرأة شكوى مماثلة . ولكنها ليست مسموعة . لا لأن المرأة لا تقول . ولكن لأنها تقول .. أما الذين يسمعونها فلا يرددون شكواها .. وانما يكتفون فقط بسماعها .. واستنكارها أى القضاء عليها فى حينها . والمرأة هى التى تشجع الرجل على ذلك . اذ يكفى أن يقبلها فتموت بين الشفاء وعلى الشفاء أعظم شكايات المرأة وأوجاعها .

وأسطورة أخرى عن خلق المرأة لا تقل اهانة وهوانا للمرأة . يقال ان آلهة الاغريق عندما خلقوا أول « حواء » جعلوها من الطين . ثم عرضوها على الآلهة . واحدا واحدا . فأعطاهما كل واحد منهم موهبة : الجمال والدلال والسحر والفصاحة والرشاقة والأناقة والخبث ..

ولم يكن الآلهة مشغولين بخلق حواء وانما كانوا يريدون أن ينتقموا من أحد الآلهة فأرسلوها اليه . ولكنه كان يشك في زملائه الآلهة . فرفضها . وأرسلتها الآلهة الى أخيه . وتزوجها . وكان الآلهة قد أهدوها صندوقا نادرا . ووضعوا في هذا الصندوق كل شرور الانسانية : المرض والفقر والجهل واليأس . وجاءت حواء وقدمت هذا الصندوق لزوجها الذي أعجب بها وأحبها . وفتح الصندوق وخرجت كل الشرور . ولكنه أقفل الصندوق في آخر لحظة .. أقفل الصندوق على شيء هو : الأمل .. الأمل في القضاء على الفقر والجهل والمرض واليأس .. والقضاء على حواء أيضا ..

وحواء هذه اهانة . احواء نفسها . فقد خلقها الآلهة مجردة من كل صفة وتصدقوا عليها بالصفات ثم وضعوا في يديها كل الشرور . وقدمت هذه الشرور للرجل الذي تزوجها .. فحواء بهذه الصورة : مقلب .. أو مصبيدة لمن يحبها .. ولن لا يحبها أيضا .

ولم يتغير هذا المعنى منذ آلاف السنين . وحتى اذا تغيرت أقلام الأدباء والمفكرين ، يظل هذا المعنى هو اللون الواحد الثابت في أشعارهم ورواياتهم .

وفي الأدب العالمي ، وفي كل أدب ، أمثلة كثيرة للمفكرين الذين فرضوا على الرجال وعلى النساء فلسفتهم الخاصة .. رأيهم في المرأة التي تصورها . وأثروا بذلك في كل الصور والأحلام التي عاشت في عقول الملايين بعد ذلك ..

واحد من بين هؤلاء المفكرين الأديب المعاصر مونترلان . انه نموذج غريب عنيف لأعدى أعداء المرأة . وعنده أسباب وجيهة لأن يكره المرأة في صورتين : الأم والعشيقة .

هذا الرجل — يؤكد أنه رجل الى حد ما — يرى أن المرأة باختصار شديد : ليل وفوضى . أو فوضى الليل . أو ليالى الفوضى .

فليس صحيحا أن المرأة تحب النظام . وانما تحب النظام والدقة والنظافة من أجل أن تعجب شخصا أو انسانا يهمها فقط . ولو تركت وحدها لمزقت ثيابها ونكشت شعرها وتركت لظافرها صفراء وأسنانها أيضا .

اما في الليل فهي إحدى متوحشات الليل . والليل يهمها جدا لانه يساعدها على القيام بدور حيوان متوحش يمتص الرجال . وهى عندما تفعل ذلك تكون في اكمل صورة للانوثة عندما توهمك بأنها تهبطك ، مع أنها في الحقيقة تأخذ منك أكثر .

: ولا شك أن غباوة الرجل هي التي جعلت للمرأة قيمة خاصة . وغباوته هي التي جعلته يقول عن المرأة : انها مرهفة الحس . أن لها حاسة سادسة . ذكية . تفهمها وهي طائفة . وقبل أن تطير أيضا . مع أنه من الأصح أن يقال إن المرأة لا منطق لها . وانها جاهلة . وعنيدة . . وليست لديها قدرة على الملاحظة . وعلى تعمق ما تراه أو تحسه . وليس لدى المرأة ما تعطيه للرجل بصدق وإخلاص . . سوى الألم .

ولا بد أن يكون حب الأم لأولادها أحد أسباب تعويق تطورهم وتقديمهم في هذه الحياة . فالأم التي تمسك أولادها وتشدهم اليها حتى لا يبعدوا عنها : أم لا تريد لأولادها أن يكبروا . وأن يعملوا من أجل المجتمع . أو لأن يعملوا لغيرها من الناس . والأم التي يطلب منها ابنها أن يشترك في لعبة رياضية وتمنعه ، هي لا تريد له الصحة الجسمية أو النفسية ليظل معتمدا عليها . مستندا اليها .

وأشوأ من هذه الأم امرأة أخرى هي : العشيقة . فالعشيقة لا تريد من الرجل سوى الرجل . فقط الرجل . حياته . . بل حيويته . لا تحب أن يكون رجلا عظيما . وإنما رجلا فقط . وإذا كانت المرأة هي وسيلة الحياة نفسها لكي تستمر . فإن العشيقة هي الحياة نفسها وقد قررت ألا تستمر . فقط حياة مهتزة مضطربة دون أن تكون لها ثمرة . معظم العشيقات يفضلن ألا يكون لهن أولاد . . أي يفضلن أن تتوقف عندهن وفيهن الحياة فقط . والعشيقات يفضلن أيضا أن يكون العشيق نهاية لحياة . لحياته هو . يسبح في اللذة حتى يفرق . موجة تدوب في موجة . وتجنأ بعدها موجة أخرى لرجل آخر .

ولا يستريح الأديب مونترلان الى عبارة قالتها أرملة تولستوى : عشت فيه من أجله ، وأريده كذلك - انها تريد أن تقول انها أفنت حياتها من أجل تولستوى فأنجبت له ١٣ ولدا . . ولكن الحقيقة غير ذلك . فليس هو الذي اختار هذا العدد . انها هي التي أصرت على ذلك . لعل تولستوى لا يعطى أرضه للفلاحين ويتركها لأولاده . ولعله يحمل معها هموم تربية الاطفال وينصرف عن الأدب . وتنصرف عنه المعجبات . . أو لعله يمرض فيلتف حوله أولاده ، فيعرف أن زوجته قد خلقت له أصدق جمهور في أضييق نطاق . . فليس صحيحا انها عاشت فيه ، وإنما الصحيح انها عاشت به أملا في أن تقضى عليه . فالزواج قاتل للعبقرية . . لأنه يقضى على « العزلة الرائعة » للأبطال . فالعزلة ضرورة للمفكر . ولا شيء يفسدها أكثر من زوجة . لأنها تقضى على حريته . . حريته في أن يعمل أي شيء . أو لا يعمل أي شيء .

والأديب مونترلان يقول عن نفسه : كنت مشتغلا . . فأخمدتني . . كنت أمشي على الماء ، فأفرقتني . أن الأسد العظيم يخاف من ذبابة لأنها أنثى - ومعه حق ! الى آخر عشرات المئات من الصفحات التي كتبها الأديب مونترلان عن هذه المرأة .

وخلاصة فلسفته : أن الرجل من حقه أن يتعالى ويسمو . أما المرأة فليست لها موهبة خاصة . وإذا كانت ضرورة ، فهناك أشياء كثيرة ضرورية . ولكن ليس معنى ذلك أن ترقى الى مستوى الرجل . فالرجل ليس أحد في مستواه غير الرجل .

والرجل على مائدة المرأة يجد أمامه طعاما واحدا عليه أن يأكله بشهية مفتوحة :
احتقاره لها .

ولكن اذا كانت المرأة بهذه الصفات أو بلا صفات ، فكيف أصبحت لها كل هذه القوة ؟ كيف تسلطت على أفكار مثل هذا الرجل ؟ واذا كانت المرأة تافهة ، فلماذا كل هذا الاهتمام كأنها شيء لا يمكن الاستغناء عنه ؟ واذا كانت ذبابة ، فلماذا يخاف منها الأسد ؟ هل هو أضعف من ذبابة وهي أقوى من أسد ؟

لا بد أن يكون هناك عيوب في فكر الأديب مونترلان . وهناك عيوب بالفعل . فهو يرى أن الرجولة في ذاتها ميزة كبرى . ولأنه رجل فهو قوى . عضلاته وذكاءه . وله مستقبل وله ماض . ولكن يمكن أن يقال ان الأنوثة نفسها ميزة . وقوة . وهو أول من يقول ان الأنوثة قوة . وهو يكره الأنوثة لأن الانسان يكره القوى . ولا يحب الذي يخيفه . والمرأة تخيفه لأنها تهدد كيانه : رجولته وحريته .

وهو لا يمشي على الماء كما يقول . ولكنه يتخيل ذلك . وهو يفضل أن يتخيل المشي على الماء . ولا يفكر في المشي على الأرض . لأن المشي على الأرض أصعب . وهو كذلك يتخيل المرأة في أسوأ حالتها . ويعاقبها في خياله . . في رواياته . . وهذا أهون وأسهل من أن يعايش المرأة أو يرتبط بها . ففي روايات مونترلان نجد أن المرأة العاملة مهلهلة الثياب ، منكوشة الشعر ، طويلة الأظافر واللسان معا . جُهلة فقيرة . والمرأة بهذه الصورة تجعل الرجل ينفر منها . فكأن مونترلان يريد أن يعاقب المرأة لأنها تحاول أن تعمل . تحاول أن تكون شيئا آخر غير مجرد أنثى . فهو يجعلها فقيرة لكي تضعف أمام المال ويلعنها ويجعلها سيئة المظهر لكي تفكر في الفساتين ، فاذا حصلت عليها من رجل غني ، لعنها ويجعلها جاهلة حتى اذا أرادت أن تكون شيئا وقف الجهل في طريقها . وفي هذه الحالة يتهمها بأنها أوزة تريد أن تكون صقرا - مع أنه هو الذي جعل ريشها قصيرا وجسمها كبيرا

انه - اذن - قرر أن يلعنها . ولذلك اختار الأسباب الوجيهة لذلك . وليس مخطئا اذا وصفها بعد ذلك بقوله : انها فشلت في أن تكون رجلا .

والرد على ذلك : أنه هو فشل في أن يجعلها امرأة .

وهو مثل كثير من الرجال ينظرون الى المرأة على أنها : جسد . متعة . أنثى . مثل كل نساء « ألف ليلة وليلة » وهي تنشئ الجسم والجنس . فصراحة الفتاة الراعية شولوميت في سفر « نشيد الأناشيد » وهو يصف لنا فتاة عربية اسمها راضية بأنها : حيوان الحب الهادي الذي يحب المال ويلتهم الحيوية .

ان مونترلان هذا نموذج للرجل الذي يريد أن يأخذ بلا مجهود . والذي لا يريد أن يقول ان هذا الذي أخذه ضروري . وانه لم يأخذ وانما هو أعطى . وحتى اذا أخذ ، فهو قد تفضل على المرأة بذلك . انه يحب أن يقوم بدور « الأمير المتوحش » يلتهم المرأة ويجردها من كرامة الانثى وينتظر من المرأة أن تشكره على ذلك لأنه يعد أن انتهى من مهمته المتوحشة ، جلس على عرش الملك وأمام الملك يجب أن

٦
تنحني المرأة بشرط أن تنسى أنه هو نفس الحيوان المتوحش قبل ذلك بساعة
أو ساعات .

ولا بد أن تكون هذه القصة التي يرويها مونترلان عن نفسه صحيحة . ولها دلالة
واضحة . يقول أنه وهو طفل كان يأتي بكوب الماء ثم يلقي به على النمل . وكان يجد
متعة هائلة في ذلك . . فهو في استطاعته أن يميت النمل غرقا . وفي استطاعته أن
يعطيه الحياة . ولا يوجد أي منطق لذلك . . إنها ارادته . أو هي نزواته . .

ويبدو أن الذي كان يفعله مع النمل هو بالضبط ما يفعله مع المرأة . يهبها الحياة
والكرامة . ويفرقها في العار إذا أراد . وهذا صحيح . . ولكن من هي هذه المرأة التي
يحييها ويميتها ؟ إنها المرأة التي في خياله . المرأة التي في رواياته فقط . وهو - ككل
إنسان - ملك إذا جلس وحده . ولكنه ليس كذلك إذا انفتح الباب ودخل إلى غرفته
الف رجل أو ألف امرأة . . أو إذا هو نزل إلى المجتمع ولذلك فهذا الأديب قد حبس
نفسه في نفسه . . أو في غرفة من المرايا . . لا يرى إلا نفسه . ما لا نهاية له من
المرات . . فهو وحده لا شريك له . . من النساء أو من الرجال . . بل أن روايات
مونترلان ليس فيها رجال يقفون وجها لوجه . . لا صراع . . لا معركة بين الرجال . .
وانما فقط : الكثير من التعالي والاحتقار للمرأة . .

وهذا الاسراف في التعالي ، هو اسراف في الخوف من المرأة . . أو الخوف من قوة
المرأة . أو من ضعفه أمام المرأة . ولذلك هو يكره ما يخيفه . وبدلا من أن يحتقر
ضعفه أمامها . . يحتقر قوتها . . أن نظرتة إلى المرأة كنظرتنا لإنسان في يده
مسدس . . ويهددنا باطلاق الرصاص . أن أحدا لا يستطيع أن يقدس المسدس
ولا أن يبارك البارود في هذه اللحظة .

ومع أن المرأة ، حياة وخيالا . يصف مونترلان نفسه قائلا : أنا ثور يدور في ساقية
شرقية . . أدور وأدوخ وأخطو على خطواتي . . ولا أرفع ماء جديدا إلى سطح
الأرض .

ولا بد أن هذه الصورة قد أسعدت المرأة ، فلم تشأ أن ترثي لحاله ولا أن تناقشه
.. واكتفت بأن نظرت إلى هذه النهاية التي اختارها لنفسه : بأن يكون ثورا في
ساقية المرأة .

وهناك نموذج آخر للمفكرين في العالم : الأديب الفرنسي استندال . أنه واقعي .
ولكن الواقع جميل . وإذا لم نر الواقع جميلا . فأين نجد الجمال . . أن الذي يحب
هو وحده القادر على أن يتذوق الجمال ويبحث عنه . . ولا جمال بلا سعادة . بل أن
السعادة نفسها قمة من قمم الجمال . فالذي يحب . . هو الذي يهزه جمال الجسم
وجمال الاثم . . وهو الذي يبحث عن سعادة تذيبه وهو الجمال في اطار واحد
أو فراشي واحد . .

واستندال كان يحلم بأن تحبه - ولو مرة واحدة - فتاة جميلة .. تائهة ضائعة
تعيسة .. ثم ينتشلها .. ويرفعها .. ويحبها .. ويكون حبه لها نوعا من الاعتراف
بالجمال .. ويكون حبها له نوعا من العرفان بالجميل .. والسعادة هي عناق الجمال
والجميل ..

وفي احدى المرات عندما ذهب استندال الى البحر اكتشف نفسه .. وعرف كلمة
السرف في هذا الكون ، يقول : رأيت الصخور عارية كفتاة جميلة .. ورأيت الماء يضربها ..
كأنه لص يستدرجها الى كهف بعيد ورأيت الشمس من وراء السحاب سعيدة
بذلك .. وتمنيت أن أكون الماء والرمل تحت الصخور والشمس أيضا ..

اكتشف استندال أن المرأة هي العالم .. هي الدنيا .. وأنه بها وعن طريقها ومن
أجلها يدرك جمال الدنيا .. وروعة الحياة .. وأمام المرأة يحب الانسان أن يكون
رقيقا .. لأن الرقة لفتها .. ويجب أن يكون أنيقا .. لأن الأناقة أسلوبها ..

ولكن هذا الرجل العاشق للمرأة لا يؤمن بأنوثة المرأة .. ولا سحرها .. وإنما هو
يحب المرأة كما هي .. كائن حي مختلف عنا .. ولكنه جميل .. ويملك مفاتيح
المشاعر القوية الموجودة في الرجل .. والمرأة ليست لفزا .. وإنما يجب أن نحبها كما
هي .. وإذا أتينا برجل قروي وجعلناه يمشى في شوارع المدينة كل يوم .. فهو معذور
إذا تصور أن الشوارع مرصوفة بطبيعتها .. وهو معذور إذا رأى أشجار الحدائق
مهندبة .. فاستنتج أن الأشجار في المدن تنمو مهندبة .. مع أن الحقيقة غير ذلك ..
فالساذج هو الذي يتصور أن المرأة رقيقة كما نراها في بعض الأحيان .. أنيقة دائما
مهندبة دائما .. أن المرأة كالرجل مهندبة أحيانا .. أنيقة أحيانا .. وأنها حريصة
على أن تكون جميلة .. ونحن حريصون على أن نكون أذكاء ..

فليست المرأة ساحرة باهرة محيرة دائما .. وإنما هي أحيانا كذلك ونحن أيضا ..

والمرأة ليست في حاجة الى العقل - هذا ما نقوله - ولكن المرأة معذورة في ذلك
لأنها لا تقوم بأعمال كبرى تحتاج الى مسئوليات ضخمة : ولكن اذا كانت أهم الأعمال
أن تظل طول اليوم أمام المرأة ، أو تتحدث الى جاراتها .. أو تروى قصص أطفالها ..
أو كوارث زوجها .. فإنها لا تحتاج الى أكثر من لسان وأذنين ..

ولكن من الذى نلومه ؟ اننا يجب أن نلوم أسلوب التربية والتعليم الذى يجعل
المرأة تافهة في دنيا الرجل .. فالذى تتعلمه المرأة هو تمجيد مستمر للرجل .. وتأکید
لأنها بلا عبقرية .. وإذا ظهرت لها عبقرية فشيء نادر .. لأن المرأة ممنوعة من التعبير
كما تحب .. فلا يزال الرجل هو الذى يحتكر التعبير اذا كانت المرأة هي مصدره ..

ولذلك ليس غريبا أن المرأة اذا كبرت طال شعرها وأظافرها ولبسائها وقصر
ريشها وطموحها ..

ولو أننا نظرنا الى الأطفال لوجدناها في سن العاشرة اذكى من الرجل في هذه
السن .. ولكن في العشرين نجد أنها تخاف من الصرصار .. ونجد الولد مثلها أيضا ..

ولكن الطريق مفتوح أمامه .. وعلى بابها تقف عربة يجرها حصان المستقبل .. أما عربة المرأة فهي عادة تنتظر الحصان الذى هو الزوج دائما .

وكثيرا ما يكون الحصان من اختيار والدها .. ومعنى ذلك أن المرأة تعيش مع رجل رغم ارادتها واحساسها .. وبعد ذلك مطلوب من هذه المرأة التى لا تعرف الحرية أن تعلم أبناءها معنى الحرية وقداسة الحرية .. وتقديس الرجل الذى هو قاهرها وكاسرها .. فى بيت أبيها وفى بيت الزوجية ..

انك فى حاجة الى تجربة صغيرة لتعرف ما الذى تفعله المرأة فى حياتنا .. دون أن نحتاج الى أن نصفها بالسحر .. أن المرأة عندما تدخل فى حياتنا نجعلنا نهتم بكل ما هو رقيق .. وما هو جميل .. ونهتم بالألوان والعطور .. ونهتم بالزمن .. وبمظهرنا ومستقبلنا .. فما الذى حدث ؟ أن المرأة تثير الحب .. والحب يثير فىنا الاحساس بالحياة .. ويدفعنا من الحياة وحدنا الى الحياة معا . والحياة معا رغبة عميقة فى نفوسنا .. ولكننا نخجل منها .. لأننا تصورنا دائما أن الاستقلال معناه : ألا يعتمد الانسان على أحد . ولكن كيف يعيش الانسان دون حاجة الى أحد . ان الاستقلال هو أن نكون أحرارا فى الاعتماد على من نحب .. والذى يمشى على ساق واحدة يعرج .

والذى يمشى على ساقين لا يمكن أن يقال انه ليس مستقلا .. وانما يقال هو مستقل تماما لأنه يعتمد على ذراعيه وساقيه وعينييه وأذنيه .. على نصيفيه : الرجل والمرأة .

واذا كان مونترلان عندما ينظر الى اثنين من المحبين يمشيان فى الطريق يصفق سعيدا لأنه اكتشف حقيقة المرأة فى حياة الرجل . فان استندال يصفق أيضا لأنه اكتشف فى هذا المشهد شيئا آخر .. ان مونترلان يقول : ان الرجل اذا مشى الى جوار المرأة وتعلقت هى بذراعه فمن الصعب أن يكون مشدود القوام .. انه ينحني قليلا .. وفى ذلك دليل على أن المرأة تحنى الرجل وتكسر ظهره أولا بأول .

ولكن استندال يقول : بل انهما ينحنيان معا كل منهما للآخر .. والاثنان ينحنيان لشيء نبيل أعظم وأبقى منهما : لحكمة الحياة .. التى تبدأ بالحب وتنتهى بحياة جديدة ليبدأ حب جديد .. والى الأبد !

.. وهو الذى يعجب الأطفال ؟

(٣)

عندما اكتشف الفيلسوف اليونانى ديوجين أن الناس تحولوا الى وحوش ، أمسك مصباحه وراح يبحث فى النهار عن انسان . ولم يجد الانسان .. ولما رأى سفالة الأبناء والبناات أمسك مصباحه وراح يبحث فى ضوء النهار أيضا عن أب . ولم يجد الأب . وفى يوم سمع طفلا يحلف بالله العظيم ثلاثا أن يقول الحق . فاقترب منه وسأله عن أبيه .. وأشار الطفل الى أبيه فانهال الفيلسوف ضربا على الأب وهو يقول : أنت كذاب وتعلم ابنك أن يكذب أيضا .

والفيلسوف على حق ، فالآباء والأمهات هم الذين يعلمون الطفل أن يكذب وأن يقول الحق .

بل المجتمع كله الذى يعلم الطفل أنه ذكر وأنه أفضل ، ويعلم الطفلة أنها أنثى وانها دون ذلك . فالطفلة لا تولد امرأة ، وانما تصبح امرأة . ولا يوجد أى فارق جسمى أو وظيفى أو نفسى بين جميع الأطفال الذكور والاناث .

ولو قدر لطفلة أنثى أن تعيش وحدها فانها لن تشعر بأنها أقل من طفل ذكر وانما هى كائن حى ، وانها انسان ، وكل الأطفال لهم نفس المواقف من حياتهم : يجدون متعة فى الرضاعة .. وراحة فى الحضانة ، ويجدون لذة فى التبرز ، ثم ان كل طفل يدرك العالم عن طريق جسمه ، فجسمه هو وسيلته الوحيدة الى الدنيا : يراه بعينه ويلمسه بيديه ويسمعه بأذنيه . والطفل يستطلع جسمه بلذة ودهشة واذا كان هناك شئ يثيره جنسيا فملامسته لجسم أمه : الناعم الطرى والطفلة كالطفل أيضا : تحب القبلات واللمسات وتتمسح فى أمها . وكل الأطفال يشعرون بالغيرة بنفس الدرجة فيكون الغضب وتكون لهم مصاعب فى التبول ، ثم انهم جميعا يحاولون كسب عطف الأم .

وحتى سن الثانية عشرة فاننا نجد الفتاة في قوة الفتى ، الجسمية والعقلية .
ولا يوجد أى شيء يمنعها من منافسته وإذا بدت لنا الفتاة في مرحلة المراهقة أو قبلها،
قد تحدد جنسها بوضوح فليس سبب ذلك أن شيئاً سحرياً قد حدث في جسمها ،
وانما الذى حدث هو أن الآخرين قد نبهوها الى ذلك والآخرين هم الأم والأب والاختوة
والمجتمع كله يقول للفتاة : أنت بنت أما هو فولد .

ومعنى ذلك أن الأنوثة يفرسها الآخرون في الفتاة في سكن مبكرة جدا .

والطفل - ذكرا أو أنثى - يعيش في (حضن) كبير : .. حضن الأسرة وحضن
الأم في دفاء وحنان ولا يستطيع الطفل أن ينفصل عن هذا الحضن . وحتى عندما
يحاول الطفل أن ينفصل عن هذا الحضن خصوصا في الشهر السادس نجده يحاول
أن يعود اليه ، ففي هذا الشهر السادس يميز الطفل بين نفسه وبين غيره ، وبذلك
يحاول أن يجذب اليه الآخرين .. بحركاته وضحكاته وهنا فقط ينحني عليه العالم
الخارجي .. وكأما اهتم به الآخرون تحول الطفل الصغير الى بهلوان : تضحك له
الأسرة كلها . وبذلك يصبح للبهلوان الصغير جمهور .. عالم .. أحضان كثيرة تحرص
عليه وتدنو منه وبذلك ينجح الطفل في أن يظل فترة أطول في حضن الجميع .

وكل مشاكل الطفل - ذكرا أو أنثى - تبدأ في هذه المرحلة : مرحلة الرضاعة
والفطام ، والرضاعة هي الاتصال الحيوى بالآخرين . والفطام بداية الانفصال عن
الآخرين . وهي مرحلة دقيقة جدا .

ولا شك أن الانسان يخاف من العزلة يخاف أن يكون وحده . ولا يمكن أن ينظر
الانسان الى عزلته بلا قلق أو فزع ، وربما كان حرص الانسان على أن يعود الى أحضان
الآخرين هو الذى يدفعه : الى النوم والاشتياق والموت والجنون أيضا .

واكن عندما تتجه الى الطفل (نظرات) الآخرين يدرك أنه انسان آخر .. انه
بعيد .. انه (موضع نظر) .. وأنه لذلك مختلف عن غيره .. متميز .. ويجد نفسه
مرة أخرى عندما يقلد والديه .. يرتبط بهما .. ويرتبطان به .. والطفل لا يجد
نفسه ولا يشعر بوجوده الا عندما ينظر اليه الآخرون .

ومن الغريب أن الطفل هنا يتخذ موقفين : فهو يرفض الانفصال ولذلك يسارع
بالعودة الى حضن الأم والتمسك به .. وفي نفس الوقت يحاول ارضاء الآخرين ،
وارضاء الآخرين هو نوع من الامتنان الطبيعى للذين يعطونه الاحساس بوجوده لأنهم
نظروا اليه .. وتحدثوا اليه .. ودأبوه .. وهو ينظر الى الآخرين على أنهم أقوى
منه .. على أنهم قوة كبرى الآن مجرد نظراتهم اليه تمنحه الوجود ، وهم بصفونه
أحيانا بأنه ملاك طاهر أو شيطان رجييم . فاذا أثار الطفل اهتمام الآخرين لقي منهم
الشكر على ذلك بالقبلات ، ومعنى ذلك أن الطفل في هذه المرحلة المبكرة يعيش في حالة
سلبية سعيدة بين أحضان الأم .

ولا فرق بين سلوك كل الأطفال في السنوات الثلاث الأولى ، فهم جميعا حريصون
على ارضاء الكبار واضحاكهم وحريصون أيضا على أن ينالوا اعجاب الجميع ..

وكلما كبر الطفل أحس الآباء أنه لم يعد شيئاً ممتعاً ، وإنما هو كائن متعب ، ويقولون له ذلك ، وكثير من الأطفال لا يحبون أن يكبروا ، بل يرون أن عالم الكبار مخيف ، والأديب التشيكي كافكا كان يقول : كلما كبرت كبرت مخاوفي أيضاً ، وعندما كنت صغيراً كان أبى أكبر من كل المخاوف والهموم .

ولذلك يخاف الأطفال أن يكبروا لأنهم لن يجدوا حنان الأب ، بل يخشى الأطفال أن يناموا وحدهم ، ويدرك الأطفال أن الابتعاد عن صدر الأم يجعلهم يشعرون بقسوة العزلة والانفصال . وهو شعور لا يمكن أن يعانيه الإنسان بلا قلق .

هنا فقط تشعر الطفلة الأنثى بأنها أحسن حالا ، لأن الطفل الذكر يصاب بفطام آخر . . وهو الابتعاد عن حضن الأم الذى يجعله يشعر بقسوة العزلة عن قبلات الآخرين بالتدريج ، أما الطفلة فتظل تتلقى القبلات مدى حياتها ، ويجلسها أبوها على حجره ويلعب في شعرها . . ودموعها مقبولة ، والكبار يبدون إعجابهم بدلالها ، وهذا الحنان يعفيها من القلق . . أما الطفل الذكر فممنوع من الدلع والبكاء ، ويقال له دائماً : أنت رجل . . يجب ألا يقبلك أحد . . الرجل لا يقف أمام المرأة . . الرجل لا يبكى . . أنت رجل صغير الآن . .

ويجب أن يكون الطفل الذكر ذا شخصية مستقلة حتى عن الرجال ، وإذا كان يسعد الآخرين بلعبه وهو صغير ، فليس من الضروري أن يسعد الآخرين على حساب شخصيته ورجولته يجب أن يكون مختلفاً حتى عن الرجال . .

وهذا العالم الغريب الذى يدخله الطفل عندما يستقل عن الأم يخيف الأطفال ، وأكثرهم يتمنى لو كان بنتاً . وبعض الأطفال يبكى عندما يخلعون عنه ملابس الفتيات ويحشرونه في البنطلونات ويقصون شعره . وبعض الأطفال يرفضون الانتقال الى الجنس الآخر . . هذا الرفض اذا استمر طويلاً كان بداية الشذوذ الجنسى ، أى التعلق بنفس الجنس .

يقول الأديب موريس ساكس عن نفسه : كم تمنيت أن أكون بنتاً . ورفضت أن أكون ذكراً لدرجة أننى كنت أتبول وأنا جالس .

وإذا كان الطفل الذكر لا يلقى من العناية ما تلقاه الطفلة ، فلأن الأسرة والمجتمع يدخر له مزايا أخرى كثيرة .

ففى سن صغيرة جداً نجد أن الأم تنظر الى ابنها نظرة فيها تقدير زائد وهذه النظرة هى بالضبط نظرة الأم الى زوجها وأبيها وأخيها . . وفى سن مبكرة يشعر الطفل أن لديه شيئاً (أزيد) من الطفلة ، يكفى أنه يستطيع أن يتبول وهو واقف - وهناك نظريات لكبار علماء النفس فى تفسير هذه المقدرة عند الطفل الذكر ، وتعميقها وجعلها الأساس لكل الخلافات النفسية والاجتماعية والتاريخية عند الرجل والمرأة . . أما الذى تطلبه الأم من الطفلة الأنثى فهو فقط أن تغطى نفسها وألا تلمس جسمها . . وتدرك الطفلة الصغيرة أنها (دون) أخيها الطفل الذكر ، وتدرك الطفلة الصغيرة أنها لى تتبول يجب أن تجلس وأن تغطى وأن تتوارى . . وهذا كله يجعلها تشعر بالخجل من

نفسها ومن هذا الخلاف الغريب الذى بينها وبين أخيها الذكر . . وفى كثير من الأحيان تفاجأ الطفلة بأنها بللت نفسها ، اذا ما ضحكت بشدة ، وكل هذا يضاعف خجلها . . . يعمق شعورها بالنقص . . وبعض النساء يجدن لذة فى رى الحداثق بخرطوم المياه . . وليس من الضروري أن تكون لهذه اللذة أى تفسير جنسى .

وانما تفسيرها أن اندفاع الماء الى أعلى هو نوع من اللعب بقانون الجاذبية . . أو نوع من الانتصار الصغير على قوانين الطبيعة التى تحتم أن يهبط الماء الى الأرض ، بدلا من أن يندفع الى أعلى .

ولهذا الشعور بالنقص عند الفتاة الصغيرة يعطونها (العروسة) كنوع من التعويض وهذه العروسة التى تلعب بها الطفلة هى نموذج لانسان آخر ، تتحدث ابيه الطفلة وتداعبها وتأمرها وتضربها وترضعها وتنظر اليها الطفلة على أنها شىء رائع ، وهنا تتدخل الأم لتقول لابنتها الصغيرة : يجب أن تكونى كهذه العروسة . . جميله ونظيفة - وسلبية ايضا . ومن المؤلف فى هذه السن أن نجد الطفلة تنظر الى نفسها فى المرآة وتقلد الأميرات والملكات . . والملائكة ايضا .

وتقول أديبة روسيا ماريا بشكرتسف عن نفسها عندما بلغت الخامسة من عمرها: ارتديت ملابس أمى ووضعت الزهور فى شعرى ، ورحت أرقص والأسرة كلها تتفرج على الابنة الصغيرة .

واهتمام الفتاة بنفسها سيلعب دورا عميقا بليغا فى حياة المرأة بعد ذلك . كما أن هذه السلبية التى تتصف بها الأنثى لم تولد معها ، وانما غرست فيها عن طريق الأم والأخوات والخالات والعمات . . أما الطفل الذكر فهو أكثر حركة ، وأكثر حرية ، فمن حقه أن يتشاجر ، يضرب وينضرب ، ومن حقه أن يتسلق الأشجار ، وأن يفخر بعضلاته ، وبجنسه ، ويتعلم كل دروس العنف ويفامر . . فعن طريق العمل يحقق الذكر وجوده ، فحياته هى عمله ، ورجولته هى عمله ، وعمله هو جوهر حريته ، وحريته هى طريق ايجابيته . .

أما الطفلة الأنثى فهى شىء آخر منذ البداية . يعلمونها أنها لى تدخل السرور على الآخرين يجب أن تبذل جهدا ، ولكى تسر الغير يجب أن تعطى نفسها للغير ، يجب أن تبذل نفسها يجب أن تكون كالعروسة : جميلة ونظيفة وسلبية . ولكن الطفلة الأنثى ليست لها حرية ، ومطلوب منها ، رغم ذلك ، أن تؤكد وجودها ، مع أن الفتاة اذا أعطيت لها الحرية فانها ستكون قادرة على العمل وعلى تحمل الصعاب كأي ولد ، وهذا يحدث فقط عندما تنشأ الطفلة فى بيئة من الذكور . وهذا بالضبط ما يريد الأب أن يعلمه لابنته ، ولكن العادات والتقاليد ترفض ارادة الأب .

فالأم تحس أن ابنتها نسخة منها ، وهى لذلك تحبها وتضيق بها . تحبها لأنها مثلها ، أو صورة منها ، وتضيق بها لأنها نسخة أخرى من ضعفها . تماما كما يشعر المقامر والنصاب والسكران أنهم جميعا من طينة واحدة وفى نفس الوقت يحتقرون هذه الطينة ولذلك فالأم عندما ترزق بطفلة فانها بسرعة تدخاها فى عالم المرأة : بالتربية

والنصائح والتدبير ، لكى تكون انثى ، فتعلمها الطبخ والخياطة والكنس والغسل وتمنعها من الرياضة العنيفة وتمنعها من المشاجرة مع الأولاد ، وتنصحها دائما : لا تكونى ولدا .. ولا تمشى كالبطة منفرجة الساقين .

اما الآن فقد أصبح من الطبيعى أن تدخل الفتاة المدرسة والجامعة وأن تعمل ، وأن تشترك فى الرياضة أيضا . ولكن اذا لم تنجح فالمجتمع يفر لها هذا الفشل ، وفى ذلك موافقة صريحة على أن النجاح للرجل فقط ..

والطفلة مشغولة بداخلها ، مشغولة بجسمها ، وبطنها ، وهى تتساءل من أين يجىء الأطفال ، ثم لا تصدق بعد ذلك أن الأطباء هم الذين يأتون بالأطفال فى حقائبهم ، ولا تعرف الطفلة ما هو دور الأب بالضبط ، وكثيرا ما تتصور الطفلة أن أمها تحمل وتلد بسبب تناولها لبعض الأطعمة .

وانشغال الطفلة بأعمال البيت ، يجعلها تستشعر الهموم فى سن مبكرة أى يجعلها تحس بأنها نوع من الرقيق وأن حياتها المقبلة سوف تكون عبئا بلا ملذات ، ولكن رغم ذلك فإن الطفلة أو الفتاة تشعر بأنها مثل الكبار وأنها تستطيع أن تتكلم مع أمها بدرجة متساوية . أما الابن فلا يعرف بالضبط ما هذا العمل الذى يؤديه أبوه ، فأبوه يقضى يومه خارج البيت . ولذلك فمن السهل أن تصبح الفتاة امرأة صغيرة ، وفى سن مبكرة ، ولأن الأنوثة نوع من الطفولة ، فالطفلة انثى فى كل سن . ولذلك تجد الفتاة الصغيرة أكثر فهما لأشياء كثيرة فى البيت ، ولذلك تحس بأنها أقوى من اخوتها الذكور وكثيرا ما تتعالى عليهم .

وعلى الرغم من كل هذه المزايا ، فإن الفتاة لا تقبل مصيرها دون أسف على ذلك . وكلما كبرت حسدت الأولاد على قوتهم ، وكثيرا ما تسمع من والديها أنهما كانا يفضلان أن تكون ولدا لا بنتا .. ولذلك يعاملان الذكور معاملة خاصة ، فلهم كل الحقوق . أما الفتيات فلا يلقين الا القيود والسدود والاحتقار ، ويرفض الأبوان أن تشترك البنات فى اللعب مع الأولاد ولا توجد أسباب واضحة عند البنات لهذا المنع الشديد ..

وفى المدارس المشتركة نجد أيضا شللا للذكور وأخرى للاناث .. وإذا حاولت فتاة أن تدافع عن حقها أمام الذكور ، فإن الناظرة تمنعها من ذلك والفتيات يحققن على الفتيان مرتين .. مرة لأن لديهن الرغبة فى عرض وفرض قوتهن على العالم ، ولأنهن فى حالة احتجاج على هذا العجز والوضع المنحط الذى وجدت فيه الفتاة نفسها ..

وبعض علماء النفس يفسرون رغبة الشبان الصغار فى تسلق الأشجار بأن الذكر يريد أن يعاو ويتعالى .. وأن يكون فوق ليتفوق .. وهذه رغبات عميقة عند النور . أما الفتاة فاذا جلست عند جذر الشجر فمن المؤكد أنها سوف تشعر بأنها شئ آخر .. لا يعلو ولا يتعالى ولا يتفوق .. وانما شاء المجتمع أن يجعلها تحت .. الخ !

ثم تدرك الفتاة شيئاً آخر هاما وهو أن ارتباطها بالأم لا يعطيها الكثير من الانتصار على الولد ، وإذا كانت الفتاة قد قبلت أن تكون أنثى أول الأمر ، فلكي تتحكم في الرجل بعد ذلك . ولذلك فالفتاة تريد أن تكون أما - أى مثل أمها - لأن الأم أحسن حالا من الفتاة . وعندما تدرس الفتاة وتعلم وتعمل تتأكد الفتاة أن الرجال لا الأمهات ، هم الذين يحكمون العالم . وهنا فقط تغير الفتاة رأيها في أمها . وأن الأب اله - هذا هو شعور الطفل الصغير عندما يرفعه أبوه الى أعلى بين ذراعيه ، ويظل هللا هو شعوره وقتا طويلا ، ولكن الطفلة ترى أن اباه لها سلطة ، وأنه هو الذى يعمل خارج البيت ، وأنه هو الذى يربط الأسرة بالعالم الخارجى ، وأنه مختلف ، وأنه أقوى . . . وان الفتاة لا تستطيع أن تكون رجلا .

هنا تسقط الأم من عرشها . . تماما كما أسقط الاله رع ايزيس عن عرشها . . ولكن اذا لم تفز الفتاة برضى أبيها وارتياحه فانها تشعر بأنها مذنبه . بأنها خارجة ، منشقة . . ولكن فى نفس الوقت تبحث الفتاة عن بديل للأب . . عن شخص آخر ، فاذا وجدت الشخص اتخذت من أبيها موقفا معاديا ، فليس الأب وحده هو الذى يمسك مفتاح الحياة . . وانما هناك رجال آخرون . . بل كل الرجال الاخوة والأصدقاء والزملاء ، والحياة اليومية تقول ذلك . . والحياة اليومية من الوف السنين اسمها التاريخ . . أعظم استعراض لعظمة الرجال وسفالتهم أيضا . .

والطفلة الصغيرة لا تولد أنثى ولا امرأة . . وانما تولد عجينة . . والمجتمع هو الذى « يخبزها » رغيفا أو كعكة . . ويقول لها : انت جنس آخر . . جنس ثان . . أما الجنس الاول والأصيل فهو الرجل . .



إذا وجدت في المرأة رجلا فلا تخافي

(٤)

من الذى فعلها ؟ اسم سلسلة من الحلقات فى الاذاعة والتليفزيون وكلها عن الجريمة . ويمكن استعارة هذا الاسم ليكون عنوانا لكل شيء فى عالم المرأة . ويكون الجواب واحدا فى جميع الحالات : انه الرجل !

ففى عالم الفتاة الصغيرة تجد كل شيء من صنع الرجل . فى الثقافة والادب والأغاني . فالرجل هو الذى اكتشف وهو الذى اخترع وهو الذى حكم - وما يزال . وفى الأساطير لا نجد الا بطولات الرجل والا غروره .

ومعنى ذلك أن الطفلة الصغيرة عندما كانت فى بطن أمها ، كان المجتمع قد أعد لها منظارا من صنع الرجل ، لترى به الدنيا ، ولتقرأ به ما كتب الرجل عن الرجل ، فكل الأنبياء والخلفاء وأبطال الأساطير من الرجال . وإذا ظهرت هناك امرأة مشهورة حرص الرجال على أن يجعلوا لها عيوباً صارخة لكي يشوهوا عظمتها فى عيون الرجال والنساء أيضا . فإذا ظهرت شجرة الدر أجلسوها على هرم من القباقيب : نصفه استخدمته فى قتل زوجها ، ونصفه الآخر دفنوها تحته . وإذا ظهرت كليوباترة جعلوها غانية فاجرة وإذا أرادت كليوباترة أن تنتحر كأبطال الرجال ، جعلوا موتها نوعا من الاستعراض الجنسى المثير . . حتى الملكة حتشبسوت التى حكمت مصر اهتم المؤرخون بأنها أول امرأة صنعت لحية مستعارة فى التاريخ - لقد حاولت أن تكون رجلا فاستعارت لحية رجل ، ويقال قطعة من جلد خروف مقدس .

وأكثر من ذلك فإن الرجال يصورون النساء العظيمات على أنهن غانيات يتمددن فى شمس رجل عظيم ، أى أنهن يعشن على « فضلة » خير و « بقشيش » من عظمتهم . حتى أمنا حواء لم يخلقها الله الا لكي تكون فى خدمة رجل ، ولا بد أن الحياة كانت قاسية على آدم وحده حتى ولو كان ذلك فى الجنة ، ولذلك خرجت منه حواء . . وقيل فى تفسير ذلك الكثير : قيل انها خرجت من قلبه . . وقيل خرجت من عينيه . .

وقيل انها خرجت من ضلعه لكم تحطم الضلوع الباقية .. وقيل انها خلقت لكى تظهر الخطيئة فى الدنيا ويعاقب عليها آدم بالهبوط .. الى الأرض وتحت الأرض ..

واساطير الاغريق تقول انه بينما كان البطل بروفيسوس يحتج على الآلهة ويسرق منهم النار ليعطيها للانسان ، كانت « باندورا » تلعب فى صندوقها ومن الصندوق خرجت شرور البشرية .. ليس كل الشرور ، فأعظم الشرور لم تخرج من الصندوق : حواء نفسها .. فهى الشر الأكبر الذى يطلق على الناس شرورا أخرى .. وهى أكبر من أن يحتويها صندوق !

والطفلة الصغيرة تقرأ فى قصص المغامرات : أن الولد هو الذى يغامر ويقاوم ، ويصبر ، وينتصر ، وهو الذى يقوم بالرحلات فى البحر والجبل والغابات ، فكل الأعمال يقوم بها الأطفال الذكور ، وليس على المرأة إلا أن تصفق للبطل .. أى هى التى تقف عند النهاية دائما ، ومطلوب منها أن تصفق ، وهو موقف سلبي ، حتى اذا كان ضروريا لرفع معنويات البطل فانه موقف سلبي ، واذا قرأت الفتاة الصغيرة الصحف والمجلات وجدتها تتحدث عن الرجال أيضا ، فهم الذين يكتبون ، وهم الذين يحكمون . ومعنى ذلك أن الرجل هو الذى يشغلها ويملأ خيالها .

وعلى الرغم من أن الفتاة أكثر تمسكا بالدين من الرجل فان عالم الدين ملء بالرجال أيضا ، فالله - سبحانه وتعالى - اسم مذكر ، والأنبياء كلهم من الرجال والخلفاء والصحابة والأولياء والقديسون حتى الملائكة الذين لا جنس لهم ، أسماؤهم رجال . والمرأة فى صلواتها تتوجه الى الله ، وكأنها تتحدث الى رجل ، والمرأة المتصوفة تخاطب الله وكأنها تخاطب معشوقا . ورابعة العدوية تقول : احبك حبين : حب الهوى .. وحب لانك من أهل لذكاء .. وتقول : يا حبيبى خذنى اليك .. ضمنى الى صدرك .. الى جوارك .. لعلنى أفنى فيك .

والقديسة تريزة تقول : يا حبيبى .. يا أعز من احب قلبى .. الى متى تتركنى وحدى فى ليالى الشتاء .. من غير حنانك أموت .. ومن غير حرارتك أتجمد .. أريد أن أذوب فيك .. فأكون أنا وأنت ..

والأغنية المصرية تقول : ولا عارف بكره من امبارج ولا دقة قلبك من قلبى .. وفاطمة بنت برى التى احبت السيد البدوى كانت تقول له : يا سيدى ومولاي .. خدى تراب نعليك .. وسعادتى فى ظلك .. بنعيمى فى عذابك .

وليس من الضرورى أن يكون هناك أى معنى جنسى فى هذه الدعوات الصوفية ، ولكن عن طريق الدين أيضا تتلقى الفتاة الصغيرة : عبادة الرجل .. عشق بطولته والاتجاه اليه دائما . وعن طريق الدين تتلقى أول طعم للقداسة .. لقداسة الرجل .. والرجال .

وكلما كبرت الفتاة عرفت شيئا آخر : لكى تكون سعيدة ، يجب أن يحبها هذا المعشوق .. هذا المعبود أيضا ، ولكن اذا احبته هى ، فهذا ضرورى وطبيعى .. والسعادة تصبح كاملة اذا هو احبها أيضا ، واذا قدر للفتاة الصغيرة أن تختار بين

رجل تحبه ، ورجل يحبها ، فأنها تختار الرجل الذى تحبه هي . . وتصيح السعادة كاملة اذا كان الحب من طرفين .

واعتادت الفتاة ان تكون هي « الجمال النائم » أى الجميلة التى تنتظر دائما . ويجيء الفتى عبر الجبال والأهوال ، على حصان أبيض . . ومن نافذتها تطل على رجولته وشهامته وعرقه ودموعه . . أما هي فمربوطة الى شجرة الأسرة ، مشدودة بسلاسل التقاليد والعادات ، وعلى الشاب من جديد أن يتعذب من أجلها لتصفق له فى النهاية ، فقط تصفق .

والأغاني الأوربية تقول : فى يوم من الأيام . . بعد يوم . . بعد شهر . . بعد سنة . . يجيء الأمير ويخطبنى .

والأغنية العربية تقول : خذنى لحنائك خذنى . . عن الوجود وابعدنى . . بعيد لوحدينا . . بعيد أنا وانت .

ومطلوب من الفتاة الصغيرة الا تضيع وقتها فى الانتظار ، وانما انتظارها يجب أن يكون فى الاستعداد للقائه . وعلى المرأة أن تتسلح بكل ما أعطتها الطبيعة من وسائل الاغراء ، ولذلك فالمرأة يجب أن تنتظر الرجل وهي جميلة ، وجمالها هو الذى يجذب الرجل ، يشد رمش عينه ويسحب رجليه ويفصل يديه عن ذراعيه ليتقدم اليها خطوة ويخطفها . ومن هنا كان من الضروري أن تهتم الفتاة بجسمها ، فعن طريق جمالها تفوز بالرجل . . بأحسن الرجال الذين يبذلون كل ما يستطيعون من أجل أن يفوزوا بها فى النهاية . .

والقصص والأفلام تحدثنا أن السعادة من نصيب الجميلات أما الدميمات فالويل لهن .

وتتعلم الفتاة أيضا أنه عن طريق الاستسلام للرجل تستطيع ان تكون أقوى منه . فالرجل يتعب من أجل أن يفوز بها ، فاذا فاز بها ضعف . وهنا يجب أن تأخذ المرأة الكرة من رجليه وتسدها الى الهدف : ان نابليون كان اذا تمدد على فراشه لا يقول لزوجته : لا . ولذلك كانت تطلب منه أن يحقق لها رغباتها ومؤامراتها وهو نائم فى الفراش . . فالرجل عندما يحقق رغباته يضعف ، وهنا يجب أن تقوى المرأة . فقوتها تبدأ عندما يضعف الرجل .

تقول كاتبة المذكرات الشهيرة مداى دى نواى : وانا صغيرة أردت أن أخيف الرجال وأن أعذبهم وأن أجعلهم ينقدوننى لأموت فى أحضانهم بعد ذلك .

وتقول مدام لوهاردان فى مذكراتها : كنت أحبه . . وكنت أتخيله يضربنى لآتفه الأسباب ، وعندما يحدثنى يتولانى الفزع ، وعندما أخاف أقبل يديه وأطلب الرحمة ، وعندما يمزق قلبى وأحس أقصى العذاب أشعر أيضا بأسمى درجات السعادة : عندما يلتقى أقصى عذاب بأعمق لذة .

فالاستسلام هو سعادتها التامة فى النهاية .

وعندما تبلغ الفتاة العاشرة من عمرها تحس انها كبرت ، وانها قادرة على الحب ، ولذلك تسوى شعرها . وتجمل وجهها وشفتيها وحاجبيها ، وترتدى ملابس أمها . ولكنها في هذه السن لا تفكر في الجنس ، واذا كانت الفتاة تشترك في اللعب مع الأولاد الذكور ، وخصوصا تلك المباريات التي تقتضى تفتيش الملابس ، فسبب ذلك أن لديها نوعا من الاستطلاع الجنسى .

وهناك لعبة مشهورة عند كل أطفال العالم : لعبة الدكتور والعروسة الربضة . . هذه اللعبة يقوم فيها الولد بدور الطبيب ويكشف على العروسة ويقلبها وينحسسها . . وليس هناك أى احساس جنسى عند الاثنين ، ولكن لديهما رغبة خفية في أن يلمس كل منهما الآخر . . نوع من التعارف البريء .

والفتاة في هذه السن تحلم بشباب آخر أو برجل سواء كان له وجود حقيقى ، أو وجود فى خيالها ، ولكنها لا تفكر فى هؤلاء الأطفال الذكور الذين يلعبون معها .

وبعض الفتيات فى هذه السن وبعدها تتمنى أن يكون حبيبها فى خطر ، وتقوم هى بإتقاذه ، أو يصاب فى حادث وتبكي من أجله . . أو حتى يموت لترتدى عليه ملابس الحداد طول عمرها . . أو هكذا تتخيل .

وفى هذه السن أيضا تتمرد الفتاة على أمها ، لأنها لا تريد أن تكون مثل أمها مربوطة فى البيت ، ست بيت ، محبوسة ، قعيدة . نهاية الخط . ثم أن الأم كثيرا ما تشكو من هذا المصير الأسود : أن تكون امرأة . ومن الغريب أن الأم تطلب من ابنتها أن تكون مثلها : امرأة ، وزوجة ، وأما ، وست بيت . . أما الابنة فإن تمردها يتخذ شكلا عمليا وذلك بأن تعجب بالممثلات والراقصات والأديبات والرياضيات والمدرسات . . أى بهذا النوع من النساء اللاتى لا يجلسن فى البيت ، واللاتى يعملن مثل الرجال . . أى اللاتى يختلفن تماما عن أمها ، وعن الصورة التى رسمتها الأم لابنتها . ولذلك تلاحظ أن الفتاة فى هذه السن تحب الجلوس الى الأولاد ، والاشتراك فى المناقشات معهم ، وتقليدهم ، واستنكار الفتيات ، واحتقار الانوثة ، وكراهية الزواج ، ولذلك تجد الفتيات الصغيرات يلعبن الألعاب العنيفة ، ويتسلقن الأشجار ، دون أن تهتم بالفتاة الصغيرة بما يظهر من جسمها . . الى أن ينبهها أحد الى ذلك .

فبعض الفتيات الصغيرات يرتدين البنطلونات القصيرة ، أو يمزقن الملابس عند فتحة الصدر كما يفعل الأولاد . . وخصوصا أثناء المشاجرات الحامية .

ولا بد أن تكون للفتاة صديقة . واحدة أخرى غير أمها . وغير اختها الكبرى ، واحدة تعترف أمامها بكل شئ ، ويكون بينهما سر ورموز ، وغالبا يكون هناك طرف ثالث ، هذا الطرف الثالث هو أخو الصديقة . ففى رواية « الحرب والسلام » لتولسوى نجد البطلة صديقة ، وللصديقة أخا ، هو الطرف الثالث ، وتكون هناك أسرار أعمق ، وتكون هناك اهتمامات جنسية ، وتكون الفتاة سعيدة اذا عاملها الشبان بدرجة متساوية ، واذا قدروها ، وكل هذا يغرى الفتاة الصغيرة بالابتعاد عن بنات جنسها . . وعن جنسها ، وتكره ملابسها التى تميزها عن الأولاد . وتكره أنوثتها ، وتلعنها ، وتعترض على هذا الهوان : أن تكون امرأة .

وهناك بنات يكرهن أن يكن بنات .

ويعول العام الكبير هافيدوك أليس أن ١ ٪ من الأولاد كانوا يتمنون أن يكونوا بنات . . و ٧٥ ٪ من البنات يتمنين أن يكون أولادا . . ويذكرون السبب لذلك بأن الأولاد أكثر حريه ثم أن ملابسهم لا تضايقهم .

وفي سن الثانية عشر لا تضيق الفتاة بانوثتها بعد ، ولكن بعد ذلك تدرك الفوارق بين الجنسين في كل مكان وفي كل موقف .

والفتاة لأن عالمها محدود ، ونشاطها محسوب ، فان حيويتها الشديدة تتحول الى ملوك عصبي ، فلاعمال لا تستنفد قوتها ، ولذلك تشعر بالملل ، ومن الشعور بالملل تدرك الفتاة أنها دون الأولاد ولذلك تهرب من الواقع الى أحلام اليقظة وفي الرومانسية الحزينة ، وتعشق الخيال . وبدلاً من أن تقوم الفتاة بأى عمل ، فانها تبدد نشاطها في الكلام . . في الثرثرة . . ثم تستسلم للانفعالات الشديدة ، وتحس الفتاة أنها في المؤخرة . . أنها على رصيف المحطة . . وأن القطار قام وتركها . . وأنها أهملت وهذا الشعور بأنها أهملت يتحول في داخلها الى صورة تعويضية أخرى . . صورة فيها رد اعتبار لها فتعجب بنفسها ، وترثى لحالها أيضاً ، ولا توجد امرأة في الدنيا لا تعجب بنفسها ، ولا تبكى على ما أصابها من الظلم . . وهذه التعاسة تظهر في عصبية المرأة ، وفي دموعها ، وليس صحيحاً أن دموع المرأة تضايقها ، انها تجد لذة في البكاء . فالبكاء يريحها وينعشها ويفتح شهيتها لمزيد من النشاط ، والشئ الوحيد الذى تحتفظ به المرأة في كل سن : هو البكاء . لماذا ؟ لأن المرأة تحب أن تلعب دور الضحية في حياة الرجل ، وهذا الشعور هو استمرار لاحتجاجها على أنها أنثى ، وفي نفس الوقت تؤكد حرصها على أن تثير شفقة الرجل واهتمامه بها ، والمرأة وهى تبكى تشبه الشمس من وراء السحب . . فهى ترقب وتنظر وتتحفز من وراء الدموع .

والفتاة الصغيرة تنظر الى نفسها في المرأة وهى تبكى ، وكلما نظرت الى نفسها بكّت أكثر . . ان منظرها يثير شفقتها على نفسها ، ومعنى ذلك أن الفتاة لا تبحث عن طريقة لكى تكف عن الدموع ، وانما تبحث عن الذى يضاعف دموعها . .

وفي كتاب « الأغاني » لأبى الفرج الاصفهاني يحدثنا عن المطرب المسمى بالغريض . هذا المطرب استمع اليه عدد من النساء وأعجبن به وطلبن اليه أن يسمعن وهن يندبن ويبكين ، وأن يحفظ كلمات النذب والبكاء . . ثم يطلبن اليه أن يغنى النذب بصوته الجميل . . لماذا ؟ لكى يتأثرن بصوته ويبكين ويمزقن ثيابهن من شدة الحزن . . فهن لا يبحثن عن مناديل تجفف الدموع . . وانما يبحثن عن الذى يهز القلب ويعصر العيون .

واذا حاولت الفتاة الصغيرة أن تعبر عن مشاعرها في أعمال أدبية ، فانها تتحدث عادة عن العلاقة التى تربطها بأمها ، وكيف تتمنى أن تتمزق هذه العلاقة ، أى انها تتخذ موقفا عدائيا من أمها وتؤكد حاجتها الى من يحميها ، وتتمنى لو كانت هى وحدها التى تحب أباهما ، وكان هو يحبها وحدها ، ولذلك تغار على الأب وتخاف

على حبه لها ، وكثيرا ما قرانا فصصا لفتيات صغيرات يتخيلان أن الأب ليس أباهن
الحقيقي ، وانما هي طفلة تبنتها الأسرة .

ومن خلال ما نعرّوه وما تسمعه وما تتخيله تجد الفتاة نفسها وراء حوائط
كثيرة . وسقف واحد ، الحوائط تقترب وتبتعد ، اما السقف فقريب جدا : لأن
الفتاة مهما تعلمت وتقدمت فلن ترتفع . . وانما عالم الرجل عالم بلا سقف وبلا جدران
أيضا . . كل شيء واسع عريض عال عميق . . وموقف الفتاة مفهوم ليس فريدا ،
فالزنوج في أمريكا يشعرون مثلها ، مهما تقدموا وتعلموا فهم سود في عالم البيض .
وكذلك الفتاة تحس أنها سوداء في عالم البيض . . أى في عالم الأقوياء من الرجال ،
ولذلك فمستقبلها محدود . طريق مسدود عالمها مقفل عليها منذ ولادتها حتى الموت .
ومن المؤكد أن انشغال الفتاة بجسمها وجنسها أكثر من الأولاد ، فالفتاة تعرف
أن جسمها هذا يتغير بصورة عنيفة كل شهر ، وتعرف أنها سوف تكون زوجة :
تحمل وتلد وترضع وتحمل وتلد . ولذلك يجب أن تعرف ماذا سيحدث لها ولماذا ،
وكيف ، ومن المهم جدا أن تعرف معنى الزوجية ، والحياة الزوجية ، بينما تجد
الأولاد لا يهتمون بالزواج ولا بمشاكل الجنس . . ولا بالأمومة ولا الأبوة ، ومن المؤكد
أن الفتاة تخاف مما سيحدث لها ، تخاف من الأمومة وتخاف مما يسبق الأمومة ،
ومن الزواج ، ومن الحياة مع رجل في فراش واحد وتحت غطاء واحد عاريين . .
والفتاة عندما تقول : لن أتزوج فلأن معلوماتها عن الجنس تصيبها بالقرع ،
ولأنها تخاف مما يصيب جسمها ، ولذلك فهي تسأل في سن مبكرة : من أين جاءت
. . وكيف ولدت . . وكيف دخلت بطن أمها . . وكيف خرجت . . ولا تتصور لحظة
واحدة أن والديها يفعلان ذلك الشيء الكريه سمعت عنه من زميلاتهن في المدرسة
أو من الخادمة . . وعندما تقول أنها لن تتزوج فهي تريد أن تعلن أنه مهما حدث لها
فلن تصل الى هذه الدرجة من الهوان النفسى والقدارة الجسمية والجنسية . .
ولكن هذه الانوثة التى تبرز فى الفتاة - وخصوصا صدرها - ليس شيئا
يضايقها دائما ، فعندما يبرز صدرها تشعر الفتاة بالكبرياء وبالعار معا . . فهي
سعيدة بأنها كبرت ، وهى تتفرج على صدرها فى المرأة ، وتلمسه بدهشة وذهول . .
وفى نفس الوقت تشعر بالخجل لأنه بارز ولأنه جذاب . . ولأنه يؤكد اختلافها التام
عن الشبان ، ثم أنها لا تكشف صدرها لأمها أو أختها . ولكن لسبب لا تعرفه كان
لها نفس مصير الأم والأخت . .

ولكن بروز صدرها هذا يلفت إليها الأنظار . لأنه شيء غريب ، عجيب ، لقد
أصبح لها جسم ، لقد أصبحت جسما ، ولذلك تحب الفتاة فى هذه السن أن تكون
نحيفة ، أى تريد أن تختفى هذه المعالم التى تميزها والتى تبرزها ، والتى تلفت إليها
العيون ، والفتاة لا تنسى هذه العيون التى نظرت إليها بجرأة ووقاحة ورغبة أيضا ،
لذلك اذا نظرت الى نفسها فى المرأة للمرة الألف فسوف تجد فى المرأة وجوها وعيونا
لرجال . . وحتى اذا أغمضت عينيها ، فلن تختفى عيون الرجال من عينيها . . لأنهم
سيكونون هناك دائما . . فى المرأة ومن غير المرأة . . انها تعيش فى عالم من صنعهم ،
وعليها أن تسيرهم وأن تقاومهم ، وأن تقلدهم وأن تختلف عنهم . . وان تستسلم
وتتحكم أيضا . .

المرحلة التي يسمونها : أهوت في نفسى

— ٥ —

من أسباب الدوخة التى يعانىها الرجل مع المرأة ، أنه لا يفهم هذا الكائن الغريب الشديد الحساسية الكثير الدموع الهائل القلب . فلا الرجل عنده وقت لكى يفهم المرأة . ولا المرأة عندها فرصة لكى تفهم نفسها .

ولذلك يلتقى الرجل والمرأة وكلاهما لا يفهم الآخر ، ومن المفروض بعد ذلك أن يتسع وقت الاثنين لكى يتفاهما .. ومن النادر أن يحدث ذلك .

فالمرأة وهى صغيرة - تسمع معنى واحدا : غدا يجىء ابن الحلال ، بعد غد ربنا يرزقك بابن الحلال الذى يريخ بالك ، ويسعد حالك .. او ابن الحلال الذى « يشكمك » ويعلمك كيف تمشين على الصراط المستقيم . انها فى انتظار دائم « لابن الحلال » - والرجل عادة « ابن حلال » - سواء كان هو بالفعل كذلك أو لم يكن . ومعنى ذلك أن الفتاة فى سن صغيرة تسمع التقديس المستمر للرجل الذى سوف يجىء ، وتسمع أنها يجب أن تنتظر ، فحياتها انتظار مستمر له .

وقبل أن يجىء ابن الحلال أو فتى الأحلام أو « الأمير الساحر » أو « الفارس المغوار على حصان أبيض » تكون الفتاة قد أصيبت فى جسمها بتغيرات تفرعها ، هذه التغيرات ضرورية لها ولابن الحلال هذا . ففى مرحلة المراهقة تشعر الفتاة بأن شيئا مخيفا يحدث فى جسمها ، ويصبح جسمها هو مصدر فزع لها ، ففيه تغيرات ، وفيه أشياء برزت فى صدرها وتوجه الفتاة الى جسمها ، الى مراقبته وملاحظته ، والخوف منه ، الخوف عليه أكثر . بينما نجد ن الشباب ليست له مشاكل فى المراهقة فهو ينتقل من الطفولة الى المراهقة الى الرجولة بلا خوف . فالطريق مفتوح أمامه ، وكل علامات المرور خضراء . بينما لا تعرف الفتاة الا العلامات الحمراء معظم الوقت ، وتكون أمها هى عسكرى المرور دائما .

والفتاة تحلم بالشباب ، ولكن الشاب اذا حلم بالفتاة ، فلأنها جزء من حياته ، ولكن ليست كل حياته ، انها أحد عناصر حياته .. ولكن الفتاة تنظر الى الشاب على أنه حياتها : مصيرها .. قدرها .. بختها أو « ميلة بختها » ..

والفتاة في كل مراحل حياتها تنظر الى الرجل على أنه وسيلة من وسائل الهرب من حياتها في البيت .. فهو الذي يخطفها ، وتتمنى ذلك .. وهو الذي يحررها من قيود الأم وتكشيرة الأب وفضيحة الأخ .. وهو وحده الذي يحررها تم يحميها .. أو هو الذي يحميها أثناء الهرب من البيت .. والفتاة تجد عند الرجل كل مفاتيح السعادة .. وكل صمامات الأمان .. وتجد الصدر الحنون ، مثل صدر أبيها .. وتجد الدراعين القويتين تماما كأبيها .. فالفتاة مؤمنة منذ الطفولة بقدرة الرجل وتفوقه ، وتفوقه حقيقة اجتماعية واقتصادية ، فالرجال هم سادة العالم ، ولذلك فالفتاة تصبح ناجحة فاحشة اذا نظر اليها الرجال وأعجبوا بها ، وفي المدارس الأمريكية نجد أن الفتاة الجذابة هي التي لها أكبر عدد من الأصدقاء بشرط أن يكون هؤلاء الأصدقاء على علاقات منتظمة بها .

فاذا فازت الفتاة برجل وتزوجته كانت هذه نهاية سعيدة ، أو على الأصح نهاية محترمة ، وليس من الضروري أن تكون النهاية المحترمة سعيدة ، ولا أن تكون النهاية السعيدة محترمة أيضا . ولكن : كثر العلاقات الاجتماعية احتراماً هي الزواج ، وهي علاقة أهون وأسهل من علاقات أخرى بين الرجل والمرأة ، ففي الزواج تجد المرأة احتراماً اجتماعياً ، وتجد راحة عاطفية ، لأنها محبوبة وأم ، وهذا ما يقوله كل الذين حولها ويشجعونها على أن تؤمن بذلك وأن تهدف اليه وتحرص عليه . فأهم حدث في حياة المرأة هي أن تجد زوجاً ، وهي لا تصل الى الزواج عن طريق الغزو والانتصار وإنما عن طريق العطاء والاستسلام الرقيق المحترم ، وهذا الاستسلام ليس سببه : التربية في الأسرة والتقاليد الاجتماعية ، فكلها تقول للبنات انتظري حتى يجيء ، فاذا جاء فكوني له ..

ولا شك ان مرحلة المراهقة عند الفتاة تضايقها ، وتجعلها عصبية أياماً كل شهر ، وأحياناً تصل الى حالة من الجنون ، وصدرها يضايقها ، وخصوصاً عندما تشترك في الألعاب الرياضية ، وتشعر الفتاة بأنها غريبة عن الأولاد ، وغريبة عن الدنيا كلها . ففي سن ١٣ يبدأ الشبان في الرياضات العنيفة ، وتبدأ الفتيات في التوقف عن العنف ، وبين الشبان منافسات حادة ، ولكن بين الفتيات لا توجد منافسات وإنما توجد مقارنات فقط . والرياضة العنيفة لا تستهوي المرأة ، فهي لا تستطيع أولاً .. وثانياً لا دور لها في المنافسة والمسابقة ، انها تترك ذلك كله للرجل .. وفي أمريكا نجد أن الزوج ممنوعون من استخدام العنف مع البيض . ولا تزال المرأة لها « الروح السوداء » كأنها أحد الزوج في عالم البيض .

والرجل يحتل مكانه بالقوة والغزو أما المرأة فهي تحتل مكاناً قد أعد لها من قبل ، ولذلك فدورها يجيء في الدرجة الثانية ، أما الرجل فدوره في المقام الأول ، انه هو الذي يغزو ويتقدم ويحتل ، ثم يترك ذلك للمرأة من بعده .

إذا فكرت الفتاة في أن تلعب في الشارع ، فهي مطالبة دائما بالألا تحدث صوتا ، والا تعري جسمها ، فلو خرجت بعض الفتيات الى الشارع وحاولن أن يمشين بسرعة وأن يتحدثن بصوت مرتفع او يضحكن لكان ذلك مشيرا للاهتمام ، وربما تساقطت عليهن الشتائم واللعنات ، ومن الطبيعي أن يطاردنهن الشبان . ولو رآهن أحد رجال الدين لرفع يديه الى السماء طالبا من الله الرحمة بعباده . . ومع أن هذا المشهد يتكرر من الشبان كل يوم ومن ألوف السنين ، وقد سجلت المقابر الفرعونية شبابا يلعبون في الحارة وأحد الملوك يبارك الطوبة التي ألقاها الشبان فأصابت الملك في التاج الذي على رأسه .

فالفتاة مطلوب منها أن تضبط نفسها ، وأن تمتنع عن الحركة التي تعريها ، وأن تمتنع عن رفع صوتها وعن النظر ، وعن اختلاس النظر والسمع ، وممنوعة أن تقول ما تريد وأن تقول ما تعتقد ، وهذه الفرائد الكثيرة والشديدة تقضى على انطلاقها وعلى أن يكون لها رأى خاص وذوق خاص وموقف خاص . والنتيجة طبعاً : أن تكون الفتاة عصبية معظم الوقت ، وأن تكون في حالة ملل مسنمر . .

ويصبح هذا الملل عنيفاً لئما إذا عاشت الفتاة باستمرار في عالم النساء . فالفتاة تمل الفتاه بسرعة ، فحياتهما متشابهة ، وحديثهما شكوى ، ولذلك كان الولد ضرورياً في مجتمع الفتيات . وهذا معناه أن حياة الفتاة سخيصة مملة الى أن يظهر فيها فتى . ومعنى ذلك أيضاً أن الفتى هو وحده القادر على أن ينقذها من بنات جنسها وأن ينقذها من الملل ومن القرف اليومي وأنه هو وحده القدر على أن يجعلها شيئاً . . لأن الرجل شيء هام ، والمرأة تعلم أنها لن تفوز بالرجل لأن لها أحلاماً ، ولكن لأنها تحقق أحلامه هو ، فهي تستعير أحلامه ، ثم تعمل على تحقيقها له ، وهذا ما يعجب الاثنين ؟ : هو يعجبه أن يفزو خيالها وينتصر عليها ، وهي يسعددها أن تحقق أحلامه وتعطى نفسها له .

وقبل أن تحقق الفتاة أحلام الرجل هناك نصائح هامة وضرورية من الأم ، فالأم تنصح ابنتها بالألا تكون صاحبة الخطوة الأولى أو الكلمة الأولى ، لا مانع من أن تكون لها النظرة الأولى ، فالنظرة الأولى هي « طعم » في سنارة غرامها ، وإذا التقط الرجل الطعم ووقع في الشبكة فعلى الفتاة أن تفهمه أنها هي التي وقعت وليس هو . . فالرجل يحب أن يكون هو الذي « صاد » وليس هو الذي وقع في المصيدة . . والفتاة يسعددها أن تكون « الصيد » لا أن تكون الصياد . . وفي المصيدة يشعر الاثنان بأنهما سعيدان ولأسباب مختلفة .

ولذلك يجب أن تؤهل الفتاة لكي تكون جذابة . . أى لكي تكون مصيدة جميلة . وهذا الجمال هو جمال جسمها في الدرجة الأولى ، ولذلك يجب أن تهتم الفتاة باظهار أثوثها ، فتقف أمام المرأة كثيراً تسرح شعرها وتدرس ابتسامتها ونظراتها . فمن طريق جسمها ستكون النهاية السعيدة ، فجسمها هو كنزها وهو سلاحها

أيضا . ففي جسمها كل ما تملك ، وهذا الجسم هو العيار الناري الذي تطلقه على الرجل وقبل أن يسقط على الأرض تنهار الى جواره .

وكثيرا ما وقفت الفتاة أمام المراة تتأمل كتفها المستديرة الناعمة وتقبلها ثم تنظر الى صدرها باهتمام وعناية ثم الى ساقها وتمضي في أحلامها وكل شيء فيها يقول : أنا أحب جسمي ..

والفتاة تريد أن تكون جذابة لكي تلفت الرجل ، فإذا التفت الرجل اليها ، تأكدت من أنها فعلا جذابة أو جميلة ، فإذا تأكدت من ذلك فلا نهاية لأحلامها ، ولا نهاية لأبطال أحلامها : أبطال لهم وجود أو أبطال لا وجود لهم ..

واعنف صورة لأحلام اليقظة هي حياة الأديبة الروسية الشابة المعذبة ماريا بشكرتسف (١٨٦٠ - ١٨٨٤) التي توفيت عن ٢٤ عاما في أحد المستشفيات العقلية ، فقد كانت فتاة شديدة الذكاء ، شديدة الاضطراب ، تنام في سريرها بالسنوات لا تتحدث الى أحد ، وإذا تحدثت فهي تتعالى على كل الناس ، وقد وصفت نفسها في إحدى المرات بأنها ملكة أسبانيا ، وأعلنت كثيرا أن لها عشاقا .. مع أن هذا ليس صحيحا ، وأن لها أطفالا منهم ، وأنها عندما تخلع ملابسها تلتقي بعشرات من عشاقها .. وليس هذا صحيحا ، وكثيرا ما أعلنت أن لها أكثر من حياة ، وفي كل حياة لها دور ، وهو دور البطولة عادة ، وهي أكثر من بطلة .. وقصص كثيرة أخرى تتحدث عن سحرها ، وعن الذي يفعله جسمها بالرجال .

والفتاة عادة تحس أن الحياة حولها غير حقيقية .. حياة غير ممكنة أيضا . حياة كلها ممنوعات ومخاوف ولذلك تهرب الفتاة الى الأحلام ، وفي أحلامها تفعل ما تشاء مع من تشاء من الناس ولكن هذه الأحلام لا تكفي ، لا تشبعها ولا ترونها ، لأنه من الضروري أن يحس بها أحد من الناس ، فتجد عن طريقه المعنى الحقيقي لجسمها وانفسها ، ولوضعها في الحياة ، ولذلك يجب أن تعايش الآخرين ، وأن تعيش بهم ومعهم وضدهم ، وعلى صلة بالعالم الذي حولها ...

أما عالم الفتيات فهو عالم « الفرجة » على الرجال وانتظارهم ، وهو عالم المقارنات السلبية ، فالفتاة تقارن جسمها بجسم غيرها . وكثيرا ما تعرف الفتيات وراحت كل منهن تقارن صدرها بصدر الأخرى ، وكذلك خط الوسط واستدارة الأرداف ، وهذا دليل على أن الفتاة تقدس أنوثتها .

وقد حدثتنا ديبية فرنسا مدام كوليت في قصة « كلودين في المدرسة » عن تقديس الفتاة لجسمها ، لسلاحها ، لأنوثتها ، تلك المصيدة الناعمة لعين الرجل ، والرجل بعد ذلك .

ولأن هدف الرجل أن يجد الجنس الآخر ، تفرق الرجال كل واحد الى مسيل . ولكن الفتيات يتقاربن . فبينهن مشاكل وأحاديث وأسرار ومذكرات خاصة ومعلومات عن الجنس الآخر . ولذلك كانت الصداقة بين الفتيات أقوى من

الصداقة بين الأولاد وكثيرا ما كانت خطابات غرامية بين الفتيات . هذه الصداقة لا ضرر منها ولا خوف . والفتاة اذا احبتها صديقة لها ، كان هذا الحب نوعا من تكرار حب الفتاة لنفسها . وعشقها لحسمها . وكثيرا ما اتجهت الفتاة في حبها الى واحدة من بنات جنسها تكون لها بعض مزايا الرجال . كأن تكون موظفة . مدرسة . تكسب عيشها . ولها قيمة اجتماعية . وتفضل الفتاة أن تكون المدرسة التي تحبها غير متزوجة ، أى لا تخضع لسيطرة رجل . فالمدرسة المتزوجة تضايقها .

ولكى يكون للفتاة حب لا يخيفها ، فانها تميل الى نجوم السينما أو الأدب أو الفن . وتضع صورته الى جوار سريرها . وهى آمنة . لأنها ليست رجلا من لحم ودم تخاف أن تقترب منه . بل انها تجرده من رجولته وتحتفظ له فقط باللمعان والشهرة . فهو رجل ولكنه فى نفس الوقت ليس رجلا . أنه حب لا يخيف . وحب بلا أمل . انه نوع من المستحيل . فهو المستحيل الذى لا يخيفها على جسمها . وحتى اذا احبت الفتاة رجلا حقيقيا فانها تختار رجلا عجوزا — رجلا ولكنه لا يخيف . وفى مثل هذا النوع من الحب يكون عند الفتاة نوع من : الأمل والحنين والمرارة . وهى بذلك تتفادى التجربة المباشرة . أو الصلابة المباشرة وهى شئ مخيف .

وتظل الفتاة تحلم بالعمالة ، ولكنها لا تجد فى حياتها غير الأقرام . .

كثير من الفتيات فى مرحلة المراهقة يكتبن خطابات الى فتى الأحلام أو رجل الأحلام ، ثم لا يبعثن بها . بل يكتبن ردا على هذه الخطابات أيضا . . وكل هذه الصور مختلفة عن أحلام اليقظة . أى الهرب من الواقع الذى لا يريح ، الى واقع يريح ولكنه لا يشبع ولا يروى . ولا بد من الهرب منه . فالأحلام لحظات عابرة ، ويجب أن تكون كذلك .

ومن المؤلف فى هذه المرحلة أن تحب الفتاة أو تحلم بالرجل الدون جوان ، صاحب المغامرات والفراميات الذى لا يحتفظ بالنساء طويلا . فهى مغامرة . وهى فرصة لكى تثبت لنفسها قدرتها . وفى نفس الوقت بأن تصلحه . وأن تجعله يتوب عن النساء ويكتفى بها . وهى تعلم أيضا أن هذه مغامرة وانها سوف تفشل . وهذا الفشل هو الذى يغريها أكثر . . لأن الفشل معناه أن هذه العلاقة لن تستمر . وأن هذا الرجل سوف يبعد عنها . وهى تريده أن يبعد عنها حتى لا تكون هناك تجربة مباشرة . ولذلك فهى تفضل هذه العلاقة المستحيلة التحقيق وأن تعيش فى حلم مستحيل أى أن تنشغل بهذا الدون جوان دون أن تقترب منه . . ولو حاول هذا الدون جوان أن يقترب منها ، فانها تقرف منه . وتقرف من هذه العلاقة . لأنها تنظر اليه على أنه بطل أو نصف اله . ولا تريده أن يكون « مثل كل الرجال » . . فاذا حاول أن يكون « رجلا ككل الرجال » فانها تصاب بصدمة عنيفة . فهى فى هذه المرحلة تحب البعيد العالى المستحيل — لأن هذا حب لا يخيف .

والرجال يندهشون لتصرفات المرأة . فهى تشد صدرها وتبرزه وتكشفه . ثم تعرى ساقها . وتخفق وسطها . وتضغط على أردافها وترسم شفيتها وعينيها . .

وتخرج الى الشارع . وهى تريد أن ينظر اليها الناس . وفى نفس الوقت تضيق
بعيون الناس . لماذا هى تقول ان الناس لهم عيون جريئة . وانهم يذهبون الى بعيد
ولا يفهم الرجل هذا الموقف المتناقض من المرأة : فهى تعرض نفسها فى أجمل اطار
لكى يراها الناس ، ثم لا تريد أن يراها الناس .

والفتاة تريد أن يراها الرجل . فنظرته تحية لها . ولكن النظرات الجريئة
للرجل تخجلها .

والمرأة تريد أن « تلهب » الرجل ، فاذا شمت المرأة رائحة « شياط » فى عيني
الرجل تضايقت وكرهت الرجل . ولكن تعود فى نفس اليوم الى الخروج الى الشارع
ومراقبة كل عيون الرجال والاستماع بعناية شديدة الى كل تعليق يرضى غرورها .
ولا توجد امرأة لا تحتفظ فى اذنيها بعشرين تعليقا على جمالها ودلالها وهى أنها . .
خسارة . - أى خسارة فى أهلها وزوجها - خسارة الا تكون له او تكون لأى انسان
آخر . فاذا كانت تمشى على الأرض ، فهى خسارة الا تكون لها سيارة . واذا كانت
لها سيارة صغيرة فخسارة الا تكون لها سيارة كاديلاك . . ومن الغريب أن النساء ،
فى كل سن وكل ثقافة ، يصدقن هذه العبارات الكاذبة التى يلقيها الرجال فى الطريق
كأعقاب السجائر . . ولكن غرور المرأة واحتياجها الى الرجل وإيمانها بعظمته وذوقه ،
هو الذى يحول أعقاب السجائر الى خراطيش سجائر أمريكية تحتفظ بها المرأة فى
أعماق أعماقها .

ولا توجد امرأة فى أى سن وعلى أية درجة من الثقافة ، لا ترى فى نفسها شبيهة
بأحدى كواكب السينما . . أى شبيهة بذلك النوع من النساء الذى يعجب الرجال .
فعلى الأقل شفتاها أو عيناها أو مشيتها أو ساقاها . . ولو قامت بعمل استفتاء
فى العمارة التى تسكنها لوجدت شبيهات لكل نجوم السينما .

ومن المشاكل التى تحير الرجل والمرأة أيضا ، ان المرأة فى سن المراهقة فى حالة
احتجاج مستمر . فلا هى تريد ان تكون طفلة ، ولا هى تريد ان تكون أنثى كاملة
الأنوثة . . فهى لم تعد طفلة : جسمها يصرخ بذلك . وهى لا تريد أن تكون أنثى .
فهى تكره هذا المصير المفروض عليها . تكره أن تكون محبوسة . مقيدة تقطع عمرها
كله تنتظر واحدا لا يجرى . فاذا جاء فهو ليس الذى تحلم به . واذا جاء الذى تحلم
به فليس هو الذى كانت تتصوره . . انه « حيوان » آخر . . ومن مظاهر احتجاج
الفتاة فى هذه السن : الضحكة العالية . . فالفتاة فى سن المراهقة لها ضحكات ساخرة
. . فهى تضحك على المحبين وعلى العشاق . وهى تضحك على الشبان . وتحرص
على أن يسمع الشبان ضحكتها العالية ، بل الفتيات فى هذه السن يجدن متعة كبرى
فى أن يتقربن من الرجال والنساء فى الحداثق العامة أو فى دور السينما . ثم يضحكن
بصوت مرتفع . هذا النوع من الضحك هو نوع من الاحتجاج الصارخ أو السخط
العالى . والفتاة تحتج على مصيرها . أو على ما سوف يحدث لها فى المستقبل . وفى
هذه السن أيضا نجد الفتيات الصغيرات يستخدمن عبارات جريئة . وأحيانا
الفاظا نابية تصدم الأم والأب وتجعل وجه الأخوة يحمر خجلا . . وهذه العبارات ،

كالضحكات الساخرة نوع من الاحتجاج على الوضع . على وضعها كفتاة . وكثيرا ما لجأت الفتاة أيضا الى تناول أطعمة غريبة تماما كأنها « تتوحم » . . . وأحيانا تحب الأشياء القذرة . كأنها تريد أن تقول : ولا يهمنى . ماذا يحدث لى . إذا كانت أمراضى الشهريّة كامرأة هى أن يسيل دمي . وهذا شيء كرهه . فأننى أقبله ولا استنكره . وأقبل ما هو أسوأ من ذلك أيضا .

وأسوأ من ذلك هو قدرها كامرأة فى عالم الرجال . وكأنها تريد أن تقول : إن الرجل الذى سوف يكون زوجى فى المستقبل ، لن يستطيع أن يهدبنى أو يضايقنى أكثر مما أفعل بنفسى .

وكانت الفتاة ماريّا بشكرتسلف تقول : إذا كانت قبضة الرجل يمكن أن تخذش أصبعى ، فأنا سأقطع ذراعى حتى لا يتوهم أننى عاجزة عن احتمال الألم . . . فأنا قد قبلت حياتى معه . وليست حياته معى مصيرا محتوما .

والفتاة تقاوم أو على الأصح « تفلفص » ولكنها لا تستطيع أن تتخلص من الرجل تماما . . . ولذلك يمكن أن يقال أن المرأة تكافح الرجل وهى فى داخل القفص . ولكنها لا تفكر فى تحطيم القفص أو الخروج منه . .



حريتها مثل ضغرتها نقصها وتبكي عليها

(٦)

الدموع والصرخات والتقلبات العاطفية عند الفتاة المراهقة ليس سببها انها ضعيفة جسميا . ولكن سببها انها غير قادرة على التوافق في البيت او خارج البيت .

ومن مظاهر عدم التوافق احساسها بانها لا هي طفلة ولا هي فتاة ناضجة . ومفروض انها الاثنتان معا ، ولكنها لا تعرف متى تتصرف كطفلة ، ومتى تتصرف كفتاة . . . وان كانت تتعجل ان تكون زوجة لتخلص من اعباء الطفولة والشباب في نفس الوقت ، ولذلك تتمرد على هذه القوالب والقيود التي تضعها الأسرة والمجتمع ، اما هذه القوالب فهي ان تكون الفتاة في حالة انتظار ، وان تخفى افكارها وان تربط مصيرها بشاب او رجل لا تعرف عنه أى شيء .

وأحيانا نجد الفتاة في سن المراهقة تصاب بجنون السرقة ، تسرق أى شيء دون ان تكون في حاجة اليه ، وهذه السرقة هي نوع من تحطيم القيود او القضاء على « المنوع » وبذلك تؤكد استقلالها ، وقدرتها على ان تفعل شيئا ضد الآخرين ، ومن الغريب ان الفتاة التي تشور على انها مجرد « شيء » في الأسرة لا حيلة له ، تتحول بعد هذه الفضيحة الى « شيء » لا حيلة له . . . شيء مقضوح يستحق العقوبة . وربما كان حرص الفتاة على ان تحطم القيود يعادله حرصها على ان تتعذب ايضا . انها لذة التعذب مرة أخرى .

اما لعبة المراهقة المتكررة فهي ان الفتاة تريد ان تأخذ دون ان يأخذها أحد ، فلا تكون ضحية لعمل قامت به ولذلك نجد بعض الفتيات يبعثن بخطابات مجهولة الى أناس بقصد ازعاجهم او افساد حياتهم الزوجية ، وأحيانا يخترعن قصصا وهمية عن بيوت بها عقاريت او عن رؤية عقاريت . . . هذا معناه ان الفتاة في سن

المراهقة تريد أن تؤكد لنفسها أنها تستطيع أن تفعل شيئاً ، أن تزعج أحداً ، أي أنها قادرة على فعل شيء مخيف ، وليس صحيحاً أنها لا تقدر على شيء ..

ولكن بعد أن تفعل الفتاة ما تريد فإنها تعود مرة أخرى إلى أن تكون « شيئاً عاجزاً » وإلى أن تتحكم فيها الأسرة مرة أخرى .. فكان الحالة التي تهرب منها تعود إليها ، ولكن عن طريق آخر .

وقد تضيق الفتاة بقيود الأم ، فتخرج من البيت ، بلا هدف تمشي ساعات ، وأحياناً تختفي أياماً ، ثم تعود إلى البيت ، ولو حاول إنسان أن يقنعها بالعدول نهائياً عن العودة إلى البيت لرفضت ، فكان الفتاة ترفض البيت وتقبله ، وكأنها ترفض القيود وترتضيها ، فالهرب نوع من الهزلة . فهي ليست جادة لأنها تريد أن تهرب في نفس الوقت لا تريد ذلك .

ولأن الفتاة تعيش معظم الوقت بخيالها تحلم وتنطلق إلى المستقبل البعيد ، ولأن الإحساس بالواقع أقل فإن الفتاة تتصور أنها عندما تخرج من البيت قد أصبحت حرة ، وإن حريتها معناه تحطيم قيود الأم والأب نهائياً ، وقد تتخيل أيضاً أن في استطاعتها أن تعطي نفسها لأي إنسان مجاناً . وفي هذا الغطاء المجاني اهدار لكل مقدسات الأم ، فكان الذي يعنى الفتاة هو أن تتحرر من أمها فقط .. وليست الحرية كأسلوب أو هدف للحياة كلها ..

ومعنى هذا كله أن الفتاة إذا تمردت فهي داخل إطار ، فهي « عفريت » في داخل زجاجة .. فهي دائماً عفريت ودائماً في داخل الزجاجة .. أي أنها ترفض عالمها وتقبله دائماً ..

ومرة أخرى إذا كان حاضرها لا يرضيها ، فإن مستقبلها أيضاً لا يرضيها ، ولذلك تريد أن تقفز من مرحلة المراهقة إلى مرحلة الأتونة الناضجة . ولكن رغم أهمية هذا الانتقال عندها ، فإنها لا تفعل شيئاً جوهرياً ، فالفتاة دائماً مشغولة ، ولكنها ليست مشغولة بشيء ، فهي لا تفعل أي شيء ، ولذلك فهي لا تساوي أي شيء ، ومن الواجب أن تكون شيئاً ، لذلك يجب أن تفعل شيئاً ، وهذا الشيء الذي تفعله هو الذي يحررها من البيت .. من الأسرة ، ومن هنا كان العمل ضرورياً للفتاة . وبعد أن تعمل الفتاة إلى جانب الرجل ، يلاحظ الرجل أنها مختلفة تماماً عنه ، كاذبة ، فشارة ، وأنه لا يفهمها ، ولا يعرف متى يتمكن من ذلك . ولكن الفتاة قد وصلت إلى هذه الحالة لأسباب خاصة بها ، فهي محكوم عليها أن تخفي أسرارها ، أن تكذب أيضاً ، فمنذ السادسة عشرة من عمرها تحدث في جسمها تغيرات أساسية لا بد أن تخفيها عن عيون الشبان والرجال ، فالمراهقة عذاب والمرض الشهري لعنة ، واليقظة الجنسية والرغبات الأولية والتحذيرات الكثيرة التي تصبها الأم في أذنيها ليلاً ونهاراً ، كلها تحتم على الفتاة أن تخفي حالها ، وأن تتستر على ظروفها الغريبة . ولذلك اعتسدت الفتاة أن تقفل على نفسها الأبواب والنوافذ وأن تمحو آثار كل ما بقي في وجهها أو في جسمها أو في ملابسها ..

وقد صدر أخيراً في أمريكا كتاب عنوانه « الأخلاقيات القديمة » مؤرخ معروف اسمه بورتير . يحدثنا عن فتيات أمريكا سنة ١٩٠٠ ، هؤلاء الفتيات كن يأكلن الأطعمة الفارقة في الملح والليمون حتى يتأخر المرض الشهري بعض الوقت لتمكن الفتيات من الرقص مع الشبان دون أن يتمكن الشبان من ملاحظة شيء بمجرد لمس اليدين أو النظر في العينين أو رائحة الملابس . . ومن الصعب طبعاً أن تكون الفتاة أميرة للأحلام وجميلة وعندها أي أحساس بأنها مريضة أو بسبيل أن تكون كذلك .

وموقف الفتاة من جسمها هذا معناه أنها ترفض هذا الجسم ، وهذا الرفض نوع من النفاق . لأنها لا تستطيع أن ترفض ما تعيش به وما تعيش عليه . . وإذا رفضته فإن أحداً لا يصدقها . . أنها هي لا تصدق نفسها إذا توهمت ذلك . .

وكيف تتوهم الفتاة أن جسمها هذا شيء تنكره أو تستنكره ، والدنيا تطالبها بأن تكون جميلة ، أو « شيئاً جميلاً » ، وجمال المرأة هو الذي يجنى عليها ، لأنه يدخلها في تهمة أخرى : أنها كاذبة . فالكمياج والباروكة والسوتيان والكورسيه والكعب العالي والرموش والأظافر كلها أنواع مختلفة من الكذب ، وهذا الكذب مغشاه أن الفتاة ترسم كل ملامحها ، ويصبغ هذا الرسم له معنى واحد ! أن كل شيء ينتظر . . وكل ابتسامة : دعوة ، وأنها هي من أولها لآخرها زهرة أو ثمرة تنتظر من يقطفها . .

وإذا كان التجميل نوعاً من الكذب فالرجل شريك المرأة فيه ، لأن الرجل يطلب من المرأة أن تطارده وتلاحقه لتوقعه في شباكه . . لتصيده في النهاية ! وهو الذي يطالب المرأة أيضاً أن تقوم بدور الفريسة المستسلمة له ، وأن تكون دائماً هذا الكائن المحكوم عليه بالاغراء والانتظار . فإذا سقط الرجل من مصيدة المرأة ، اتهمها مرة أخرى بأنها غادرة وأنها خائنة ، وأنها هي التي خدعته والتي استدرجته . . جرحته . . أدخلته المصيدة التي هي الحب أو هي بيت الزوجية . . فكان الرجل ليلاً ونهاراً ، كلها تحتم على الفتاة أن تخفي حالها ، وأن تستر على ظروفها الغريبة . يريد من المرأة أن تكون مصيدة ، بشرط ألا يقع فيها . .

وإذا اتهم الرجل المرأة بالخداع والغدر فهو على حق ، لأن المرأة تعلم من البداية أن مصيرها هو : الرجل . . وأن الرجل يجب أن يغزو وأن ينتصر والمرأة تمكنه من هذا الشعور ، فإذا انتصر وجد نفسه مهزوماً ، ثار على المرأة . ولكن هذه الثورة لا معنى لها . لأن الثورة على المرأة معناها أن الرجل قد نسي شروط اللعبة . فليس من المعقول أن تلقى المرأة بنفسها عند رجلينة . أنه يرفضها . وليس من الممكن أن تقاوم المرأة حتى النهاية لتكون : الشهيدة العذراء . فالمرأة التي تقاوم المجتمع والرجل تموت أو تصاب بالجنون ، فهي لا تضع وقتها في الانتظار ، وإنما هو انتظار مدروس محسوب . .

ويحترق الرجل مرة أخرى في فهم الفتاة ، فهي دائماً مترددة ، ليست متأكدة ، وسبب ذلك أن الفتاة تعتمد في كل شيء على غيرها ، رأيها في نفسها ليس إلا صدى لرأي الآخرين ، كلمة من هنا ، وكلمة من هناك ، وهؤلاء الذين يقولون الكلمات هم

الناس .. هم الرجال ، هم الأب والزوج والأخ ، هم الذين يحكمون الدنيا .. دنياها ودنيا كل النساء ، ولذلك فهي لا تعرف بالضبط : من هي ؟ ولا ما هي صفاتها ؟ ومن أجل هذا كانت شديدة الحساسية : كلمة تأخذها وكلمة تعيدها ، كلمة مدح تطير بها .. وكلمة نقد تنسفها .. فالفتاة تستمد قيمتها من اتفاقها مع الرغبات والمزاج والمثل العليا عند الآخرين . وفي هذه المرحلة تجد الفتاة المراهقة أن زميلاتها أعداء لها ، ومنافسات خطيرات ، وباسم الغيرة تتخلص منهن واحدة بعد الأخرى .

والفتاة معذورة في هذه المرحلة ، يكفي أن تتصور أن الفتاة في سن الحياة والاقبال على الحياة والتفتح ليست لها ارادة مستقلة ، وانما عندها فقط رغبات متقلبة . وفي نفس الوقت نجد الشباب له ارادة وله حياة وله مستقبل ، وان مستقبلها من أوله لآخره يتوقف على ضرورة اسعاد رجل - او على الأصح - على ضرورة « امتناع » رجل ، أيا كان هذا الرجل .

وتجىء الدموع والصرخات اسلوبا في التعبير عن ضيقها وقرفها وتمردا .. ولكن رغم هذه الدموع ، ورغم أسبابها فان حياتها النفسية أغنى وأكثر تنوعا من حياة أخيها ، لأنها مشغولة طول الوقت باحساساتها ، وتأملاتها واسترجاعها . ولذلك لديها قدرة على الفهم ، وقدرة على التفرقة بين المشاعر المختلفة .. وتدوق الكلام الجميل : في الشعر والأغاني ، هي أيضا تحب مشاهد الطبيعة ، لأن الطبيعة مثلها : جميلة مفتوحة الصدر والذراعين .. وتنتظر من يقطفها .

والمرأة تعلم في هذه السن ، انها لكي تكون مقبولة من الرجال ، يجب أن تعمل وتفكر كالرجال ، وفي نفس الوقت ألا تكون كالرجال . لأنه من الضروري أن تكون انثى دائما ، والمرأة تعرف قيود الانوثة الناعمة المتينة ، وهذا ما شكت منه الأدب العربية « مبي » عندما بعثت بخطاب إلى الشاعر جبران خليل في سنة ١٩١٢ تقول له : آه .. انها تلك القيود الحزيرية الدقيقة كنسيج العنكبوت ، المتينة كأسلاك الذهب ..

والأدب الانجليزية الكبيرة فرجينيا وولف تحدثنا عن أدق مشاعر المرأة عندما تقول : عن طريق اغرائي للرجال واطراء الرجال لي يصبح لي طموح .

ومعنى ذلك أن المرأة لم تعد ترتجف لنظرات الرجال وتكتفى بهذا القدر ، وانما تذهب إلى أبعد من ذلك في خيالها : انها تراقب وتدرس وتحسب وتتخيل انتصارها في النهاية .

وتقول فرجينيا وولف أيضا : نظروا الى .. ونظرت اليهم ، ونظروا .. وانتظرت ، واحسست بأنني لي جدورا .. واحسست انني راسخة ، ولكنني في نفس الوقت اطفو على وجه الدنيا من شدة الفرح .

وكلما كبرت الفتاة زادت توصيات الأم ونصائحها ، وزادت هموم الفتاة أيضا ، فاذا عملت الفتاة في البيت ، ضايقها ذلك ، لأنها لا تريد أن تظل عضوا في هذه الأسرة تعمل من أجل أمها وإخواتها ، وانما تريد أن تعمل لنفسها .. لبيتها وأولادها ، واذا

رؤيت أمها بأولاد ، فان الفتاة « تشمت » في أمها وتقول في نفسها : اعملى الآن من أجل أسرتك الخاصة .

واذا اشتغلت الفتاة خارج البيت فانها تكره العودة الى البيت ، لأنها في البيت يعاملونها كما لو كانت طفلة في حين يعاملونها خارج البيت على أنها شخصية مستقلة ذات سيادة ، ولذلك تفكر الفتاة في الزواج .

ومن المألوف أن تفكر الفتاة في الحب لا في الزواج في مرحلة المراهقة وتفكر في الزواج لا في الحب بعد ذلك . ولكن قيود البيت هي التي تفرض على الفتاة أن تهرب بالزواج . وفي هذه الحالة لا تنظر الى الزوج على أنه كائن مقدس ، وإنما فقط على أنه كمساري « أتوبيس الحرية » من قيود البيت ، وسلاسل الأب والأم والأخوة . وفي هذا الوقت يطرا شيء غريب على الفتاة فهي تتخلص من كل صديقات الدراسة . . فالصديقة التي أصبحت ست بيت تضايقها ، والصديقة الجميلة تخيفها وتشعل الغيرة في قلبها .

واحتياج الفتاة الى الزوج ، والبحث عنه ، يجعل عالمها ضيقا ، وافكارها محدودة ، وهدفها مركزا ، فاذا لم يأت الزوج أصابته الماراة والأرق .

والمرأة العاملة لها مشكلة : هي انها تريد أن تنجح وفي نفس الوقت أن تكون انثى ، اى تكون جميلة ، وهذا يرهقها ، ويبدد قدراتها ، وربما كان هذا هو السبب الحقيقي في عدم تفوق المرأة في كثير من مجالات العمل . واذا اضطرت المرأة الى أن تختار بين العمل أو الدراسة وبين الزواج فانها تختار الزواج . ولا تشعر المرأة بأنها خسرت كثيرا ، لأن الذي بذلته من مجهود في هذا النشاط الخارجى ليس شيئا كبيرا ، فهي لم تخسر عندما تركته ، ولم تكسب عندما حرصت عليه ، ولكن الزواج يعطى للمرأة وضعها اجتماعيا ووزنا وقيمة ، فالمجتمع هو الذى كافأ المرأة على جمالها جسما ونفسا بالزواج . فالزواج بطاقة شخصية وجواز سفر ودلالة القبول والامتنان . والمرأة تعلم انها لا تستطيع أن تحقق شيئا من الاحترام التام الا بالزواج .

واذا كانت الفتاة تشكو من قيود الأم ، وتريد أن تتحرر بالزواج ، فان الزواج قيود أخرى . . واذا قررت المرأة أن تتحرر من قيود الزواج ، فان هذا يعذبها أيضا ، فحرية المرأة مثل ضفائرها تقصها وتبكي على ذلك ، فهي تنتقل من قيود الى قيود أخرى . . وليست هي وحدها ، ولكن الرجل أيضا ، لأنه لا توجد حرية مطلقة . . وإنما الحرية هي اختيار أكثر القيود خفة ومتعة وفائدة لنا جميعا .

كانوا يزوجونها .. أصبحت هي التي تزوج

(٧)

كل فتاة تَتمنى الزواج .. وكل زوجة تندم عليه .

ولكن الزواج ، رغم ذلك ، ضروري للمرأة . أما رأيها في الزواج بعد ذلك ، فهو مثل رأيها في الأزواج ، يتغير حسب الأحوال وحسب مراحل العمر المختلفة . ولكن سوف يبقى الزواج درعا حيويا لها .. يحميها من المجتمع .

والمجتمع هو الذي فرض عليها هذه العلاقة . فالمرأة لا يكتمل وضعها النفسي والاجتماعي والاقتصادي إلا إذا تزوجت .

ولذلك فالفتاة ليست مخطئة إذا سئلت عن مشاريعها للمستقبل فقالت : أريد أن أتزوج أولا .

أي أنها تريد أن تتزوج أولا وبعد ذلك يكون أي شيء آخر . ومن بين الأشياء الأخرى قد يكون تخصها من الزواج نفسه .. ولكن لابد أن تتزوج أولا ..

وفي المجتمعات القديمة كان الرجل لابد أن يجد الزوجة .. يخطفها أو يشتريها .. أو يبادل عليها بالإقرار والجواميس أو ثمار الغابة .. وكانت المرأة ضرورية لأنه يريد أولادا . ولا توجد وسيلة أخرى - حتى الآن - للحصول على أطفال من غير المرأة ، وإن كان العلم الحديث يحاول ذلك .

وعلى الرغم من أن الزواج أصبح عقدا بين رجل وامرأة ، على مسمع من الدولة - أو على الأصح - بضمان الدولة ، فإن الرجل والمرأة ليسا متساويين في الحقوق والواجبات . فلا يزال الرجل في وضع أحسن . ليس في الشرق فقط ، بل وفي الغرب أيضا . فلا يزال الزواج هو الوسيلة الوحيدة للمرأة في أن تكون في « المسار » الصحيح . وأن يكون لها وزن اجتماعي . وأن تكون « مأمونة » تستطيع أن تدخل كل بيت وأن تنتقل من مكان إلى مكان دون خوف .. ومن الممكن أن تجد الزوجة

تفسيها تقول : انا زوجة فلان وهي تقصد بذلك انها زوجة وانها سييدة محترمة ..
وهي في نفس الوقت لا تحترم الزوج ولا تراه شيئا هاما ، وانما هي فقط تجعل من
زوجها سلاحا تشهره في وجه الناس سلاحا تخيف به ولا تحترمه .. ورغم ذلك
فهو السلاح الوحيد الذي يمكنها ان تستخدمه او تعتمد عليه .

واذا كان الزواج عقدا ، فالخيانة الزوجية اخلال بهذا العقد . والطلاق فسخ
للعقد .

ولان المجتمع هو الذي يفرض الفتاة بان تتزوج ، فالمجتمع هو الذي ضمن للفتاة
حقوقها ، وضمن هذه الحقوق مكافأة للفتاة على انها تزوجت . فالمجتمع يحتم
ان يكون هناك مهر ومقدم ومؤخر ونفقة اذا تم الطلاق . وبذلك لا تخاف الفتاة اذا
تزوجت ولا تخاف اذا طلقت .

والمجتمع يشجع الزواج لانه لابد ان يكون هناك اطفال . اي لابد ان يستمر .
ولا يحدث ان يتدخل المجتمع في انجاب الاطفال الا قليلا : في ايام اسبرطة القديمة ، وفي
ظل النازية في المانيا . فالدولة هي التي تختار الامهات القادرات على الولادة وهي التي
تحدد عدد الاولاد .

والمجتمع يرى ان الزواج ضروري لانه لابد ان يكون الفتاة زوج . اي ان المجتمع
لا يفضل ان يكون هناك فتيات آنسات عانسات . ففي زواجهن تعديّل للقيم وانكماش
للرذيلة . وليس معنى ذلك انه لم تكن هناك رذيلة في كل العصور . كانت هناك رذيلة
وما تزال وسوف تبقى . وكانت هناك دعارة وما تزال وسوف تبقى ايضا . وكان
للرجال صديقات . ولكن ظل المجتمع يحترم العلاقة الزوجية . ويطلب باحترامها
ايضا . واذا اساء الرجل الى زوجته ، فان المجتمع يعطيها الحق في ان تعود الى اهلها
.. وقد اسرف الفراغ في تعويض المرأة عن خسائرها تماما كما يفعل الامريكان
اليوم .

والزواج عبء على الاثنين ، ومنفعة لهما .. والزواج كالولادة : فيه اعظم للذة
واكبر ألم .

وكل اجتهادات العلماء هي في كيف تبقى اللذة مدة اطول من الألم . ولابد ان
استمرار الزواج حتى الآن دليل على ان اكثر الناس لم يفقدوا الأمل .

وما يزال المجتمع ينظر الى الفتاة التي لم تتزوج على انها فتاة « ضالعة » .. او
« بائنة » . وهي اهانة للفتاة لان معنى ذلك ان احدا لم ينظر اليها .. وان الذين
نظروا اليها ووضعوها في عيونهم بنقطت هي من عيونهم .. فهي لم تملأ العين لان بها
هيونا جوهرية . ولذلك فالفتاة تحب ان تتزوج . وامها تعلم ذلك وتشجعها .

ومنذ اقدم العصور نجد الامهات يدفعن البنات الى طريق ابن الحلال وباشكال
مختلفة . ومن النقوش السومرية القديمة في العراق نجد امرأة تمسك انتها . والام
بعض واحدة .. او على الاصح بعين مقفلة والاخرى مفتوحة . ويقال في تفسير هذه
العين الواحدة ان الام تغمز بعينها لابنتها عند مرور أحد الشبان .

وفي إحدى روايات الأديب الفرنسي زولا يصور لنا ماذا جرى عندما زار الأسرة شاب غنى . وكان عشاء وكان رقص . وجاءت الأم تسأل ابنتها : لاحظت أنك ترقصين معه كأنك لوح خشب .

وقالت الابنة : كيف أرقص مع رجل غريب ؟

وقالت الأم : بعد أن أمسك يدك ، ظل غريبا . . وبعد أن اقترب وجهه من وجهك . . وبعد أن رايت لمعنا غريبا في عينيه . . ألم تلاحظي أن يده ترتجف . . وأن هناك قطرات من العرق على جبينه . . كل ذلك يدل على أنه ليس غريبا . . وإنما على أن في داخله عمليات كيميائية . . هذه العمليات هي الشيء الضروري . . هي الدليل على أن قلبه قد تحرك . . فماذا فعلت ؟

قالت الابنة : لم لاحظ ذلك . .

قالت الأم : ولكنى لاحظت أنه اقترب منك أكثر وأكثر . . ثم وقعتما أنتما الاثنان في ركن من الغرفة . . ماذا حدث . . ؟

فقالت الابنة : حاول أن يقبلنى فألقيت به على أحد المقاعد .

قالت الأم : على أحد المقاعد . . تريدان أن تكسرى المقاعد الجديدة . وهل تظنين أن والدك يتعب ويتعذب ليلا ونهارا لكي تحطمي هذه المقاعد . . لماذا لا تنظاهرين بانك لا تفهمين ماذا يقصد . وان هذه القبلة جاءت مفاجأة لك . ان هذا يؤكد سذاجتك وبراءتك . . ولا شيء يغرى الرجل ويوقعه أكثر من فتاة ساذجة . . وفي سذاجة الفتاة أعظم الخبث واللؤم . . هل تعرفين كيف تزوجت أباك . . انه ما يزال يتحدث حتى الآن على خيبتى . . وكيف انتى لا اعرف معنى ان ينام زوجان في فراش واحد . . وهكذا تصور . . وهكذا جعلته يتصور . . وهو سعيد وأنا ايضا . . وكان لنا من هذه العلاقة السعيدة ، ابنة تعيسة مثلك . . الخ .

فهذه الأم تريد أن تلقى بابنتها في أحضان رجل ، أمام عينيها ، ويعلمها من أجل الوصول الى نتيجة مؤكدة : الزواج . . لأن الزواج ، بكل عيوبه ، أهون من بقاء الفتاة في البيت .

فالزواج يعطى الفتاة ضمانات قانونية ضد نزوات الرجل . ولكن في نفس الوقت يجعلها الزواج تابعة للرجل . تأخذ اسمه - في الدول الأوروبية - وتحاول أن تفعل ذلك في الدول الشرقية . . وتنتقل الى أسرته وتصبح « نصف » الرجل . . أو نصفه الآخر ، وتذهب الى أى مكان يذهب اليه . وإذا عمل الاثنان في مكانين مختلفين ، فإنها تنتقل بعملها الى حيث يعمل الرجل ايضا ، وتعطيه نفسها وجسمها . . وبذلك تفقد بعض حقوق المرأة غير المتزوجة .

والزواج مفروض على الفتاة ، وليس مفروضا على الفتى . فالفتاة اذا لم تتزوج فإنها تظل خادمة في البيت ، أو تابعة لأخيها الأكبر . أو لزوجة الأخ . أما اذا تزوجت تحررت واكتسبت حقوقا جديدة . وكثيرا ما فضلت الفتاة الزواج على العمل

خصوصا إذا كان الزوج له وضع اقتصادي أفضل ، أو سوف يحقق نجاحا أكثر من نجاحها . . فالزواج أحسن من وظيفتها .

وما يزال المجتمع ينظر بنصف عين الى الفتاة المتحررة . واكثر المجتمعات تقاوم هذه الفتاة . صحيح في فرنسا لا يوجد نص قانوني يعاقب على الخيانة الزوجية ، ولكن مع ذلك هناك في كثير من الريف الفرنسي قيود شديدة على الفتاة . بل ان هناك مراسم وتقاليد صعبة وخصوصا في ليلة الزفاف . وهناك دخلة وهناك مراسم لاعلان ان الفتاة كانت عذراء وان هذا هو مصدر فخر الأب والأم وان هذا في الريف فقط ، بعض الريف . . اما في امريكا فالفتاة حرة . ولكن الفتاة لا ترى نفسها طبيعية الا اذا تزوجت مرة . . فاذا كانت مطلقة عاودها القلق من جديد . فلا بد ان تتزوج وان تبقى زوجة ايا كان رأيها في الزوج وفي الزواج . فاذا كانت الفتاة اما بلا زواج ، فهذه مشكلة لها ولطفلها . . وفي المجتمع الامريكي يوجد اناس محافظون الى اقصى درجة . بل ان كثيرا من العائلات الامريكية الريفية تبعت بالبشرى الى اقاربهم في اوربا ان ابنتهم عندما تزوجت كانت عذراء . . امام شهادة الشهود .

والمشكلة الصعبة هي ان كل الفتيات يردن ان يتزوجن ، وكل الشبان لا يريدون ذلك . ولكن يتم الزواج رغم ذلك وينتشر ، وليس ذلك دليلا على ان الفتاة قادرة على تحقيق احلامها ، وان الفتى عاجز . . ولكن على انه رباط ضروري ، والانسان امام الضرورة يحاول ان يؤكد لنفسه انه ليس مضطرا ، وانما هو اختار ذلك ، ولهذا يتحدث عن الزواج كرغبة وامل وحلم ورداء واستكمال الوجهة الاجتماعية والاخلاقية . والحقيقة انه ضرورة ، وان الانسان يضع على الضرورة ورودا : يزينا ويخفيها في نفس الوقت . .

والشباب لا يرى ان الزواج مشروع كبير ، وانه مستقبل ، وان من الضروري ان ينجح الزواج ، فالزواج احد مشروعات الرجل ، احدى المحطات في حياته . . وليس الزواج حياة الرجل ولا هو مستقبله ولا الفشل فيه فشل عام . . على عكس الفتاة . والحياة الحديثة قد سهلت للرجل الكثير ، وهونت عليه الكثير ايضا . فهو يستطيع ان يجد المسكن والمأكل وغير ذلك دون ان يكون زوجا ، ودون ان يحتاج الى زوجة ، ولكن الزواج يعطيه اشياء اخرى : ينقذه من الشعور بالوحدة ، ويعطيه المتعة الهادئة ويعطيه البيت الخاص والمزاج الخاص ، والامان والاطفال وهذا مالا يستطيع ان يجده بغير زواج . .

وليس الزواج تقريبا لوجهات نظر مختلفة بين الرجل والمرأة ، وانما الزواج هو تقريب رجل وامرأة فقط . وقد تبقى وجهات النظر متباعدة ، كما يجلس اثنان متجاورين وقد نظر كل منهما الى ناحية . . او كما يجلس انسان في المقعد الامامي للسيارة ، احدهما يقود والاخر يتفرج ، فهما متجاوران في المكان ، وليس في الهم والاهتمام .

وعندما سئل أديب فرنسا بازالد عن دور المرأة في الحياة الزوجية قال : المرأة هي الشجرة والرجل هو الماء والهواء ، ومعنى ذلك أنهما ضروريان . وليس هذا هو رأى الزوجين عادة ، فلا أحد بالذات ضرورى للآخر ، لأنه من الممكن أن يكون للزوجة أى رجل آخر ، وأن يكون للرجل أية زوجة أخرى فالضروري فقط هو : اثنين .. أى اثنين ، لتكون حياة ، أية حياة .. وليكن أولاد .. أى عدد .

وفي العصور الوسطى وقعت قصة مشهورة بين رجل وامرأة ، وكان الخلاف على ولد ، وأيهما أحق به من الآخر . وقالت الأم : أنا أول وجه رآه .. وأنا وحدي الذي استطع أن أقول أنه ابني .

ولم يكن لدى الرجل ما يقوله : فلا هو رآه .. ولا هو قادر على أن يقول أنه ابنها أو ابن غيرها .

وعلى الرغم من تفاهة هذه الأسباب فقد حكم القاضي للأم بأن تحتضن طفلها . وفي الأدب العربي جاذبة مشهورة فقد اختاف أبو الأسود الدؤلي هو وزوجته علي حضانة طفل في السابعة من عمره . ودار بينهما حوار عنيف أمام القاضي . قالت الزوجة : هو ابني ، كان بطنى وعاءه ، وحجرتى وقامه ، وثدياى منقاه ، أروعاه إذا نام وأحفظه إذا قام .. سبعة أعوام .

وقال الزوج : أنا حملته قبل أن تحمليه ، ووضعته قبل أن تضعيه ، وأمنحله اليوم علمي وحلمي ..

وقالت الزوجة : أنت حملته خفيفا وأنا حملته ثقيلًا ، وأنت وضعته في لدة ، وأنا وضعته في ألم .

ومن الطبيعي أن يحكم القاضي للأم .

ومن الطبيعي أن يظل هذا الخلاف قائما بين الرجل والمرأة على أهمية الدور الذي يؤديه الواحد في حياة الآخر .. ربما كان الدور الاثنى ثافهسا ولكن من المؤكد أنهما يؤديان دورا هاما للمجتمع والطفل .

وهذا هو الذي يعبر عنه الأديب بازالك بقوله : الطفل هو : دقائق من اللذة وشهور من الألم .

والزواج قديما هو الشرف ، بمعنى أن الزوجة يجب أن تحافظ على شرف الزوج مقابل ما يقدمه لها من طعام وشراب وهدايا ، فهو يصونها وهي تصونه ، وعلى الرغم من أن هذا المعنى يبدو عنيفا ، فإنه ليس بعيدا عن الحقيقة ، فالزواج شركة اقتصادية كل واحد يدفع ما يقدر عليه ، وعينهما يفض الزوجان هذه الشركة يكون السبب عادة : أن كل واحد منهما لا يدفع نصيبه المتفق عليه .

والزواج غير الحب ، فمن الممكن أن يكون زواج بلا حب ، ومن الممكن أن يكون حب

بلا زواج ، ولكي يلتقي الحب بالزواج يحتاج الإنسان الى معجزة ، أو شيء كالمعجزة ،
والفيلسوف الوجودي المؤمن كيركجورد يقول : الحب تلقائي والزواج ارادية .

أو بعبارة أخرى : ان الحب ينطلق من القلب دون ان تكون لنا ارادة ، اما الزواج
فقرار يتخذه العقل . أو بعبارة أسهل : الحب كماء الينابيع ، والزواج كماء الجفينة .

ويقول الفيلسوف كيركجورد : الله وحده هو القادر على ان يجعل الزواج يجلس
عند صدر الحب ويرضع لبن الحياة الدائمة .

أما الفيلسوف نفسه فقد تخلى عنه الله . . ولم يفلح الفيلسوف ان يتزوج
محبوبته ، لقد تركته ، لماذا ؟ لأن الزواج أسهل مما تتصور ، فقد كان ينتظر المعجزة ،
أما هي فلا صبر لها على انتظاري المعجزات ، وإنما تقدم لها شيب آخر أكثر ثراء ، وأصح
جسماً وعقلاً ، وقال لها : يا يا لي في ان يتزوج ، كان يدها في لا مانع . . وقال لها :
ولكنك كنت مخطوبة للفيلسوف ؟ وقالت : هذا صحيح ولكن لم أفهم منه أنيسا
يهوف يتزوج . .

ومعنى ذلك أنها تزوجت الذي لم يخطبها ، ولم تتزوج الذي خطبها . .

وأهم من هذه القوانين بين الرجل والمرأة في النظر الى الزواج : ان الزواج لا يعطل
الرجل ، ومن الأفضل ألا يعطله ، ولذلك فالرجل جياته خارج البيت . عمله .
مستقبله . قدرته على التغير والتطوير ، ولذلك فمستقبل الرجل بلا نهاية . .
والرجل أهمية اجتماعية تاريخية ، لأنه مربوط بالتقدم وبالجسيرة الإيسبانية كلها . .
ولكن الزواج يربط المرأة بالبيت ، وحتى لو كانت عاملة فأنها في النهاية تعود الى
البيت ، وفي البيت يصبح عالمها أصغر . أضيق . وتصبح مشغولة بالرجل وأولاد
الرجل ، وتبدأ المعركة التي لا تنتصر فيها أبدا : معركتها مع النظافة ، فهي تعمل كل
يوم على ترتيب البيت وتنظيمه وتنظيفه . . فلا التراب يختفي ، ولا المقشرات ، ولا
أمل في النصر على القذارة ، ولكثرة انشغال المرأة بالتراب تتخيل في بعض الأحيان أن
كل شيء في الدنيا تراب ، وأنه من الممكن تنظيفه وغسله . . وفي إحدى روايات الأديب
الفرنسي مونترلان يدخل الزوج فلا يجد زوجته وإنما يجسد ابنته الصغيرة تمسك
فوطه وتمسح بها المقاعد ، ويضحك الأب لرؤيته ابنته الصغيرة ويقول لها : في هذه
السن المبكرة تصابين بجنون النظافة ؟ ويكون رد الطفلة : اننى مثل ماما . . ويكون
رد الأب : تما . . أنت تقلدين الجنون . وتقول الطفلة بذكاء وخبث : ماما مجنونة .
ويضحك الأب قائلا : فعلا مجنونة .

وتقول الطفلة بخبث أشد : هل هي مجنونة لأنها تقول ان كل شيء يمكن غسله
الا أباك .

والطفلة أصابت قلب أبيها . . وقلب الحقيقة ترصاصة واحدة !

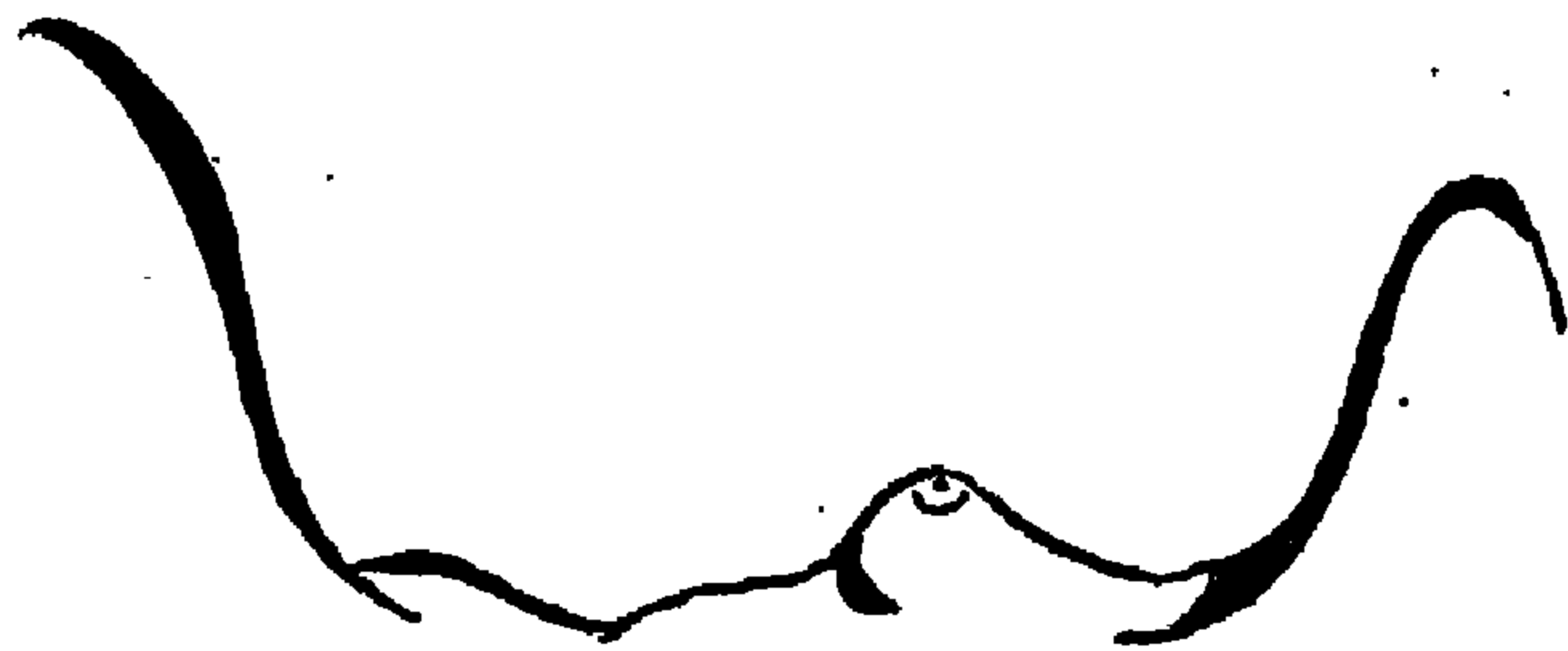
وعلى الرغم من أن الزواج لقاء بين اثنين . . أو خلاف بين اثنين ، فان هذا
الرباط لم يكن عادلا دائما ، فلا يزال الرجل صاحب الكفة الراححة . . ولا يزال الرجل

في كل مكان يظلم المرأة ، حتى في أكثر المجتمعات تقدما ، ولكن من المؤكد ان هنالك تغييرات جوهرية قد حدثت في كل المجالات ، فلم يعد الزواج حفرة في الأرض تسقط فيها الفتاة ، وينهال عليها الرجل ، ولم يعد الزواج مصيدة تدخلها الفتاة عمياء .. وانما اتاحت للفتاة فرص كثيرة لأن تفهم ولأن تختار ولأن تذاكر دورها في التمثيل على اهلها في « اختيار » الزوج ، الذي اختارته واتفقت معه على الزواج قبل ان يتقدم لاهلها .. واذا كان أبؤها يزوجونها قبل ذلك ، فانها هي التي تختار زوجها ، ولا بد ان يكون هذا هو الأسلوب في الزواج ، فقط الأسلوب . أما ما بعد الزواج فقصه أخرى ومبثوليتها وحدها ، أو مسئوليتها المشتركة ..

ومنذ أكثر من ألف سنة أشفق الكاتب العربي الجاحظ من هذه الخلافات التي بين الرجل والمرأة ، وراح يحصى المزايا والعيوب عند الرجل والمرأة ، ولكنه كن أميل الى تحرير المرأة من قيود الرجل ومن ظلم الرجل ايضا ، ففي كتاب له اسمه « النساء » يندهش كيف ان الرجل يأخذ حقوق امه ويعطيها لأبيه .. وحقوق عماته وخالاته ويعطيها لأعمامه وأخواله ، ويندهش أكثر من أن الرجل يسمى عملية الاخذ الظالم والعطاء الأحمق نوعا من العدل الانساني .

والأديب بلزك يقول : ليس لأن المرأة قد طال لسانها أكثر من اللازم ، نختصر بقية أطرافها عقابا لها على ذلك .

وعبارة بلزك حكيمة وبليغة لولا أن أطراف المرأة ، مثل عمرها طويلة أيضا ..



الزوجة مع صنع الرجل : نظرة قديمة

(٨)

الأديب الروسي تولستوى : أسوأ زوج تعيش في تاريخ الأدب .
فقد كان أميرا غنيا . وكان شابا . وكان أديبا . وأحبته فتاة صغيرة .
وجلست عند قدميه وسمعتة يقرأ مقالاته . وانهارت وذابت . وأحبها .
وتم الزواج . ومع الزواج ولدت التعاسة والجنون . أما هو فرجل دميم
الخقة - أقبح قليلا من الفيلسوف سقراط انعس الأزواج في العصور
القديمة كلها .

وكان تولستوى يخون زوجته مع كل فلاحه تقترب منه . وكانت زوجته تعلم
ذلك . وربما كان هذا هو السبب في حرصها على أن تحمل وتلد له عشرين ولدا . فقد
أصيبت الزوجة بجنون الحمل والولادة . كأنها تريد أن تؤكد لعشراة الفلاحات أنها
ما تزال على صلة بالزوج . وانها هي وأولادها سوف يرثون الأرض . . حتى الأرض
قد وزعها تولستوى على الفلاحين ، فلم ترث زوجته الا المرض والجنون والهوان
والفقر . وعندما ذهبت الزوجة الى القيصر تشكو زوجها ، سجل الزوج هذه
الفضيحة في احدى قصصه . ولما احس تولستوى انه سوف يموت هرب حتى
لا يكون وجه الزوجة هو آخر لعنة يراها قبل أن يموت .

ولحسن حظ المرأة ، انه لا يوجد في الدنيا رجال كثيرون مثل تولستوى وانه ليس
من الضروري اذا وجد مثل تولستوى أن تحمل المرأة كل هذا الهوان معه . . ففى
استطاعتها أن تتركه . وفي استطاعتها أن تتزوج غيره . وليس من الضروري أن يكون
لها من كل زوج عدد من الاولاد . يربطونها به .

وهذه الحياة التى عاشها تولستوى قد سجلها في قصة « الحرب والسلام »
فقصة الفتاة ناتاشا وزوجها بيار هي قصة حياة تولستوى نفسه . وعندما حاولت

زوجة تولستوى أن تدافع عن نفسها ، كتبت « يوميات » وقد ظلمت نفسها كثيرا .
واساءت الى عواطفها . فقد كان تولستوى اذكى واخبث وأعمق عندما صورها .
بصورة جميلة ظالمة ، وصورتها العادية لم تكن جميلة .

وزوجة الاديب راسين لم تكن تهتم كثيرا بعمله ، قدر اهتمامها بشجيرات
الحديقة ..

والاديب بلزاك يقول : ليس من الضروري أن يكون اهتمام المرأة بعمل زوجها
مصدر سعادة له . فالمرأة عندما تهتم بالرجل يكون موقفها كرجل البوليس يبحث
عن آثار جريمة ، أو مبررات جريمة . انها تهتم لكى تتهم .

والاديبه مدام شاربير كانت زوجة لرجل ذكى عاقل ، عالم ، ولكنه مشغول عنها .
ولذلك عندما كتبت رواياتها وصفت التعاسة الزوجية . وقالت : أن يكون اثنان
معا ، وليست بينهما صلة . فكل شئ يؤكد أنهما اثنان منفصلان . وتقول مدام
شاربير أيضا : لقد اعتدت على وجود زوجى فى البيت .. كما اعتدت على رؤية
السحاب فى السماء .. أو على رؤية هذه النجىال .

وقالت الاديبه كوليت عن زوجها : له مزايا كثيرة . . ومن أهم مزاياه أنه يعطينى
شيئا من الارتياح عندما يقفل الباب وراءه ويخرج صباحا ويعود مع الفجر . تلك
لذة لا أشعر بها لأحد من الناس .

وتقول عنه أيضا : عندما مرض الزعجث . فقد اخسست أن راحتى عند خروجه
من البيت لسوف تضيق منى ، فتتمسكت به . . تمسكت بهذا الضيق الدائم الذى
لا يديننى طعم الراحة الا قليلا . لعل الله يشفيه ويخرج من البيت !

ولكن لأن هؤلاء جميعا صناعتهم الكلام والخيال ، ولأنهم على درجة شديدة من
الحساسية فإنهم يبالغون فى تصوير مشاعرهم . ولا يهمهم مدى انطباقها على واقع
حياتهم . وانما يهمهم فقط هذا الاطار الفنى وما يضعون فيه من صور فنية . .
صادقة أو كاذبة . ولا بد أن الله لطيف بالرجال والنساء جميعا عندما لم يجعل من
يبنهم عددا كبيرا من المهتمين والمهتمات بالأدب والفن . . والا تحولت الدنيا الى قطعة
زائلة من عجلهم .

ومع ذلك قالبيت - أو الحياة الزوجية - فيها كل أنواع اللذة والألم . صحيح
تغيرت درجات اللذة والألم . ولكنها دائما هناك . لقد اتسعت الدنيا أمام الفتاة
الآن . ولم تعد مثل جدتها مربوطة فى البيت الى جوار النافذة ويدها على خدها تنتظر
السيد المطاع : الزوج . ولم تعد الفتاة تضع كل همها وغلها أيضا فى شغل البيت .
تكنس وتغسل . وفى عمليات الكنس والغسل وفض البيت وللحياة فى البيت . ولم
تعد المرأة تجد كل راحتها فى أن تعبر عن ضيقها باستخدام المقشرات وغلى الماء واحراق
الأخشاب وكأنها فى معركة . تحرق عدوا أو ميكروبا أو عفريتة فى البيت . وفى هذا
كله تعبير عن رغبتها فى الانتقام والتحرر من قيود البيت وصاحب البيت وسلطات
المجتمع ، وأصبحت الأجهزة الحديثة تتولى هذه الأعمال بالنيابة عن المرأة ، وبدون
غيظ أو شعور بالانتقام من الرجل .

ومن الغريب أن المرأة التي تهتم جدا بالبيت وبنظام البيت وترثيب البيت ليست هي دائما السعيدة في حياتها . كأنها تعوض السعادة بشغل البيت . ولكن لابد أن يكون الفراغ الهائل في حياة المرأة هو الذي يجعلها تشغله بهذا العمل المستمر في إدارة البيت . . فمن الملاحظ أن نساء هولندا أنظف نساء العالم . ومن المؤكد أنهن أقل النساء ميلا إلى الجنس . . ونساء البحر الأبيض المتوسط أقل اهتماما بنظافة البيت ، ولكن أكثر النساء اهتماما بالجنس . ومع الاهتمام الشديد بالجنس يختفى الاهتمام بالنظافة والعطور . . وهناك نظرية تقول : أن الاسراف في نظافة البيت دليل على أن صاحبة البيت مصيبة . . وأن مزاجها العصبي هو الذي يجعلها لا تطيق الإدارة أو الإهمال . بل إنها تفرض على أهل البيت نظاما دقيقا . ولذلك كانت هناك بيوت يعيش فيها أهلها بصعوبة ! . لأن كل شيء في البيت يصرخ قائلا : لا تلمسنى . وأعجب من ذلك أن البيوت النظيفة جدا ، أى التى يعمل فيها الخدم ، نجد أن هؤلاء الخدم مطالبون ألا يلمسوا شيئا هم أيضا - مع أنهم هم الذين غسلوا وكنسوا ونظفوا .

ولكن المرأة عند زواجها ، تخرج من الفراغ بأن تشغل نفسها بالرياضة أو العمل في الجمعيات . . أو بالعمل . . أو بالكلام في التليفون أو بتربية الأطفال . ولكن من أهم ملذات المرأة أن تذهب لشراء شيء . أن عالم الشراء متعة ، اكتشاف ، اختراع . فالمرأة ترى وجوها وتقابل أناسا ، وتسمع وتعود إلى البيت وقد امتلأت عيناتها بالمنظر وأذناها بالقصص وشططها بالبضائع . وليس من المهم أن تكون مشترياتها ضرورية . ليس هذا هو المهم . وإنما الذي يسعددها أنها تتصور أنها ضحكت على أحد الباعة . واشترت منه سلعة بثمن أرخص . أى أنها حققت شعارا هاما في حياتها : والأحسن والأرخص . ولكن من الممكن أن يكون الذي اشترته ليس ضروريا ، ولكن الضرورى أنها ضحكت على البائع . مثلا : لو فرض أنها ذهبت لشراء شئطة يد بعشرين جنيها ، في حين أنها كانت معروضة للبيع باثنين وعشرين جنيها . فهي قد اشترتها بثمن أرخص . وقالت له وقال لها . وناقشته وغلبته وضحكت عليه . والنتيجة أنها اشترت شئطة غير ضرورية ، وفي نفس الوقت غالية . .

ولكن البيت وحياة البيت والعمل في البيت ، كل ذلك نشاط مغلوق . نشاط ليس له مستقبل . فالبيت لا يؤدي إلى تطور الحياة العامة . ولا يساعد الحضارة على تقدمها . فانهصار المرأة في البيت عائق لقدراتها ومضيعة لنشاطها ودورها في الحياة . ولذلك فالمرأة عندما تحررت من البيت ، فتحت لنفسها بابا على المستقبل . وجعلت البيت جانبا من حياتها .

ولا يمكن أن تتحرر المرأة ولا أن تحقق شيئا إذا كان الزواج هو قدرها النهائي الوحيد . ربما كان ذلك أحسن وأهدأ . ولكن العمل خارج البيت واعتمادها على نفسها ، يعطيها الحرية والتعاسة معا .

ولا شك أن حياة البيت فقط مقبرة لمتعة الحياة ووهج الشباب . . ولكن

لا يمكن أن يحصل الإنسان على كل ما يريد بلا مقابل . فكل شيء له ثمن . والتمن ندفعه عادة من راحتنا وسعادتنا .

وقد تتصور أن العشرة الزوجية تؤدي إلى الفهم . أو التفاهم . فمن الممكن أن يتعايش أناس غير متفاهمين ويظلوا على ذلك حتى يجمع الموت بينهم في وفاق تام تحت الأرض . وكثيرا ما أقام رجل وامرأته في بيت دون أن يسأل الواحد الآخر عن متاعبه ومشاكله ! دون أن يعرف أن كان طعم الحياة جلوا . أو كانت هناك حلاوة في أية لمسة أو همسة أو أن كانت غرفة النوم هي غرفة تحضير أرواح الفاشلين في الحياة الزوجية . وتمضى الحياة وكل منهما قد ابتلع حكمة قديمة تقول : الصبر والصمت : مقبرة كل شيء جميل في هذه الدنيا .

وليس غريبا أن تردد المرأة ما قاله الأديب بلزاك : انها تتزوج شاعرا ، وعندما تعيش معه تكتشف أنه يمسح شفثيه بيديه .

أو بعبارة حديثة جدا : انها تتزوج نجما سينمائيا ، وبعد أيام تكتشف أنه لا يشد السيفون وراءه .

وهناك نقطة هامة لا يفهمها الرجل ولا النساء عادة . لنفرض أن الزوج مهندس أو طبيب أو أديب أو مأمور ضرائب هذا الرجل له اهتمامات خاصة . ولا يستطيع أن يشرك زوجته في اهتماماته هذه . ويشعر الزوج أنه وحده . وأن له حياة خاصة . أو مشاغل من نوع خاص . هذه المشاغل تجعله على صلة بآخرين من الرجال يحدثونه في همومه ويشازكونه . ويخفون عنه . فلا بد أن يكون على صلة يومية بهم . . . ولكن الزوجة لا تستطيع أن تكون طرفا . ثم انها لم تتعلم أن تكون طرفا في حياة طبيب أو أديب أو مهندس . لأنها عندما تزوجه ، فوجئت به فهو رجل غريب عليها . وحتى بعد أن عرفتة ، لم تعرف كل شيء عنه . فلا وقته يتسع ولا صدرها ولا العمر كله يتسع لذلك . . . ومع ذلك فمن الممكن أن يظل هذا الرجل شاعرا أو نجما سينمائيا ممتازا ، حتى لو نسي أن يشد السيفون وراءه أو يقفل الحنفية أو الشباك . . . أو فمه .

وهذه الصعوبات في الحياة الزوجية معروفة وطبيعية . ولكن المشكلة دائما أن الفتاة تواجهها وحدها . وهي جديدة بالنسبة لها . وتريد أن تزيلها أو تعتاد عليها . . . ومن الصعب أن يعتاد الإنسان على الصعوبات . وأصعب من ذلك أن تزيلها بسهولة . ولهذا تفضل بعض الفتيات أن يتركن المشاكل للزوج يتولى هو حلها . وفاذا كان الزوج نفسه مشكلة فمن الذى يصفق للحل السعيد ؟

كانت جداتنا يتركن أنفسهن للزوج تطبيقا للقاعدة التى تقول : الرجل لعبته المرأة . وعلى المرأة أن تعتاد على اللعبة الجديدة . هل الزوج يريد كرة قدم أو كرة سلة أو كرة ماء . . المهم أن تكون كرة عند قدميه أو يديه . فالزوج هو الذى يصنعها أما هى فعجينة فى يده إن شاء أكلها نيئة وإن شاء أحرقها بنار الفرن . وتعلمت المرأة

أن تستسلم للرجل وفي نفس الوقت تكون على حذر .. أن تكون عند قدميه وفي خيالها أن يكون هو أيضا . أن تستسلم له وهي غالبية . وأن تقع بين يديه منتصرة .

ولكن هذه الصورة تغيرت أيضا .. فلم يعد الرجل هو الذي يلعب بالمرأة . وإنما الحياة الزوجية لعبة الاثنين . لا غالب ولا مغلوب . مباراة بلا أهداف ولا كأس ولا دورى . فليس من أهدافها أن يخرج أحد من الملعب أو من الدورى . وإنما أن يتظاهر الاثنان بأنهما حكمان . ويتظاهر الاثنان بأنهما مقامران . ويكسب كل منهما الآخر . والذي يكسبانه ينقلانه من جيب الى جيب ومن شبكة الى شبكة .. فهي مباراة ودية ، وان كانت لها حماسة الخصومة .

ومن المؤكد أن المرأة أقرب الى البيت . والبيت أحب اليها من الكتب . والرجل يجاريها في ذلك .. أو يوهمها بذلك . أو توهم نفسها بأنها فعلت به ذلك .. ولكن لا تزال طبيعة الرجل مختلفة .. فالرجل يريد المرأة على كل لون وكل طعم .. تكون عندما يريد وعندما لا يريد .. حارة وباردة .. مقبلة عليه ونافرة منه .. قريبة بعيدة . أن تكون له ولا يكون لها .. أن تضعه في مكان ثابت من عالمها . وأن تتركه هناك وحده حرا .. وأن تحتفظ له بالنظام اليومي في حياته ، ولا تكون مملة .. أن يكونا اثنين ، وفي نفس الوقت يظل واحدا وحيدا .. أن تريحه وأن تسمح له بحق الشكوى منها أو من غيرها .. أن تكون في حياته ، جوهر حياته ، وتفاهتها أيضا .. أن تتزوجه وأن تشعر أنه ليس زوجا ، وانه حبيب .. عشيق .. انه أعزب .

والمرأة تحتاج الى كثير من العقل والتجربة لتقوم بدور البهلوان في سيرك الحياة الزوجية .. والذي ينظر الى الصورة من بعيد ، يحس انه لا توجد امرأة في العالم تستطيع أن تكون هذه الساحرة القادرة على تحويل النمر الى قط .. والقط الى فار .. والفار الى المصيدة وتعلق على المصيدة ورقة مكتوب عليها : نهاية زوج !

ولكن الذي لا تعرفه المرأة أنها قادرة على ذلك وأكثر من ذلك .. وانه ما من أسد الا تحول على يديها الى أرنب . وما من غابة الا تحولت على يديها الى زهرية ورد .. ولا يوجد وحش لم تروضه امرأة صغيرة أو كبيرة ..

والذي يقرأ قصة زواج الشاعر العربى امرئ القيس من فتاة صغيرة يعرف ما الذى تستطيعه فتاة . لقد بعثت له بفوازير .. وأجاب عنها .. وأطعمته وقلبته في الماء والنار والشمس .. حتى عرفت كل شيء عنه ثم تزوجته .. وبعد أن قطع لها الصحارى والليالى وسقط في الآبار ومرض وكاد يموت .. وكانت دون العشرين بكثير .. لم تكن سوى فتاة صغيرة عاشت في الصحراء منذ أكثر من أربعة عشر قرنا . ولكن كان لديها كل خبث ودهاء بنت القرن العشرين !

انها تستطيع لو أرادت .. وهي تريد . ولذلك فلا خوف عليها من الرجل ، بل الخوف عليه اليوم ، وكل يوم !

الأموعة مثل الحب .. وكلمة بلا مقابل

(٩)

بعد أن ارتكب آدم وحواء أول خطيئة ، هبطا الى الأرض . وقالت التوراة : ستلدين في ألم وتشتاقين الى زوجك الذى يتسلط عليك . ومعنى ذلك أن حواء عوقبت بالشوق الى الرجل وهذا الرجل يتسلط عليها . ومن هذا الشوق تحمل وتلد وتتعب . أما آدم فقد كان عقابه بالاضافة الى حواء هذه ، أن يأكل في تعب وعرق .

ومنذ ذلك اليوم وكل من آدم وحواء يسف التراب لكى يعيش ، وكلاهما تراب الآخر . حياته ومماته ، بيته ومقبرته . وتلك هى حكمة الحياة : ان الذى نعيش به ، نموت به ايضا .

أما المرأة فتكتمل انوثتها اذا حملت وولدت ، تماما كأنها شجرة ازهرت واثمرت ، وبعد ذلك تزهو وتثمر من جديد ، والمرأة تتمنى أن تكون أما ، ولكن أمنيتها هذه تمر بشروط يحددها المجتمع ، وهى أن تكون أما لرجل يعرفه القانون والقانون لا يهتم كثيرا بمدى موافقة الرجل لطباع المرأة أو أحلامها وإنما الرجل ضرورى لاستيفاء الاجراءات فقط ، وعلى المرأة أن تختار ، أو يختاروا لها الزوج القادر على تحقيق رغباتها وأحلامها .

ولذلك فمن الضرورى أن يكون « حمل » المرأة شرعيا . أما اذا حملت بصورة غير شرعية ، فالمجتمع يطالبها فورا بأن تتخلص من هذا الجنين ، ومن مئات السنين كانت الفتاة تنتحر أو يتولى أهلها قتلها ، ولكن فى العصر الحديث أباح بعض الدول الاجهاض ، أو اخترعت لها حبوب منع الحمل ، وبذلك لا تحمل فلا يعرف أحد من الناس ماذا جرى لها ، وكثير من الدول تحرم الاجهاض ، وبعض الدول تراه جريمة ، وهى جريمة لا يقدر عليها الا الأفنياء فقط ، أما الفقراء فالخطيئة هى الموت ، والحمل هو مبرر الموت السريع أو العار الذى يؤدى الى الموت ..

والمجتمع موقفه غريب من الجنين ، فعلى الرغم من أن الدول تترفق بالجنين فإن موقفها من الجنين إذا ولد ليس رحيمًا ، فالابن غير الشرعى يلقى عذابًا شديداً هو وأمه .

ومن المؤلف أن نجد بعض الأدباء يصفون عمليات الولادة ، ولكن من النادر أن نجد أدبياً يصف ما تعانيه الأم إذا ولدت ابناً غير شرعى ، مع أن الولادة واحدة ، وربما كان العذاب فى الولادة غير الشرعية أقسى على الأم ، ولكن المعنى الأخلاقى أقوى وأقسى .. حتى الأدبيات لم يستطعن أن يصفن هذه الحالة التى تعانيها واحدة منهن وفى ظروف شديدة القسوة . إذن فالمجتمع أقوى من الألم ، والأخلاق أقوى من الولادة .

ولم تكن المرأة من مئات السنين تعرف ما الذى تستطيع أن تفعله لتحدد أطفالها ، إنها تلد ، والرجل يضيق بالزوجة التى لا تكف عن الولادة ، ويضيق أكثر بالاحتياجات التى يتخذها الاثنان ولكن النتيجة واحدة دائماً : المزيد من الأولاد .

ومن المعروف أن دخول المياه الجارية - مياه الحنفيات ودورات المياه ، هو الذى ساعد المرأة الفقيرة على التخلص فوراً من مبررات الحمل - وعلى الرغم من كل آلام الحمل والولادة فإن المرأة تنسى ذلك مع كل حمل جديد حتى لقد تصور الرجال أن المرأة « تمثل » عليهم ، وأنه ليس صحيحاً أنها تتعذب أو تتألم ، ولكن الولادة هى الحادث الخطير فى حياة المرأة الذى يلتقى فيه أعظم لذة بأعظم ألم ، وعندما اخترع الإنسان البنج والمواد المخدرة رفضت بعض النساء استخدام البنج ، وكانت حجة المرأة أن الطفل الذى لا تتألم فى ولادته ، ليس ولدها ، وقد هاجم رجال الدين البنج لأنه يتناقض مع ما جاء فى التوراة من أن المرأة يجب أن تلد فى ألم .. فكيف تلد بلا ألم ؟ مع أن الرجال الذين يحرمون البنج لم يحرموا على أنفسهم أنهم يأكلون بلا تعب ، ويرثون أموالهم بلا عرق ..

وإذا حملت المرأة ، دون رغبة منها فإنها تقع فى حيرة : إنها لا تريد الطفل وفى نفس الوقت تريده ، تريده لأنه جزء منها ، ولأنها لا تستطيع أن تقتل طفلها ، ولدها ، قطعة من كبدها .. من قلبها ، وفى نفس الوقت لا تريده أن يتعذب ولا أن يجوع ولا أن يكون سبباً فى خلاف مع الرجل الذى تحبه . والمرأة إذا أحببت زوجها ، فإنها تحقق له ما يريد ، ولو كان أقسى شئ : ألا تنجب أطفالاً ، ولكن إذا كرهت المرأة زوجها ، فإنها لا تهتم كثيراً أن تحدد نسلها ، وإنما ترى فى زيادة عدد الأطفال مبرراً قوياً للعن الزوج والحياة معه .. وقد وصفت لنا زوجة الأديب تولستوى فى مذكراتها : كيف أنها كرهت الحياة ونفسها وجسمها فى كل مرة حملت فيها ، أنها تحتفظ لزوجها بأسوأ ذكرى لأسوأ شهر عسل .. الليلة الأولى من شهر العسل .

وبعد أن تتخلص الأم من الجنين ، فإنها لا تنسى هذا الحادث أبداً ، بل إن الكاتبة الكبيرة هيلين دويتش تحدثنا عن حالة مرضية لسيدة كانت تعالجها ، هذه السيدة تخلصت من الحمل ، وعرفت أنها تخلصت من توأمين ، فأقامت السيدة

قبرين لهما ، مع انها قد أنجبت بعد ذلك عددا كبيرا من الأطفال ، فالمرأة لا تنسى انها قتلت بيديها طفلا .. طفلها .

وتروى لنا الكاتبة هيلين دويتش أيضا أن فتاة تخلصت من الجنين حتى لا تهدم مستقبل حبيبها ، وبعد أن تخلصت من الجنين ، لم تستطع أن ترى هذا الحبيب لأنه هو الذى أرغمها على ارتكاب هذه الجريمة .

والرجال لا يعرفون - عادة - معنى أن تحمل المرأة وأن تلد ويكون لها طفل . لأنهم لا يعرفون معنى الوحدة والملل والمرض والشعور بالنقص الذى تحس به المرأة التى لم تلد .. والرجال لا يعرفون أيضا معنى عذاب الولادة والحضانة والتربية ، ولا يعرفون أن هذا العذاب نفسه هو الذى يجعل المرأة تكره أنها أنثى ، وتكره الجنس ، وتكره العلاقة التى تربطها بالرجل وينفرد الرجل باللذة ، وتنفرد المرأة بالألم .. أن المرأة تكره الجنس فى أحيان كثيرة ، أى تكره جنس الرجل ولذلك أحيانا تتجه المرأة الى بنات جنسها ، الى الصداقة الشديدة التى هى أرحم من صداقة الرجل .

ومن التناقض والنفاق عند الرجال أنهم يرفضون الاجهاض ويرفضون حبوب منع الحمل عموما .. ولكن اذا وقع الواحد منهم فى كارثة فهو أول من يتحمس ويطلب بضرورة الاجهاض وضرورة حبوب منع الحمل .

والمرأة تحتاج دائما الى من يساعدها فى حالة الحمل والولادة ، وكذلك اناث الحيوانات التى استأنسها الانسان ، وان كانت هناك نساء يستطعن أن يلدن وحدهن دون مساعدة أحد ، وقد لجأت المرأة الى ذلك فى بعض الأحيان خوفا من الفضيحة ، فماتت ومعها طفلها أيضا .

واذا كانت الولادة ضرورية للمرأة ، أو للأنثى ، فاحتفاظ المرأة بجمال جسمها ضرورى أيضا ، والمرأة التى تحرص على ارضاء الرجل هى التى تحرص على أن يكون جسمها سليما ، ولا يتشوه بالحمل أو الولادة ، فلا يترهل وتتدلى الأثداء ، وانما تظل البشرة مشدودة ، ولذلك فهذه المرأة ترفض أن تكون أما كثيرا أو أما على الإطلاق .

وفى رواية « الحرب والسلام » لتولستوى يقول : ان المرأة تنظر الى الولادة على انها حكم بالاعدام ثم لا يتم الاعدام - مع الأسف .

وفى احدى روايات مدام فرناى نجد زوجة قد عرفت أن الرجل الذى طلقها تزوج امرأة أخرى ، وقيل ان وجهها دميم ، ولكن الزوجة لم تصدق ، وأصرت على أن ترى الزوجة الجديدة وكنن وجهها دميما . فقالت : لا بد أن لها مزايا أخرى ، واستمعت اليها دوين أن تدرى ، فوجدت أن عقلها أكثر قبحا من وجهها . واتفقت مع خادمتها على أن تراها عارية مقابل مبلغ من المال . وراها عارية تماما ولم تجد مبررا لأن يتزوجها ، فذهبت اليه وسألته فقال : انها تريد أن تكون اما لاولادى مائة مرة - اذا أنا أردت ..

وفي التاريخ العربي يقال ان امرأة اسمها رملة بنت عبد الله قررت أن ترى الزوجة الثانية لزوجها واسمها عائشة بنت طلحة . فاتفقت مع خادمة عائشة على أن تراها عريانة مقابل مبلغ من المال ، وذهبت الخادمة وأخبرت سيدتها ، ووافقت عائشة بشرط ألا تعلن الخادمة ذلك ، وقامت عائشة ونزعت ثيابها وراحت وجاءت ، ورأتها الزوجة الأولى وتأملتتها ، وقالت للخادمة : كنت أفضل أن أعطيك ضعف هذا المبلغ ولا أراها .

فقد كانت جميلة جدا ، وقال عنها زوجها : انها ليست زوجة واحدة .. انها حريم ..

ولكى تكون المرأة « حريما » للرجال فانها تحرص على معالم الأنوثة .. كلها .. وكما أن الحب ضرورى للمرأة ، فالأمومة ضرورة أيضا ..

غير أن هناك فارقا بين الحالتين ، ففي الحب تجد المرأة من يبادلها الحب ، من يحاول معها ، وتحاول أن تهرب منه ، أو تشده اليها ، هناك معركة ، ثم اتفاق . ثم استسلام ، ثم حرص على حالة الاستسلام ، وهناك تفكير وعقل ومنطق وقيم ومبادئ ، ولكن عندما تحب المرأة طفلها الصغير ، فهو حب بلا مقابل ، فالأمومة هنا بلا ثمن . الأم هى التى تتعب وهى التى تجد الثمن من متعة تحس بها ، أو أوهام تملأ رأسها ، فالطفل الصغير ليس طرفا ولا عاقلا ولا متحدثا ، ولا توجد هناك قيم ولا مبادئ ، انه كائن صغير ولد ليعيش ، ومعه مبرراته ، ومعه حقه فى البقاء ، هذا الحق لم يكتسبه بتعب ، وإنما ولد به ومعه ، والأم تعلم أن هذا الطفل الذى يعتمد عليها يجب أن تعلمه وهو جالس على حجرها ألا يجلس على حجرها ، وهو يرضع ثديها ألا يفعل ذلك ، وهو نائم فى حضنها أن يبحث عن حضن امرأة أخرى ؟

وأعجب من ذلك أن الأم المعذبة المعقدة الفاشلة المحرومة من حنان الزوج ، يجب أن تعلم ابنتها معنى الحرية ومعنى حب الحياة ، وتقول الأم لابنتها عندما تكبر : لا تصدقنى كلام الرجل . امشى دوغرى . لا تتلفتى وراءك ، الرجال مخادعون كذابون . أسألينى أنا .

وتسأل الفتاة : ان كانت لامها أية تجارب ..

ويكون رد الأم : طبعا لا ..

ومعنى ذلك أن تجربتها الوحيدة كانت مع زوجها ، وهو أبو هذه الفتاة والفشل بسبب هذا الرجل والكذب والخداع والخيبة كلها صدرت عن هذا الأب الذى يعيش مع الأم والابنة فى بيت واحد ، ويضحكون ويأكلون ويشربون وينامون تحت سقف واحد .

فاذا ارتفعت يد الأم ونزلت على خد الفتاة لآى سبب ، فالأم معدودة فهى لم تضرب ابنتها ، وانها تنتقم من زوجها ، أى انها لا تضرب الابنة وإنما تضرب الأب ،

وإذا انحرفت يدا الأم ونزلت على خد الخادمة كان المقصود هو خد الابنة ، وخد الابنة لم يكن مقصودا ، وإنما هو الأب الذي تقصده الأم .. ولكنها أخطأت الطريق إليه فتوجعت الخادمة بالنيابة عن الجميع ..

وكان يقال دائما ان زوجة الأب هي التي تقسو على أولاد زوجها ، والحقيقة ان زوجة الأب عندما تقسو على أولاد الزوج ، فإنما تريد أن تقسو على الزوج فلا تستطيع ، فتضرب أولاده من الزوجة الأخرى .

ومعنى ذلك أن الأم لا تضرب طفلها وإنما تضربه بالنيابة عن الآخرين .. وأسوأ من الأم التي تقسو على طفلها ، تلك الأم التي تحب طفلها أكثر مما يحب ، فلا تعطى لأولادها حرية المشي أو الأكل أو النوم ، ان هذه الأم قد اعتقلت أولادها في حنايتها ، وجعلت نفسها أقدامهم وأيديهم وعيونهم وشفاههم .. وقررت أن تعيش بالنيابة عنهم ، ان هذا الحب نوع من القسوة والأم بهذه الصورة تجعل من أولادها عبيدا لها ، وتجعل من نفسها عبدا لهم ، فهم مجموعة من العبيد في حالة من الالتصاق الشديد ، من الاحتكاك الشديد ، من الحب الخائق ، أو القبلات الميته .

وفي جميع الحالات تجد المرأة متعة كبرى في أن تقوم بدور الضحية : الأم التي يعذبها أولادها .. فتقسو عليهم ، أو تحنو عليهم .

وكثيرا ما أحست الأم بأن الأمومة لعنة ، كالانوثة تماما ، ولذلك تبعد أطفالها عن البيئة التي تعيش فيها ، فتبعث بأطفالها الى المدارس الداخلية أو الى مدارس الراهبات .. أو الى التعليم في الخارج معظم بنات الليل يقطن ذلك ، معظم الراقصات .. وأكثر كواكب السينما . ومعنى ذلك ان هؤلاء الأمهات جميعا يرين أن حياتهن متعفنة ، وأن أولادهن يجب أن يعيشوا في هواء أنظف .. وأخلاقيات أسمي .. وفي ذلك اعتراف من كل أم ، بأنها ليست الأم المناسبة لأطفالها ، وأن أطفالها يجب ألا يروا حياتها . والأ يكونوا على مقربة منها .. وإنما يعيشوا بعيدا عن العيون التي تراها والأذان التي تسمعها ، والأيدي التي تمتد اليها .. وبذلك يكون هؤلاء الأطفال غريبا عن الأمومة وعن بيئة الأم .. وأن يشاركوا أمهم أيضا في احتقار حياتها ويبتئها .

وفي ذلك منتهى التعذيب للأم . فكأنها تربي أطفالها على احتقارها ، واستنكارها والتنكر لها .

وفي رواية « الاختناق » من تأليف ترفاني نجد الأم تقول لابنتها : اياك والرجال أنت ترين أمك ، انها ضحية لواحد منهم ، فسدت حياتها وتحطم قلبها ، فاجعل قلبك حديدا .. وتهتك أعصابها ، فضعي أعصابك في الجليد .. ان فعلت مثل أمك ، أنكرتك .. برئت منك ..

وهذه الأم قد علمت ابنتها أن تتبرا منها وأن تنكرها منذ اللحظة الأولى .. وتنكرها مرة أخرى لأن هذه الفتاة سوف تعيش وسوف تنظر الى الرجال وتهمس وتلمس وتغمز وتحب ..

وعلى الرغم من أن المرأة تلعب أدوارها في كثير من الأحيان فإن رجالا كثيرين كانوا يتمنون أن تعطى للمرأة فرصة أن تحكم العالم .. المفكر الفرنسي مونتسكيو يقول : أعطوها فرصة ، أنها ليست أقل عقلا ولا ذكاء من الرجل ، ثم أنها أقدر على التنظيم وعلى الصبر منه ..

والفيلسوف مونتسكيو يرى أن الأمومة هي أعظم رسالة تقوم بها المرأة ويعجز عنها الرجل . لتربية المواطن تقول هي بمهمة : المدرسة والمستشفى والمعبد والشارع وأجهزة الاعلام والشركات والملاعب .. كل هذه المهام تقوم بها الأم وحدها دون مساعدة من أحد .

ولذلك يقول نابليون : أنا أساوى ما صنعتها أمي . فأنا أحد تماثيلها .

ويقول الرئيس لنكولان : ما أعلمه وما أعمله وما أحلم به .. كل ذلك من صنع أمي .

ويقول هيجو : ان الطفل يقول : ماما .. لأنه لم يتعلم بعد أن ينطق كلمة : الله .

ويقول شوبنهاور : اذهب الى المستشفيات .. واجعل طريقك على السجون ، وأنت ترى ما الذي فعلته المرأة .. الزوجة والأم ، وخصوصا الأم . أنها هي التي علمت ابنها الجبن ، فكان وحشا ، وهي التي علمت ابنها الانحناء الكاذب فكان مغرورا متغظرسا .. وهي التي أرضعت ابنها اللبن ، لينتقم منها فلا يشرب الا الخمر والا دماء البشر .. انها أمك .. وأمي .

أما أنها أمه هو فهذا صحيح ، فقد كانت أمه في غاية القسوة ، وكانت تغار منه وكانت تحسده على عبقريته المبكرة ، وكانت تستضيف في بيتها كل الفلاسفة والأدباء في عصرها ، وكانت تقفل الباب في وجه ابنها وفي يوم التقى بأمه على السلم وركلته برجلها ، وتماسك الابن ليقول لها : سوف تعيشين وتموتين ولن يعرفك الناس الا على أنك أم شوبنهاور .

وهذا ما حدث ، فأمه هو تستحق منه أكثر مما قال .. وفعل ..



أشياء تصنعها المرأة ولا تجد صديقاتها

(١٠)

أمل الرجل : الشهرة .

أمل المرأة : الحب .

الحب عند الرجل أن يأخذ الكثير ، وعند المرأة أن تعطى بلا حساب . .

الحب عند الرجل أن « يضم » المرأة اليه . . وعند المرأة أن يضمها

الرجل اليه .

الزواج ينطبق عليه المثل الشعبي : لقينى ولا تغدينى . . أى أن اللقاء أروع من الغداء . . أى أن الحب أروع من الزواج نفسه . ولكن لم يتوقف الناس عن الزواج ، ولن يتوقفوا عن الحب . والرجل يرى الحب مصيدة دخلها . . والمرأة ترى الحب مذبحة تضحي فيه بجسمها وروحها وهي راضية . وهذه التضحية ليست موتا . لأن الموت هو ألا تحب المرأة . ولكن اذا ماتت المرأة فى الرجل ، فهذه ليست موتا . لأن الموت هو ألا تحب المرأة . ولكن اذا ماتت المرأة فى الرجل ، فهذه هى الحياة . واذا فنيت المرأة فى رجل ، فهذا هو البقاء . واذا ذابت المرأة فى رجل فهذا هو التماسك . واذا فقدت المرأة عقلها وقلبها فى حزن رجل ، فهذا هو الوجود .

ولذلك فلا يوجد رجل يمكن أن يوصف بأنه عاشق عظيم . وانما توجد عاشقات عظيمات فى التاريخ . لأن الحب : عطاء . والمرأة أقدر على العطاء من الرجل . ولأن المرأة لا تعرف حدود العطاء . فانها تعطى نفسها . ولا تعرف ما الذى أعطته . وما الذى أبقتة لنفسها . . بل ان نفسها هى أول ما تعطى للرجل الذى تحبه . والحب عند المرأة نوع من الدين . أو هو دينها الوحيد . . بينما الرجل عندما يحب امرأة فإنه يريد أن تحبه هو أكثر .

والمرأة تعلم أنها من غير رجل تحبه ، باقة ورد متناثرة .. حبات عقد بلا خيط ..
عربة بلا حصان .. سماء بلا شمس .. أرض بلا زرع ..

وما دامت المرأة تعتمد في حياتها على الرجل : الأب والأخ والزوج والحبيب .
فاتها لا بد أن ترضيه ولكي ترضيه لا بد أن تعطيه . ولكي تعطيه لا بد أن تستسلم
له . والمرأة تحب أن تستسلم للرجل الذي تحبه بل ترى أن الاستسلام هو أقصى
درجات الاستقلال . وترى سيادتها في ذلها له . وليس من الضروري أن يكون الذل
ركوعا ، وإنما يكفي فقط أن يركع قلبها في صدرها . هذا هو منتهى الحب .

ومن الممكن أن يهتز قلب المرأة . وأن يهتز قلب الرجل . ولكن ليس هذا هو
الحب الكبير . الحب الكبير زلزال يجعل الرأس العالى ينحني ، والقلب الجامد
يفلى . والمرأة تفضل الحبيب مهما كان ظالما ، على الأب والأخ والابن والزوج أيضا .

وبعض علماء النفس يقولون ان المرأة تختار الرجل القوي . لأنها تبحث عن
الأب .. هذا صحيح . ولكنها تختار الرجل دائما . وأحيانا تختار الرجل العنيف .
لأنها تحب أن ترى القسوة في عيني الرجل . بل أحيانا تطلب الى الرجل أن يشترك
في معارك مع غيره من الرجال لترى قوته وسيطرته على الرجال أيضا . فهي تريده
قويا . لأن قوته تملأ جسمها بالرهشة . هذه الرهشة هي متعة كبرى ..

والحب لا يشغل وقتا كبيرا في حياة المرأة كما يتصور الرجال . انه هام جدا .
ولكن مشاغلها اليومية تأخذها وتستغرقها : البيت والعمل والزيارات والواجبات
الاجتماعية .. ومسئولياتها أيضا يشغلها عن الحب . وأحيانا تضحي المرأة بالحب
من أجل أن يكون لها وضع اجتماعي يوقفها على رجليها في مجتمع الرجال ..

ولكن لا توجد امرأة لم تحلم بحب عظيم ..

حب يهد حيلها .. ويهز كيائها . ويحطمها ويعجنها ويصبها في قالب من حديد .
والحديد من صنع رجل والرجل يملك فرنا من الشوق والوهج . وهذا الفرن يصب
فيه المرأة التي تحبه لتكون على صورته .. على هواه . على مثاله . لكي تعجبه
فقط .. ولا يهمها هي أبدا ما الذي يعجبها هي . فالذي يعجبها قد تركته . وعاشت
من أجل الذي يعجب الرجل . وأغلب النساء اللاتي يحلمن بالعشق الكبير فاشلات
في حياتهن . أو انهن نساء لم يتجاوزن مرحلة المراهقة . ولذلك تحلم الواحدة بأن
تلقى بحياتها هذه عند قدمي رجل .

فقد جربت المرأة حياة السلبية والأمان في بيت الأسرة . وهي تحن الى هذه
السلبية الآمنة في أحضان رجل . وهذا الحب العظيم يحقق للمرأة كل شيء . فهي
تخس بأنها « أم » لحبيبها .. وتحس انه أبوها أيضا .. وبذلك تتكون أسرة عاطفية
من أب وأم وطفل وطفلة .

فكان المرأة عندما تحب تريد أن تجد السقف الذى يحميها ، وللجدران التى تلمها من الضياع ، والباب الذى له قفل ، مفتاحه فى جيب سجانها وسيدنها وابنتها وأبيها وحبيبها : الرجل .

والحب عذاب أيضا للمرأة .. انه يخنقها . ويقيدها . ويربطها ويشدها . ويحبسها . ويجعل عينيها غير قادرتين على الرؤية وأذنيها عاجزتين عن السمع . انها حددت كل أشكال الدنيا وأحجامها وألوانها وأصواتها : كلها فى شخص واحد . وفى احدى قصص الكاتب الدنمركى اندرسن نرى عروس البحر وهى سمكة كبيرة تقف على ذيلها ، وقد حول الحب ذيلها الى ساقين جميلتين .. وعندما نبتت لها الساقان جف ماء البحر وتحول الى أرض ملتهبة .

والمرأة ترى فى العذاب ضرورة .. فالحب الذى لا يعرف العذاب ليس حبا .. انه يشبه ولادة بلا ألم .

وأروع ما كتبه الأدبية الفرنسية كوليت : اننى احسد مريم المجدلية التى أحبت المسيح .. انها سارت وراءه .. فى ظله .. تشم ترائبه .. وتموت ولكنه فى قلبها حى لا يموت .

والمرأة عندما تعطى نفسها لرجل ، أو لحب عظيم ، فاتها ترى أن هذا الحب يرد لها اعتبارها . يعطيها وزنها واسمها واثمها وجسمها ورسمها . ويلبسها ويكويها ويشويها .. ولكنه لا يحرقها وانما ينضجها فقط . فحرارة الحب . مثل الاحمرار فى خد التفاحة .. نار لا تحرق .

والمرأة لا تطيق أبدا أن يتجاهلها الرجل . ولا تطيق ألا تكون تحت نظره .. ونظراته الملهبة . بل المرأة تمنى أن يتحسسها الرجل بعينه . وأن يتعمقها وأن تتساقط رموشه على منحدراتها ومنحنياتها وأن يتأنى فى ذلك . وهى فى غاية النشوة .. وأقصى أنواع العذاب الذى يستخدمه رجل مع امرأة هو ألا ينظر اليها . فاذا نظر اليها تفادها . كأنها لا تعترض نظره . كأنها لا تستوقفه . كأنها لا شيء . ولا شيء فيها يعجبه . فاذا أعجب الرجل بعيني المرأة ، وضعت المرأة فى كل ركن من بيتها امرأة .. لترى نفسها .. أى ترى عينيها اللذين تعجبانه .. وتكون سعيدة لأنها ترى عينيه فى عينيها .. وتسمع رايه ألف مرة فى اليوم .. فهى لا ترى ما ترى .. وانما ترى ما يراه هو ..

قالت الأدبية كاترين مانسفيلد : أمس اشتريت ملابس داخلية جميلة انيقة زاهية ودامية .. ولكن وا أسفاه لن يراها أحد .

فهى لم ترتد هذه الملابس لأنها تعجبها .. ولكن لعل أحدا غيرها يعجب بها .. أى يعجب بها أكثر اذا رآها عليها .. واذا رآها بغيرها ..

واسوأ شعور فى الدنيا ، وأقصى عذاب هو أن تحس المرأة انها زهرة لا يراها أحد . وعطر لا يشمه أحد ، ونعومة لا يلمسها أحد ، وحرارة لا يشتتها أحد . ويبدو أن الرجل يعرف ذلك أحيانا .

وفي أخدي مسرحيات الأديب الأمريكي تنسي وليامز يدور مثل هذا الحوار :

يقول الرجل : متى عدت . . فقد كنت نائما لم أتنبه الى صوتك وأنت تفتحين الباب وتخلعين حذاءك . . وتقفلين تاب الثلاثجة بعنف . كما هي عادتك .

وهجمت الزوجة على زوجها تقبله بعنف . وحاول أن يبعدها عنه . . ولكن طال العناق . فقد عرفت الزوجة أن زوجها لم ينام . وانه كان يتظاهر بالنوم . فهي دخلت وفتحت الباب بعنف وألقت بحذاءها وكان للحذاء صوت . وكذلك باب الثلاثجة . . فهو لم يطق أن ينام . ثم انه عندما عاينها وقبلها اكتشفت أنها لم تدخن سيجارة واحدة . ومعنى ذلك أن السجائر التي كانت موضوع الخلاف بينهما . قد انتهت . فقد قررت ألا تدخن ارضاء له .

. وقبل أن تطفئ الزوجة المصباح وتخلع ملابسها سألته : وما رأيك في فستانى ؟ فأجاب الزوج ضاحكا : انه ليس جديدا .

وكان على حق . فلأول مرة يدرك الزوج أن هذا الفستان ليس جديدا . مع انه في كل مرة تسأله زوجته عن فستانها يقول لها : رائع . مناسب . وتخفى الزوجة دموعها في منديلها وهي تمسح أنفها . . لأن الفستان قديم جدا . وقد ارتدته عشرات المرات .

وإذا كانت المرأة قادرة على الحب العظيم ، فهناك رجال لديهم هذه القدرة أيضا . فراقصة الباليه ايزادورة دتكان تصف الشاعر الايطالى داننسيو : انه اقدر انسان على أن يجعل المرأة التي تجلس اليه تحس أنها مركز الكون . وان الله خلق السماء من أجلها والأرض أيضا . وانه خلاصة الزهور والطيور والعطور .

وتقول عنه أيضا : ولكن عندما تنتهى نزوة هذا الشاعر يترك المرأة تسقط . تماما كما سقطت حواء التي شجعته على الخطيئة كلمات هامسة من أفعى مثلها في الخنة .

وإذا ما كان هناك حب عفيف . كانت هناك غيرة أكثر عنفا . فالغيرة أساسها شعور بالخوف على الرجل الذي تحبه . فإذا غارت المرأة فالنساء جميعا أعداؤها . وكل نظرة عين وحركة اصبع وكل كلمة يقولها الرجل . يصبح لها معنى خاص آخر . . وكل امرأة أخرى ينظر اليها الرجل ، كانت هذه النظرة مسروقة منها . كل اهتمام آخر . حتى عمل الرجل يضايق المرأة . لأنه يأخذ منها . يخطفه . وإذا اطال النظر في كتاب أو في صورة أو استمع الى أغنية وتأثر ، كل ذلك يشير المرأة بحركتها ضده . ولذلك لا استبعد أن تكون امرأة هي التي أحرقت مكتبة الاسكندرية - زوجة بواب المكتبة عندما ضبطته يتعلم القراءة والكتابة . والرجل من الممكن أن يشغل عن المرأة تماما ، ولكنه يظل يحبها . ولكن المرأة لا تستطيع أن تنشغل عن الرجل الذي تحبه . وإذا انشغلت عنه ، فانها لا تسمع نفسها على ذلك . ولا تتصور أنها سوف تنشغل عنه . فإذا حدث أن انشغلت عنه انزعجت .

وتشاءمت . وأحسنت أن خطرا يوشك أن يقع . وأنه من الأفضل أن تعود إلى حضن الرجل ، كما تذهب السفينة إلى الميناء خوفا من العاصفة . .

وهنا يختار الرجل . لأنه يجد امرأة في حضنه خائفة كطفلة صغيرة . ويتساءل الرجل : هذا الوحش الجميل خائف ؟ هذه التي دوختني تحتمى بين ذراعي ؟

هذه هي المرأة مخيفة خائفة . تعطى الأمان الذي لا تجده . تخطف القلب بمنتهى العقل . وتفقد القلب بلا عقل .

وعبقرية المرأة في انتظارها . فعندها قدرة خارقة على الانتظار . وقد عاشت ألوف السنين تنتظر . ولم تضع وقتها أثناء الانتظار . وإنما سمعت وعرفت . وتلقنت حكمة الجنس والاحتفاظ بالزوج والطفل . فإذا جاء الزوج كانت هي أكثر مرونة منه . وأقدر على أرضائه وامتاعه وتعذيبه .

وجولييت دوريه عشيقة الشاعر الفرنسي فيكتور هيجو أحسن نموذج لذلك . ان هذه العشيقة قد أحبت الأمير دوميدوف الذي كان ينفق عليها بعد أن فشلت كممثلة مسرحية - وهذه نهاية الجميلات جدا . ولكن عندما أحبها فيكتور هيجو حبسها في شقة من غرفتين ضيقتين . وظلت محبوسة أحد عشر سنة لا تخرج من هذا البيت . بل ان الشاعر حرم عليها الظهور تماما حتى لا تلتقى بواحد من عشاقها القدامى . ورضيت بالانتظار . ولم يكن الشاعر يراها الا قليلا . وكانت له عشيقة أخرى . ولكن جولييت هذه أرسلت للشاعر ثلاثين ألف خطاب ، أى بمعدل ثلاثة خطابات كل يوم وبانتظام . وهذه الخطابات دليل على الصبر الطويل ، والحرارة التي لم تخدم ، والمرارة التي ملأت قلبها . ولكنها ظلت تحبه حتى الموت .

وعلى الرغم من أن الرجل يعرف أن الكلام الذي يسمعه كل ليلة من فوق المائدة المجاورة لا يستطيع أن يصدق كنهه ، ولا أن يرفضه كله . . فان هذا هو الحب ، لا يستطيع أن يرفضه ولا يستطيع أن يقبله . . هذا هو منطق الرجل . أما منطق المرأة فهو أن تقبله مهما كان الثمن . . فاما الحب أو الموت . . ويكفى أن تحب مرة واحدة ، وتقول : عشت في حياتي مرة واحدة . . أما بقية العمر فذكرى لأيام جميلة .

قرود في
كل مكان

أنا - وانت ...

(١)

إذا ذهبت الى حديقة الحيوانات . وسمعت من يصرخ وراءك ويقول :
يا حيوان فلا داعى لأن تلتفت وراءك لترى ماذا سيحدث . . فكل ما فى
الحديقة حيوانات : التى فى الأقفاص . . والذين خارجها .

وإذا وقفت أمام قفص القروود ورأيت القردة تغلى ابنتها الصغيرة
فلا تضحك . . قلنا أجداد يفعلون ذلك فى الريف . أما فى المدينة فالكوافير
يقوم بهذا العمل أيضا مستخدما أحدث ما وصل اليه عقل الانسان .

وإذا أنت ألقيت ببعض السودانى وتزاحمت عليه القروود وضحك طفلك الصغير ،
فاظن انه لا داعى لأن تضحك أنت . لأنك قد فعلت شيئا من ذلك فى المكتب أو الدكان
أو المصنع الذى تعمل فيه . فمكان العمل هو قفص أقسى من قفص القروود . وأنت
محكوم فى داخل القفص بقوانين ولوائح وقواعد ومخاوف . . وإذا أشار رئيسك فى
العمل بالعلاوات أو الأرباح فانك تقفز مثل هذا القرد وأكثر . . وليست العلاوات الا
انواعا من الفول السودانى الذى يلقي لنوع آخر من القروود . .

وإذا رأيت القرد أمام كل الناس - يركب ظهر الأنثى . فليس القرد قليل
الادب ، ولا نفسه اتفتحت لمجرد رؤيتك . ولكنه فى حالة خوف . والخوف يثير
الحيوان والانسان أيضا . والناس فى جو الخوف يتعاقنون . . انهم يواجهون الموت
بالقبلات ، ويواجهون الموت بغريزة حب البقاء . . والبقاء عن طريق الجنس . .

وإذا كان القرد ليس له مستقبل فى أن يكون انسانا . فمن المؤكد أن الانسان له
ماض . وهذا الماضى ما تزال حروفه الفامضة يمكن قراءتها فى جبلاية القروود . . فاذا
لم يكن هذا القرد جدنا البعيد . . فهو قريب من جدنا البعيد . وإذا كان الانسان قد
اكتسب عادات جديدة من مئات الألوف من السنين . . فان العادات القديمة التى عاش
بها من ملايين السنين ما تزال مصنوعة مكنونة فى أقفاص القروود . .

ولهذه الأسباب كان الكتاب الممتع الصعب أيضا الذى كتبه العالم دزموند موريس
وعنوانه « القرد العريان » من أروع الكتب التى صدرت أخيرا فى العالم بلغات متعددة .

وأذا كان هذا الكتاب لم يلق التأييد الكامل من علماء الحياة والدراسات الانسانية والحيوان ، فانهم - عادة - لا يتفقون على رأى واحد . . ولكنهم أمام هذا الكتاب اتفقوا على أنه خلاصة دراسات وتأملات عميقة ومثيرة أيضا . وأن به نظريات جريئة وجديدة ولا بد أن تدير آلافا من الادمغة يمينا وشمالا . . وبعد ذلك فى امكانها أن تتساقط من التعب أو اليأس .

هناك ١٩٣ نوعا من القروء من بينها نوع واحد فقط ليس جسمه مغطى بالشعر : وهذا القرد العريان له صفات غريبة أخرى من بينها مثلا أنه يقضى نصف عمره بحثا أنت وأنا ! وهذا القرد العريان له صفات غريبة أخرى من بينها مثلا أنه يقضى نصف عمره بحثا عن معنى سلوكه وتصرفاته . . ويمضى النصف الثانى من عمره يحاول أن ينسى هذه المعانى . وهذا القرد العريان يعتبر نفسه عاقلا . والحقيقة أنه عاقل حقيقة ، ولكنه أكثر الحيوانات شراهة من الناحية الجنسية . . فالحيوانات كلها معتدلة ، وكل هذه الحيوانات تخجل من الجنس ، ولذلك فهى عند العناق لا يواجهه انشاء . .

والحيوانات لها مواسم . والانسان ليست له مواسم للقبلاات والحمل والرضاعة والولادة . . فكل وقت عنده هو الوقت المناسب لأن يكون « حيوانا » ومن الضرورى أن نعيد النظر فى الحيوانات الأخرى ، وخصوصا الحيوانات الراقية مثل القروء لتعرف كيف عاش هذا الانسان ومن أين جاءت عاداته كلها ، كيف نشأت وكيف تطورت وتحورت حتى أصبحت على الصورة التى تراها اليوم . . ولا تفهم الكثير من مقدماتها وأسبابها . .

ولعل من المناسبة هنا أن نذكر أنه فى احدى حدائق الحيوانات يوجد « سنجاب » وهو حيوان صغير أليف يظهر فى الحدائق ويداعب الأطفال . هذا الحيوان وضعوه فى قفص على انفراد . . وكتبوا على القفص . . هذا السنجاب أفريقى نادر . ولا نعرف اسمه العلمى . . فنحن لم نر قبل الآن سنجابا له قدم سوداء . . وأنف أحمر . .

وأمام هذا السنجاب النادر نجد علماء الحيوانات يبحثون عن وجه الشبه والخلاف بينه وبين الأنواع الأخرى ، لابد أنه كان من سلالة انعزلت من بقية الـ ٣٦٦ نوعا من السناجب التى عاشت فى العالم كله . ولا بد أن هذه الفصيلة النادرة قد انعزلت تماما وأصبحت لها عادات خاصة ، ولها نداءات جنسية خاصة . ولا بد أنها مرت بظروف غريبة . وانها توافقت مع هذه الظروف . وأصبحت لها ألوان وأشكال وعادات مختلفة عن بقية الأنواع الأخرى . .

نفس الموقف يجب أن تأخذه من الانسان - هذا القرد العريان - نتساءل كيف عاش . ولماذا بقى . وكيف تطور . . وكيف تحول من مرحلة أكل فيها الحشرات الى مرحلة أكل فيها أوراق الشجر . ثم الثمار . . ثم انتقل من الغابات الى الأرض الواسعة . . ثم كيف تحول من التقاط الثمار الى صيد الوحوش . . ثم الى زراعة

الأرض .. ثم كيف حاول الهرب . واستخدم رجله .. واستخدم يديه في صناعة أدوات حياته ..

وان كان الإنسان مثل بقية الحيوانات الثديية التي تبلغ عدد أنواعها ٤٢٣٧ قادرا على أن يحتفظ بدرجة حرارة مناسبة في الحر والبرد .. صحيح أن بعض الحيوانات الثديية - أي التي لها ائداء ترضع بها أطفالها - تعتمد على جلودها الغليظ وشعرها الكثيف في حفظ درجة الحرارة في الشتاء . والوقاية من حرارة الشمس في الصيف .. والوطواط وهو طائر ثديي عريان في معظم أماكن جسمه .. ولكن يوجد شعر أيضا يغطيه ويحميه .. وهناك حيوانات أخرى مائية ثديية بلا شعر مثل الحيتان والدلافيل . ولكنها لا تقوى على مواجهة الشمس كما يفعل الإنسان ..

والإنسان في تاريخه الطويل فقد القدرة على الأبصار . وفقد قوة السمع والشم . أما الحيوانات الأخرى وخصوصا آكلة اللحوم مثل الإنسان فعندها قدرات خارقة على الرؤية والسمع والشم . ففي سنة ١٩٥٣ أجريت تجارب على قدرة الكلاب المتوحشة على الشم ، فأثبت العلماء أن قدرتها أقوى من الإنسان مليون ونصف مليون مرة ..

والإنسان مثل الحيوانات آكلة اللحوم قاتل أيضا . وبعض الحيوانات لا تقتل لمجرد القتل . وإنما لأسباب وجيهة : الجوع .. أو جوع صغارها ..

وحتى الحيوانات التي استأنبت ما تزال عندها غريزة الصيد .. والإنسان أيضا . فالكلب الأليف يجب أن يخرج به سيده إلى الشارع ليمارس لعبة الصيد والمطاردة .. وهي لعبة لأنها ليست خطيرة . وكذلك القط الذي تلقى إليه بالطعام فيداعبه كأنه فأر صغير .

وبعض الكلاب تخفى طعامها

وبعض الضباع تخفى طعامها فوق الشجر ..

وهذه الحيوانات آكلة اللحوم لها طرق معروفة في الصيد .. والأسود تبحث واحدا منها يهاجمها الفريسة حتى تهرب .. وإذا ما هربت وجدت أمامها عددا آخر من الأسود . والذئبات تحاصر الفريسة .. أما الكلاب المتوحشة فأنها تمشي في طابور طويل .. وتظل تهاجم الفريسة واحدا واحدا حتى تنزف الفريسة وتموت .

هناك خلاف هام بين هذا الإنسان وبين القردة الأخرى . هذا الخلاف هو أن طفل الإنسان يستمتع بفترة طفولة طويلة . هذه الفترة يعيش فيها مع أمه . ويتعلم منها الكثير . وفي نفس الوقت يكبر عقله وينضج . ولا يزال يكبر حتى السابعة من عمره . ويبلغ العقل نضجه التام في الثالثة والعشرين أما الحيوانات الأخرى فلها فترات طفولة صغيرة ..

والإنسان لم يستمتع بهذه الطفولة إلا بعد عادات أخرى اكتسبها .. وهي أن الرجل هو الذي انفرد بالصيد والقتال . لأن المرأة في حالة الحمل لا تقوى على ذلك

ولهذا ذهب الرجل وبقيت المرأة في البيت مع أطفالها . والمرأة في البيت بلا خوف من هجمات الذكور الآخرين لأن هناك اتفاقا روحيا بين الذكر والأنثى ، أن تبقى هذه الأنثى له وحده . وأن تبقى وفيه مخلصه له إذا ذهب للصيد في الغابات . هذا الاتفاق لم يتم بين الذكر والأنثى إلا بعد أن كان هناك حب بينهما . وهذا الحب أدى الى الارتباط ولارتباط أدى الى قيام وحدة من رجل وامرأة وأنشاء أسرة أى جو مناسب لتربية طفل لاستقرار الأب والأم والأطفال . . وإذا كان من طبيعة الحيوانات الأخرى أن تتعاون فالإنسان أيضا حيوان متعاون ولكنه حيوان منافس أيضا . وكثير ما أدى به التنافس الى القضاء على الأسرة وعشرات الأسر . . وإذا كانت رغبة الإنسان في التعاون هي التي جعلته يخلق الأسرة ، فإن رغبته في التنافس هي التي جعلته يبتكر الزوجات ويخطف الأرض ويقتل القبائل الأخرى . . وأكثر من ذلك جعلته يبتكر أدوات جديدة في الدفاع عن النفس وفي القتال . . وجعلته يشعل النار في عقله ويلقى بضوئه ودمائه على الأجيال القادمة . . تاريخ الإنسان أضواء باهرة تنعكس على بحار من الدم ترفع شعارات اسمها : حب الإنسان لأخيه الإنسان . .

أما لماذا سمى الإنسان بالقرود العريان فهناك آراء كثيرة . هناك رأى يقول أن طفل القرود عندما يولد يكون عاريا من الشعر تماما . . ثم ينبت له الشعر كلما كبر . والإنسان لأن طفولته طويلة فقد ظل جسمه خاليا من الشعر . . ثم أصبحت هذه الصفات وراثية من مئات الألوف من السنين . .

ومن المعروف أن الجنين في الشهر السابع والثامن يكون جسمه مغطى بالشعر وقد رأيت ذلك في الأطفال الذين ولدوا قبل الأوان . . وبعد ذلك يختفى هذا الشعر كلما تقدمت بهم السن . . وأن كانت هناك حالات نادرة مغروفة في الكتب العلمية لأطفال ظل شعرهم طويلا يغطي معظم الجسم . . كالقروود تماما . .

ويقال أيضا أن الحيوانات التي يغطي جسمها بالشعر تعيش عليها ومعها حيوانات طفيلية كثيرة . وكان الإنسان يعيش في الكهوف . . ويقال لأن الإنسان قادر على أن يستخدم يديه راح ينتزع شعره ويحلقه . . ولأن الإنسان قادر على أن يستخدم يديه وأصابعه . على عكس الحيوانات الأخرى . وهناك نظرية تقول أن الإنسان عندما اخترع النار لم يعد في حاجة الى اغطية من الشعر . . أو فروة من الشعر . . وأنه قادر على أن يجد الدف في ضوء الشمس نهارا . وأن يجد الدفء أمام النار ليلا . . وأن هذا الدفء هو الذي أغناه عن حاجته للشعر الذي يغطي جسمه كله .

ويقال أن الإنسان قد عاش مئات الألوف من السنين يتنقل بين البر والبحر وأنه كان يعيش على أكل السمك . وعندما كان يصيد الأسماك كان الماء يغمر جسمه كله . ولا يبقى إلا رأسه على سطح الماء . . ولذلك - مثل كل الحيوانات الثديية الأخرى - أصبح جسمه خاليا من الشعر . . وكلها نظريات نجتهد في تفسير خلو جسم الإنسان من الشعر ، أكثر من الحيوانات الأخرى . .

وربما كان للشعر تفسير جنسى آخر . . فمن الملاحظ أن الذكور من الحيوانات الثديية بها شعر أكثر من الإناث ولذلك أصبحت الأنثى الناعمة البشرة مشيرة من

الناحية الجنسية للرجل . وهى حريصة على أن تكون انعم ايضا . بينما يحرص الرجل على أن يكون أكثر خشونة .. ولذلك يطلق شاربته ولحيته .. ويترك الشعر في صدره وتحت ابطه بينما تحرص الأنثى على أن تكون ملساء ..

وليس معنى ذلك أن الانسان يحب البشرة الناعمة ، ولذلك زال الشعر من جسم المرأة . ولا معنى ذلك أن المرأة احبت الشعر في جسم الرجل فظهر الشعر .. ولكن معناه ان الانسان احب الواقع .

نعود مرة اخرى الى قفص القروود الذى تقف امامه فى حديقة الحيوان .. ان القردة لم تذهب الى حلاق ولا الى صانع أحذية والى مصمم أزياء .. ولم تضع الأحمر والأبيض والسوتيان . والكورسيه والكعب العالى .. ولا الفمز بالعين ...

كل هذا يدل على أن الحضارة الانسانية علمت الانسان أن يكون شهوانيا .. وأن يكون مشتغلا جنسيا . وأن يفكر فى الجنس ويهرب منه ويمود اليه .. وبسبب الجنس يحب وبسبب الحب يتزوج وبسبب الزواج تكون له أسرة والأولاد .. يهرب من الأولاد والزوجة باسم الكراهية ليقع فى الحب ، الذى هو اسم مهذب للجنس .. فهو يدور حول نفسه هاربا قلقا خائفا فى قفص محكم معقد اسمه الغريزة الجنسية . واسمه تجارب التاريخ الذى طواه ملايين السنين قطعته القروود على الأشجار وتحتها وفى الصراع مع الحيوانات الأخرى تحركت ساقاها .. وقاومت فتحركت يداها .. واهتز عقلها أيضا .. وسكنت الكهوف .. واستقام ظهرها .. وكبر عقلها .

وأصبح انسانا لا يختلف كثيرا عن القروود وان كان هو يتوهم أنه مختلف عنها تماما .. ولكنه قرد يصنع الأقفاص لغيره .. ولنفسه .. ويجعل أقفصه هو مكيفة الهواء اذا كانت على الأرض .. ومكيفة الهواء والضوء والضغط اذا كانت فى طريقها الى القمر .

والانسان قاتل من يومه ..

كان يقتل بالحجارة والفأس والسيف . وما يزال يقتل . فقد أصبحت لهذه الأسلحة أسماء جديدة : الصاروخ والطائرة والدبابة . فهو - إذن - لم يتغير .

والحضارة لم تطور رغبته فى القتل . وانما هذه هى الرغبة التى طورت الحضارة الانسانية وغيرتها وصبغت بالأسود والأحمر طريقها وأهدافها .. والانسان - هذا القرد العريان - كان صيادا فى الغابة ، يعيش على التقاط الفاكهة : التفاح والرمان والتوت . وما يزال . ولكنه يصيد تفاح الخدود ورمان النهود وتوت الشفاه .

فالحضارة الانسانية لم تضع الفرامل على رغبات الانسان . وانما رغبات الانسان هى التى أشعلت فرنا ضخما شوت فيه كل معالم الحضارة الانسانية . فلا يزال الانسان أكثر الحيوانات الراقية شراة جنسية : يجوع اليها ، وينشدها ويجدها ويطاردها ويعود اليها . ويبدأ الانسان هذا الشوق الجنسي فى سن مبكرة . ثم يعرف اللعب الجنسي . والمداعبة . والمطردة . والصيد . والانتباه الجنسي والهيأج الجنسي .. والأشباع ..

والانسان حيوان شهواني أكثر من الحيوانات الأخرى . .

ولكن الانسان هو أول حيوان يحرص على أن تكون له أسرة . أى تكون له امرأة واحدة . يحرص عليها ومن الضروري أن تحرص هى عليه أيضا . والانسان كحيوان صياد كان يخرج من الكهف الى الصيد فى الغابة . ويبقى فترات طويلة . ويترك وراءه انشاء واولاده . وهى بذلك تكون عرضة لعدوان الذكور الآخرين . ولابد من حماية لها اثناء غيابه .

ولذلك عرف الانسان الحب . وعرف العطف على الأنثى . وعرفت الأنثى حماية الذكر . وهذا الحب كان ضروريا للانسان . لأنه عقد غير مكتوب وبمقتضاه يصبح لهذا الذكر الحق فى أن يحتفظ بهذه الأنثى . ويصبح لهذه الأنثى الحق فى أن تعيش فى كهف هذا الرجل ولهذا الرجل والا تسلم نفسها لذكور آخرين . .

ولكى يبقى هذا « العقد » محترما كان على الذكر أن يحترم عقود الآخرين .

وفى الوقت الذى بدأ فيه جسم الانسان يضعف بدأ عقله ينمو وينضج . ولذلك لم يعد هذا الانسان فى حاجة الى عضلات الحيوانات وسرعتها فى الجرى والهرب . وانما عقله هداه الى الأساليب أخرى لالتقاط الفاكهة من الغابة . وهداه أيضا لاستخدام أسلحة أخرى للقتال والدفاع عن النفس . . وهداه الى وضع حدود اجتماعية لتحميه وتحمي ذريته . وفى اثناء فترة الصيد هذه استطاع الانسان أن يحرك أصابع يديه . وهو وحده القادر على ذلك من كل الحيوانات الأخرى . وهذه الأصابع هى التى مكنت الانسان من أن يستخدم الأدوات وأن يصنعها أيضا . وهذا ما لم تفعله كل الحيوانات الأخرى . .

وتمكن الانسان - خلال مئات الألوف من السنين - أن يصلب عوده . وأن يقف وتعلم الانسان أن يكون له رفيقة واحدة . هذه الرفيقة هى الشريكة . أو هى اللصيقة . أو التابعة . . فلم تظهر كلمة : الزواج أو كلمة الزوج الا فيما بعد ذلك بالوف السنين .

وهناك اختلاف آخر بين الانسان والقرود مثلا . .

تبقى فترة الحمل عند القرود - أقرب الحيوانات إلينا - تعرف الأنثى من كل صلة جنسية . بل انها تبعد تماما عن الذكور . فيما عدا الانسان - هذا الشهواني - لا يقوى على الحرمان الجنسي طويلا . ولذلك فمن الممكن أن يقرب زوجته معظم فترات الحمل وكأنه بذلك أراد الا تتجه زوجته الى ذكر آخر . . وكان الأنثى أرادت هى الأخرى الا يتجه الذكر الى أنثى أخرى . فأصبحت هذه العلاقة ممكنة رغم الحمل .

وقد ورث الانسان من مرحلة الصيد القديمة ، هذه النعومة فى البشرة . . فهو اذا عانق المرأة التصقت بأكبر مساحة ممكنة من هذا الجسم العريان . وأصبح الجسم الانسانى شديد الحساسية للملامسة . وفى هذا الجسم الانسانى مراكز كثيرة قادرة على اشعال الحس . والانسان اكتشفها واعتاد عليها

ويلهبها كلما أراد ذلك . . . ولذلك في استطاعة الانسان أن يكهرب نفسه وغيره بمجرد أن يمر بأصابعه على الجسم الانساني العريان .
ومن الملامح الغريبة عند الانسان : الشفتان . . .

وقد أعلن كثير من العلماء أن الشفتين ليست لهما ضرورة خاصة . وكان من الممكن أن يكون الفم مجرد فتحة . ولكن الانسان هو الذى جعل للشفتين معنى خاصا . . . ويقول علماء آخرون : أن شفتى الانسان قد كبرت وتضخمتا لأن الانسان له طفولة طويلة . أى أنه يرضع ثدى أمه سنوات عديدة بينما نجد القردة ترضع صغارها فترات أقصر .

ولكن الغريب في شكل الشفتين أنهما مقلوبتان الى الخارج . على خلاف شفتى القرد . . . فانهما حادثان بلا طبقة شحمية . فإذا اقترب منك القرد وقبلك فانه يطبع فكه فقط على وجهك أعلى عنقك . ولكن القبلة من شفتى انسان ملتصقة ومندمجة وعميقة أيضا . ففي استطاعة الانسان أن يعانق الشفتين بالشفتين . . .
وفي الشفتين خلايا عصبية كثيرة . ولذلك فالانسان قد جعل هاتين الشفتين ذراعين تتعانقان . . . وتنقلان الحرارة والوهج الجنسي الى كل الجسم بل إن هناك نساء يغمى عليهن عند القبلات . وبسبب المعانى الكثيرة التى تعملها القبلة وتثيرها ، فإن تسليم الشفتين هو موافقة مبدئية بتسليم بقية الجسم الانسانى . . . وكما أن الطفل الصغير يرضع بشفتيه ، فإن الطفل الكبير يرضع أيضا بشفتيه احساسات أخرى ومعانى عميقة ومشيرة .

وبعد الشفتين تجيء الأذنان . . .
يقول بعض العلماء أن أذن الانسان كانتا طويأتين - كأذن الحمار مثلا ثم ضمرت الأذنان بمرور الوقت حتى أصبح لها هذا الشكل الذى نراه . . . وهناك شبه بين أذن الانسان وأذن القرد .

ولكن هناك خلاف واضح : هذه الشحمة التى تتدلى من الأذن . . . من أين جاءت ؟ ولماذا كانت ؟ وما فائدتها ؟ ليست لها فائدة . ولكن الانسان خلال مئات الألوف من السنين قد استخدم هاتين الأذنين في الاثارة الجنسية . . . أمسك الأذنين بأصابعه اثناء اللقاء الجنسى . واعتاد ذلك وأصبحت لهذه الشحمة هذه الدلالة الجنسية . وأصبحت جرسا يضغط عليه فإذا كل الحواس الأخرى تصرخ وتثور وتنفج . . .
أما النهدان فهما عند أنثى القرد العربات متضخمان . . . وتتضخمان عند الاثارة الجنسية أيضا .

ويقال أن النهدين مظهر من مظاهر الأمومة . وضرورة لهما . ولكن اثناء القروء ليست في ضخامة اثناء المرأة . على الرغم من أن اثناء القروء أكثر افرازا للبن . ولكن اللبن الكثير والرضاعة العنيفة عند صغار القروء لم تؤد الى تضخم ثدى القردة . ولكن أنثى الانسان لها نهدان يتضخمان وهذا التضخم ليس بسبب الأمومة ، ولكن بسبب الانوثة . . . فالنهدان جهاز تنبيه جنسى أيضا . اعتاده الانسان واستراح اليه وعليه .

والأنف يختلف عن كل الأنوف عند الحيوانات الأخرى . والخلايا والمراكز العصبية الموجودة في الأنف كثيرة . وإذا كانت خاصة الشم عند الإنسان قد ضعفت فإن هذه الحساسية تقوى عند العنقاء . ويصبح الأنف قادرا على أن يشم وعلى الاستمتاع بالشم ولذلك كانت الاثارة عن طريق العطور ورائحة الجسم الانساني نفسه .

هذه الاختلافات في الهيئة والسلوك الانساني قد اكتسبناها من مئات الالوف من السنين . . . واكتسبنا معها وسببها هذا العقل الذي نمتاز به عن الحيوانات الأخرى ولكن ما الذي تغير في الإنسان الآن . . هل ما يزال الإنسان كما كان من مئات الالوف من السنين . . هل نحن مختلفون عن اجدادنا في الرغبة والاتجاه والاشباع . .

لم يتغير شيء . . وانما الأسماء فقط هي التي تغيرت . . فالببت بدلا من الكهف والعمل بدلا من الصيد . والحب بدلا من السطو . والزواج بدلا من التزاوج . .

كما ظهرت بعض القيود التي نسميها : القانون . . القواعد . . الأصول . . التقاليد ولكن متى ظهرت هذه الحواجز . هذه الفواصل . هذه الأسلاك الشائكة . هذه العلامات البيضاء على الأرض . علامات المرور العاطفية . متى ظهرت متى أصبحت لها هذه القوة ؟ . .

عندما ظهر القرباء في حياتنا . .

فبين الرجل وانشاء لا قيود . ولا تقاليد . ولا عادات . الا ما اتفقنا عليه . وهو حر في بيته . وهي أيضا . وفي استطاعة الأنثى أن تمشي عارية . والرجل أيضا . ولكن عندما يظهر شخص غريب : تنكمش الحركة ويتغطى الجسم . وتنزوى المراهق . ويبعد الرجل عن زوجته . .

وإذا كان الرجل معا يذهبون الى الصيد ، ويتركون النساء وحدهن فقد حدث كثيرا ان ذهبت النساء للصيد أيضا . هذا الاختلاط حتم اقامة الفوارق والحدود . وعرفت الإنسانية معاني العيب والحرام والشرف . أي أن المرأة لا يحق لها أن تعطى للغير ما ليس للغير .

وقد اسرف الرجل في وضع الحواجز واقامة الجدران بين ما يخصهم وما يخص غيرهم . وفي العصور الوسطى كان الرجل يضع « حزام العفة » حول زوجته . ويضع على الحزام قفلا يحتفظ بالفتاح في جيبه . . عاما . . وعشرين عاما . ويترك في الحزام فتحات للضرورة الحيوية فقط . وكان البعض من المتزمتين يضع الحزام كالسد المنيع على زوجته عندما ينهضان من النوم كل يوم !

وقد اعتاد الرجل منذ وقت طويل أن تكون له امرأة خاصة . وأن يكون جسمها خاصا به . وأن يكون لهما مكان خاص ينامان فيه . (وفي كل اللغات العالمية نجد أن كلمة « نام » الرجل مع المرأة أي عاشرها كأنها زوجته) . . إذن لقد عرف الإنسان

الزوجة الخاصة . والبيت الخاص . وعرف السرية والخصوصية في كل تصرفاته الجنسية والعاطفية .. بعيدا عن عيون الآخرين وعن أبدبهم أيضا .

ولو نظرنا الى مكان يزدحم بالرجال والنساء لوجدنا هناك حرصا شديدا على ألا يصدم أحد بأحد .. أو يصطدم رجل بامرأة . لأن الملامسة لها معنى جنسى . وإن كنا في حياتنا العادية لا نقول ذلك . وإنما فقط نقول : عيب أن نصطدم بسيدة .

هذه قلة ذوق .. هذا سوء تربية .. ولكن المعنى الحقيقي أن جسم هذه السيدة ليس مباحا . وإنما هو خاص . وليس من حقك أن تلمسه .. وإنما من حق غبرك ، وإن كانت هذه الملامسة مسموحا بها في أماكن الزحام الشديد ، لأنه لا مفر من ذلك ، ومسموحا بها للحلاق والترزى والطبيب .. ولو فرضنا أن سيدة اصطدمت برجل في الزحام ، ولم يعتذر لها لقالت انه قليل الأدب .. ولكن لو ذهبت الى هذا الطبيب نفسه للعلاج فأنها تنزع ملابسها أمامه . ويتحسس جسمها . ويولدها . ولا يتهمه أحد بسوء الأدب لأنه في المرة الأولى لم يكن له حق . وفي المرة الثانية له هذا الحق !

وبسبب هذا العدد الهائل من الغرباء في كل مكان . كان من الضروري أن تخفى المرأة معالم جسمها . وقد دفعت المرأة نفسها وراء الأبواب والجدران وتحت الملابس الواف السنين . ولكن عندما أصبح « العمل » ضرورة حيوية .. خرجت المرأة واخفت ملامحها أيضا لأن كشف هذه المعالم والنظر اليها ولمسها بالعين أو باليد ليس من حق كل الناس !

ولذلك نحن نطلب الى الطفلة الصغيرة اذا جلست أن تضم ساقيها . والا تفتحهما حتى تعتاد على ذلك .. لأن فتح الساقين لا يليق أمام كل الناس .. وكذلك المرأة عندما تضحك فأنها تحاول ألا يكون صوتها عاليا . وأن تخفى ضحكتها وراء يدها .. أو تنحني لتخفى ضحكتها أيضا .

والسبب هو أن الضحك واللعب لهما دلالة جنسية خاصة ، ويجب ألا تكون عامة ! ولكن ما الذى تفعله المرأة بملابسها الآن ؟

إن ملابس المرأة تخفى جسمها ولا تخفيه .. بل إن الملابس تبرز جسم المرأة أكثر مما تستتر عليه . فقد يكون الصدر مترهلا ذابلا . ولكن السوتيان يشده ويدوره ويبرزه . وهذه الاستدارة والتضخم والبروز لها دلالة جنسية . فمن المعروف أن النهدين يتضخمان عند اللقاء الجنسي .

وكذلك أرداف المرأة . فهي حريصة أيضا على إبراز الردفين وتكبيرهما .. ولذلك تستخدم الكورسيه .. وأحيانا تستخدم الأرداف الصناعية المصنوعة من القطن . وكما أن المرأة تحقن صدرها بالشمع . فأنها تحقن أردافها أيضا .

فكان المرأة لا تخفى جسمها . وإنما هي تخفيه ليظهر أكثر . فلماذا ؟

نعود الى جبلاية القروء : ففي عالم القروء نجد أن الخوف والزحام يدفعان الحيوانات الضعيفة الى الاستسلام للذكر القوى أو الانثى القوية . وأول ما يفعله

القرود الضعيف ان يدير ظهره للحيوان الاقوى . ويعتليه الحيوان الاقوى والخوف في الجبلية القروء سببه الزحام على القوة . وعلى السلطة . وعلى الطعام وعلى الازث . ولا يملك الضعيف في هذا الزحام الوحش الا ان يعطى نفسه لمن هو اقوى منه . وليس لدى القروء الا جسمها . فتضعه امام الذكر الاقوى !

وفي عالم الانسان ايضا . فالمرأة عندما تخرج الى الشارع . تحرص على ان تكون جميلة ومثيرة . فهذا الجمل والاثارة هما محاولة للفت نظر الرجل . وفي نفس الوقت تلويب رغباته العدائية او العدوانية . الى مجرد رغبة . الى اعجاب . الى اشتها . وبذلك تنجو المرأة من شر الرجل . وتنجو ايضا من الاعتداء عليها . ولولا خروج النساء الى الشارع لانهدمت الحياة الزوجية وانهدمت الاسرة الانسانية . فخرج المرأة الى الشارع خفف حدة الرجال الآخرين الشبان والمتزوجين . فكان المرأة عندما تخرج الى الشارع جميلة أنيقة مشيرة عارية بارزة النهدين والردفين تقول : من الممكن ان تحبنى ولكنى بعيدة جدا !

ومعروف لنا جميعا ان المرأة عندما تخرج الى الشارع سوف تكون موضع نظر الرجل . . أى رجل . . فهي لا تستطيع ان تسد عيون الناس . ولا ان تسد أفواههم . ولكنها فقط عن طريق اشباع العيون تقطع أيديهم . . واذا كانت العين بصيرة ، فمن المؤكد ان الأيدي ستكون قصيرة — وهذا هو المطلوب !

فلماذا كل هذه المنوعات والقيود ، ولماذا هذه الاثارة في نفس الوقت ، لماذا نفتح النوافذ لتهب العواصف الباردة ولماذا نشعل المدفأة في نفس الوقت ؟

لأن الرجل حيوان « بريالة » . فاذا سال لعابه ، أصبح حيوانا ذاولا ذايلا . . فكأن المرأة هي وحدها القادرة على تحويل النمر الى قط وتحويل الذئب الى كلب . . الى قرد عريان . . الى عريان . . فكأن المرأة هي وحدها التي تقوم بترويض الرجل الشرس في الشارع وفي البيت . . وهي وحدها القادرة على ان تحمي الحدود التي وضعها الرجل . . وعلى ازالة الحدود وازالة الرجل ايضا !

وقد اعتاد الانسان شيئا جديدا : اعتاد ان ينظر . . ان « يبص » وان يجد متعة في النظر والبصبة . . واعتادت المرأة ان تكون منظورة . . ملفتة . . وتصبح المتعة مشتركة بين الجميع . .

ولذلك نجد متعة ايضا في مشاهدة الافلام والمسرحيات حيث نجد اناسا آخرين يحبون ويعشقون ويقبلون ويتزوجون . . انهم يقومون بكل شيء بالنيابة عنا . . اننا نشتركهم فقط بعض اللحظات . بل اننا نعلن عن الافلام العاطفية باظهار البطل والبطلة في حالة عناق حار . ولا احد يسأل نفسه : طيب هو يعانقها ويقبلها واحنا اخذنا ايه ؟ . .

لا شيء طبعاً . ولكن اثناء عرض الفيلم نندمج مع البطل والبطلة وننسى ان الذى امامنا هو تمثيل في تمثيل . . ولكن النظر متعة . . ولذلك عندما يتعانق

البطلان نحس بالكهرباء ويسيل اللعاب .. وتعالى آهات الحرمان .. آهات صاحب
"لعين البصرة واليد القصيرة !

وفي الصحف والمجلات صور عارية .. وفي الروايات قصص عارية .. وصفحات
غرامية من نار .. كل هذا نبث عنه .. لأنه لذة .. ومتعة .. ومشساركة بالعين
فقط .. !

وفي هذه المناظر حماية للأسرة وتعجيل بأن تكون لكل انسان أسرة ايضا !

وفي البلاد التي يسمحون فيها بالدعارة .. نجد أن هذه الدعارة تحمي الأسرة
ايضا .. فالرجل يذهب الى احدى الغانيات بلا حب ولا مقدمات فتمتد يده دون أن
يراها .. أى يكون طويل اليد قصير النظر .. ولذلك لا يفكر فى أن يتزوج غانية ..
أو يترك زوجته وأولاده ويسته من أجل غانية .. أو من أجل واحدة تملأ الذراعين
وتسقط من العينين !

والدعارة هذا العفن الاجتماعى والأخلاقى - هو أحد السموم التي يحمون بها
الأسرة - أو كأنه أحد الأسمدة العضوية التي يستخدمونها لتغذية التربة ؟!

ورغم المحاولات الكثيرة للتخلص من القيود العائلية .. أو التخفيف منها تعيش
الأسرة اقوى وابقى علاقة اجتماعية .. فقد حاول المفكرون أن يبحثوا عن وسائل
للحمل بدون أب معروف .. وحاولوا وضع الاطفال في مكان عام دون حاجة الى أم
أو أب .. كل هذه المحاولات الفكرية والعلمية قرا الانسان عنها ولكن لم يتحمس
لها .. فما يزال الانسان حيوانا اجتماعيا .. يريد الزوجة الواحدة والطفل والبيت
الخاص .. وأن تكون له خصوصيات .. وأن تكون هناك ، حدود عليه وحدود له ..
وأن يكون له اطفال .. وأن يتولى هو تربية اطفاله وهذه هي إحدى مشكلات الأسرة
واحد أمباء الزوجين .. والمجتمع والدولة .. وتربية الطفل ليست مشكلة حيوانية
.. فلا شكوى للقرود منها .. وإنما هي مشكلة انسانية جديدة ومتطورة كما
سنرى !



من قلوب الـدمهات .. خرجت موسيقى الخنافس

٢

عندما يولد القرد ، فانه يمسك بأمه . يمسك بشعرها وجلدها . ويتعلق بها . كأنه تدرب على هذه العملية في بطن أمه ومد وقت طويل .. ولا يستطيع الطفل الانساني ان يفعل ذلك الا بعد وقت طويل .

فالقرد الصغير لا يحتاج من أمه الى تربية أو تدريب .. ثم انه ليس عبثا يصيبها بالقرف والغثيان وينخفض ضغط الدم عندها .. وينتفخ صدرها .. ويعتمد عليها .. اما الطفل الانساني فانه عبء قبل ان يولد فلا تكاد أمه تحمل فيه حتى ٢٦٦ يوما تطلق هذا الجنين كأنه فذيفة .. ولا بد ان تصرخ الأم بأعلى صوتها . ولا بد ان يبكي الطفل ايضا . ويحرص الأطباء على ان تصوت الأم وعلى ان يبكي الطفل . فاذا حدث ذلك تلفت الطبيب يتلقى التهاني من الأهل على انه أبكى الأم وطفلها .

وينزل طفل القرد ومعه « خلاصه » هذا الخلاص تقوم أم القرد بقطعه ثم ابتلاعه . وبعد ذلك تقوم بلعق السائل الذي يفرق جسم الطفل ثم تغسل جسمه تماما .. اما الطفل الانساني فانه يولد عاجزا تماما لا يقدر على فعل أى شيء .. وأمه كذلك مرهقة لا تقوى على عمل شيء لهذا المولود ..

ولا بد ان قطع الخلاص على طريقة القروء كان اسلوب اجدادنا من الوف السنين ، فيما عدا انهم لا يأكلون الخلاص . ولا بد ان حاجة الأم الى مساعدة الآخرين في هذا الموقف ترجع الى مئات الالوف من السنين عندما كان الانسان صيادا يترك زوجته اناما حتى يعود اليها بالطعام . فكان يجتمع حوله نساء كثيرات يساعدنها على ولادة الطفل والعناية به حتى تفيق الأم من آلام الولادة ..

وبعد يومين من ميلاد الطفل الانساني يبدأ لبن الأم في السيولة النشطة . فاذا اعطت الأم ثديها لابنها ، ظل يرضع حوالى العشرين شهرا .. والرضاعة الحديثة تكتفى بسبعة أو تسعة شهور فقط .

وعندما تتوقف الأم عن ارضاع طفلها يعاودها المرض الشهري وتصبح قادرة على الحمل من جديد . . . ولذلك تعتبر الرضاعة الطويلة محاولة لتحديد النسل أيضا .

والرضاعة عند القرود ليست مشكلة . . . ولكنها عند الإنسان - هذا القرد العريان - مشكلة كبرى . فالطفل الانساني غير قادر على ان يطعم نفسه ، وعلى الأم ان تساعدته فهي تحمله على صدرها . وهي تضع ثديها في فمه . وهذه مشكلة . فحلمة الثدي ليست ممدودة بدرجة كافية . وليس من السهل ادخالها في فم الرضيع . ولذلك فلام تضع ثديها بين شفثيه بحيث تكون حلمة الثدي بين سقف الفم وبين لسانه . ثم انه يجب ان تكون الرضاعة سهلة في الأيام الخمسة الأولى ، واذا فشلت الأم في ذلك فسوف تكون هذه مشكلة معقدة للطفل بعد ذلك . .

واحيانا تشعر الأم ان طفلها يرفض ثديها . وهي لا تدري . ولكن عند الطفل أسباب وجيهه جدا . كأن تضغط الأم بطفلها على صدرها . فلا يعرف كيف يتنفس . ففمه الصغير ملبان باللبن ونفه الصغير ملتصق بصدرها . . . ولذلك يجب ان تراعى الأم ذلك . وهذا يجعلك تقول مرة أخرى ان صدر الأم - نهديها - ليس جهازا للأمومة . وانما هو علامة من علامات الأنوثة . . . والجنس . فهذه الاستدارة المرنة .

وهذا البروز وهذه الحلمة غير الممدودة لا تجعل الرضاعة سهلة على الطفل . ويكفى ان ننظر الى زجاجات اللبن التي يرضع منها الطفل . . . فحلمة الزجاجاة طويلة ممدودة ولذلك يسهل على الطفل ان يرضع منها . ولو عرف الزجاجاة لرفض ثدي الأم . . . وتشبه هذه الزجاجاة النموذجية ثدي القردة . . . فثدي القرد مترهل يسهل على الطفل ان يمسكه . كما ان حلمة الثدي طويلة ممدودة تدخل بين شفثيه بسهولة تامة . بينما الطفل الانساني يجد صعوبة في وضع الحلمة في فمه . ولا يقوى على امساك الثدي بسهولة القرود . . . فكان ثدي المرأة خلق للرجل وليس للطفل ! . .

وهذا ملحوظة هامة وتحتاج الى تفسير جديد . فقد دلت الأبحاث على ان ٨٠٪ من الأمهات يضعن اطفالهن . . . الصغار أثناء الرضاعة على الذراع اليسرى . . . وقد يكون تفسير ذلك اننا نعتمد على الذراع اليمنى اكثر من الذراع اليسرى فتضع الأم طفلها على الذراع التي لا تستخدمها عادة .

واكن لوحظ ايضا ان ٧٨٪ من الأمهات اللاتي يستخدمن الذراع اليسرى يضعن الطفل أثناء الرضاعة على هذه الذراع اليسرى ايضا !!

اما تفسير ذلك فهو ان القلب على الجانب الأيسر من الجسم . وان الطفل وهو جنين قد اعتاد على سماع دقات قلب الأم . وعندما يولد الطفل عاجزا ضائعا في هذا العالم الكبير فان الأم تعيده الى جنبها الى حضنها كأنها تعيده الى أحشائها في ذلك المكان الأمين الذي يستمع فيه الى دقات قلبها من جديد . . . ودقات قلب الأم هي الصوت الوحيد الذي يجعله يشعر بالأمن فينام . والمرأة تفعل ذلك بالفريزة او نتيجة لمحاولات طولها عشرات الألوف من السنين .

وقد أجريت تجارب على اطفال صفار وضعوا في غرفة واحدة في الوقت الذي وضع جهاز تسجيل يذيع دقات قلب - اى ٧٢ دقة في الدقيقة - ف لوحظ ان الاطفال ينامون بسهولة . ولوحظ ايضا ان هؤلاء الاطفال يرضعون كثيرا . كما ان وزنهم قد زاد . . على عكس الاطفال الذين وضعوا معا بلا جهاز تسجيل في غرفتهم . فهؤلاء الاطفال يبكدون طاقتهم في البكاء .

وأجريت تجربة أخرى على ثلاث مجاميع من الاطفال : اطفال في غرفة بها جهاز يدق . ٤ دقة في الدقيقة . . وطفل في غرفة بها جهاز يدق ٥٢ دقة في الدقيقة . . والغرفة الثالثة بها جهاز مسجل عليه دقات قلب حقيقى . . ف لوحظ ان اطفال الغرفة الثالثة هم اسرع الجميع الى الهدوء والى النوم .

ولا بد اننا حين نتحدث عن ان الحب مصدره القلب وليس الرأس ، نشير الى ان هذه الحقيقة التى عرفناها أثناء الطفولة . . فنحن نشير الى الأمن والأمان الى جوار الأم . .

ولا بد أن تكون « مرجحة » الطفل . . وهددته حتى ينام . . سببها أن الطفل يستشعر خفقان قلب الأم . . ولا بد أن هذا هو الذى يجعله ينام . . وهذا الاهتزاز أو هذا الصوت الذى يسمعه يعيده الى هدوئه عندما كان فى بطن أمه . . وهذا ما نفعله نحن الكبار .

فلا يكاد الانسان يجلس الى مقعده حتى يحاول أن يتأرجح به . . او عندما نهز أرجلنا . . كل هذه محاولات لأن نهديء أنفسنا . . او محاولات لأن نعيد هزات وصوت قلب الأم .

وليس من الصدفة أن تكون كل الموسيقى الجديدة التى يستريح اليها الشبان هى موسيقى الدقات العالية . . دقات الطبول . . دقات القلوب المصنوعة من الجلد . . هذه الدقات تهز الأذن وتتأرجح لها المشاعر . . وقد اختار الشبان فى العالم اسما لهذه الموسيقى هو : موسيقى الخفقان . . موسيقى دقات القلب . . ومن الغريب ايضا ان الكثير من الشبان بعد حفلاتهم الموسيقية الصاخبة ينامون . . ولذلك يحرص هؤلاء الشبان على أن يناموا ثناء العزف الموسيقى . . ثم يصحون بعد ذلك بعد أن استراحت أجسامهم وأعصابهم ايضا . . ان هذه الموسيقى قد أعادتهم الى طفولتهم . . الى قلب الأم . . والى حنان النغم . . فناموا كأنهم اطفال صفارا كأن موسيقى الخنافس قد صدرت من قلوب الأمهات !

وبعد ذلك يتوالى نمو الطفل : بعد شهر واحد يستطيع أن يرفع رأسه اذا نام على الأرض . . وبعد شهرين يرفع صدره . . وبعد ثلاثة يمد يده الى الأشياء . . وبعد أربعة يستطيع أن يجلس فى حجر أمه . . وفى الخامس يمكن وضعه فى مقعد . . وفى السادس يمكن أن يجلس وحده وفى السابع يعتمد على أمه فى الوقوف . . وفى الثامن يعتمد على اثاث الغرفة فى الوقوف . . وفى التاسع يزحف . . وفى العاشر تساعد أمه

على المشى . وفي الحادى عشر يعتمد على أثاث الغرفة فى الوقوف . وفى الثانى عشر يستطيع أن يصعد السلم بيديه ورجليه وفى الثالث عشر يقف دون مساعدة . وفى الرابع عشر تجيء اللحظة الكبرى :

انه يستطيع أن يمشى دون مساعدة ! وفى هذه الأثناء يكون قد عرف الطفل بعض الكلمات . ويصبح قادرا على أن يحفظ بسرعة وفى السنة الثانية يعرف ٣٠٠ كلمة وفى الثالثة ٥٠٠ كلمة وفى الرابعة ١٦٠٠ كلمة . وفى الخامسة ٢١٠٠ كلمة وهذه مقدرة فذة عند الانسان انفراد بها عن كل الحيوانات الأخرى . وقد أجريت تجارب كثيرة على تدريب القروود على الكلام .

فمثلا : اتوا بقرد وجعلوه يعيش فى نفس بيئة طفل انسانى . وبعد سنتين لم يستطيع القرد أن ينطق أكثر من بابا . . وماما . . كوب . . وان كان الشمبانزى عنده مقدرة على تقليد الحركات ، فانه عاجز تماما عن تقليد الأصوات . على الرغم من أن الأجهزة الصوتية عند الشمبانزى أقوى من أجهزة الانسان . . ومعنى ذلك أن الجهاز الصوتى لا يكفى .

ولكن العقل هو الفارق بين الانسان والقرد . وهناك طيور أقدر من الشمبانزى على تقليد الأصوات .

فالببغاء يستطيع أن ينطق جملة طويلة ولكنه لا يستطيع أن يضيف كلمات أخرى ولا يستفيد من هذه الكلمات المحدودة التى عنده . . ولكن هذه اللغة ضرورية عند الانسان الذى كان يجب أن يخرج فى جماعات للصيد . وكان لا بد أن توجد هناك وسائل للتفاهم والتخاطب بين الصيادين . فاللغة ضرورية حيوية عند الانسان . . والطفل الانسانى ككل اطفال الحيوانات الثديية له صرخة معروفة هذه الصرخة قبل على أنه يشكو من ألم . وبعض الطيور لها صرخات أيضا ، والطفل الانسانى عندما يتألم أو يجوع أو نتركه وحده أو اذا ظهر امامه أو حوله شيء غير مألوف أو اذا سحبنا من تحته شيئا يستند عليه . . فانه يصرخ .

فهو يصرخ اذن بسبب : التعب أو الخوف . واذا صرخ الطفل الانسانى يجب أن يكون هناك من يساعده ويحميه . وفى هذه الحالة يجب الاقتراب منه وهزه هو أو السرير الذى ينام عليه . وصرخة الطفل توتر عصبى واحمرار فى الرأس ودموع فى العين ، وفتح للفم وسحب للشفيتين الى الخلف وتنفس مرتفع . وعندما يكبر الطفل فانه عندما يصرخ يتجه الى أمه ويتعلق بها . وكل هذه معالومات معروفة . ولكنها ضرورية لمشكلة أخرى سوف اعرضها حالا . . مشكلة الابتسام والضحك . . فالابتسام له علاقة بالصراخ . فالصراخ نداء الى شخص بعيد .

والابتسام حديث مع شخص قريب . وملامح الوجه عند الصراخ هى نفسها ملامح الوجه عند الابتسام أو الضحك : صراخ وفتح للفم وسحب للشفيتين الى الخلف وتقلص عضلى واحمرار فى الوجه .

واذا استطاع الطفل أن يميز أبويه في الشهر الثالث ، فإن البكاء يتحول الى ضحك . فالطفل الضاحك هو الذي يعرف أباه ، والطفل العاقل هو الذي يعرف أمه . وعندما يعرف الطفل أمه فإنه يخاف من الآخرين .

والضحك معناه أن الخطر ليس حقيقيا . وإذا عرف الطفل الضحك ، فإن الأم تستطيع أن تلعب معه دون أن يصرخ . .

وهناك أناس كثيرون إذا ضحكوا لا تعرف أن كانوا يضحكون أو يبكون . . فملامح الوجه واحدة . والصوت نفسه واحد . وإذا كنا نقول عادة : أن فلانا ضحك حتى بكى حينئذ ، فيمكن أن يقال عن الطفل : أنه بكى حتى ضحك . . فالطفل يبكي حتى يجيء أحد . فإذا جاء توقف عن البكاء . فإذا عرف هذا الذي جاء فإنه يبتسم . . ثم يضحك . . وكثيرا ما يتوقف الطفل عن البكاء فجأة ويضحك . . نفس الملامح مع خلاف بسيط في لمعان العينين . .

وعندما يعرف الطفل كيف يضحك فإنه يصبح لعبة الأبوين والأقارب . . ويدخل الطفل مرحلة هامة من حياته . . مرحلة الكائن الاجتماعي الصغير . .

والشبانزى يبتسم ويضحك ويلعب مع صفاره . . والشبانزى إذا ضحك فإنه يمد شفثيه الى الأمام . وهي قريبة من الضحك الانساني وعندما يخاف الشبانزى فإنه يسحب شفثيه الى الخلف ويكشف عن أسنانه . فالحيوانات تضحك وتلعب . والانسان برع الحيوانات كلها في اللعب وفي فنون اللعب . . وكلما كبر الانسان اتسعت امامه فرض اللعب بأنواعه المختلفة . . اللعب جسميا وعقليا وفنيا وإذا نحن نظرنا الى الشبان عندما يستمعون الى مطربهم الم محبوب . أو يتفرجون على العازفين الذين يعشقونهم . نجد أن هؤلاء الشبان يصرخون . ويشدون شعورهم ويدقون صدورهم . ويمسك الواحد منهم الآخر . . أنهم يصرخون كأنهم يتألمون مع أنهم سعداء . ولكن الانفعال اذا ما كان بالغ الشدة فإنه يتحول الى شعور بالآلام . . فصرخاتهم ليست استغاثة بأحد . وإنما صرخات بقصد تنبيه الآخرين الى أن هذا هو شعورهم واحساسهم . . وإنهم في شدة السعادة التي بلغت أقصى درجات الألم . . ولو اتينا بشاب أو شابة واجلسناهما مع المطرب الذي هو فتى أحلامها فإنها لا تصرخ ولا تشد شعرها ولا تدق صدرها . . فالصرخة ليس لها معنى هنا . لأن الصرخة نداء الى الآخرين . . لأن الصرخة . . لغة . . عبارة . . كلام لا بد أن يسمعه إنسان آخر . . أو آخرون ! . .

ومن العجيب أن الطفل الصغير يتوقف عن الصراخ في الشهر الثالث فجأة . . وسبب ذلك أن الطفل يكون قد عرف أمه . والأم الهادئة قادرة على تهدئة الطفل . والأم العصبية تجعل طفلها عصبيا أيضا . .

الأم التي تبتسم لطفلها فإنها تهدئه . ولكن اذا فوجيء الطفل بأن أمه تضحك بصوت مرتفع على غير العادة ، فإنه يرتبك ويضطرب ولا يعرف ما الذي تقصده أمه .

واذا الأم افتعلت ضحكة أو ابتسامة ، فإن الطفل يدرك ذلك أيضا ، ومن المستحيل خداع طفل صغير . وهذه حقيقة تعرفها الأمهات . وسبب ذلك أن الطفل جهاز شديد الحساسية شديد الملاحظة . وأنه إذا اعتاد على صوت ولهجة ونبرة وملامح الأم . فاذا تغيرت لآى سبب فإنه يدرك ذلك وبسرعة وبدقة ! والابتسام تفاهم متبادل .

ومعناه : لا خوف . وعند الشمبانزى علامات تدل على المودة . ولكن الابتسام عند الإنسان ميزة خاصة . ولكن لماذا انفرد الإنسان بالابتسام ؟ سبب ذلك أن جلدنا ناعم .

عريان من الشعر . فالقرد الصغير عندما يولد فإنه يتعلق بأمه . ساعة ولادته ويوما بعد يوم يظل القرد متعلقا بأمه . وعندما يتركها لأول مرة ، فإنه بسرعة يعود إليها ويمسك بها . فالقرد الصغير عنده طريقة للوصول الى منطقة الأمان . حتى عندما يكبر القرد ويزداد وزنه وتطرده أمه فإنه يعود الى صدرها يتعلق به . . . والطفل الإنسانى عندما يولد فإنه يكون عاجزا عن عمل شئ . وليس لديه شئ يمكنه أو يتعلق به . ولذلك لابد أن يعتمد على الأم نفسها . وعلى اقترابها منه ومعاملتها له . ويجب أن يصرخ حتى تجيء . والشمبانزى لا يحتاج الى هذه الصرخات . لأن أمه أمامه موجودة . أو لأنه يتعلق بها . ولذلك فالإنسان الصغير محتاج الى علامة الى إشارة تدل على أنه فى حاجة الى معونة ومحتاج الى إشارة أخرى ميفول أنه قد تحققت له المعونة وأنه استراح الى ذلك . . . والابتسام هو المكافأة التى يمنحها الطفل لأمه . . . فهو إذا ابتسم كأنه قال لها : شكرا . . . وإذا ابتسمت هى فكانها قالت له : عفوا !

وابتسامة الطفل فى الأسابيع الأولى تكون غير مركزة . . . انها ابتسامة عامة . . . ولكن بعد ذلك تصبح للطفل قدرة على التركيز : على عيني الأم . . . ولو قدمنا للطفل فى هذه المرحلة ورقة مرسومة عليها عينا . . . لابتسم لها أيضا . . . وفى الشهر الرابع تتركز نظرة الطفل على وجه الأم . . . وفى الشهر السابع يتصرف الطفل على أمه . . . وابتداء من هذا الشهر ينطبع فى نفس الطفل كل ما تفعله الأم حتى نهاية حياته . . . انه ابتداء من هذه اللحظة تتحدد مسئوليتها الكبرى

وتظهر عند الطفل نزعات عدوانية يصاحبها الصراخ المتقطع . وتقلص اليدين والرجلين . وأحيانا يبصق الطفل ويخربش . تكون هذه الحركات غير متناسقة أول الأمر .

وبعد ذلك تتركز على العدو . . . أو الشخص المخيف . وهذا يدل على أن الطفل بدأ يثق بنفسه وبقدراته .

وعندما يكون هناك أطفال كثيرون معا ، فإن استعدادهم للعدوان يكون اشد وأعنف . . . ومهمة الأم هنا هى تلقين الطفل وتدريبه وتعليمه وتصحيح سلوكه .

والطفل الانسانى يتعلم بالتقليد والتلقين . . وهذه موهبة لم تتطور عند الحيوانات
الآخري . .

ومن المؤكد أن كل تصرفاتنا هي ثمرات لبذور غرست في الطفولة .

ولكننا ننسى ذلك . . كل ما يفعله الانسان من تلقاء نفسه ويسمى ذلك سلوكا
اخلاقيا ، ليس في الحقيقة الا ما ترسب في نفسه منذ الطفولة . . ومن الصعب ان
نغير آثار الطفولة وآثار الغريزة أيضا . . كما أنه من الصعب أن نغير التقاليد والعادات
التي ترسبت في طفولة المجتمع الانسانى . فاذا ظهرت افكار جديدة تهز القديم ،
فان القديم يقاوم ويتحسس له الناس . لأن الجديد يريد أن يقتلعهم من طفولتهم
او يجردهم من تاريخهم . . ولكن الجديد يسود مع بقاء القديم أيضا . .

وهناك مجتمعات تجردت من كل القديم ، وتعلقت بالجديد . . هذه المجتمعات
انهارت وانحلت وابتمدت عن الرواسب القوية الأخلاقية والاجتماعية . وهناك
مجتمعات تجمدت طفولتها على ماضيها . . ولكن المجتمعات السعيدة — كالانسان
السعيد أيضا — هي التي تأخذ من الجديد ما ينفعها ، وتحفظ من القديم بما ينفعها
أيضا . . أى المجتمعات التي اكتسبت هذه القدرة المتوازنة بين الماضى الكريم
والمستقبل الباهر . . ولذلك كانت مهمة الأم صعبة . . كيف تغرس في نفس طفلها
ما هو نافع له وللناس ، وتبعده عن الذى يضره ويضر غيره . .

ولكن الانسان كائن محب للاستطلاع حتى ولو أدى ذلك الى ضرره . . يريد أن
يعرف . . أن يمد عينيه ويده . . وخياله . . ويلعب أول الامر ، ثم يحول اللعب الى
فن : رسم . . نحت . . تمثيل . . موسيقى !

القرود والسلسلة والقروداني

(٣)

كل الحيوانات الثديية عندها رغبة شديدة في أن تشمشم في كل ما تجده كأنها تريد أن تعرف : ما هذا ! ولماذا ! وهل الذي تجده شيء يصلح للأكل . والقرود هو أكثر هذه الحيوانات رغبة في الاستطلاع . أما الإنسان فهو أكثرها شراهة ويمكن أن يقال أن الإنسان حيوان « دباغ » أى يأكل أى شيء وفي أى وقت ..

وكلما أصبح الحيوان متخصصا في طعام معين ، أصبح عالمه ضيقا محدودا وفي نفس الوقت خائفا أيضا .. فالحيوان الذي يأكل النمل لا يرى إلا هذه الحشرة . وتصبح الدنيا من أولها لآخرها لا معنى لها إلا إذا كانت على شكل نملة .. وإذا اختفى هذا النمل لأى سبب مات هذا الحيوان ..

ولأن بعض الحيوانات تخصصت في بعض الطعام ، فإن الطبيعة قد أعطتها نوعا من الحماية . فحيوان القنفذ يستطيع أن يحدث أصواتا وضوضاء كما يحلو له وهو آمن تماما . لأن له درعا من الشوك يحميه من الأعداء .. لكن الحيوانات الأخرى التى ليست لها حماية يجب أن تكون في حالة يقظة مستمرة .. فالإنسان يجب أن يبحث عن طعامه في كل مكان ، وأن يكون البحث واعيا والامات .

والقرود عندها حب استطلاع شديد . تماما كالإنسان ، ولكن عندما تكبر القرود ، فإن هذا الاستطلاع يتوقف ، ولا يتطور على عكس الإنسان الذى يقوده السؤال الى جواب ثم الى سؤال آخر وهكذا ..

وهناك نوعان من السلوك عند الإنسان : حب الجديد والخوف من الجديد .. فكل شيء جديد ربما كان خطرا .

ولذلك يجب أن يقترب منه باحتراس وأن يبتعد عنه باحتراس أيضا ، ولكن إذا تجنبنا كل ما هو جديد أو كل ما هو مخيف فكيف نعرف أو كيف نتعلم أو كيف

نوسع مجال الاستطلاع عندنا من أجل العثور على الطعام والوقاية والدفاع والسيطرة ؟ هذه الرغبة في أن نعرف هي التي تجعل ما ليس مألوفا شيئا مألوفا ، وبذلك نكتسب تجربة جديدة ، وندخرها ونخزنها ونتذكرها فيما بعد ..

فالطفل الانساني يريد أن يعرف ، يمد يده الى كل شيء ، ويضع أذنه على كل باب ويلتقط كل ما يدور حوله ، ويجرب ، وقبل أن تصبح هذه الرغبة الشديدة عند الطفل شيئا خطرا يجب أن يتدخل الوالدان .. ونحن نقول عادة عن هؤلاء الأطفال الذين يستطلعون كل شيء بشراهة : انهم يتصرفون كالوحوش .. ولكن الأصح أن يقال : أن الوحوش هي التي تتصرف كالأطفال - أي عندما تحاول الحيوانات أن تعرف وترتقى بمعرفتها يختلط لديها الاندفاع بالاحتباس ..

ومن مظاهر الاستطلاع عند القرد وعند الانسان أيضا : اللعب ، فاللعب عند القرود يشبه اللعب عند الطفل الانساني ، فالصغار عموما يحبون الشيء الجديد ، يمسكونه ، ويرمون ويكسرونه ، ويخترعون اشكالا جديدة من اللعب وليست لديهم قدرة على التركيز ولا قدرة على أن ينقلوا الى آرائهم معنى الألعاب أو الحركات التي اكتشفوها . أما الطفل الانساني فيستطيع الى حد ما ، والفرق بين القرد الصغيرة والأطفال الصغار : أن القرد كلما كبرت قويت عضلاتها والأطفال الصغار كلما كبروا قويت عقولهم ..

وإذا اعطينا القرد الصغير ورقة وقلم ، فانه يمسك القلم ويرسم به على الورق ، وعندما ينظر الى ما أحدثه القلم على الورق يفرح به .. فهذه الخطوط شيء جديد ، ويظل يرسم بالقلم على الورق ، وأحيانا يرسم دوائر ناقصة .. وأحيانا خطوطا متقطعة .. أما الطفل الانساني فيتهدى الى الدوائر والمربعات .

والأطفال والقرود يحبون الخبط والرقع .. أي يحبون أن يلعبوا بالاشياء التي لها صوت ، وكلما كان الصوت مدويا كان تعلقهم بهذه اللعب أكثر .. يحبون البمب .. والبالونات ومسدسات الفل ..

والطفل الانساني عندما يبلغ الثالثة من عمره يعرف كيف يرسم الدائرة ، ويرسم الوجه الانساني وذلك بأن يجعل له عينين وفما وأذنين .. ثم يجعل الذراعين والساقين تخرج من الرأس ..

وهذه مرحلة استكشاف واكتشاف أيضا ، فالطفل يستكشف قدراته على اللعب ، ويكتشف انه قادر على أن يلعب ، ولكنه لا يقدر على أن ينقل هذا الذي يمارسه الى والديه فيقول لهما ما الذي صنعه أو اهتدى اليه ، وإنما هو يرسم فقط .. انه كالذي وجد قرشا على الأرض . وراح يلعب به فقط ولكن لا يعرف أن كان هذا القرش له معنى آخر .. أو يستطيع أن يشتري به أي شيء .. أو بعباره أخرى : أن القرش لعبة ، أي انه يساوي ثمنه لعبا ، أي أن اللعب لذة مدفوعة الثمن فورا . فهو في مرحلة اللعب لمجرد اللعب .

وفي عالم الأصوات : لا نجد أن للقرود الصغير أو الكبير تجارب في عالم الصوت ، فهو غير قادر على ان يكتشف شيئا جديدا ، ولا أن يقوم بتركيب كلمات أو حروف ، ولا هو قادر على التلاعب بالحروف والكلمات ، كما يفعل الأطفال عندما يكتشفون قدرتهم على الكلام ، فانهم يفرحون باختراع كلمات أخرى : أى بقلب الحروف ولخبطتها .. انها مهارة جديدة اكتشفوها في انفسهم .. وان كانت القرود لها أصوات معروفة ثابتة .

وان كانت لها أيضا عادة دق الأرض بالأرجل والأيدي للتعبير عن الضيق أو الفرح ، ولكنها دقات معروفة محدودة ، كما أن القرود في بعض الأحيان تنفخ في الأجسام المفرغة الجوف .. ولكن القرود لم تستطع أن تجعل الشيء المفرغ عودا أو قيثارا ، ولم تجعل لهذه الأصوات قواعد ومعنى .

ولم تحاول القرود أن تجعل فرحتها منظمة .. أو حركاتها مدروسة كالرقص عند الإنسان . أو كالألعاب الرياضية .. فالرياضة هي حركات ذات إيقاع ، هذا الإيقاع متنوع من لعبة الى لعبة ..

حتى الكتابة هي أيضا نوع من الرسم ، فالحروف عبارة عن رسوم والكتابة أصلها لعب أيضا .

وعن طريق هذه الاكتشافات نقلنا أفكارنا الى غيرنا ، ونقلنا أفكارنا من جيل الى جيل ، وأصبح لنا تاريخ مشترك . ثم وضعنا لكل هذه الألعاب قواعد ..

ولا شيء جديد في عالم الحيوان .

ولكن الجديد في عالم الإنسان .

فهو دائما يبحث عن الجديد ويتمسك به ، فاذا أصبح مألوقا اتجه الى غيره ، ولو وقفنا عند الذي نعرفه لتجمدنا وليس الجديد فقط في خطوط الأزياء والتسريحات والسيارات والأثاث ، ولكن الجديد في أساليب التفكير نفسه فالبحث عن الجديد والبعيد هو جوهر الحضارة الإنسانية .. وهو الفارق بين الإنسان والقرود ، أو بين القرود العريان والقرود ..

واذا رجعنا الى لعب الأطفال لوجدناه موجهة الى الآباء في أول الأمر ، فالأب يلعب طفله ، والطفل يلعب والديه ، وعندما يكبر الطفل ، فإن اللعب يتجه الى غيره من الأطفال .. أى يكون للطفل نشاط اجتماعي ، فيكون للطفل شلة من الأطفال يلعبون معا ، وهذه مرحلة دقيقة جدا في حياة الطفل وسوف يكون لها أثر خطير في حياته ، فالطفل الذي يحاول أن يعزف على الآلات الموسيقية ويفشئل وهو صغير ، سيجد صعوبة شديدة في محاولة ذلك عندما يكبر والطفل الذي يفشل في أن يكون له أصدقاء وهو صغير ، ستصبح الصداقة صعبة عليه عندما يكبر . وإذا كانت علاقة الطفل بالأشياء المادية كالبيانو أو كالتاي صعبة في الطفولة ، فإن علاقته بالأطفال سوف تكون أصعب وأعقد .

والطفل الذى انعزل عن مجتمع الأطفال ، أى الذى ليست له علاقات اجتماعية ، سيجد نفسه فى وضع سيء وسوف تكون علاقاته الاجتماعية معقدة ومرهقة أيضا . . ومن التجارب التى أجريت على القروود مثلا : اننا اذا عزلنا قردا من القروود الأخرى . . سنة وراء سنة ثم أثينا له بعد ذلك بقروود فانه يظل عاجزا عن المشاركة معها فى اللعب أو اللهو حتى فى الجنس . . بل انه يفقد رغبته الجنسية تماما ، وقد لاحظ العلماء ان القروود التى تنعزل طويلا اذا وضعت فى مجتمع القروود فانها تقف الى جوار الحائط وتدق الأرض برجلها . . وأحيانا تخفى وجهها بيديها . . كأنها فى حالة خوف أو خجل أو عجز عن الاشتراك فى أى عمل جماعى . .

وتربية الطفل لها جانبان : تربية داخلية وتربية خارجية ، ولننظر ماذا يحدث فى عالم القروود : فالأم تترك طفلها يتعلق بها ، فاذا خاف عاد اليها فالأم تحميه بحنانها وترضعه مكافأة على سلوكه الذى لا يضره ، وهذه هى مرحلة الأمان عن طريق الحنان ، أما عندما يكبر القرد فان الأم تطرده بعيدا عنها ، لكى يشترك مع القروود الأخرى فى اللعب فاذا عاد اليها فانها تضربه وتقسو عليه . . كأنها تريد أن تقول له : انك كبرت على حضن الأم ، فابحث لك عن حضن آخر ، وفى هذه المرحلة نجد الأم اقل حبا لطفلها ، ولا تنطلق لحمايته الا فى حالة الخطر الشديد أما اذا لم يكن هناك خطر ، وجاء طفلها الصغير يتعلق بها فانه تطرده وتضربه ، وبعد ذلك يتعلم القرد الصغير أن يبعد عن أمه ، وأن يدافع هو عن نفسه . .

وكذلك الطفل الإنسانى تماما ، اذا لم تحسن الأم تربية طفلها فى المرحلتين فان النتيجة سوف تكون سيئة وقاسية . .

والطفل الإنسانى الذى يفقد الحنان وهو صغير ، ثم أصبحت له علاقات اجتماعية بعد ذلك ، فانه سوف يكون عاجزا عن تعميق هذه العلاقات الاجتماعية . . واذا عرف الحنان فى الطفولة وعرف الحماية الزائدة والعناية البالغة فمن الصعب عليه أن يجد الشجاعة على خلق علاقات اجتماعية جديدة ، وانما سيظل كالطفل متعلقا بأمه . .

ولا يريد احدا آخر غير الأم ، فاذا فقد الأم فانه يظل يبحث عن الأم أو بديل عن الأم . . وسوف يصدمه المجتمع لأنه بطبعه قاس ، ولأنه ليس اما لاحد . . والإنسان الذى يخاف من المجتمع يكون انسانا انسحابيا أو هروبيا ، وهذا الإنسان الهروبى لا يريد أن يعرف شيئا جديدا ، لان الجديد مخيف وهو لا يريد أن يخاف .

فالذى يعرفه احسن ، وهو لذلك ليس اجتماعيا ، ولا يحب أن يكون وقد يكون له نشاط جسمى ، ولكن نشاطه يجب أن يكون متكررا ، أى لا يأتى بحركات جديدة ، وانما هو أسير العادة التى استراح اليها .

بل اننا نجد الكثيرين من الهروبين لهم حركات ثابتة . . يهزون رؤوسهم أو أيديهم أو أرجلهم بصورة متكررة أو يرضعون أصابعهم ، وتكون لكل واحد منهم

« لازمة » .. لماذا ؟ لأن هؤلاء الهروبيين قد وجدوا البيئة مخيفة ، معادية ، لا ترحب بهم ، ولذلك وجدوا الراحة في أن يجعلوا سلوكهم مألوفا ، مألوفا أكثر من اللازم .
أى جعلوا أنفسهم مفهومين .. عاديين .. لا يخاف منهم أحد أولا يلتفت اليهم ..
ومن الممكن أن تلاحظ ذلك في الناس الذين حولك . فالذى يقول عبارات واحدة لا يغيرها في الرد على كل شيء هو انسان (عادى) — أى يجعل العادة تتحكم فيه .
حتى أصبح هو نفسه (عادة) اجتماعية ، لا يخيف أحدا ، ولا يخاف من أحد ،
وهناك مثل شعبى يقول : آفتى : معرفتى ، وراحتى أما 'عرفش — ومعناه انه لا شيء يخيف أكثر من المعرفة ، ولا شيء يريح أكثر من الجهل ! ..

ولابد أن يكون المثل الأعلى عند هذا الطراز من الناس هو أن يأتى بالافعال الرتبة .. مثل دقات القلب فدقات قلب الأم تريح الطفل . وكل عمل يكون متكررا على شكل دقات القلب هو شيء مريح أيضا . أو هو شيء يجعلنا نخفف من حدة التوتر .

وفى استطاعتك أن تلاحظ من ينتظر مكالمة تليفونية انه يدق بأصابعه بشكل منتظم أو يهز قدميه .. أو يتحرك فى الغرفة .. والطالب اثناء الامتحان يضع القلم فى فمه .. أو يلعب بشاربه .. ويكون ذلك بايقاع متكرر مثل دقات القلب ..

وهذه الحركات .. أو هذه (اللازمة) لها فائدة : فهى تساعدنا على احتمال الشيء الجديد الذى تنتظره فى خوف .

واذا نحن أسرفنا فى استخدام هذه (اللازمة) فانها تصبح فكرة متسلطة علينا .. أى اننا نضع القلم فى أفواهنا دون أن يكون هناك امتحان .. أو نروح ونجىء فى الغرفة من غير مناسبة .. من غير أن تكون لنا قدرة ارادية على ضبط هذه الحركات والتوقف عنها ! ..

وهذه (اللازمة) تولد من الملل .. وإذا ذهبنا الى حديقة الحيوانات وجدنا الحيوانات منعزلة فى أقفاصها الخديدية .. وهى منعزلة عن العالم الواسع . وعن العلاقات الجماعية .. أى عن الاتصال بالحيوانات الأخرى ، فهى فى حالة انسحاب وانزواء ، كأنها هربت من الحيوانات الأخرى ، أو هربت منها الحيوانات الأخرى .

ومن الأفضل أن ننظر لأنفسنا ونحن نقف أمام أقفاص الحيوانات .. ان هذه الأقفاص الحديدية تشبه الموانع النفسية الشديدة التى نحيط بها أنفسنا ونسحب وراءها ، وننكمش وننطوى ونتوقع ، ونجتري تجاربنا ولا نضيف الى أنفسنا شيئا اجتماعيا جديدا . وانما نفرز من أنفسنا نسيج دودة القز ونتوارث وراءها .. أو نندفن ، ومن مظاهر هذا السلوك الانسحابى عند الحيوانات : انها تدور حول نفسها وتثير نفسها جنسيا .. والانسان يفعل ذلك أيضا فى المعسكرات والسجون والمستشفيات والأقسام الداخلية للمدارس ، ونجد القروء تلعب فى أذنيها بأعواد الشجر ، ونجد الفيل واقفا فى مكانه يهز رأسه يمينا وشمالا ساعات طويلة ، وبعض الحيوانات تشد شعرها ، أو تعض نفسها أو ترضع ثديها .

وقد يكون السبب أيضا هو التوتر الشديد أو تكون النشأة غير السليمة .

يمكننا ان نقوم بتجربة بسيطة وذلك بأن نلقى شيئاً في قفص قرد اعتساده ان ينعزل فان هذا القرد لا يحاول ان يتجه الى هذا الشيء الذى القيناه في قفصه ، ومعنى ذلك أنه لا شيء يشيره اى لا شيء جديد يشيره .. واذا كان الحيوان لا يلتفت الى الشيء الجديد ، فلن يعرف شيئاً واذا كان الانسان لا يشيره الشيء الجديد ، فسوف يظل محدود الملم ويكون بذلك اقرب الى الحيوان .

واذا ذهبنا الى حديقة الحيوانات يجب ان نتذكر المدن الانسانية التى نعيش فيها ، انها ايضا مثل حدائق الحيوانات : كل انسان له قفص ، هذا القفص من اعواد حديدية ، هذه الأعواد هى الممنوعات النفسية والاجتماعية وهى تحصرنا وتعصرنا ..

والصحة النفسية والاجتماعية انما تتحقق اذا ما نحن ركبنا عربة يجرها حصانان : أحدهما حب الجديد والآخر الخوف من الجديد .. والعقل الانسانى قد علمنا ان نتجه الى الجديد ، بخوف .. او على الأصح باحتراس . واذا كان الانسان قد مات بسبب رغبته فى المعرفة . فان الانسان حى لأن بعض الناس مات من اجل ان يعيش غيره ليعرف اكثر واكثر ..

واذا نحن نظرنا الى (القرداتى) فماذا نجد ؟ نجد قرداً مربوطاً فى سلسلة واذا وقف القرداتى ونحن أيضاً وجدنا القرد يأتى بحركات من الشقلبة والرقص ، ومعنى ذلك ان القرداتى قد علم القرد ان يأتى بهذه الحركات . اى ان القرد مربوط بسلسلة اخرى هى : العادة على اتيان هذه الحركات ..

فكان القرد مشدود بسلسلتين واحدة تراها وواحدة اخرى لا تراها ولكن هناك سلسلة اخرى تشد القرداتى الى القرد : فهذا الرجل يعيش فى عالم محدود ، علم القرد ويمشى فى اماكن محدودة ، ويعود الى بيته ويجلس الى جوار الحائط ولا ينام الا والقرد الى جواره والا على صوته ، ولو قطع القرد السلسلة وهرب لاحس الرجل ان قلبه هو الذى انقطع .. فإى الاثنين هو القرد ؟ انهما هو المربوط بالآخر .. من المؤكد ان القرد هو المربوط فى الرجل ، ومن المؤكد أيضاً ان هذا الرجل العاقل مربوط من القرد .. وبالقرد ..

فليست الحيوانات هى وحدها المحبوسة فى اقفاص ، وليس الانسان هو الذى يذهب الى الحديقة ليتفرج على القروء .. انها أيضاً تتفرج عليه وعلى قيوده التى لا يدري بها ! ..

فكما ان هذا الرجل اسمه (قرداتى) فهذا القرد اسمه « انساناتى » !
وكلنا كذلك ! ! !

لولا سلامة سبوحك

(٤)

لسببين يعتدى حيوان على آخر : دفاعا عن الأرض التى يعيش عليها ، أو حرصا على السلطة التى يتمتع بها فى القبيلة أى أنه يدافع عن السلطة أو عن اللقمة .

وهناك حيوانات تدافع عن الأرض ولا تهمها السلطة .. وحيوانات تدافع عن مركزها ولا تهمها الأرض . أما الإنسان فإنه يدافع عن الأرض والعرض والسلطة .

وفى جبلاية القروود نجد أن القرد الأقوى هو الذى يسيطر . أما قوته فهى فى عضلاته أو فى حيويته . فإذا كانت حيويته هى مصدر قوته فإنه يعتلى كل الأثاث وكل الذكور أيضا . ولكنه عندما يأكل يكون سخيا يترك طعامه لغيره من ضعاف الجبلاية !

وكما تطور الإنسان فى علاقاته الجنسية فأصبحت له أنثى واحدة ، تطور أيضا فى ممتلكاته . فكل واحد له شئ يملكه : أرض أو بيت . وقد وصل الإنسان الى هذا الوضع منذ كان الأقوياء من الرجال يسافرون بعيدا للصيد . وكانوا يتركون بيوتهم وأولادهم . ولذلك كان لا بد أن يتفقوا على قاعدة يحترمها القوى والضعيف وخصوصا الضعيف عندما يغيب القوى . وإذا كان القانون يحمى الضعيف من القوى ، فكأنه يحمى الأقوياء - وهم أقلية - من الضعفاء وهم الأغلبية الساحقة ..

وعندما يشعر الحيوان برغبة فى العدوان فإن تغيرات هائلة تجرى فى داخله . هذه التغيرات هى نوع من التعبئة العامة لكل قوى الحيوان المختزنة ويأخذ هذا الاستعداد شكلين : قوة تدفعه الى الهجوم وقوة أخرى تسحبه وتمسكه . قوة تقول له تقدم . وقوة أخرى تقول : حاسب !

ومن هذا الصراع فى داخله يتقرر موقف الحيوان .

ولكن عندما يتهيا الحيوان للهجوم يفرز الجسم مادة الادرنالين في الدم وتنشط الدورة الدموية كلها .

فالقلب يدق بسرعة . وينسحب الدم من الجلد والأحشاء الى العضلات والمخ . ويرتفع ضغط الدم . وتزداد الكريات الحمراء . وتصبح للدم خاصية التجلط بسرعة . ويتوقف الهضم . ويجف اللعاب . ويتوقف نشاط المعدة تماما وحركة الأمعاء . ويصعب على الحيوان أن يتبول . ثم أن الكبد تفرز السكر في الدم . وينشط الجهاز التنفسي . ويقف الشعر ويتبلل بالعرق . وبسرعة السحر يختفى التعب . ويحشد الجسم كل قدراته من أجل البقاء . والدم يندفع الى الأماكن التي تحتاج اليه . وإلى المخ لكي يتمكن الحيوان من تقدير الموقف . كما أن سرعة التجلط معناها أن أى جرح سوف يجف بسرعة وبذلك لا يضيع الدم عبثا . ونشاط الرئتين معناها أن الحيوان يسحب كميات كبيرة من الأوكسجين . ووقوف الشعر يعرض الجلد للهواء الذي يقوم بتبريد هذا الجسم الملهب . ولذلك لا يكون هناك خوف على الحيوان من درجات الغليين التي يعمل إليها !

وكما ارتقت الحيوانات أصبحت لها عادات وتقاليد أو طقوس في التهديد . فالحيوان يتقدم ويتأخر ويدور وينحني . وهذه الحركات تبين كيف استعداد الحيوان للمعركة ، وهى في نفس الوقت تخفف من حدة الحيوان . . وكثيرا ما انتهت هذه الرغبات العدوانية عند هذا الحد !

وإذا انسحب الحيوان من المعركة بلا قتال أو بقتال ، استعداد جسمه نشاطه العادى . . فريقه يجرى وبوله أيضا !

والتبول عند الحيوان له دلالة خاصة عند الثدييات : فالتبول دليل على أن هذه المنطقة التى يتبول فيها خاصة به . فهو يترك أثره فيها . والكلاب عندما ترفع رجليها عند أحد أعمدة النور ، فهذا هو المعنى . وإذا كانت الكلاب تفعل ذلك بأسرافه فى المدن ، فلأن فى المدن عددا كبيرا من الكلاب . وهذا يثيرها ويدفعها الى أن يحدد كل كلب مكانه وأرضه ! وقد اكتسب السيد قشطة عادة أخرى : فله ذيل عريض ، وهذا الذيل يتحرك بسرعة يمينا وشمالا ينثر مخلفاته على أوسع نطاق ممكن . وبذلك يحدد الأرض التى تخصه . وبعض الحيوانات لها غدد تفرز رائحة كريهة . هذه الروائح هى انذار لكل الحيوانات الأخرى : هذه أرض تخص حيوانا آخر . . فاحترس !

وبد اتخذ التهديد شكلا صوتيا آخر عند بعض الحيوانات : النباح والعواء والفحيح والزئير . . وأحيانا الانتفاخ : عند الطيور فلها أكياس هوائية تجعل حجمها أكبر وشكلها مخيفا !

وهناك اشارات للتفاهم بين الحيوانات : فعندما يقف الشعر يدرك الحيوان الآخر أن هناك خطورا .

ولذلك فالديك له عرف والأسد له معرفة تجعل الرأس أكبر . . . وكذلك العرق
عند الحيوانات تكون له رائحة خاصة تؤكد النزعة العدوانية . . .

كل هذا يحدث للحيوانات داخليا أما التغيرات الظاهرة فهي ان عضلات
الحيوانات تكون في غاية القوة والمرونة فالحيوان يروح ويجيء ويدور وبعض
الحيوانات لها طقوس في الرقص .

رقصة القتال . أو رقصة الحرب .

فالحيوان يدور حول الحيوان الآخر . وحول نفسه . وهذا الدوران معناه ان
هناك توازنا بين رغبته في العدوان وبين رغبته في الامتناع عن ذلك . . . وخصوصا
عندما يلوى جسمه ويحنى رأسه ويدق الأرض بقدميه !

وأحيانا نرى نوعا من التراجع أو المراجعة . ولذلك يقوم الحيوان بحركات
غريبة لا علاقة لها بالعدوان كأن الحيوان قد وضع « غله في شيء آخر » فيأكل مثلا
أو يهرش في جسمه . . أو ينظف فروته أو يجمع الأعشاب أو الأخشاب كأنه يبني
عشا وهميا . وبعض الحيوانات تنام فجأة . . أو تتشاءب وتمدد . .

بعض العلماء يقول : ان الحيوان اذا اكل فهو جائع حتما . . واذا هرشن فان
حشرة تلسعه . ومن الطبيعي ان يجوع الحيوان عندما تنبدد طاقته الهائلة في حالة
التعب أو العدوان !

ولكن هذه الحركات التي يأتيها الحيوان ليست الا محاولة لتخفيف درجة
التوتر . أو ليست الانوعا من الانسحاب . وقد ينتهي الموقف هكذا . وينصرف كل
حيوان الى سبيله . . ولكن اذا فشلت هذه الحركات في تهدئة الحيوانات كأن تكون
قطعانا كسرة . وكان يكون هناك زحام على الأرض والطعام والسيادة استخدمت
الحيوانات انيابها وأظفارها وقرونها . . وذيلها يكون كالكراباج . .

ولكن من النادر ان يقتل الحيوان حيوانا آخر . ومن النادر ان يقتل حيوان
ما بفعله مع فريسته . فالأسد اذا التقى بأسد فانه يضربه ويجرحه ولا يقتله
ولا يأكله . . اي ان الأسد لا يقتل الأسد كما يفعل بفريسته من الغزلان . . فاذا
انتصر الأسد القوى على الأسد الضعيف اكتفى بهذا النصر . وتركه : أما المهزم
فعليه ان يؤكد انه انهزم ! وعليه ان يهرب اذا استطاع .

وهناك لغة للتفاهم بين الحيوانات : فمن بينها ان ينكمش المهزوم وأن ينم على
الأرض ويحنى رأسه ونغمض عينيه ولا يزار . . وأحيانا نجد الحيوان المهزم
يعرض جسمه للحيوان المنتصر . كأن يقدم له احدى يديه . . وقد ينقض الحيوان
المنتصر فيعض يد خصمه . أو يضربها . أو يكتفى بهذا الاستسلام .

وبين القروود نجد الشمبانزي بمد يده كأنه يتسول . . وخصوصا الاناث ،
والاناث تعطى نفسها للذكر . وفي هذه الحالة يتم الاستسلام والسلام وينحسم
الموقف والذكور الضعاف تفعل ذلك ايضا !

وهذا هو قانون الغابة : الحيوان يهزم الحيوان ولا يقتله . وإذا استسلم له تركه . وانتهى الخلاف . .

وكل هذه التغيرات الداخلية تحدث للانسان . مع فارق أن كل هذه الاضطرابات تبدو على وجهه . وهذه مزايا القرد العريان - أى . . الانسان .

فوجهه يصفر ويحمر . . من الغضب ومن الخجل . أما شعر الانسان فلا يقف . . رغم أننا نستخدم هذا التعبير !

وعند الغضب تنحني الذراع وتجتفع أصابع اليد على شكل قبضة وهذا استعداد من بعيد . أو تهديد من بعيد . وأحيانا نضرب المنضدة أو الحائط أو نضرب رءوسنا . ولكن ما نزال على مسافة من الخصم .

وكثيرا ما توجه هذا الغضب الى الشخص الذى جاء يخلصنا .

ولذلك نقول : ما ينوب المخلص الا تقطيع هدومه . . والسيدة التى تكسر الأطباق فى حالة غضب مع زوجها ، لم تقصد تحطيم هذه الأنية وإنما هى تقصد أن تحطم رأس زوجها ! وهذا بالضبط ما تفعله القروء فى حالة الغضب تحطم الأغصان والثمار وجدران القفص !

والسلام باليد هو نوع من الاستسلام . فالذى كان فى نيته أن يضرب بيده يجدها مفرودة . وأصابعه متراخية . وهى عملية تحويل الغضب الى تهدئة . . وهدوء . وكذلك « الطبطة » على الكتف تهدئة أيضا . وخلع البرنيطة عند السلام تشبه الديك عندما يخفض « عرفه » والأسد عندما يخفض شعر رأسه . . وخلع البرنيطة مع انحناء الرأس يجعل جسم الانسان أقل طولا ، وأقل صلاية . . على خلاف ما يحدث عند العدوان أو القتل . وعند العدوان نبهلق فى الخصم . فإذا أغمضنا العين أو نظرنا الى الأرض كنا بذلك نهديء أنفسنا أو نعلن أن الحالة لم تعد فى حاجة الى الخذر والترقب . ونحن فى حديثنا العادى لا ننظر الى الذين نتحدث اليهم طوال الوقت ، وإنما فقط فى نهاية كل جملة لنعرف وقع الكلام . .

وكذلك وضع النظارة السوداء على العينين يجعلنا نبدو متربصين أو عدوانيين . ولذلك فالذى ينظر إلينا من وراء منظار يجعلنا نشعر بأنه ليس وديا . . فالنظارة عبارة عن عينين مفتوحتين بلا أجفان ولا رموش !

وقد اكتسبت بعض الحشرات مثل هذه النظارات . . أو مثل هذه العيون نجد أن العيون مرسومة على أجنحة الحشرات . فإذا أحسنا خطرا نشرت أجنحتها فظهرت هذه العيون لامعة باهرة رهيبة تخيف أعداءها !

وبعض الأسماك لها أيضا هذه العيون وكذلك الطيور . ونحن نستخدم الاقنعة ذات العيون . وبعض شركات السيارات تجعل المصابيح الأمامية ذات اشكال مخيفة . وهذا ضرورى فى الزحام فى المدن .

بل ان الشركات لم تكتف بهذا « العيون المخيفة » وانما جعلت للسيارات أسماء مخيفة ايضا !

ولذلك فالسلام باليد هو اعلان وقف اطلاق النار من العينين وتجيء القبلات بعد السلام .. كما نفعل مع رجال الدين او الآباء ، أما تقبيل يد السيدات فله معنى آخر : فالرغبة العدوانية الجنسية قد تحولت الى مجرد لمس اليد باليد وبالشفنتين - أى الحد الأدنى من تحقيق رغبتنا الخفية !

ومن الغريب ان الأحاديث بين الرجل والمرأة تتخذ شكلا « طفوليا » .. فيتحول الرجل الى طفل .. او يقول كلاما مثل كلام الأطفال فيكون ضعيفا بطيئا مثيرا للشفقة . أى انه يحول نزعاته العدوانية الى نزعات استسلامية او سلامية .. ويتحول الرجل والمرأة الى أسلوب الحمام . فيشرب الواحد من كوب الآخر .. او يمسك الواحد بمنقار الآخر : وهذا نوع من التقبيل !

والمثل الذى يقول : لولا سلامك سبق كلامك لاكلت لحمك قبل عظامك مثل سليم وصحيح .

أما « الطبطبة » فلها معنى آخر : نحن نجد عند القردة ان القرد الذى انهزم او استسلم يقترب من القرد الآخر « ويفليه » . وهذه « التفلية » تهدى اعصابه . وكذلك الطبطبة هى نوع من الاقتراب البريء .. وقبول لهذا الاقتراب . فلا خوف ولا عدوان !

وفى مواجهة العدوان او الغضب نقوم نحن بأعمال أخرى لا علاقة لها مطلقا بالعدوان . مثلا نشعل سيجارة . او نمسح النظارة . او نلعب فى شواربنا او ننظر الى الساعة او نحرك عقاربها . او نرتب الأوراق التى أمامنا او ننظر من النافذة . او نطالب أى رقم فى التليفون . او نقضم أظافرنا بأسناننا او نقططق أصابعنا .. وكل هذه التصرفات معناها أننا نريد ان نهدي التوتر العام بيننا وبين خصومنا .

ونحن قادرون على الكذب بعلامتنا ولكن لا نقدر على الكذب بانفعالاتنا او بهذا النشاط الفسيولوجى فى داخل الجسم . وهناك كذابون محترفون : الممثلون . فهم قادرون على الكذب بالملامح وعلى توجيه نشاط الجسم وجهة أخرى لا نقدر نحن عليها فى ظروفنا العادية .

والانسان لانه يحرص على ان تكون له أرض خاصة وبيت خاص وزوجة خاصة . وان يكون خاصا فى كل مكان يشغله ، نجده يضع صورة أولاده على مكتبه او صورة زوجته . وكذلك يحرص على أن يضع فى سيارته نوعا من العرائس او الزينات لكى يجعل سيارته مختلفة عن السيارات الأخرى .. ملايين السيارات الأخرى التى تشبهها . وكذلك السائق الذى يضع عبارات على سيارته من الخلف ومن الجاء اب . انه يريد ان يجعلها مختلفة عن السيارات الأخرى .. واذا سأله : لماذا ؟ قال لك : انها هكذا الطف واجمل .

ولكن هذا الجواب ليس صحيحا . وانما الصحيح انه يريد ان يجعلها مختلفة . يريد ان يجعلها خاصة به . . ومن الضروري ان نتذكر هنا ما تفعله الكلاب على أعمدة النور . نفس الموقف وان كان الأسلوب مختلفا فكلاهما - كلانا نحن والكلاب - يريد ان يؤكد انه هنا . . وان هذا المكان خاص به وحده . وانه مضطر ان يفعل ذلك في مواجهة الزحام الشديد بين الناس والكلاب !

وهناك تصرفات يومية بسيطة ولكن معناها أبعد مما نتصور . . مثلا عندما تكسر اشارة المرور . ويدركنا عسكري المرور . فما الذى نفعله ؟ الأفضل ان نتحدث الى عسكري المرور وانت في سيارتك . أى فى مكانك . فى أرضك . فى بيتك . هذا يعطيك شيئا من الطمأنينة . وفى هذه الحالة يحسن ان تجعل أسلوبك متوسطا لطيفا . سوف يجرى العسكري اليك . . أى الى حدود مملكتك . . وهو مضطر ان يحول هذا الاقتراب العسكروانى الى اقتراب ودى . وبذلك تكون انت وديا وهو أيضا . ولذلك يمكن تسوية الموقف لصالحك . ولكن اذا نزلت من سيارتك ، أى تركت أرضك . وذهبت الى أرضه . فالموقف فى يده . وهو سيده . . والنتيجة ضدك عادة !

وقد تطورت وسائل الاقتراب من أرض أعدائنا . . ومن أعدائنا فكان لا بد ان يقترب الانسان من عدوه جدا ليشتبك معه ثم اخترع السهام والنبال ، فأصبح فى الامكان قتله عن بعد . . والآن تحولت السهام الى صواريخ وقنابل وفى هذه الحالة نحن لا نصيب العدو وانما نقتله . . اما الحيوانات فهى تهزم عدوها فقط . .

محتويات الكتاب

مقدمة : أحبك .. أحبك

[illegible]

١٦٥ - ١٥٨	العلاقة التي يمسكونها بأوراق الورد
١٧٥ - ١٦٦	السويد : قاع الحرية
١٨٢ - ١٧٦	مرحبا بها الجنس الثالث
١٩٠ - ١٨٣	في القرن الواحد والعشرين
٢٥٢ - ١٩١	أجمل وأقسى ما خلق الله
١٩٨ - ١٩٣	النساء شياطين أو رياحين خلقن لنا
٢٠٥ - ١٩٩	المحبون ليس لهم قوام مشدود
٢١١ - ٢٠٦	ومن الذى يعجن الأطفال ؟
٢١٧ - ٢١٢	إذا وجدت في المرأة رجلا فلا تخافى
٢٢٤ - ٢١٨	المرحلة التي يسمونها : أموت في نفسى
٢٢٩ - ٢٢٥	حريتها مثل ضفيرتها : تقصها وتبكي عليها
٢٣٦ - ٢٣٠	كانوا يزوجونها أصبحت هى التى تتزوج
٢٤١ - ٢٣٧	الزوجة من صنع الرجل : نظرية قديمة
٢٤٧ - ٢٤٢	الأمومة مثل الحب ولكن بلا مقابل
٢٥٢ - ٢٤٨	أشياء تقدمها المرأة ولا تجد من يراها
٢٨٤ - ٢٥٣	قروود في كل مكان
٢٦٥ - ٢٥٥	أنا .. وانت !
٢٧٢ - ٢٦٦	من قلوب الأمهات خرجت موسيقى الخنافس
٢٧٨ - ٢٧٣	القرود والسلسلة والقروداتى
٢٨٣ - ٢٧٩	لولا سلامك سبق كلامك

كتب للمؤلف

- ٢٦ - من روائع الادب الايطالى .
- ٢٧ - من اول نظرة .
- ٢٨ - الاحياء المجاورة (مسرحية كوميدية)
- ٢٩ - حاكم يا شيخ علام (مسرحية كوميدية)
- ٣٠ - مين قتل مين ؟ (مسرحية كوميدية)
- ٣١ - جمعية كل واشكر (مسرحية كوميدية)
- ٣٢ - طريق العذاب .

مترجمات :

- ٣٣ - هذه الصغيرة وقصص اخرى .
- ٣٤ - قصص ايطالية .
- ٣٥ - رومولوس العظيم (مسرحية) لفريدريش لديرغات .
- ٣٦ - هبط الملاك في بابل (مسرحية) لديرغات .
- ٣٧ - زواج السيد مسسبى (مسرحية) لديرغات .
- ٣٨ - الشهاب (مسرحية) لديرغات .
- ٣٩ - امير الاراضى البور (مسرحية) لماكس فريش .
- ٤٠ - بعد السقوط (مسرحية) لارثر ميلار .
- ٤١ - سواد عينيها (مسرحية) لجيرودو .
- ٤٢ - الامبراطور جـونز (مسرحية) لجيرودو .
- ٤٣ - فوق الكهف (مسرحية) لتنسى وليامز .
- ٤٤ - المثقفون (دراسات) .

مؤلفات

- ١ - وحدى .. ومع الآخرين .
- ٢ - الوجودية .
- ٣ - الوان من الحب . (الطبعة الثانية)
- ٤ - مدرسة الحب . (الطبعة الثانية)
- ٥ - عذاب كل يوم . (الطبعة الثانية)
- ٦ - مع الآخرين .
- ٧ - بقايا كل شيء . (الطبعة الثانية)
- ٨ - طريق العذاب .
- ٩ - عررى فلان (مجموعة قصص) (الطبعة الثانية)
- ١٠ - يسقط الحائط الرابع (الطبعة الثالثة)
- ١١ - كرسى على الشمال .
- ١٢ - ساعات بلا عقارب .
- ١٣ - وداعا ايها الملل ! (الطبعة الثانية)
- ١٤ - من نفسى
- ١٥ - شارع التنهدات .
- ١٦ - الخبز والحائط .
- ١٧ - الحائط والدموع .
- ١٨ - حول العالم في ٢٠٠ يوم (الطبعة السادسة)
- ١٩ - هى .. وغيرها (مجموعة قصص)
- ٢٠ - اليمن .. ذلك المجهول .
- ٢١ - بلاد الله . . خلق الله (الطبعة الثالثة)
- ٢٢ - قالوا (الطبعة الرابعة)
- ٢٣ - يوم بيوم .
- ٢٤ - دراسات فى الادب الأمريكى .
- ٢٥ - دراسات فى الادب الايطالى .

رقم الايصال ٥٦٤٥ / ١٩٧٠

الثلثون ٦٠ قرشا



دار الشعب مطبوعات		تصدر عن	الشعب	أخصائيون في المطبوعات العاجلة	عضو اتحاد المطابع
الإدارة: ٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة - ت ٣١٨١٠		مكتبة دار الشعب - ت ٢٩٩٩١			
التوزيع: مكتبة دار الشعب		الطابع: مطبعة ٣١٨١٠-٣١٨١٨-٣١٨١٩ دير النحاس - تليفون ٨٤٤٨١٠			
		رئيس مجلس الإدارة السيد إبراهيم			

١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م